بسم الله الرحمن الرحيم

«وَما تَوْفيقِيَ إلاّ بالله عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَإلَيْهِ أُنيبُ»

سورة هود، الآية 88

إهـــــــــــــــــداء

إلى كل ذي فضل عليَّ في إنجاز هذا البحث

إلى أفراد أسرتي الصغيرة الذين تحمّلوني طيلة مدة تهييء أطروحتي وعلى رأسهم زوجي

إلى أفراد أسرتي الكبيرة والأصدقاء والزملاء الأوفياء

وإلى الأساتذة الأجلاء الذين وفروا لي المادة العلمية ودعموني بتوجيهاتهم السديدة ورفعوا من معنوياتي

كلمة شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذين الجليلين فضيلة الدكتور عبد الله العماري الذي لم يبخل علي بتوجيهاته ونصائحه السديدة ورفعه من معنوياتي كلما أشكل علي موضوع البحث، وقد زاد تقديري لهذا الرجل الكريم والأمين بعد أن وضع مسؤولية الإشراف على أطروحتي في يد أمينة لن يكون سوى الدكتور الفاضل الحاج موسى عوني، الذي في حقيقة الأمر ضخ في بحثي دماء جديدة دفعتني إلى السعيمن أجل إتمام هذه الأطروحة. وذلك بفضل تجربته الكبيرة في ميدان البحث التاريخي وتواضعه، تمكنت من تجاوز معظم الصعاب التي كانت تعترضني،فلهما مني كلالشكر والتقدير، وأسأل الله العلي القدير أن يجزيهم خيرا عني وعن البحث العلمي.

ولن تفوتني هذه الفرصة لكي أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من أسدى إلي معروفا عند إنجاز هذا العمل. وأخص هنا بالذكر الدكتور سعيد بنحمادة و الدكتور محمد المرتضي والدكتور رشيد اليملولي الذين منذ أول يوم دعموني وشجعوني ورفعوا من معنوياتي لإخراج هذا العمل الذي أتمنى أن يشكل إضافة في ميدان البحث العلمي ولو بالنزر القليل.

محمد بن لحبيب لوعراك

لائحة المختصرات

ت: توفي

مج: مجلد

ج: جزء

م.س: مصدر أو مرجع سابق

هـ: هجرية

م: ميلادية

د.ت: دون تاريخ

ط: طبعة

ع: عدد

[ ]: إضافة حرف أو كلمة

(...): حذف عبارة من النص

P = page

PP = depuis la page jusqu'à la page

Op.cit = Opus citatum «ouvrage cité»

T = tome

Vol = volume

مقدمـــــــة

إذا كانت أهمية حقل التاريخ في حياة الشعوب والأمم، لاستلهام عناصر الهوية والعمق الحضاري والاستفادة من دروس الماضي، أمرا لا يتم الواجب إلا به، فإن اختيار موضوع من حجم"تجربة سياسية وحدوية" امتدت بين القرنين الخامس والسابع الهجريين (ق.11 و 13م) ومجالها العام بلاد الغرب الإسلامي، يبدو في أول الأمر مغامرة في ميدان البحث التاريخي الأكاديمي بالنسبة لطالب باحث مبتدئ، وذلك بالنظر لما يشغله هذا الموضوع أولا من حيّز زمني كبير ومجال شاسع أخذ صفة الإمبراطورية. وثانيا لاعتراف أحد أقطاب البحث الرصين من أن «التجارب الوحدوية الوسيطية لم تطرح كإشكالية علمية مستقلة بعدُ»[1]. لكن إيمانا منّا بأن حقل البحث التاريخي الأكاديمي يستوعب كل من له إرادة قوية للانخراط في عملية البحث، قررت الغوص في جانب من التاريخ المغاربي والأندلسي من خلال موضوع "التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين" بهدف استلهام دروس الماضي والوقوف على عوامل النجاح والفشل الانتصار والهزيمة، الوحدة والانقسام .. . بما يجعل لدرس الماضي معنى في حاضرنا وليس درسا في الترف الفكري.

في أول الأمر كان فكرة البحث في إشكالية "التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين" مركزة حول البحث في عوامل أفولها وعلاقة ذلك بضياع الأندلس، لكنني اقتنعت بتأجيل هذا المشروع البحثي الذي أردت أن أجعل منه مشروع بحث مستقبلي يكون امتدادا لموضوع هذه التجربة التاريخية. وقد استقر الرأي على البحث في جذور قيام هذه تجربة توحيد الغرب الإسلامي، وكذا سياقاتها المختلفة ثم تجلياتها، وذلك في حدود ما تسعفني به المادة المصدرية من جهة، وما أستأنس به من مقاربات وآراء الدارسين في الموضوع من جهة ثانية. وهنا سيتساءل السائل عن علاقة موضوع قيام هذه التجربة الوحدوية زمن المرابطين وتطورها زمن الموحدين، مع محاولات سياسية جنينية شهدها

(1)- القبلي محمد، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1987، ص7.

هذا المجال منذ القرن الثاني الهجري(ق.8م)، على يد حكام إمارات صغيرة من مثل إمارة الأدارسة؟

فقد ظهر أن تجربة وحدة الغرب الإسلامي بداية من أواخر القرن الخامس الهجري(ق.11م) لم يأت من فراغ، سواء في علاقة مع ما حسبناه إرهاصات أولى لتوحيد مجال المغرب "الأقصى" خلال القرن الثاني الهجري(ق.8م)، أو في المقابل ما ميز بصفة عامة الواقع السياسي المتهرئ داخل البلاد المغاربية والأندلس، والذي على أنقاضه قامت التجربة السياسية الوحدوية للغرب الإسلامي عصر المرابطين والموحدين. ولعلنا نعي بأن الحذر في دراسة هذا الموضوع في إطار مقاربة سياسية مجالية، ظل قائما طيلة مراحل البحث بأبوابه الثلاثة، تجنبا للسقوط في فخ التحليل غير العلمي في تأويل الإشارات المصدرية، ولي عنق مضامين الوثيقة التاريخية لخدمة موضوع البحث.

دواعي وأهداف الاختيار

تعود أحد الأسباب الرئيسة في اختياري لموضوع "التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين – دراسة مقارنة"، العملية الواسعة التي يشهدها البحث التاريخي العلمي في بلاد المغرب، والتي أبان خلالها دارسون متعددون عن اهتمام كبير بالذاكرة التاريخية المغاربية، التي هي في حاجة لترميم الأعطاب التي لحقتها خلال مرحلة الاحتلال الأجنبي، الذي كرس كل ألوان التغريب والجهل وإحداث القطيعة بيننا وبين تاريخنا الحضاري، وذلك من خلال تشويهه في الأذهان. علما أن احتكاك الممالك النصرانية بالمسلمين في الأندلس وحوض البحر المتوسط أسهم فيما يبدو في خروج أوربا القروسطوية من غيابات عصورها المظلمة.

هنا نحسب أن حكم المرابطين والموحدين للأندلس مثل تحديا للنصارى وولّد لديهم استجابة، تجسدت في التعامل بجدية مع الواقع الجديد الذي فرضته تجربة توحيد الأندلس على يد حكام العدوة الجنوبية، والذي كان مدعاة لهم لتوحيد صفوفهم. وإذا كان اختياري قد وقع على موضوع أحسبه ينتمي للمواضيع التي تتحلى بثوب الجِدّة، وله علاقة بموضوع الراهنية الذي تنص عليه أدبيات البحث التاريخي الأكاديمي، فإنني في الآن نفسه أَجدني

متفاعلا من خلال موضوع "التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين" مع ثلة من الأقطاب المؤسِّسين للعمل التاريخي الرصين في بلاد المغرب، من أمثال محمد القبلي الذي ينطلق من ضرورة استجلاء كل العلاقات المتشابكة الدائرية التي حددت كثيرا من معالم الواقع التاريخي والمسار الحضاري لمجتمعنا(2). كما يرى القادري بوتشيش في المرابطين أنهم أصحاب التجربة الوحدوية "الأم"على صعيد المغرب العربي، كأهم مشروع تبنته الحركة المرابطية، والذي من وجهة نظره كاد أن يُهمل بالمرّة، مع أنه شكل حجز الزاوية في برنامجها السياسي»(3).

إن أحد الأسس التي اعتمدناها في بحثنا لتجسيد أهمية التجربة الوحدوية خلال العصر الإسلامي الوسيط، التركيز على محاولة استجلاء ما يمكن أن يكون قد شكل إرهاصات أولى لتجربة المرابطين والموحدين السياسية هذه، من خلال رصد العمق التاريخي للدولة المركزية في بلاد المغرب منذ زمن الأدارسة، وهو ما يؤكده محمد القبلي الذي يرى أن العودة بعيدا إلى الوراء، هو نوع من التجذير العلمي – الحضاري، والذي أسهمت فيه مثل هذه المحاولة رغم محدوديتها على التقريب بين الماضيّيْن القريب والبعيد(4).

ولعل من بين الأهداف الرئيسة التي وضعناها لموضوعنا، تقريب محطة بارزة من تاريخ تطور الدولة المركزية من الأذهان، وذلك في بعدها المجالي خلال العصر المغاربي الوسيط، بما يمكن أن يخدم موضوع الهوية الجماعية للمنطقة المغاربية سياسيا وحضاريا. أما بخصوص الأهداف العامة فيمكن أن نوجزها في أهمية وضع التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي في سياقها التاريخي، لأجل استيعاب دور المرابطين والموحدين في تقديم بديل سياسي كان وراء توحيد مجال شاسع اكتسى طابع التدرج والمرحلية، بعيدا عن دور الصدفة في ولادة هذا المشروع السياسي وتطوره.

---

(2)- القبلي محمد، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، سلسلة المعرفة التاريخية، ط.1، 1997م، ص20.

(3)- القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط.1، أيلول(سبتمبر) 1994، ص63 – 64. لذلك يرى أن «الحاجة ماسة إلى دراسة هذا المشروع الوحدوي لا كمشروع سياسي معزول عن الظاهرات التي أفرزته، بل كبنية متكاملة مؤطرة في سياق منظومة شاملة لها قوانينها وآلياتها» المرجع نفسه والصفحة.

(4)- القبلي محمد، الدولة والولاية والمجال، م.س، ص8.

إشكالية البحث :

تركز اهتمامنا على صياغة الإشكالية الرئيسة لأطروحتنا كبوصلة في تحديد منهجية بناء موضوع البحث، الذي نريد الكشف من خلاله عن طبيعة تجربة وحدة الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين، ضمن واقع الصيرورة التاريخية للدولة المركزية في أقصى غرب العالم الإسلامي. وذلك بغية تقييم درجة التطور الإيجابي أو "القطيعة" في مسلسل التجربة. وبناء عليه، **هل نحن أمام تجربتين مختلفتين شكلاً ومضمونا بالنظر لاختلاف نظام الحكم المرابطي والحكم الموحدي؟** بما معناه أننا أمام نوع من "القطيعة" بين عصرين. **أم هي تجربة واحدة تجسد واقع استمرارية مشروع الوحدة زمن المرابطين والموحدين؟** ومن تم نكون أمام طفرة سياسية كبيرة في تاريخ المغرب الوسيط، بما يرمز إليه من استمرارية وتطور إيجابي في بناء كيان الدولة المركزية الموحدة وحاضرتها مراكش؟ قبل أن نجد أنفسنا أمام عملية انحسار بدأت إرهاصاتها مع هزيمة العقاب عام 609هـ/1212م، وتجلت معالمها البارزة زمن بني مرين، لتتحول بعد ذلك بوصلة الدولة بالمغرب الأقصى، نحو البحث عن علاقات جديدة في اتجاه الصحراء الكبرى كعمق سياسي و"استراتيجي" وحضاري. وتتفرع عن إشكاليتنا الرئيسة إشكاليات فرعية نلخصها كالتالي:

- هل التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين هي وليدة تدبير وتخطيط لإيجاد بديل سياسي انطلاقا من أرض النشأة ثم الانتشار والتوسع إقليميا وجهويا ثم قاريا بعد العبور نحو العدوة الشمالية؟

- هل بروز حكم عصبيتين قبليتين من حجم صنهاجة الجنوب ومصامدة جبل درن وتوسيع تجربة حكمهما داخل بلاد العدوتين، أملته تحركات عشوائية لا معنى فيه للحدود، وهو ما يفهم منه أننا أمام نظرية الصدفة في ولادة تجربة وحدة الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين؟

- أم أن موضوعا من حجم التأسيس لنظام حكم سياسي بديل إنما اتخذت قراراته بوعي كبير بعد أن أملته تطلعات المرابطين والموحدين لتحقيق وحدة سياسية ومذهبية تجعل التراب المغاربي منيعا عن كل غزو خارجي؟

- هل توحيد المجال زمن المرابطين والموحدين تمّ في إطار هاجس سياسي تحت شعار الإصلاح والتغيير، والذي يهدف إخراج المنطقة من وضع الانقسام الداخلي الذي جعلها عرضة لتحكم العنصر الخارجي؟ أم أن عملية التوسع والتمدد داخل مجال شاسع أملته دوافع مذهبية وأخرى اقتصادية كانت محكومة بهاجس التحكم في تجارة الصحراء والقيام بدور الوسيط التجاري مع أوربا المسيحية؟

- وأختم بسؤال مؤرق وهو : هل كانت الأندلس أحد العوامل الرئيسة في أفول أول تجربة سياسية مغربية من حجم ما صنعه المرابطون والموحدون في بلاد الغرب الإسلامي؟

منهج الدراسة:

حاولنا مقاربة "التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين" في بُعدها السياسي- المجالي، من خلال توظيف مجموعة من آليات البحث التاريخي العلمي، ابتداء بالمنهج الوصفي الذي يهتم بتزويدنا بمجموعة من المعارف حول الظاهرة التاريخية قيد الدراسة، ووصف أحداثها بتفصيل مع وضعها في إطارها الصحيح والتي على أساسها تجتمع لدينا المعطيات التي نخضعها لمنهج التفسير والمقارنة بما يثار من أسئلة في الموضوع. كما اعتمدت المنهج الاستقرائي الذي يقوم على التحليل والتركيب والتمييز بين الثابت والمتحول، وبين الظرفي والبنيوي.

وإذا كانت المصادر بمختلف أصنافها هي السبيل لإعطاء البحث صفته العلمية، فإننا تعاملنا مع الإشارات المصدرية بمنهج الحذر والحيطة والتمحيص، من خلال إخضاع الوثيقة التاريخية المصدرية للقراءة العقلانية لأخذ المفيد منها، وترجيح ما هو أقرب إلى الحقيقة التاريخية في بعدها النسبي، مع مراعاة معيار معاصرة المصدر للأحداث من عدمه. هذا إلى جانب إخضاع الإشارات المصدرية حول نفس الحدث لمنهج المقارنة قصد تشريحه والكشف عنه. وهنا نذكر أننا اعتمدنا بشكل رئيس على كتب التاريخ العام وكتب الجغرافيا وكتب التراجم والمناقب والمصادر التاريخية الأدبية، لما تختزله من مادة تاريخية تساعد على توسيع دائرة الفهم للحدث وتوثيقه وإعطائه مصداقية. وإذا كانت القيمة العلمية لأحداث التاريخ رهينة بتعدد آليات ومناهج البحث، فإننا اعتمدنا في تفسير الأحداث التاريخية

لموضوعنا، على معظم العوامل الفاعلة داخله بشكل توفيقي دون السقوط في فخ ربط موضوع قيام تجربة وحدة الغرب الإسلامي وتطورها في سياقاتها وتجلياتها. وفي الوقت نفسه أخضعنا موضوع توحيد مجال شاسع من حجم بلاد الغرب الإسلامي لواقع المرحلية والتدرج.

وإذا كانت الدراسة المقارنة التي اعتمدناها إطارا عاما لموضوع التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين تجد ترجمتها في الهيكل العام للموضوع المتضمن في فهرس المحتويات، فقد خُصص الفصل الأخير من البحث لإبراز مختلف أوجه التشابه والاختلاف في هذه التجربة.

الدراسة البيبليوغرافية

إن أهمية المصادر التاريخية بمختلف أصنافها، هي أحد الأسس التي تمنح البحث التاريخي صفته العلمية، إذ تقربنا من مجريات الواقع التاريخي، بحيث لا يخفى علينا أن أصحاب المصادر المعتمدة كانوا يكتبون بخلفيات معينة في ظروف سياسية محددة، علما أن منهم من عمل كاتبا للملوك والأمراء والولاة. وقد تعاملنا مع معظم تلك المصادر بوصفها وسيلة توفر إشاراتها إمكان طرح فرضيات الموضوع و فحصها و التدقيق فيها، و تفكيكها و مقارنتها بما يخدم إشكالية العمل. وتقديم خلاصات قابلة للنقد وإعادة البناء، دون التعسف على الرواية بتأويلات تجانب البحث التاريخي الرصين.

ولكي يتخذ البحث صفة "الموضوعية"، وظفت مناهج البحث المتعددة، تعاملت مع المصادر على أساس أنها ناقلة لأخبار بعيدة زمنيا، مما يقتضي الحيطة والحذر. وقد اعتمدنا قي تأطير هذا الموضوع على مُصنّفات تاريخية مختلفة:

1/ المصادر الكلاسيكية

ـــ **المصادر المغربية والأندلسية**: نقصد بها كتب التاريخ العام، ك"المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبد الواحد المراكشي و"البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذاري المراكشي و"روض القرطاس" لابن أبي زرع الفاسي. و"كتاب العبر"لابن خلدون

و"الاكتفاء" وتاريخ الأندلس" لابن الكردبوس، ثم "المقتبس" لابن حيان القرطبي، و"التبيان" لعبد الله بن بلقين و"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام، و"قلائد العقيان ومحاسن الأعيان" لابن خاقان، و"أعمال الأعلام" لابن الخطيب، و"الحلل الموشية" لمؤلف أندلسي من أهل القرن 8هـ/14م و"نهاية الأرب" للنويري و"نفح الطيب" للمقري...

قدم لنا "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" (خاصة قسم المرابطين وقسم الموحدين) لابن عذاري المراكشي، مادة مصدرية مهمة غطت أهم أحداث المرحلة التاريخية التي تناولنا فيها بالدرس والتحليل والتركيب مراحل قيام وتطور تجربة توحيد مجال الغرب الإسلامي. خاصة موضوع تأسيس حركة المرابطين على يد عبد الله بن ياسين منذ سنوات 447هـ و448هـ،(1055- 1056م) بالجنوب المغربي، ثم دور أبي بكر بن عمر و يوسف بن تاشفين في التأسيس لمشروع توحيد المغرب الأقصى. مقابل دور المهدي بن تومرت في قيادة عملية التغيير وإفشال تجربة المرابطين في الحكم، ثم دور عبد المؤمن في التأسيس لمرحلة جديدة من تجربة الوحدة.

وقد تميز هذا المصدر إلى جانب الحلل الموشية لمؤلف مجهول، بمساعدتي على ضبط "كرونولوجيا" الأحداث، التي يظهر أنها أقرب إلى الفهم في تتبع مسار إخضاع المرابطين ثم الموحدين بعدهم حواضر المغرب الأقصى، التي شكلت السيطرة عليها مفتاح الجواز إلى بلاد العدوة الشمالية. مع وضع مجال المغرب "الأوسط" وإفريقية، ضمن أجندتهم السياسية المجالية من زاوية رؤية خاصة بكل من دولة الإصلاح المرابطية ودولة النظم الموحدية. وبالمناسبة فقد اعتمدت على أجزاء البيان المغرب بكاملها رغم التركيز على قسم المرابطين وقسم الموحدين لعلاقتهما المباشرة مع موضوع الدراسة. وهنا أشير إلى أمر مهم يتعلق بالخروم التي تكتنف بعض الأجزاء[5] والتي بسببها ضاع الخيط الناظم لمجموعة منالأحداث المتعلقة بمرحلة ضم المرابطين للأندلس. وإذا كان ابن عذاري يتميز عن ابن خلدون بذكر مصادره التي كان بعض أصحابها معاصرين للأحداث والتي أكسبت "البيان

(5)- في الجزء الرابع الخاص بتاريخ المرابطين، وجدنا بياضا حجب أحداث مرحلة تاريخية بارزة من تاريخ المغرب والأندلس. والتي تبتدئ بحدث مهم من حجم معركة الزلاقة إلى حدود 495هـ/ 1102م، والتي حينها كان المرابطون قد أتموا ضم الأندلس بكاملها إلى حكمهم باستثناء سرقسطة.

المغرب" نوعا من الحجية والمصداقية، إلا أننا لاحظنا مبالغته في الحياد وهو يؤرخ لأحداث العصر الموحدي.

أما "روض القرطاس" لابن أبي زرع الفاسي، فقد أفادني بمعلومات تاريخية غزيرة حول المراحل التي تضمنتها مقاربتي السياسية المجالية، سواء تعلق الأمر بتاريخ الأدارسة الذي من خلاله حاولنا استنباط ما حسبناه إرهاصات أولى للتجربة الوحدوية التي شكل المغرب "الأقصى" منطلقا لها، أو ما همّ مراحل إنهاء المرابطين واقع الانقسام السياسي داخل مجال المغرب الأقصى وتوحيده، قبل أن ينهي الموحدون حكمهم داخل الحواضر الكبرى.

أما ابن خلدون فقد استرشدنا به في موضوع أحد أبرز مقومات الوحدة في المقدمة ويتعلق الأمر بموضوع العصبية القبلية كأحد ثوابت قيام الدولة في العصور الإسلامية الوسطى، مقترنة بدور الدين الإسلامي في تقوية اللحمة الداخلية. بينما تتبعنا معه إشارت كثيرة في الجزء الرابع والسادس، لها علاقة بمراحل قيام وتطور التجربة. إلا أن الجانب "الكرونولوجي" الذي أطّر به ابن خلدون وإلى جانبه ابن أبي زرع، أحداث تمهيد المرابطين حواضر المغرب الأقصى، بدا لنا فيه الكثير من الخلل من حيث ضبط تاريخ السيطرة عليها[6]. كما أننا نحس بأن المنهج العلمي الذي أَطّر به ابن خلدون المقدمة، لم يتقيد به أحيانا كثيرة في الجزء السادس ــ رغم أنني اعتمدت عليه بشكل كبير في علاقة المرابطين والموحدين بمجال بني حماد وبني زيري ــ حين نجد معلوماته التاريخية حول التاريخ المغاربي فيه كثير من الإطلاقية والتعميم والإطناب.

اهتممنا أيضا في بحثنا بالمصادر الرسمية للموحدين (رسائل موحدية : بروفنسال والعزاوي) وكذا الشبه رسمية : "أخبار المهدي" للبيذق و"المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة، و"نظم الجمان" لابن القطان. فقد قربتنا هذه المصادر من مجموعة من الأحداث المهمة رغم تحيزها الشديد للموحدين، باعتبارها وجها للدعاية الموحدية فيما نحسب. هذا

(6)- من الإشكالات التي تواجه الباحث في مواضيع تاريخ المغرب خلال العصور الإسلامية الوسطى، الاختلاف الكبير بين المصادر في موضوع كرونولوجيا الأحداث التاريخية التي شهدتها المرحلة التي نخصها بالدراسة، وهو ما يربك الفهم السليم في تتبع مجريات الأحداث، ولهذا كان من الضروري أن نستأنس بحذر مع التواريخ التي تحددها تلك المصادر، وإخضاعها لمنهج المقارنة وضبط السياقات التاريخية التي رافقت تلك الأحداث من خلال ربط السابق باللاحق.

إلى جانب اعتمادي كتاب "المعجب" للمراكشي، الذي سجلنا على صاحبه القفز على عدد من الأحداث التي تهم تاريخ المرابطين، وغضّه الطرف عن أساليب وصول الموحدين إلى الحكم. هذا إلى جانب ما سجلناه عليه من ارتباك في ضبط تواريخ بعض الأحداث البارزة. إذ كيف نُصدّق مثلا حديثه ـــ وهو الأقرب زمنيا من ابن عذاري وابن أبي زرع وابن خلدون ـــ عن سيطرة عبد المؤمن على مجال بني حماد الصنهاجيين، وهو ما زال لم يخضع مراكش حاضرة المرابطين.

وبالرجوع إلى المصادر الأندلسية، سنقصر الحديث عن أهمية ما أفادنا به مؤرخا الأندلس ابن حيان وابن بسام اللذين مثّلا مصدرا مهما من مصادر صاحب البيان المغرب، وقد ركزت على القسمين الثاني والرابع، اللذين من خلالهما واكبنا السياق التاريخي الأندلسي لما قبل قيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين.وإلى جانبه اعتمدت على مذكرات الأمير عبد الله ابن بلقين (التبيان)وهو الذي عاصر أحداث بارزة من حجم معركة الزلاقة وقرار إزاحة ملوك الطوائف عن الحكم. كما استفدنا من صاحب القلائد على مستوى ذكره لبعض الرسائل المرابطية التي تكتسي أهمية كبرى، خاصة على مستوى علاقة المرابطين ببني حماد في المغرب "الأوسط". كما أن مصدرا مثل الحلل الموشية الذي سبق ذكره اهتم بتاريخ المغرب كقاعدة لانطلاق تجربة توحيد المجال على يد المرابطين، وأهمية العلاقة التاريخية التي جمعت الأندلس بالعُدوة المغربية.

كما استأنسنا بأعمال الأعلام لابن الخطيب الأندلسي كمصدر أندلسي لا غنى عنه للباحث في تاريخ الفترات السابقة من تاريخ الأندلس. وإذا كان القسم الثالث من "أعمال الأعلام" قد جلب نظرنا تحت عنوان: تاريخ المغرب العربي[7]، فإنه لم يفدنا كثيرا بما كنا نراهن من خلاله على تقديم تصور جديد في قضية الامتداد المجالي للتجربة الوحدوية، وبالتحديد من خلال علاقة المرابطين ببني حماد. إلى درجة أن بعض الدارسين المعاصرين اعتمدوا

(7)- نشير هنا إلى أن العنوان الأصلي للكتاب هو "أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام"، وإذا كان ولابد من عنوان فرعي/ ثانوي، فينبغي أن يأتي بعد العنوان الأصلي، ويبدو لنا أن العنوان الذي تبناه المحققان، وهو "تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط"، يوحي بنوع من التعصب، ولا يتناسب مع المعطيات التاريخية للفترة موضوع الكتاب.

إشارة مصدرية لابن الخطيب وأسقطوها على مراحل متقدمة من علاقة المرابطين ببني حماد والتي تضع الملثمين في موقف ضعف أمام الحماديين.

ب/ أما بالنسبة للمصادر المشرقية ممثلة في كتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير (630هـ/ 1232م) و"نهاية الأرب"[8] للنويري، جاء استئناسنا بها من خلال معرفة وجهة نظر مَن كتب من القدامى في بلاد المشرق عن تاريخ الغرب الإسلامي. ويبدو أن أهمية هذا الأمر يرجع فيما نحسب إلى اهتمام جمّ من المثقفين المشارقة بتاريخ المغرب والأندلس. ويأتي اعتمادنا على هذين المصدرين في إطار تنويع مصادرنا بما له علاقة بموضوع بحثنا. فقد أفادنا كل من كتاب "الكامل" و"نهاية الأرب" فيما حصلناه من إشارات مهمة من تاريخ الأندلس وبلاد المغرب الكبير خاصة زمن الموحدين. وذلك فيما يتعلق بدخولهم المجال الحمادي والمجال الإفريقي الذي شهد اندثار حكم بني زيري واستيلاء نصارى النورمان على المهدية.

2/ كتب المناقب: اقتصرنا فيها على كتاب "التشوف" لابن الزيات و"أنس الفقير" لابن قنفذ و"سلوة الأنفاس" للكتاني. وقد جاء تركيزنا على هذا النوع من المصادر في المبحث الخاص بالمقوم الديني والعلاقات الثقافية والعلمية، وذلك بما مثلته فئة عريضة من الفقهاء والعلماء والزهاد من أدوار علمية وسياسية واجتماعية في حياة الناس، وهم الذين نوهت كتب المناقب بسيرهم من حيث أدوارهم التعليمية داخل بلاد العدوتين، خاصة وأنهم يمثلون الوجه العملي للتدين الصحيح، والذين بتنقلاتهم بين بلدان بلاد المغارب وعدوة الأندلس، قدموا لنا ضمنيا الوجه العملي للذهنية السائدة آنذاك التي لا تؤمن بوجود حدود سياسية داخل دار الإسلام. وهذا في حد ذاته مظهر من مظاهر الوحدة. وعندما تشهد كتب المناقب وكذا كتب التراجم على تقلد فقيه وعالم منصب القضاء في مدن وحواضر متعددة من بلاد

(8)- يعتبره المهتمون بحقل التاريخ عملا يجمع بين التاريخ والجغرافيا والأدب وعلوم الدين وتراجم الرجال. وقد اكتفينا فيه بما تضمنه الجزء الرابع والعشرون من مادة تاريخية شاملة لتاريخ المجال الجغرافي والسياسي الذي نحن بصدد البحث فيه عن بعض ملامح التجربة السياسية الوحدوية التي شهدها الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين. وإلى جانب أهمية ما كتبه النويري حول تاريخ المغرب والأندلس، لاتخفى أهمية هذا المصدر في تراجم الرجال والأماكن.

المغرب الكبير والأندلس، فإن هذا معناه وحدة قضايا المجتمع ووحدة النازلة. ومع ذلك فإن كتب المناقب قليلا ما تفصح لنا عن مواقف سياسية بارزة لعلماء وفقهاء بلاد الغرب الإسلامي ومدى مساهمتهم في واقع ترسيخ التجربة الوحدوية، لكن التشوف على وجه الخصوص كان حافلا بالمواقف المضمرة زمن الموحدين والتي تهم ظاهرة التصوف التي بدأ يستفحل دورها.

3/ كتب التراجم:

إلى جانب كتب الحوليات التاريخية والرسائل الديوانية هناك كتب التراجم التي تُعدّ صنفا آخر من المصادر التاريخية ذات الأهمية الكبيرة للباحث خاصة عندما لا يجد الباحث في الأصناف الأخرى ما يدعم به آراءه ومواقفه.علما أن تراجم الرجال وجدناها تتضمن إشارات سياسية لها علاقة بموضوع تجليات التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي. ومن بين أهم ما اعتمدنا عليه في وصف واستنباط تلك الإشارات كتاب "التكملة لكتاب الصلة"(ج1) والحلة السيراء[9] كمصدر رئيس لمرحلة حكم الموحدين.

وهناك أيضا "المعجم في أصحاب القاضي علي الصدفي"، وهذه المصادر الثلاثة هي من تأليف ابن الأبار القضاعي البلنسي. وهناك "صلة الصلة" لأبي جعفر الغرناطي، والذي يخص تراجم رجال الأندلس. ويعد هذا المصدر تكملة لكتاب "الصلة" لابن بشكوال الذي يُعد مصدرا مهما، وذلك بما اشتمل عليه من وثائق تاريخية، تعد من أهم ما يعتمد عليه في تاريخ المغرب والأندلس، سيما في عهد الموحدين. هناك أيضا "الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة":(ج.1 و ج.6) لابن عبد الملك، الذي أراد أن يجعل من مُؤَلّفه ذيلاً على كتاب الصلة لابن بشكوال، هذا الأخير الذي ذيّل به "تاريخ علماء الأندلس والطارئين عليها"، للحافظ أبي الوليد ابن الفرضي. استفدنا كذلك من كتاب "الديباج المذهب" لابن فرحون و"تاريخ قضاة الأندلس" للنباهي الذي سماه كتاب "المرقبة العليا فيمن يستحق

(9)- كمصدر أندلسي يتضمن الأدب والشعر والتاريخ، والتي تمحورت أحداثه حول أخبار المغرب والأندلس منذ الفتح العربي الإسلامي حتى منتصف القرن السابع الهجري. ، عاصر صاحبه بداية انحسار الدولة الموحدية وضياع بلنسية عام 636هـ على يد ملك ارغون، وهو ابن المدينة. لعل ميزة ابن الأبار أنه يذكر مصادره سواء المشرقية أوالمغربية أوالأندلسية.

القضاء والفتيا" و"طبقات الأطباء" لابن أبي أُصيْبعة أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"الإحاطة "لابن الخطيب و"نيل الابتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا التنبكتي.

لقد أفادتنا كتب التراجم بشكل كبير في المبحث الخاص بتجليات التجربة الوحدوية زمن الموحدين من أجل تأكيد استمرارية تجربة وحدة الغرب الإسلامي، في تتبع نشاط مجموعة مهمة من فقهاء المالكية في سلك القضاء الموحدي. فمن خلال كتب التراجم تبين أن عبد المؤمن استقطب عددا من فقهاء المذهب المالكي للاشتغال في خطط دولة النظم الموحدية وعلى رأسها خطة القضاء، بما أفادنا في جزء من الإشكالية الرئيسية لموضوعنا، من حيث هي تجربة واحدة أم تجربتان. ويبدو أن تركيزنا في هذا الموضوع على كتب التراجم لا يعني أننا استغنينا عن كتب التاريخ العام، إذ باعتمادنا على رسائل موحدية، أو كتب التاريخ العام كالمعجب والبيان أمكننا التوسع في فكرة استعانة الخلفاء الموحدين بالقضاة المالكيين.

4/ النوازل الفقهية

كان الاعتماد على كتب النوازل خاصة "فتاوى ابن رشد" والتي تتضمن بعض مشاكل وقضايا المجتمع بكل فئاته، كالمسائل التي شغلت بال الأندلسيين وعامة المسلمين في بلاد الغرب الإسلامي. وقد تكون علامة بارزة على وحدة مجتمع العدوتين الذي تتشابه قضاياه السياسية والاجتماعية والاقتصادية. في الإطار نفسه اعتمدنا على بعض الإشارات من كتاب "المعيار" للونشريسي حول فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، بما له علاقة بالقضايا التاريخية في بلاد المغرب والأندلس. كما أمكن الاستئناس بما ورد في فتاوى ابن تيمية في تحديد دور القضاء والقضاة في بلاد المغرب في حل مشاكل الرعية وفي تحديد سياسة الدولة على مستوى تنظيم الحرب والجهاد.

6/ كتب الجغرافية التاريخية:

لا يخفى على الباحث في التاريخ قيمة حضور المصادر الجغرافية في البحث التاريخي لما لها من فائدة في تقديم مادة علمية ندعم بها أفكارنا وآراءنا فيما له علاقة بموضوع

البحث. في هذا الإطار اقتصرت على المسالك والممالك للبكري، الذي يُعد من بين أبرز جغرافيي المغرب الإسلامي ممن ينتمون إلى القرن الخامس الهجري (ق.11م) ثم"وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية" المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي، ووصف إفريقيا للحسن الوزان وكتاب الاستبصار لمؤلف مجهول.

فإذا نحن اقتصرنا على هؤلاء الأعلام الجغرافيون بدرجة أولى، فلأنه من خلالهم تمكنا من إيجاد إشارات مهمة خاصة على مستوى ذكر أهم المميزات التي كانت تحظى بها حواضر بلاد الغرب الإسلامي والتي كان لمجموعة منها نصيب في علاقة مع موضوع التجربة الوحدوية، سواء من حيث تحديدها لأهم مظاهر امتداد المجال المغاربي والأندلسي جغرافيا كمجال واحد من إفريقية إلى طنجة يتحرك داخله الأفراد والجماعات انتجاعا ونشرا أو طلبا للعلم وتبادلا تجاريا. مما يشعرنا أن الذهنية المجتمعية آنذاك لم تكن تشعر بوجود حدود سياسية بين المناطق.

لقد تضمنت كتب الجغرافيا خلال العصر الإسلامي الوسيط ما يفيد وجود علاقة وثيقة بين حواضر مغاربية قامت بأدوار متميزة على كافة المستويات الاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية. لقد شكلت معظم تلك الحواضر ركائز متينة لقيام وتطور التجربة الوحدوية، انطلاقا من المغرب الأقصى، بما وفرته من قاعدة مادية للحكم ونشاط ثقافي وتجاري، جسدها اهتمام المصادر الجغرافية بالمسافات التي كانت تفصل تلك الحواضر والصلات الغير منقطعة فيما بينها، وما كانت تشتهر به من حيث الموقع الاستراتيجي على خط التجارة بين الصحراء والشرق. كما أمدّنا الروض المعطار كمعجم جغرافي، بمعلومات حول الموقف الشعبي وكذا الرسمي للأندلسيين في موضوع استنجادهم بالمرابطين، خاصة الدور الذي لعبه المعتمد بن عباد في خطْب وُدِّ يوسف بن تاشفين ولجوئه إلى القضاة البارزين لترغيبه في الجهاد

وأختم قائمة المصادر المعتمدة بملاحظة تتعلق بدور بعض المصادر ذات الطبيعة الأدبية والتي تحمل بين طياتها إشارات سياسية تحمل معاني الرفض المجتمعي لأنواع ظلم الحكام أو المفاضلة بين الأندلسيين والمغاربة. فإلى جانب دور الشعر في تقريبنا من أحداث ذلك

العصر، فإن "الأمثال " و" الأزجال" تعد صنفا آخر من المصادر ذات القيمة الكبرى في تاريخ الغرب الإسلامي. إذ شبه أحد الدارسين دور هذا الصنف من الأدب الشعبي بالمعاول المعرفية التي أسهمت في «تعميق الحفر وتوسيعه لما تتضمنه كتبهما من فعالية ونجاعة مصدرية»(10).

7/ بالنسبة للمراجع

أمكن الاعتماد على بعض الأعمال السابقة في مجال البحث التاريخي.و التي قدمت أرضية مفيدة في مقاربة بعض الجوانب النظرية والإشكالية المرتبطة بالعمل ، و توفير إمكان التساؤل و المناقشة إن على صعيد المغرب أو الأندلس، سواء تعلق الأمر بالتاريخ العام أو التاريخ الخاص.

والملاحظ أن تاريخ المغرب اكتسب أهميته على المستوى السياسي والحضاري مع ما تحقق مع المرابطين والموحدين من إنجازات سياسية وعسكرية وحضارية، رغم أن معظم الكتابات المشرقية تعزو للأندلس فضلا كبيرا للأندلس بالمقارنة مع العدوة الجنوبية على المستوى الحضاري. هذا دون تجاهل بعض الأعمال التي أعانتني في تتبع التاريخ السياسي للدولة الموحدين كما هو الشأن بالنسبة لميراندا، ولوتورنو الذي استفدت منه في فهم الكيفية التي نجح بها الموحدون في توحيد كل بلاد المغرب والأندلس.

وبالرجوع إلى محمد القبلي نذكر"مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط" الذي وفر لنا إمكان التساؤل عن التجارب الوحدوية الوسيطية باعتبارها إشكال علمي لم يدرس بعد. بالإضافة إلى "الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل" الذي أشار فيه إلى العلاقات المتشابكة الدائرية التي حددت كثيرا من معالم الواقع التاريخي والمسار الحضاري للمجتمع.

استفدنا كذلك مما كتبه كل من الأستاذ هاشم العلوي صاحب"مجتمع المغرب الأقصى" والأستاذ القادري بوتشيش الذي تقاطعنا معه في موضوع التجربة المرابطية الأم، وعز الدين جسوس صاحب موقف الرعية، ومحمد شقير. كما دعّمنا ما حصلناه من إشارات

(10)- بنحمادة (سعيد)، المجتمع والسلطة في المغرب والأندلس من خلال كتب الأمثال والأزجال، مجلة كان التاريخية، العدد 43، من ص 84 إلى ص101، مارس 2019. ص3.

تاريخية عن أعلام من الفقهاء والعلماء من خلال البحث في تراجمهم التي اهتمت بها أطاريح ومؤلفات معاصرة ك" فقهاء المالكية والتجربة السياسة الموحدية في الغرب الإسلامي " للخضر بولطيف، و"العلماء والصلحاء والسلطة" للمغراوي، وكتاب "النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى" لهوبكينز و"المهدي بن تومرت" لعبد المجيد النجار .. . لكن لابد من الإشارة في هذا المقام إلى ما استفدت منه من كتابات جيل مغربي جديد قادم بقوة إلى ساحة الفعل التاريخي، أذكر منهم مصطفى بنسباع و وسعيد بنحمادة ومحمد العمراني وعبد الحق الطاهري ومحمد البركة ورشيد اليملولي ومحمد المرتضي.

خطة البحث

اشتملت خطة البحث على مقدمة وفصل تمهيدي وتسعة فصول موزعة على ثلاثة أبواب وخاتمة :

تناولت في الفصل التمهيدي تجربة توحيد المغرب "الأقصى" زمن الأدارسة والتي حسبناها إرهاصات أولى لما سيتحقق من توحيد لمجال الغرب الإسلامي ابتداء من عصر المرابطين. **وهنا لابد من الإشارة إلى أننا أخذنا تجربة حكم الأدارسة نموذجا لتجارب أخرى سابقة ومعاصرة لهم كالإباضيين في تاهرت وبني صالح في بلاد النكور وبني مدرار بسجلماسة ثم دولة الأغالبة بإفريقية وصولا إلى تجربة دولة الخلافة الأموية بالأندلس.**

وعليه يمكن أن نحسب هذا الفصل سياقا تاريخيا بعيدا في الزمن، تضمن ظروف نشأة الدولة الإدريسية والتفاف جزء مهم من المكون البشري لبلاد المغرب "الأقصى" حول إدريس المؤسس بعد بيعة قبائل أوربة له، قبل أن تلتف حول ابنه إدريس الأصغر جموع جديدة من البربر والعرب خاصة القادمون من بلاد العدوة الشمالية. حينها تم تأسيس فاس كحاضرة سياسية جسدت أحد أبرز مظاهر الحكم المركزي خاصة بعد سيادة الأدارسة على جزء مهم من المجال المغربي.

في الباب الأول الذي قسمناه إلى ثلاثة فصول آثرنا التمهيد لموضوع التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين بتخصيص فصول هذا الباب للسياق التاريخي الذي في إطاره قامت وتطورت تجربة توحيد المرابطين والموحدين مجال الغرب الإسلامي.

فبالنسبة لسياق المغرب "الأقصى" تطرقنا في مبحث أول للوضع القائم قبل قيام الدعوة المرابطية، حيث عاش المغرب على وقع الانقسام السياسي وتردي الوضع الديني، بينما المبحث الثاني خصصناه للسياق الذي ظهرت فيه الدعوة التومرتية والذي كان متزامنا مع سريان تجربة وحدة العدوتين. بينما في الفصل الثاني اعتنينا بالسياق الأندلسي ما بعد سقوط دولة الخلافة في الأندلس، وهي الفترة التي تميزت بمظاهر الضعف والانقسام الداخلي خلال حكم ملوك الطوائف، انتهاء بسقوط طليطلة التي كانت إيذانا بسقوط الأندلس في يد نصارى الشمال ودخول المرابطين على الخط. بينما السياق الذي جاء فيه الموحدون إلى الأندلس تطرقنا فيه إلى تناقضات الوضع الداخلي في الأندلس أيام المرابطين وعلى رأسها الضجة التي شهدتها العدوة الشمالية نتيجة قرار إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي، هذا إلى جانب الوضع الذي يخص الجبهة العسكرية في الأندلس، خاصة بعد سقوط سرقسطة عام 512هـ/ 1121م.

تطرقت في الفصل الثالث المتعلق بالسياق المغاربي في مبحثين إلى الوضع السياسي داخل مجال صنهاجة الشمال قبل قيام دولة المرابطين والذي تميز بانقسام صف الصنهاجيين، أي بني زيري في إفريقية وبني حماد في بلاد المغرب "الأوسط"، ودور عرب مصر في تفتيت إفريقية وتكريس واقع التجزئة والانقسام. ثم في مبحث آخر تم التطرق للسياق الخاص بظهور الموحدين، والوضع الذي كان عليه المجال الزيري والحمادي خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري (ق.12م).

أما الباب الثاني فقد تضمن الحديث عن مقومات ومراحل التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين، إذ تضمن الفصل الأول مقومات قيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين، والذي أبرزنا فيه بعض مظاهر وحدة المجال الذي

ستقوم في أرجائه وحدة سياسية زمن المرابطين والموحدين، كما تم التطرق لدور العصبية القبلية كثابت في تاريخ الدول الوسيطية، من حيث الدفع اتجاه تحقيق وحدة سياسية ومجتمعية، في علاقة مع العامل الديني ونشاط الحركة الثقافية والعلمية التي يقودها علماء وفقهاء العدوتين، والتي ستلعب دورا بارزا في تهيئة الجو العام لتوحيد الصف خاصة أمام ما كانت تعاني منه الأندلس وبلاد إفريقية من تكالب نصارى الشمال والنورمان.

أما الفصل الثاني من الباب الثاني فقد خصصناه لمراحل تأسيس التجربة الوحدوية زمن المرابطين بداية بظروف نشأة التجربة الوحدوية انطلاقا من الجنوب المغربي ثم استراتيجية المرابطين في تمهيد حواضر المغرب الأقصى انطلاقا من مراكش وانتهاء بسبتة وطنجة شمالا وصولا إلى جزائر بني مزغنة شرقا. لنأتي إلى أهم مرحلة والمتعلقة بالإقبال الشعبي والرسمي على المرابطين بعد تهديدهم بالزوال على يد نصارى الشمال، بما حسبناه استنجادا للأندلس بالمرابطين كمقدمة لتحقيق وحدة العدوتين بعد إسقاط حكم ملوك الطوائف وضم الأندلس كمظهر من مظاهر الوحدة السياسية.

خصصت الفصل الثالث لمراحل تطور التجربة الوحدوية زمن الموحدين بداية بإسقاط حكم المرابطين داخل الحواضر المغربية، انطلاقا من وهران وانتهاء بمراكش

التي شهدت نهاية حكم المرابطين. بعد ذلك تم التطرق لموضوع ضم الموحدين لبلاد الأندلس كتركة للمرابطين من خلال الوقوف على دور النخبة الأندلسية في تمهيد بلاد العدوة الشمالية للموحدين وأهم التحديات التي واجهتهم في إعادة توحيد أجزاء الأندلس. أما الجانب الثاني الرئيس الذي اهتممنا به في موضوع التجربة الوحدوية زمن الموحدين، فقد تمثل في التركيز على دور الفقهاء المالكيين الذي لم ينته بانتهاء حكم المرابطين، بل لحاجة بدت لنا متبادلة بين هؤلاء الفقهاء والخلفاء الموحدين، شهدت مرحلة التمكين للموحدين حضورا بارزا لفقهاء المالكية داخل خِطّة القضاء الموّحدي، وهو ما حسبناه علامة على عدم حدوث قطيعة في مسارالتجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي، يمكن أن نعود فيها إلى موضوع الانقسام السياسي والمجتمعي الذي تخلصت منه البلاد بالشكل الذي كان عليه قبل عصر المرابطين والموحدين.

تطرقت في الباب الثالث والأخير لموضوع التجربة الوحدوية للمرابطين والموحدين على مستوى علاقتهم مع المغرب "الأوسط" وإفريقية، كمجال برز فيه حكم بني زيري وبني حماد الصنهاجيين، الذين جعلوا من المهدية والقلعة ثم بجاية عواصم لملكهما. وقد خصصت الفصل الأول لعلاقة المرابطين بمجال صنهاجة الشمال زمن إمارة المسلمين بداية بعلاقة المرابطين ببني حماد الصنهاجيين والتي قسمناها لمرحلتين أساسيتين، همّت المرحلة الأولى السياق الخاص لهذه العلاقة التي لم تتحدث عنها المصادر إلا بشكل جزئي، والتي كانت متزامنة مع تحقيق المرابطين وحدة المغرب "الأقصى".

أما المرحلة الثانية التي كانت متزامنة مع توحيد المرابطين لبلاد العدوتين. فخلالها وقفنا على بعض ملامح علاقة المرابطين ببني حماد من خلال رسالتين، الأولى تتعلق بسعي يوسف بن تاشفين للتقارب مع المنصور الحمادي من خلال رسالة تعزية. والثانية هي عبارة عن رسالة زجرية بعث بها يوسف بن تاشفين للمنصور الحمادي (أواخر ق.5هـ/ ق.11م). ثم بعد ذلك تطرقنا لموضوع التقارب بين المرابطين والحماديين زمن حكم تاشفين بن علي التي وُسمت بنوع من التقارب بالنظر للخطر الموحدي الداهم.

بالنسبة لتجليات التجربة الوحدوية الخاصة بالعلاقة التي جمعت بني زيري بالمرابطين مطلع القرن 6هـ/ ق.12م، فقد تجسدت من خلال الدعم المرابطي العسكري للحسن بن علي الزيري على وجه الخصوص، في مواجهة نصارى النورمان. إذ شهد العقد الثاني من القرن السادس الهجري (ق.12م) وصول الأسطول العسكري المرابطي إلى شواطئ صقلية، حسب ما استخلصناه من بعض المصادر.

أما الفصل الثاني من الباب الثالث فقد خصصناه لتجربة الموحدين في توحيد المجال المغاربي، من خلال الوقوف على ظروف دخول الموحدين عاصمة بني حماد وإنهاء حكمهم، قبل توجههم نحو إفريقية والعمل على إنهاء الوجود النورماني في المهدية عاصمة بني زيري، ثم الدخول في سياسة تقريب العرب منهم وتوحيد إفريقية، مع العمل على الحد من دور بني غانية في زعزعة وحدة المجال المغاربي زمن خلفاء عبد المؤمن. وختمنا الباب الثالث هذا بفصل ثالث قمنا خلاله بعمل تركيبي يهم تحديد أهم أوجه التشابه

والاختلاف في التجربة السياسية الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين، وذلك من حيث ظروف مجيئهما إلى الحكم والمقومات التي أسهمت خلال مرحلة التمكين والقوة، في بسط نفوذهما السياسي داخل مجال شاسع حققا من خلاله تجربتهم في توحيد بلاد العدوتين وصمود هذه الوحدة لأكثر من قرن وثلاثة عقود، قبل أن تبدأ مرحلة الانحسار وأفول التجربة والتي دشنا أحد أسبابها من خلال مقال نشرناه في مجلة محكمة، والذي سندشن به لبحث نخصصه لأهم أسباب أفول هذه التجربة السياسية والحضارية "الرائدة" خلال العصر المغربي الوسيط.

فصل تمهيدي: إرهاصـــــــات توحيـــد المجـال في المغـرب "الأقصـى" زمـن الأدارســة

موضوع استقرار إدريس الأول كأحد أفراد آل البيت و"كمضطهد سياسي" بين ظُهراني قبائل أوْربة[11]، والقبول به في مرحلة أخرى "زعيما سياسيا"وموحدا لجزء مهم من مجال المغرب "الأقصى"، تبدو معطيات في حاجة للتدقيق والتفسير من أجل التجذير العلمي لقضية العمق التاريخي لما سيشهده الغرب الإسلامي من نضج سياسي، والذي أفضى إلى وحدة بلاد العدوتين عصر المرابطين والموحدين. لهذا السبب اخترنا موضوع تأسيس الأدارسة إمارتهم ببلاد المغرب كنموذج لما حسبناه إرهاصات أولى لبداية دخول هذا الجزء في "دينامية" تجميع أجزاء مجاله المُشتت بين عدد من القبائل المحلية والإمارات الصغيرة، وصولا إلى بداية تَشكُّل الأسس الأولى للدولة المركزية[12] مع الإشعاع الذي سيصبح لحاضرة فاس.

لكن قبل التطرق لبعض ملامح الوحدة المجالية التي ستتحقق مع الأدارسة في شخص إدريس الأول وإدريس الثاني، وظهور فاس كمركز سياسي وحضاري، نرى من المفيد الإشارة في هذا التقديم وبشكل موجز إلى اختلاف وجهات نظر بعض الباحثين في مسْألة التّأصيل لنشأة وتطور المغرب "الأقصى"، ككيان سياسي. فقد أثبت البحث حسب أحد الدارسين «أن تاريخ المغرب عموما والمغرب الأقصى بوجه خاص لا يمكن فهمه ولا تفسيره إلا بالعودة إلى الجذور السابقة للعصور الإسلامية في تاريخه»[13]، وذلك بالنظر إلى وجود ممالك بربرية كانت قد «نشأت بالمغرب قبل ميلاد المسيح»[14]، معتمدا في ذلك على كتابات"سالوست" المؤرخ الروماني، صاحب المؤلف المشهور"حرب يوغرطة".

(11)- يختلف الباحثون في نطق الكلمة، فمنهم من يتحدث عن أَوَرْبة ومنهم من يقول وَرْبَة وإواريين أو إواريبلن.

(12)- كان تأسيس الأدارسة لمدينة فاس كعاصمة لملكهم حدثا بارزا في تاريخ المغرب"الأقصى"، وذلك بالنظر لما اكتسبته من ثقل سياسي وازن في التاريخ المغربي بعد أن أصبحت مركز اهتمام العصبيات القبلية والشرفاء الذين تعاقبوا على حكم بلاد المغرب، إذ مثّلت بلُغة بعض المصادر الجغرافية وكتب الحوليات قفلا يُعدّ فتحه رمزا لقوة السلطان. وبذلك أصبحت إلى جانب مراكش المشترك الثابت بين كل السلالات التي تعاقبت على حكم المغرب <<الأقصى>>.

(13)- هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العشر الميلادي ، مطبعة فضالة – المحمدية، 1415هـ/1995م، ج2، ص491.

(14)- شقير محمد، تطور الدولة في المغرب، إشكالية التكون والتمركز والهيمنة من القرن 3 ق.م إلى القرن العشرين، ط2، إفريقيا الشرق – المغرب، 2006، ص79.
أصحاب هذا التوجه يرون أن قيام الدولة المغربية أكثر عراقة حتى قبل مجيء الإسلام، ولا يمكن من وجهة نظرهم التأريخ لتطور الدولة المغربية انطلاقا من دولة الأدارسة الذي يعتبرونه طرحا أيديولوجيا مرتبطا بإعطاء التوجه الرسمي المشروعية للحكم في علاقة مع ظهور المرينيين سواء ما يهم الحكم المريني الذي لم ينطلق من دعوة دينية (أيديولوجية مذهبية) يدافع عنها، أو ما يهم كذلك مسألة ارتباط الحكم بالشرف في عهد السعديين والعلويين.

أما بالنسبة للعصر الإسلامي الوسيط، يرى محمد القبلي أن الوقوف عند الدول المركزية الكبرى، أي عند الدول المرابطية والموحدية والمرينية وقبلهم جميعا دولة الأدارسة[15]، يعتبره إقصاءً لِكيانات أخرى وبترًا متقادما يجب تداركه[16]، وذلك بأن «نضع نقطة البدء عند انتفاضة الخوارج بشمال المغرب سنة 122 للهجرة أو 740 للميلاد»[17]، مع ثورة ميسرة المضغري[18] الصفريِّ المذهب، الذي «بايعه البربر بالخلافة وخاطبوه بأمير المؤمنين»[19]. رغم أن المغرب اضطرم مرة أخرى «نارا وفشت نِحلة الخارجية في جميع قبائله»[20]. فكانت النتيجة أن ارتدت قبائل البربر على ميسرة هذا «فقتلوه وولوا عليهم مكانه خالد بن حميد الزناتي»[21]. ولعل هذا الواقع المضطرب عصر الخوارج هو الذي سيدفع صاحب معالم تاريخ المغرب والأندلس إلى الحديث عن الدولة الإدريسية بكونها «كانت بمثابة الخطوة الأولى في بناء الكيان السياسي والاجتماعي للمغرب الأقصى العربي المسلم»[22].

---

(15)- القبلي محمد، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، سلسلة المعرفة التاريخية، الطبعة الأولى، 1997، ص72.

(16)- المرجع نفسه، ص 73.

وجدنا أحد المهتمين بكتابات السوسيولوجي الفرنسي جاك بيرك يتحدث عن اهتمام الرجل«بمسألة الدولة في المغرب من حيث تتبع نشأتها التي يرجعها إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر مع مجيء السعديين» المساتي عادل، سوسيولوجية الدولة بالمغرب، إسهام جاك بيرك، سلسلة المعرفة الاجتماعية السياسية، مطبعة النجاح الجديدة، ط. 2010، ص33. ويحيلنا هذا الباحث على مصدر كلام جاك بيرك في كتابه:(.Ulémas,P266).

وحول موضوع الأدارسة ينقل لنا أن « هؤلاء الشرفاء، خلافا لافتراض شائع لم يكونوا لا مرابطين ولا أولياء ولا أنصار زاوية ولا متدينين. إنهم يعملون أولا كفاعلين سياسيين وكمؤسسي دولة» المرجع نفسه، ص35. وهنا يظهر لنا وجه التناقض في مثل هذا الكلام، إذ كيف الحديث عن نشأة الدولة مع السعديين وفي الآن نفسه حديث آخر عن الأدارسة كمؤسسي دولة، والتي لم يكن المجال الذي ظهرت داخله وبنت نظمها على أرضه سوى المغرب <<الأقصى>>.

(17)- المرجع نفسه والصفحة.

(18)- جاء ذكره في " أول من ثار من القبائل " ببلاد المغرب <<الأقصى>> في أرجوزة للشاعر المريني أبي فارس عبد العزيز بن عبد الواحد الملزوزي، قال الشاعر أعلاه:

أول من ثار بأرض المغرب = = ميسرة الحقير(*) موري الخَرَبِ

فازت به مطغرة بالمجـــد = = ولم يزالو بعده في سعـــــد

وقد ذكر عبد الوهاب بن منصور أن صاحب الأرجوزة كان قد أنهى نظمها عام 684هـ والتي قرنها بحدث حصار المنصور المريني ل"شريش". نظم السلوك في ذكر الأنبياء والخلفاء والملوك، المطبعة الملكية، الرباط، 1382هـ/ 1963، ص47.ورد ميسرة المطغري كزعيم لثورة طنجة عام 122هـ : أنظر عباس الجراري، وحدة المغرب المذهبية، دروس حسنية 2015، ص57.(*) عُرف ميسرة ب"الخفير" كما ورد عند صاحب الاستقصا، ص108.

(19)- الناصري(خالد)، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب – الدار البيضاء، 1954م، ج2، ص108.

(20)- المصدر نفسه والصفحة.

(21)- المصدر نفسه، ص109.

(22)- مؤنس(حسين)، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، 1413هـ/ 1992م (الطبعة الخامسة 1421هـ/2000م) ص.132. ويبدو لنا أن حديث مؤنس حول المغرب الأقصى العربي المسلم فيه نوع من

مـن هـذه الإشـارات التاريخيـة الخاطفـة إذن، يبـدو أن العمـق التـاريخي لـبلاد المغـرب "الأقصى" يرجع إلى مرحلة ما قبل دخول الإسلام إلـى المنطقـة، قبـل أن تشـهد المنطقـة منـذ أواخر القرن الأول الهجري تأسيس صالح بن منصور إمارة نكور داخل المجـال الـذي يضـم قبائـل نفـزة وصـنهاجة وغمـارة واعتـراف الخلافـة الأمويـة بهـا[23] وقـد بلغـت هـذه الإمـارة أوجها زمن إدريس بن صالح بعد عقد من الزمـان من ظهـور الخـوارج فـي شـمال المغـرب الأقصى، وقبل ظهور الأدارسة بحوالي أربعة عقود. علما أن المشروع الخارجي فـي شـمال المغرب آل إلى الفشل بالنظر لما سجّله حكم الخوارج من "العنف" اتجاه البربـر زمـن ولايـة عبيد الله بـن الحبحـاب، ومـا نالـه السكان المحليون مـن «الجـور والعسـف»[24]، خـلال هـذه الفتـرة. ولعلـه أحـد أسـباب سـحب الأدارسـة البسـاط مـن الإمـارات الخـارجيـة، خاصـة مـع مـا وجدوه من قابلية لدى المغاربة للالتفاف حول رمز من آل البيت. لكن بعض الأسئلة تفرض نفسها على الباحث الذي يريد أن ينتقل بالحدث التاريخي من الفهم البسيط إلـى الفهـم الـواعي والعلمي من خلال ضبط مجريات الأحداث التاريخية التي لا يبدو أنها كانت محكومـة بعامـل الصدفة.

ـ هل يمكن المراهنة على حدث جزئي وفردي من حجم هروب شخص من آل البيت مـن بطش العباسيين، لنجعل منه مؤشرا رئيسا في ظهور الإرهاصات الأولـى للتجربـة الوحدويـة انطلاقا من مجال المغرب "الأقصى" وبزوغ فجر الدولة المغربية؟

ـ هل التفاف قبائل مغربيـة بزعامـة أوربـة حـول إدريـس الأول يُعدُّ عمـلا سياسـيا واعيـا، دالاّ على رغبة جزء من المكون البشري لمجتمع "المغرب الأقصى" كي يخضع لنظام حكم مركزي بعيد عن الزعامة القبلية؟

ـــ مـا هـي العوامـل التـي كانـت وراء قدرة اكتسـاح وتوحيـد إدريـس الأول والثـاني جزءا مهما من مجال المغرب "الأقصى" بما فيه تلمسان بوابة المغرب الأوسط؟

الإسـقاط التـاريخي المـرتبط بنزعـة القوميـة العربيـة التـي ابتلـي بهـا عـدد مـن البـاحثين والمـؤرخين تـأثرا بـالثورة الناصرية.

(23)- مجموعة مؤلفين، تاريخ المغرب تحيين تركيب (القبلي مشرفا)، منشورات المعهد المعهد الملكي للبحث في تـاريخ المغرب، الرباط، 2011، 151.

(24)- الناصري، الاستقصا، م.س، ص108. أنظر التفاصيل، تاريخ المغرب تحيين تركيب، ص150 – 151.

المبحث الأول: السياق السياسي لظهور الدولة الإدريسية وبناء مفهوم التوحيد

يظهر أن هناك ضعفا بيِّنا على مستوى المعلومات المصدرية حول ما حسبناه قيام أول تجربة جنينية لتوحيد مجال المغرب "الأقصى" على يد الأدارسة المؤسسين، وذلك بالنظر إلى ندرة المصادر المعاصرة لتلك المرحلة التاريخية. فقد حاولنا البحث في أسباب تخلي الزعيم القبلي عبد الحميد عن الزعامة السياسية للمكون القبلي الأوربي لصالح إدريس الأول، ثم كيف أمكن لهذا الأخير أن يغزو أجزاء مهمة من بلاد المغرب "الأقصى" في وقت وجيز، قبل أن ينتقل إلى غرب المغرب "الأوسط" ليبسط نفوذه على جزء استراتيجي من مجال زناتة، ونقصد هنا منطقة تلمسان. ثم ماهية العلاقة بين ما دشن به إدريس الأول هذا المسلسل السياسي ومجيء إدريس الثاني إلى الحكم الذي خطى نفس خطوات أبيه، وعلاقة تأسيس فاس بتثبيت ملك الأدارسة، ولماذا ستصبح هذه الحاضرة القاسم المشترك بين الأدارسة والمرابطين ثم الموحدين فالمرينيين؟.

إن وجود مثل هذا الضعف على مستوى المصادر في التأريخ لمرحلة حكم الأدارسة، يجعلنا مضطرين للاعتماد على مصادر متأخرة جدا كالبيان المغرب لابن عذاري، والقرطاس لابن أبي زرع، وأعمال الأعلام لابن الخطيب، وتاريخ بن خلدون. وقد أرجع أحد الباحثين المغاربة هذه الندرة في المصادر المتزامنة مع عصر الأدارسة، إلى ضعف التأليف خلال مراحل حكمهم، لكونهم لم يكونوا ذوي ثروة تساعدهم على تشجيع الحركة العلمية والأدبية(25).

1- ظروف نشأة المشروع السياسي للأدارسة:

سيكون منطلقنا في إبراز حيثيات صناعة " الأدارسة" الحدث أواخر القرن الثاني الهجري في أقصى الغرب المغاربي، انطلاقا من خلاصة تقييمة، لدورهم في بلاد المغرب

(25)- حركات(إبراهيم)، تاريخ المغرب، من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية دولة الموحدين، دار الرشاد الحديثة، طبعة 1420هـ/ 2000م، ج1، ص128. يشير الباحث إلى بعض المصادر المفقودة التي أرخت لتاريخ الأدارسة الذي نجهل حوله الكثير، من مثل ما ألفه صالح بن عبد الحليم وهو ينقل عن البرنوسي المفقود كتابه، ومحمد بن يوسف الوراق الذي كتب عن المدن التي ازدهرت في عهد الأدارسة، فاس، سجلماسة، نكور... حيث وصفه ابن حزم بكونه الحافظ لأخبار المغرب... وكثيرا ما اعتمد عليه البكري في كتابه المسالك والممالك وابن عذاري في البيان المغرب (أنظر التفاصيل: نفس المرجع السابق ص129).

"الأقصى"، وذلك من خلال آراء بعض الباحثين في تاريخ المغرب والأندلس. فقد تحدث الأستاذ محمد القبلي على أن «الكل متفق على أن التجربة قد بدأت بمحاولات محدودة، تلتها محاولات أعم وأشمل، والكل يعلم أن هذه المحاولات قد تخلّلتها فترة انقسام متقطعة تغطي معظم القرن الثالث عشر وبداية القرن»[26]. وهو ما يمكن أن نفهم منه أن هناك علاقة جدلية بين الأحداث التي شهدها المغرب "الأقصى" منذ قيام ما نحسبه تجربة جنينية للأدارسة في توحيد جزء من هذا المجال المغاربي، قبل الوصول إلى توحيد بلاد الغرب الإسلامي برُمّته زمن المرابطين والموحدين، سواء بعد أن أصبحت الأندلس جزءا لا يتجزأ من بلاد المغرب، أو في مرحلة أخرى عندما توسع الموحدون شرقا لِيكْتسحوا كامل تراب صنهاجة الشمال وصولا إلى التخوم المصرية. كما أن صاحب كتاب "قيام دولة المرابطين" اقتبس من باحث غربي ما مفاده ألا مغالاة في القول بأن «الأدارسة بدءوا في هذا الميدان ما أتمه المرابطون والموحدون بعدهم»[27]. وبالنظر إلى الأدوار السياسية التي اضطلعوا بها في مجال بعيد عن موطنهم الأصلي، يرى حسن احمد محمود أن «شخصية المغرب الأقصى وضحت وضوحا تاما، وغدت لها قوة التوجيه في مجريات الحوادث في ظل دولة الأدارسة»[28]. لكن مع أهمية ما جاء عند هؤلاء الدارسين، نتساءل كيف أمكن لهارب من قبضة العباسيين أن يكون حلوله بين ظهراني قبائل أوربة مقدمة لتوليه الزعامة السياسية والدينية في بلاد المغرب "الأقصى"؟ أم أن للأمر صلة بِسِمة ما يحملها إدريس الأول مكنته من تزعُّم "المشهد السياسي" المغربي بعد أن حصل حوله إجماع للمغاربة؟

تتضمن مجموعة من المصادر التاريخية معلومات متقاربة حول نزول إدريس بن عبد الله ببلاد المغرب "الأقصى"[29]، وبالتحديد مدينة وليلي[30]، «على إسحق بن محمد بن عبد

(26)- القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ص7- 8.
نحسب أن الأستاذ القبلي يريد الإشارة من خلال كلمة " المحاولات المحدودة " إلى تجربة الإمارة الإدريسية، باعتبارها أول حلقة من حلقات التأسيس لتجربة الوحدة السياسية في بلاد المغرب الأقصى إلى حدود تلمسان شرقا وبلاد السوس جنوبا. وهنا يظهر لنا أن تجربة الأدارسة في توحيد جزء من المجال المغربي، لم تتجاوز فيما نرجح مرحلة حكم إدريس الأول المؤسس وإدريس الثاني، قبل أن يبدأ مسلسل تقسيم المجال بين الأبناء.
(27)- أحمد محمود(حسن)، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي – القاهرة، ص15. يحيلنا المؤلف على :Gautier, les siècles obscurs, p 350
(28)- المرجع نفسه والصفحة.
(29)- تزامن حط إدريس الأول رحاله بأرض المغرب "الأقصى" مع «إمارة هشام بن عبد الرحمن الداخل بقرطبة، وأول ظهور بني مدرار بسجلماسة» ابن عذاري، البيان، ج1، ص82.

الحميد الأوربي[31] المعتزلي، فتابعه على مذهبه، وذلك في سنة اثنتين وسبعين ومائة»[32]. وبعد أن اطمأن الزعيم الأوْربي لإدريس الأول «قدّمه قبائل البربر وأطاعوه»[33]، بعد أن جمعهم « على دعوته»[34]، وفي وليلي «قاعدة زرهون، استجابت له قبائل البربر وعَلاَ أمره وشاع خبره»[35]. وهنا يظهر لنا أن قبائل البربر الواردة في متن مجموعة من المصادر بصيغة العام، لا يقصد بها سوى قبائل أوْربة[36]،التي بايعته وقامت بأمره[37]. ولكي نبتعد عن الاحتكام لعامل الصدفة في احتضان قبائل أوْربة إدريس الأول والقبول به زعيما سياسيا، ما هو التفسير الذي يمكن أن يكون"مقنعا" حول هذا الإجماع الذي تحقق للزعيم العلوي[38]، والذي شكل ما نحسبه إرهاصات وحدة سياسية داخل بلاد المغرب "الأقصى"؟ علما أننا نريد أن نؤسس مقاربتنا لهذا الموضوع على أسس البحث التاريخي العلمي لتحديد العلاقة الممكنة بين تجربة الأدارسة في الحكم وبزوغ فجر تجربة وحدة الغرب الإسلامي مع المرابطين والموحدين، بعد حوالي ثلاثة قرون من قيام دولة الأدارسة.

يضعنا أحد الباحثين أمام مقارنة تبدو ممكنة، في موضوع ما أحاط بخلفيات قيام دولة الأدارسة، عندما اعتبر الطموح الذي قاد الخوارج الإباضية في شخص بني رستم لإنشاء ما أسماها دولة في تاهرت، هو نفسه طموح الأدارسة لإنشاء دولة لهم بعيدا عن متناول الدولة

---

(30)- مجهول، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط.1، 2005، ص199.

(31)-«نزل على إسحق الوربي شيخ قبيلة وربة (أوربة)» عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، المطبعة الملكية – الرباط، 1388هـ/ 1968م، ج.1، ص115.

(32)- البكري(أبو عبيد)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدمه له أدريان فان وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص799. مفاخر البربر، م.س، ص200.

(33)- ابن عذاري، البيان المغرب، إفريقية ابتداء من الفتح الإسلامي، تحقيق كولان وبروفنسال، ط3، 1983، ج1، ص210.ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي الوسيط، ج3، ص190. ويشير صاحب المقدمة إلى حالة البأس الشديد وروح الصدام والصراع بين قبائل البرانس والبتر بمختلف ألوانهم، وعَدّ أوربة من بين البطون التي فيها الكثرة والغلبة.ابن خلدون، تاريخ المبتدأ والخبر، ج6، ص192.

(34)- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، ت. 808هـ/ 1406م)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 1421هـ/ 2000، ج6.ص195.«وجمع البربر على القيام بدعوته» المصدر نفسه، ج4، ص11.

(35)- الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية – الرباط، ط2، 1411هـ/1991م، ص12.

(36)- كانت أوربة تتزعم قبائل ضخمة تمتد من الأطلس الأوسط إلى وادي سبو: أنظر مؤنس ص 126 حسين مؤنس معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 126.

(37)- ابن خلدون، ج4، ص11.

(38)- «واجتمع عليه البرابرة بالمغرب فبايعوه وقاموا بأمره» المصدر نفسه والصفحة.

العباسية[39]، بمعنى أن المسألة تبدو مرتبطة بجانب أمني يهم كسب الناجين من مجزرة فخ، نوعا من الحماية "السياسية" في ظل عصبية قبلية قوية كأوْربة. لكن بالمقابل من الممكن جدا أن يكون التفاف القبائل الأوربية بهذه السرعة حول فرد من آل البيت، عاملاً لتقوية الحِلف الأوْربي، درْءاً لأي خطر من قِبَل الخوارج في سجلماسة وتاهرت في الشرق وبرغواطة القوية في الغرب، خاصة وأن كل إمارة، حسب محمد شقير، كانت «تحاول أن تقضي على خصومها وتستولي على مجالها السياسي»[40]. بما نفهم منه أننا أمام واقع مصلحة مشتركة يمكن أن تعبِّر عن "وعي سياسي" كان وراء «رغبة قبائل المغرب الأقصى في إنشاء كيان سياسي خاص بهم»[41]، وتفسير ذلك يمكن أن نستشفه من "الزخم" القبلي الذي اجتمع حول الرجل من مختلف القبائل من حجم «زواغة وزواوة ولماية وسدراتة وغياثة ونفزة ومكناسة وغمارة»[42]، وهو ما تُرجم من خلال توليته «صلاتهم وأحكامهم وغزوهم، فاستجابت له القبائل الريفية وغيرها...» [43]. وقد لاحظ باحث حصيف أنه بالرغم من «الاختلافات المذهبية بين هذه العناصر لم يحدث ما من شأنه أن يمثل خروجا على السلطة[44]. هذا الأمر يدفعنا من الأول لكي نميل إلى أهمية الدور "الرمزي" لانتماء إدريس الأول لآل بيت الرسول الكريم. والذي كان وراء هذا النوع من القابلية لتلك القبائلِ لتوحيد صفوفَها، بل وسهّل عليها الانسلاخ «شيئا فشيئا من عقلية القبلية والعصبية الضيقة وتأخذ بنموذج الدولة الإسلامية»[45]. ولعل ما يجعلنا نهتم بعامل الانتماء لآل البيت[46] كقاسم مشترك بين القبائل التي آلتفّت حول أحد العلويين في وليلي أولا ثم في تلمسان ثانيا، إمكانية الدور الذي يكون قد قام به أخوه سليمان بن عبد الله في هذه المدينة

(39)- مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص123.
(40)- تطور الدولة في المغرب، م.س، ص169.
(41)- حسين مؤنس، م.س، ص.124.
(42)- ابن أبي زرع الفاسي (علي بن عبد الله)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط، 1972، ص20.
(43)- لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج3، ص191..
(44)- محمود إسماعيل، الأدارسة (172هـ - 375هـ) حقائق جديدة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط.1، 1411هـ/1991م ، ص75.
(45)- محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط: الدولة – المدينة – الاقتصاد، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة – البيضاء، ط1، 1999/1420، ص17.
(46)- لا نريد من وراء هذا التحليل أن ندخل في جدلية ارتباط موضوع الإمامة بالنسب القرشي، بقدر ما نميل إلى ارتباط شخص الإمام بتوفر أخلاق القيادة والقوة والعلم، إذ «يكفي أن يكون فاضلا ورعا وأن يحكم طبقا لأوامر القرآن والسنة» دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى اللغة العربية محمد ثابت الفندي، أحمد الشناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، مكتبة محمد حسن هيكل، 1352هـ/ 1923م، ط.3، ج.1، ص14.

التي مع الزمن آكتست أهمية كبرى. وهو الذي فرّ معه من موقعة فخّ، وذلك بعد أن آختار الاستقرار بين ظهراني زناتة. لهذا سيكون هذا الأمر مؤشّرا على إمكانية حصول استعداد نفسي لاسقبال إدريس الأول بتلك الطريقة السلمية، حين خرج إليه صاحب تلمسان بن خزر الزناتي مستأمنا ومبايعا مع من معه من قبائل بني يعرب ومغراوة[47].

عامل آخر يمكن أن يفسر نجاح إدريس الأول في كسب ثقة الأمير عبد الحميد وقبائل أوربة ثم في مرحلة أخرى جزء مهم من المكون القبلي المغربي، يتعلق الأمر بدور «مؤازرة المالكية والأحناف إدريس الأول، ما يعبر عن التقارب بين المذهب الزيدي ومذاهب أهل السنة»[48]، وذلك ارتباطا ب«موقف الإمام مالك الإسلامي الفريد»[49] المناصر للعلويين، وذلك من خلال فتوى تقول:«كما أن طلاق المكره لا يلزم، كذلك بيعة المُكرَه لا تلزم «[50]. وهو ما كان سببا في محنة إمام المدينة وفقيهها على يد بني العباس، تحت حجة بيعته لمحمد – النفس الزكية – كأمير للمؤمنين. ولهذا لا يستغرب أحد الدارسين في حديثه عن وحدة المغرب المذهبية، إذا وجدنا - حسب تعبيره - «المذهب المالكي ينتشر في عهد الأدارسة»[51] ابتداء من هذه المرحلة، وذلك بعد أن سجل فقهاء المالكية «حضورا مبكرا في ظل الأدارسة العلويين»[52].فهل نحن إذن أمام تخلي مؤقت للعصبية القبلية، كثابت من ثوابت قيام الدولة في المغرب الإسلامي الوسيط، عن دورها لصالح عامل النسب الشريف، في موضوع قيام دولة الأدارسة؟ [53].

(47)- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج4، ص17.
(48)- محمود إسماعيل، الأدارسة، م.س، ص58.
هنا نكون فيما يبدو أمام نتيجة مهمة تتمثل في ذوبان عامل العصبية القبلية في دور النسب الشريف لإدريس الأول، وبشكل أقل ما يمكن اعتباره إرهاصات أولى لدور فقهاء المذهب المالكي في تاريخ المغرب.
(49)- الكتاني (عبد الرحمان)، "الجانب السياسي في حياة الإمام مالك رضي الله عنه" (ضمن أعمال ندوة الإمام مالك: دورة الإمام مالك، فاس: من 25 إلى 28 - 4 -1980، ص.ص: 53 – 66.)، ج2، ص60.
(50)- نفسه، ص61.
(51)- الجراري(عباس)، دروس حسنية (وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ: قدمته الإذاعة والتلفزة مساء الأحد 28 رمضان 1395هـ الموافق 5 أكتوبر 1975م)، جمع وتقديم حميدة الصائغ الجراري، ط.1، ربيع الثاني 1436= فبراير 2015م، مكتبة دار السلام للطباعة والتوزيع، منشورات النادي الجراري (64) - الرباط، ص58.
(52)- بولطيف لخضر(محمد)،فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، 510 – 668 هـ/ 1116– 1269م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،ط.1، 1429هـ/ 2009 م، ص74.
(53)- أنظر سياق هذا السؤال عند ابن خلدون، ج1، ص196 – 197.

+ بعيدا عن كل ما يجعلنا نُحيل موضوع ظهور دولة الأدارسة إلى عامل الصدفة كما سبقت الإشارة إلى ذلك، يبدو من المفيد أخذ المدى الزمني بعين الاعتبار حتى نُخضع تحليلنا لعملية المرحليّة في قيام دولة الأدارسة. فإدريس الأول بِلُغة صاحب البيان المُغرب«احتل بالغربسنة 170هـ، واستوطن وليلي»[54]، لكن على عكس ما يوحي به السياق الزمني لرواية ابن عذاري، فإن نزول إدريس بوليلي[55] لم يتم حسب ما هو متعارف عليه إلا «سنة اثنتين وسبعين وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة وكبيرهم لعهده فأجاره»[56].

وبناء على رواية ابن الخطيب[57] يكون إدريس الأول قد أقام عند الزعيم الأوْربي حوالي أربعة أشهر، قبل أن يدعو إلى ما يمكن اعتباره اجتماعا داخليا، تمَّ خلاله التعريف بالرجل من حيث «محله من بُنوّة النبُوّءة وأعلمهم بفضله وشرفه»[58] فقال زعماء أوْربة: «الحمد لله الذي أتانا به وشرّفنا بجواره، فهو سيدنا ونحن عبيده نموت بين يديه، فما تريد منا؟ قال تبايعونه، قالوا سمعا وطاعة، ما مِنَّا مَن يتوقف عن بيعته وما يريد»[59]، وهنا يمكننا الحديث عن **بيعة أولى** لإدريس الأول والتي شملت عبد الحميد و« قومه وإخوانه»[60] والتي تمّت «بمدينة وليلي يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين ومئة(6 يبراير789م)»[61]، بعد أن اتخذ من أوْربة عصبية له[62]،«على الأقل في مرحلة

(54)- ابن عذاري، البيان، م.س، ج1، ص210. يبدو أن ابن خلدون - وبعض من جاءوا بعده - قام بنوع من الإسقاط حين قال: «... ولحِق إدريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه راشد...» تاريخ ابن خلدون، ج4، ص17.

(55)- بعدما تحدث صاحب القرطاس عن حلول إدريس الأول ومولاه راشد بطنجة، حصر موضوع إقامتهما بها بضعة أيام فقط ليلتحق مباشرة بوليلي، علما أنه تدارك بعد ذلك وتحدث عن نزوله بوليلي سنة 172هـ/ 788م. عرّف ابن خلدون وليلي تحت إسم وليّة. ج.4، ص17.

(56)- تاريخ ابن خلدون، ج4، ص17.ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ج3، ص190.

(57)- كان «لحاق إدريس بالمغرب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين ومائة» أعمال الأعلام، م.س، ج3، ص190- 191. اجتمع رأي المصادر الرئيسة في بحثنا حول عام التحاق إدريس الأول بالمغرب وحمايته من طرف زعيم أوربة.

(58)- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، م.س، ص191. ابن أبي زرع، القرطاس، ص27.

(59)- ابن أبي زرع، م.س، ص20. الناصري، الاستقصا، م.س، ص155.

(60)- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، م.س، ج3، ص191.

(61)- المصدر نفسه والصفحة.

(62)- يبدو أن الانتماء إلى أهل البيت فتح الطريق على مصراعيه أمام إدريس الأول للسلطة والحكم دون الحاجة إلى عصبية عربية - مع استثناء مرحلة حكم إدريس الثاني الذي سيستقوي بالعرب في مرحلة توطيد الدولة المركزية وعاصمتها فاس - علما أن إدريس بن عبد الله لم تكن تربطه بقبائل أوربة لا قدم الانتماء إلى العصبية ولا الحلف ولا الجوار ولا الولاء. أنظر التبرير الذي أعطاه صاحب المقدمة في وصول الأدارسة إلى الرئاسة دون الاحتكام لقاعدة العصبية القبلية: المقدمة، ج1، الفصل الثالث، ص 196 -197.

التأسيس»[63]، مقابل مراهنة الأوْربيين فيما نرجح على زعيم علوي يجمع شتات المشهد السياسي القبلي المتّسم بالانقسام والتشتت كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

لكن في سياق تعاملنا مع الأحداث التاريخية وفق ما يتطلبه المنهج التاريخي العلمي، نجد في تركيزنا على إبراز عامل المرحليّة في وصول من عُرف بإدريس الأكبر إلى زعامة "المشهد السياسي" لبلاد المغرب "الأقصى"، وهو ما ينمّ عن تضافر مجموعة من العوامل لخروج المشروع السياسي لـ "مضطهد سياسي" من آل البيت إلى الوجود، وهنا تجدنا لا نساير ما ورد عند محمد زنيبر من إيحاء على أن الأدارسة وبسرعة البرق، «أسسوا دولة مستقلة عن الخلافة العباسية، فأخذت من أول يوم صبغة الخلافة كما يتضح ذلك من بيعة المغاربة لإدريس ومن خطاب هذا الأخير»[64]. علما أن أحد الباحثين يرى أن «الأدارسة لم يؤسسوا خلافة وإنما ملكا وإمامة، وكان العاهل الإدريسي يخاطَب بقولهم: السلام عليك يا ابن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم»[65]. وهذا ما ستؤكده رواية مصدرية عن كون الأدارسة، وبعد دخول عدد كبير من القبائل المغربية في طاعتهم، «تسمّوا بأمراء المؤمنين، ولكن لم يبلغوا درجة الخلافة»[66]، فقد سُمِّيَ«إدريس بالإمام وابنه إدريس الأصغر كذلك، وهكذا شأنهم، وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين»[67].

فهل هي المصلحة المتبادلة بين آل البيت الذين وجدوا من يحميهم من بطش العباسيين، مقابل ما سيُمثله تبني أحد أفراد آل البيت من رمزية في جمع كلمة بطون أوربة في مرحلة

(63)- محمود إسماعيل، الأدارسة، ص54.

(64)- محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، م.س، ص 17. خطب إدريس الأول في الناس يوم بويع فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه: " لا تمدن الأعناق إلى غيرنا فإن الذي تجدونه عندنا من الحق لا تجدونه عند غيرنا " : تاريخ ابن خلدون، ج4، ص17.

(65)- ابراهيم حركات(ابراهيم)"المغرب عبر التاريخ"، من عصر ما قبل التاريخ حتى نهاية دولة الموحدين، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1420هـ/2000م، ج1، ص: 108

(66)- ابن ابي دينار (الفقيه أبي عبد الله الشيخ محمد بن أبي القاسم الرميني القيرواني)، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، ط.1، 1286هـ، ص95.

(67)- ابن خلدون، المقدمة (تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.1421هـ/ 2000 - 2001 م. ج1، ص283.

سيجدد الموحدون العهد مع نظام إمارة المؤمنين بعد إزاحة المرابطين عن الحكم وإن كان سياق الخلافتين يختلف اختلافا جذريا. فإذا كان الأدارسة يمثلون خلافة من منطلق اغتصاب العباسيين حقهم في المشرق، فإن الموحدين يعتبرون أنفسهم أجدر بخلافة العالم الإسلامي.

أولى، بحسما بدا لنا يشعرنا بإرهاصات حضور البعد الوحدوي عند المغاربة على المستوى السياسي، والذي سيدشنه إدريس الأول بعملية غزو المجال المغربي في مرحلة ثانية؟

في إطار الحديث عن ما وصل إليه إدريس الأول من زعامة سياسية وعسكرية لجزء مهم من المُكوِّن القبلي لبلاد المغرب "الأقصى"، يظهر لنا من خلال إشارة مصدرية عند ابن خلدون، ضرورة التمييز بين البيعة الأولى وبيعة ثانية عامة، من خلال إشارته إلى «كشف القناع»[68]عمّا حسبناه بيعة داخلية محلية محصورة في قبيلة أوْربة الكبرى، وبيعة ثانية مرتبط إلى حد بعيد بما حصل للرجل من إجماع «البرابر على القيام بدعوته»[69] بعد أن اجتمعت عليه «زواغة ولواتة وسراتة وغمات ونفزة ومِكناسة وغمارة وكافة برابر المغرب»[70]. هذا الأمر دفع باحثا حصيفا ليتحدث عن«إيلاف كافة القبائل والإثنيات»[71]، حول إدريس الأول فتم له بذلك «الملك والسلطان بالمغرب»[72].

ولعل هذا الإيلاف هو الذي من شأنه أن يبرر قدرة إدريس الأول على التفكير في غزو مجال شاسع من بلاد المغرب "الأقصى"، بكل ما تحمله هذه العملية من أبعاد سياسية ودينية واقتصادية، خاصة بعد أن استوثق له الأمر[73]. وهنا يكون إدريس هذا قد مهد بهذه الخطوات العملية لمَرْكزة الحُكم بعد اغتياله ومبايعة ابنه إدريس. وهنا نصل إلى استنتاج مفاده أن قيام حكم الأدارسة كان محكوما بطابع المرحلية وأنه أمر«لم يكن نتيجة صدفة عفوية أو مجرد هروب من خطر العباسيين»[74] حسب استنتاج أحد الدارسين، الذي رأى أنه من إحكام «الدعوة الزيدية – الاعتزالية التي اتسقت مع طموحات العصبية ممثلة في قبيلة أوْربة[75]. وكان أن تُوُّج هذا الأمر باجتماع القبائل المختلفة حول فرد من آل البيت،

(68)- ابن خلدون، م.س، ج4، ص17.
(69)- المصدر نفسه والصفحة.
(70)- ابن خلدون، ج6، ص195.
(71)- محمود إسماعيل، الأدارسة، م.س، ص75.
(72)- تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 195. ابن أبي زرع، القرطاس، ص20.
(73)- ابن خلدون، ج4، ص17.
(74)- محمود إسماعيل، الأدارسة، ص51.
(75)- المرجع نفسه، ص52. ويرى الأستاذ هاشم العلوي القاسمي، أن العمل الزيدي الإدريسي في المغرب الأقصى، لم يقم على «دعوة إمامية منظمة مذهبيا مثل ما حدث في الحركات الأخرى وإنما كان قائما على ظاهرة «الأمر الواقع» في المغرب الأقصى، وهذا الأمر الواقع هو متابعة ومظاهرة «البناء القبلي» «مجتمع المغرب الأقصى، ج2، ص254.

والذي كان بمثابة «الأرضية التي انطلق منها التفكير الوحدوي»[76]. ولعل مثل هذه الآراء التي تؤكد على اجتماع كلمة قبائل أوْربة حول إدريس الأول، لم يكن أمرا نابعا من فراغ، إنما كان قد سار وفق إعداد وتخطيط وتوافق. وحسب ما اطلعنا عليه في بعض المصادر، نرى أن تركيز محمود إسماعيل على التوافق الحاصل بين "أيديولوجية" التشيع الزيدي و"الأيديولوجية" الاعتزالية ودورهما في تبوُّء الأدارسة مكانة رفيعة عند المغاربة، استقاه من إشارات مصدرية في "المسالك والممالك" و"الاستبصار و"مختصر كتاب البلدان" و"القرطاس"[77]. فقد أشار البكري إلى نزول إدريس بن عبد الله الإمام الزيدي، على الزعيم القبلي الأوْربي «إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي»[78]، وذلك عام مئة واثنتين وسبعين، إحياء لعلاقة سابقة في بلاد المشرق بين الاعتزال والتشيع.

غير أن باحثا آخر، رغم اتفاقه بعدم وجود صدفة في قيام حكم الأدارسة، إلا أنه لا يستطيع «الجزم بأن الأمر راجع إلى تنظيم دقيق لتأسيس دولة علوية بالمغرب الأقصى... فالمسألة ليست مسألة نظرية مذهبية، بقدر ما هي تضامن اجتماعي محلي تتزعمه "أوربة" قبليا وتؤطره الفكرة الدينية الإسلامية عموما»[79]. وهنا يظهر لنا أن تلهُّف جموع القبائل المغربية لتقديم البيعة للزعيم العلوي من الراجح أن يكون ناتجا عن محل الأدارسة من آل بيت النبوّة وانتمائهم لرسول الأمة صاحب الشرف والفضل على الأمة الإسلامية[80]. والنتيجة أن قبائل أوربة قبلت بالتنازل عن حكم زعيم القبيلة لصالح زعيم من خارجها بما

(76)- السعيدي(عبد الرزاق)، المحاولات السياسية الكبرى وبناء المجال المغاربي خلال الفترة الوسيطية ملامح الصراع، مجلة كان التاريخية، العدد 43، من ص 28 إلى ص35، مارس 2019، ص30.

(77)- نفس المرجع والصفحة. وهنا نذكر أننا في حدود ما نبشنا فيه لم نجد أية إشارة لابن عذاري يشير فيها إلى أمر تشيع إدريس وتبني عبد الحميد الاعتزال. أنظر محمود إسماعيل، الأدارسة، ص53

(78)- البكري، المسالك والممالك، م.س، ص799. ابن أبي زرع، القرطاس، م.س، 19.
هناك إشارة إلى تلقي إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي مبادئ المعتزلة والولاء لآل البيت في رحلته المشرقية مع ترجيح إمكانية أن تكون الإمارة الإدريسية قد تأثرت بسمات زيدية اعتزالية. م. مؤلفين، تحيين وتركيب، ص248.

(79)- هاشم العلوي، مجتمع المغرب الأقصى، م.س، ج2، ص255.

(80)- أنظر ما جاء به في هذا السياق ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج3، ص191. ابن أبي زرع، القرطاس، م.س، ص27.

تحقق حوله من شبه إجماع، ومبايعته بالإمامة[81]، مما أسهم في فتح المجال أمام قيام دولة الأدارسة بالمغرب منذ عام 172هـ[82].

2- بناء مفهوم التوحيد من خلال التفاف القبائل حول الأدارسة:

اتخذ إدريس الأول قرار الزحف على "بُوُر"انتشار البِدع في تامسنا وبلاد السوس وتازا[83]، تحت شعار الجهاد ضد تيارات دينية كانت «تتغذى بانحراف عقدي يصِح بحقٍّ وصفه بالرّدة عن المد الإسلامي الذي شمل المغرب في القرنين الأول والثاني»[84]. ولم يكن هذا ممكنا إلا ب«تمكن إدريس من تأليف جيش كبير»[85]، سمح له بإعداد القوة للزحف «إلى البرابرة الذين كانوا بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية...وفتح تامسنا ومدينة شالة وتادلا[86]. وهذا الجيش لم يكن ممكنا فيما نخال تكوينه في هذا الزمن القياسي إلا مع "الزخم" البشري الذي توفر للزعيم العلوي والذي أجمعت حوله معظم المصادر التاريخية[87]. فقد تم إعطاء الأولوية لما يمكن اعتباره عملا جهاديا، من أجل القضاء على مظاهر الوثنية والشرك[88]، وذلك سعيا فيما يبدو إلى ترسيخ مشروعية التأسيس للدولة والابتعاد عن مظاهر الغزو كغاية.

(81)- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، القسم 2، ط 2، 1966، ص383،

(82)- محمود إسماعيل، الأدارسة، م.س، ص.53.

(83)- يرى محمود إسماعيل من الثابت«أن سكانها من البربر كانوا مسلمين على مذاهب «المعتزلة والروافض والجبرية» الأدارسة، م.س، ص62.

(84)- النجار عبد المجيد، تجربة الإصلاح في عهد المهدي ابن تومرت الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري، المعهد العلمي للفكر الإسلامي هيرندن-فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط.2، منقحة ومزيدة 1415هـ/1995، ص44-45.

(85)- سالم(عبد العزيز)، تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، م.س، ص383.

(86)- ابن خلدون، ج4، ص17. وهناك إشارة مصدرية ترى أن العداوة بين الأدارسة وبورغواطة ستترجم في عدة حروب عهد إدريس الثاني: أنظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج.3، ص186.
ومن خلال هذا الفتح الذي تحقق لإدريس الأول في تامسنا حسب ابن خلدون، نتساءل هل معناه إذعان برغواطة لإدريس الأول بشكل مؤقت خاصة وأن قوة الدولة الإدريسية لم تدم طويلا؟ بالمناسبة موضوع مواجهة برغواطة كان عاملا مشتركا بين الأدارسة والمرابطين والموحدين.

(87)- البيان المغرب، ج1، ص210. القرطاس، ص20. زهرة الآس، ص12. تاريخ بن خلدون، ج4، ص11، وج6، ص195.

(88)- يبدو أن السيطرة على المجال الخصب وامتلاك زمام تجارة العبور وما تختزنه الأرض، كلها مقومات حاضرة في عملية بسط النفوذ وكسب الموارد المالية الضرورية لوضع أسس الدولة القوية. وهذا ما سنتحدث عنه بتفصيل في خط سير المرابطين والموحدين في تمهيد وإخضاع مجال المغرب الأقصى.

وفي أوائل رجب من سنة ثلاث وسبعين ومائة نازل إدريس الأول مدينة تلمسان[89]، ودخلها صلحا وبنى مسجدها وبها أثره[90]، وذلك بعد أن خرج إليه صاحبها ابن خزر الزناتي مستأمنا ومبايعا مع من معه من قبائل بني يعرب ومغراوة[91]، وبذل له إدريس الأمان ولسائر زناتة فأمكنه من قياد البلاد[92]. وهنا نرجح أن السهولة التي حصل بها إدريس على تلمسان ترجع إلى نوع من القابلية لدى الزناتيين وقيادتهم لإحداث ما حسبناه ثورة سياسية للمغاربة بغية توحيد صفهم تحت قيادة علوية، بهدف التصدي لأي تهديد خارجي. ولعل تمكن إدريس الأول من تلمسان[93] باب إفريقية، وفق رأي محمود إسماعيل، هو ما «أدخل الهلع في قلوب العباسيين وعمالهم في إفريقية»[94]، ودفعهم للتفكير في اغتيال الرجل قبل أن يستفحل أمره[95]. فحديث الرواية التاريخية عن كثرة جموع إدريس الأول خاصة «في خلافة هارون الرشيد»[96]، لا يبدو أنه اقتصر على القبائل التي وفد

(89)ـ يظهر أن اهتمام إدريس الأول بتلمسان منذ السنة الثانية لتوليه زعامة "المشهد السياسي" القبلي في جزء مهم من بلاد المغرب "الأقصى" له ما يبرره أمنيا، لكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو السهولة التي سُلّمت له بها هذه المدينة، ونحن نعلم أن بها قبائل زناتة ذات البأس. وهنا نجد محمود إسماعيل يربط الأمر بعاملين، أولا أن أهلها كانوا يعتنقون المذهب الزيدي، وثانيا ربط الأمر بالعصبية القبلية لكون جيش إدريس الأول كان يضم زناتة المغرب الأقصى.

(90)ـ ابن الخطيب أعمال الأعمال،(قسم.3) ص192. أنظر أيضا الاستقصا، ج1، ص107.

(91)- ابن خلدون، ج4، ص17.

(92)- المصدر نفسه والصفحة.

(93)- لا تفيدنا المصادر كثيرا في فهم أهمية تركيز الأدارسة على تلمسان، لكن عندما نجد هذه المدينة قد أخذت باهتمام الأدارسة والمرابطين والموحدين، كمشترك بين هذه الأطراف، فهذا يقوم دليلا على ما اكتسته من أهمية كبيرة سواء على المستوى الأمني الاستراتيجي كدرع واق من أي خطر من جهة الشرق، أو على المستوى التجاري بما ستلعبه في مستقبل الأيام من أدوار اقتصادية في المنطقة المغاربية، خاصة علاقتها مع فاس وسجلماسة وأغمات وبلاد السودان، طيلة العصر الإسلامي الوسيط.

(94)- محمود إسماعيل، الأدارسة، م.س، ص63.

(95)- في هذا الإطار تُثار مسألة التوجه الشيعي لإدريس الأول، كما لاحظنا ذلك عند محمود إسماعيل في" الأدارسة قراءة جديدة " في نفس الإطار يرى سعد زغلول عبد الحميد في سياق حديثه عن قيام إمارات خوارجية في بلاد المغرب الكبير أن « قيام مملكة الأدارسة العلوية أي الشيعية من الناحية الشكلية على الأقل «تاريخ المغرب العربي "تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مذرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين"، منشأة المعارف بالإسكندرية، (بدون تاريخ النشر: مع ورود تاريخ 08- 03- 1973، الكويت في مقدمة الكتاب).ج.2،ص431.

(96)- ابن أبي دينار، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص99.

على وليلي من مختلف الجهات بل يكون قد تجاوزه إلى كسب عطف الخوارج[97]، وهو ما سيجعل الخليفة في بغداد يفكر في بعث جيش كبير لإنهاء حركة إدريس الأول[98].

من زاوية أخرى صورة تحكم الأدارسة في الوضع وتعزيز بناء مشروعهم السياسي الذي يهم توحيد جزء مهم من مجال المغرب "الأقصى"، رافقه تحديد أهداف مادية اقتصادية في حملاتهم التوسعية، والتي تجسدت في السيطرة على الأراضي الخصبة وعلى مواقع الثروات المعدنية النفيسة، والتي وردت بشأنها إشارة للبكري حول غزو إدريس الأول تازى عام 174هـ[99] باعتبارها موضعا «من أعمال بني العافية يوجد في جبل منه الذهب «[100]وهو مؤشر على جانب كبير من الأهمية في علاقة مع موضوع العملة، إلى جانب دخول مجال شاسع من بلاد المغرب"الأقصى"تحت حكم إدريس الأول، الذي وحّد«البلاد تحت لواء واحد»[101]، وهيأ «لها حكومة موحدة مستقرة»[102]. وهي مؤشرات عملية، يبدو أنها الأرضية التي سيقوم عليها حكم إدريس الثاني بعد تسلمه مقاليد الحكم.

المبحث الثاني: توحيد المجال بالمغرب «الأقصى» زمن إدريس الأول والثاني

1- ظروف تأسيس مدينة فاس:

يظهر أن اغتيال إدريس الأول[103] عام 175هـ/ 791م، والعمل على وأد المعالم الأولى لدولة علوية في أقصى الغرب الإسلامي، كان أمرا متوقعا[104] بالنظر إلى ما حققه

(97)- ظلت العديد من القبائل حتى بعد مبايعتها لإدريس الأول « على مذهب الإباضية مثل زناتة وزواغة ولماية وسدراتة ونفزة، وأن بعضها ظلت على أفكارها بعد مبايعته، فكان عليه وعلى الخلفاء الأدارسة من بعده أن يحاربوا الرستميين لضمان تبعية تلك البطون للدولة الإدريسية»معلمة تاريخ المغرب، مجموعة مؤلفين، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر- مطابع سلا، 1989/1410، ص75.

(98)- نفس المرجع والصفحة. ويبدو أن اقتناع الخليفة العباسي في بعدم إمكانية وصول جيوشه في العراق إلى السوس من أرض المغرب حسبما ذكر ابن أبي زرع (القرطاس، ص22.)، جعله يسارع إلى تدبير اغتيال إدريس الأول كمقدمة لإقبار حلم دولة في أقصى الغرب المغاربي، يمكن في مستقبل الأيام أن تهدد العباسيين بشكل من الأشكال.

(99)- البكري، المسالك والممالك، ص799.

(100)- نفس المصدر والصفحة.

(101)- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص15.

(102)- المرجع نفسه والصفحة.

(103)- هناك من اعتبر الرجل كأحد الفاتحين الذين وطدوا الإسلام الصّفي النقي في بلاد المغرب الأقصى وذلك « بإجماع المؤرخين وتواتر الرواية على ألسنة الجماهير الشعبية من أهل المغرب» عبد الله كنون، ذكريات مشاهير

في ظرف حوالي ثلاث سنوات من توحيده لمجال شاسع في أقصى البلاد المغاربية. هذا الاغتيال دفع على العكس في اتجاه التفاف جزء مهم من مجتمع المغرب "الأقصى" حول الأدارسة في شخص إدريس الثاني، كحاملين لمشروع دولة يمكن أن يشكل عاملا حاسما في توحيد المجال تحت حكم سلطة مركزية وبروز معالم الدولة الفتية.

في هذا الإطار تمت مبايعة إدريس الثاني بالإمامة رغم حداثة سنه، إذ قام الأوْربيون «بأمره وجردوا لأنفسهم رسوم الملك بتجديد الطاعة، وافتتحوا بلاد المغرب كلها واستوثق لهم الملك بها»[105]. ومنذ 189هـ/ 804م أتى الناس إلى إدريس الثاني من إفريقية وبلاد الأندلس[106] مُمَثَّلين في قبائل القيسية والأزد والخزرج ومدلج وبنو يحصب، فسُرّ إدريس بوفادتهم عليه ونزوعهم إلى بلاده وأجزل صلاتهم وقربهم منه، وجعلهم بطانته، فقويت جنوده وأشياعه»[107]، و«عظُمت جيوشه وأتباعه»[108]. كما وفد عليه «عناصر جديدة من بربر وعرب وفرس إفريقية والمشرق للإقامة في كنف الدولة الإدريسية»[109]، خاصة بما تحقق من استقرار سياسي واقتصادي[110]، وهو ما شكل نقطة تحول هامة في تاريخ هذه الدولة الناشئة»[111].لكن ما هو سر تحول إدريس الثاني نحو فاس واتخاذها "عاصمة" لملكه، بكل ما للأمر من أبعاد دينية وثقافية واقتصادية، بعيدا عن مركز العصبية التي حمته وتعهدته حتى تسلم الحكم بعد البيعة؟

رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، رتب تراجمه إلى طبقات الدكتور محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، دار ابن حزم، ط1، 1430هـ/2010م، ج3، ص1404.

(104)- يظهر أن المحاولات التي بذلها الأغالبة وأولياء أمورهم العباسيين لإجهاض أي تطلعات سياسية لأهل البيت في بلاد الغرب الإسلامي، كان دافعا رئيسيا لهم لاغتيال إدريس الأول ثم اختراق صفوف الأوْربيين من خلال بعض الخونة الذين « دسّ ابن الأغلب إليهم الأموال واستمالهم حتى قتلوا راشدا مولاه سنة ست وثمانين». تاريخ ابن خلدون، م.س، ج4، ص18.

(105)- المصدر نفسه والصفحة.

(106)- ابن أبي زرع، القرطاس، ص29.

(107)-المصدر نفسه والصفحة. ابن خلدون، ج4، ص26..

(108)- الجزنائي، جنى زهرة الآس، م.س، ص17.

(109)- محمود إسماعيل، الأدارسة، ص75.

(110)- المرجع نفسه، صص 74-75.

(111)- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي،الفاطميون وبني زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين، منشأة المعارف – الإسكندرية، مطبعة الأطلس - القاهرة، ج2، ص441.

بعد أن الْتحق ببلاد المغرب "الأقصى" أفواج من العرب القادمين إليه من «إفريقية والأندلس من القيسية والأزد والخزرج وبني يحصب»[112]. ومع شبه الإجماع القبلي الذي تحقق حول الأدارسة في بلاد المغرب، ارتأى إدريس الثاني تأسيس مدينة فاس في منطقة سهلية خصبة تتوفر فيها المياه، خاصة بعد أن كثُرت حاشية الدولة وأنصارها[113]، وذلك بعد قدوم جماعة من أندلسيّي قرطبة، الذين «أنشؤوا قرية مجاورة لعدوة ربض القرويين، عُرفت باسم عدوة الأندلسيين، ومن العدوتين تكونت مدينة فاس»[114]، التي أطلق عليها البكري إسم «دار مملكة بني إدريس»[115].

وحسب العروي فإن تأسيس فاس كان«من أبرز أعمال الدولة وأبعدها أثرًا في بلاد الغرب الإسلامي»[116]. كما أنها كانت حسب باحث آخر «الخطوة الأولى في بناء الكيان السياسي والاجتماعي للمغرب الأقصى العربي المسلم»[117]، بفضل ما ستلعبه من أدوار مستقبلية على المستوى السياسي والعلمي والثقافي والاقتصادي. وهنا يشير الوزان إلى أهمية فاس التي أصبحت مستقطبة لمدن أخرى، بعد أن «انضوت سلا تحت سلطة ملوكها»[118].

لكن إذا كان ظاهر أمر تحول الأدارسة لإنشاء فاس[119]وجعلها حضرة مُلكهم، له علاقة بما ورد في أحد المصادر من كون مدينة وليلي ضاقت بأهلها[120]، فإن أحد الباحثين أرجع هذا الأمر إلى رغبة إدريس الثاني التحرر من نفوذ أوْربة[121]، كقبيلة ذات سلطان، والتي

(112)- الجزنائي، جنى زهرة الآس، م.س، ص17و18.
(113)- تاريخ ابن خلدون، ج4، ص18، الجزنائي، زهرة الآس، م.س، ص17
(114)- حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص129. ذكر البكري في المسالك أن إدريس الثاني «نزل مدينة فاس في عدوة الأندلسيين وأقام بها شهرا وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائة. وكانت عدوة القرويين غياظا في أطرافها أبيات من زواغة، فأرسلوا إلى إدريس فدخل عندهم فأسس مدينة القرويين سنة ثلاث وتسعين ومائة» م.س، ج2، ص805. أنظر أيضا ابن خلدون، ج1، ص18.
(115)- البكري، الممالك والمسالك، ص799.
(116)- العروي عبد الله، محمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ج.2، ص21.
(117)- مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، م.س، ص132.
(118)- الوزان(الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي، ت. حوالي 957هـ/ 1549م)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ق.1، ط.2، 1983 ص207.
(119)- في تريف البكري لفاس :«ومدينة فاس مدينتان مقترنتان مسورتان... وعدوة القرويين في غربي عدوة الأندلسيين» المسالك والممالك، م.س، ص795. بالمناسبة ستصبح فاس محَجّا ومقرا للعلماء والفقهاء وطالبي العلم خاصة بعد تواري دور القيروان في القرون الموالية بعد عملية غزو إفريقية على يد عرب مصر أواسط القرن الخامس الهجري، وتخريبها بأمر من الشيعة العبيديين.
(120)- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج3، ص198.
(121)- محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 76.

كان لها دور مهم في صلابة عود الأدارسة وقوة شوكتهم. ولهذا كان شيئا طبيعيا أن تثير مواقف إدريس الثاني سُخط الأوْربيين، خاصة مع ما أظهره من ميل للعرب الوافدين من إفريقية والأندلس[122]، بعد أن «قرّبهم ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر»[123]. غير أن عبد الله العروي، رأى هذا الأمر عاديا، وأن تاريخ تشكُّل الدولة الإدريسية انتقل بشكل طبيعي من مرحلة الإمامة أو الدعوة إلى مرحلة الإمارة أو الدولة[124].

من زاوية أخرى من الممكن جدا أن تكون المؤامرات التي كانت تستهدف الأدارسة وتؤكد حجم اختراق صفوف أوربة، من بين العوامل التي دفعت إدريس الثاني إلى اختيار فاس كمركز قرار لهم. وهذا الأمر نستشفه من رواية ابن خلدون التي تحدث فيها عن تخلُّص إدريس الثاني من زعيم قبلي ينتمي لأوربة والمسمى إسحاق بن محمود وذلك سنة 192هـ/807م، «لمّا أحس منه بموالاة إبراهيم بن الأغلب»[125]، كما باشر حسب وجهة نظر أحد الباحثين«فك ارتباط الإمارة بمشايخ أوربة ومطغرة بتدبير من أمه كنزة»[126]. وهو السياق الذي يمكن من خلاله أن نفهم استمالته زناتة ضد أوربة[127]، في إطار ما عبّر عنه دارس حصيف ب«سياسة الموازنة»[128] بين مختلف العصبيات لصالح قوة الدولة. وهنا يظهر أن الهاجس الأمني كان حاضرا بقوة عند أمير شاب، ربما يرافقه طموح يفوق طموح والده. خاصة بعد أن رأى جموع العرب والأندلسيين الذين آعصوْصبوأ حوله، قد «استفحل بهم سلطانه»[129]. فالاختراق الذي أحدثه خصومه في صفوف الأوْربيين، ولّد لديه فيما نحسب نوعا من التوجس، يمكن أن يُفهم من مضمون الرواية المصدرية التي

(122)- عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، ص391. لايبدو من خلال مجريات الأحداث أن إدريس الثاني اعتمد على العرب الوافدين من الأندلس من جانب عنصري، بالنظر لالتفاف عدد من القوميات حوله. بل يظهر أن البُعد «البرغماتي» كان طاغيا في الاستفادة منهم كمورد بشري له أهميته في تقوية الجيش لفتح مزيد من الأرض، كما أيضا من الوارد جدا أن يستغلهم في الإدارة والتعليم وأشغال البناء والعمران.

(123)- ابن أبي زرع، القرطاس ص29.

(124)- العروي، م.س، ص23.

(125)- تاريخ ابن خلدون، ج4، ص.18.

(126)- مجموعة باحثين، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، ص158.

(127)- محمود إسماعيل الأدارسة، ص76.

(128)- المرجع نفسه والصفحة.

(129)- تاريخ ابن خلدون،ج4، ص.18

تحدثت عن «استراب إدريس بالبرابرة»[130]. والمقصود هنا على ما يبدو أوْربة على وجه التحديد.

وفي علاقة مع هذا الأمر لم يكتف الرجل في سياسته الداخلية حسب ما استقيناه من صاحب المقدمة، الاعتماد على العنصر العربي الوافد من الأندلس وإفريقية، بل وأصبحت له سياسة خارجية جسّدها في مصالحته لإبراهيم بن الأغلب، بما أسهم في عجز «الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة»[131]. وهو مؤشر يدلّ على أن الأدارسة أصبحوا "رقما" مهما في "المعادلة السياسية" في أقصى غرب العدوة الجنوبية، بعد أن تمكنوا من إقامة كيان سياسي وعسكري قادر فيما يبدو على منافسة الأعداء الداخليين والخارجيين، وذلك بفضل ما توفر لديهم من زخم بشري من معظم قبائل المغرب "الأقصى".

2- بعض مظاهر توحيد المجال ووضع الأسس الأولى للدولة المركزية:

ـــ دشن إدريس الثاني قوة وهيبة الدولة الفتية منذ عام 197هـ/ 812م، من خلال سياسة غزو أجزاء مهمة من مجال المغرب "الأقصى" على غرار ما قام به والده، وذلك لِما يمكن أن يكون قد حصل من تراجع عن تبعية قبائل الجنوب للأدارسة، فخرج إلى«نفيسفي المحرم سنة سبع وتسعين»[132] ومدينة أغمات وفتح سائر بلاد المصامدة»[133]، وأقام«سُلطانه عليهم»[134]. وهنا لا يمكن فصل سياسة اكتساح المجال عنالدوافع الاقتصادية والأمنية، باعتبارها حجر الزاوية في صياغة السياسة الإدريسية التوسعية[135]. فامتلاك زمام الطرق التجارية وبالتحديد التجارة الصحراوية، واستغلال ما يختزنه مجال الغزو من ثروات فلاحية ومعدنية[136]، ظل بمثابة ثابت من ثوابت قيام الدولة المغربية

(130)- المصدر نفسه، ص19.
(131)- نفسه والصفحة. في هذا الإطار لا ننسى الدور الذي سيقوم به الأدارسة في الأندلس بعد أفول نجمهم في بلاد المغرب، حيث ستتاح لهم فرصة تأثيث المشهد الانقسامي ببلاد العدوة الشمالية خلال حكم ملوك الطوائف.
(132)- البكري، الممالك والمسالك، م.س، ص805. أنظر ترجمة " نفيس" عند الجزنائي، جنى زهرة الأس، ص27، الهامش رقم 66.
(133)- الجزنائي، جني زهرة الآس، ص27. وتاريخ ابن خلدون، ج 4، ص 18.
(134)- لوتورنو(روجر)، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تعريب الدكتور أمين الطيبي، ط2، 1419هـ/1998م، نشر وتوزيع – المدارس- الدار البيضاء، ص12. وقد أشار لوتورنو في هذا السياق إلى إمكانية دخول مصامدة الجبل في الإسلام منذ عام197هـ/813م.
(135)- محمود إسماعيل، الأدارسة، م.س، ص130.
(136)- أنظر ابن عذاري، البيان، ج1، ص84: حركة إدريس بن عبد الله نحو رباط تازا، حيث معدن الذهب.

الوسيطية وأحد أسس تثبيت الحكم القائم. فقد ظلت مسألة التحكم في هذا الشريان الرئيسي قاسما مشتركا بين كل العصبيات والأسر التي توالت على حكم بلاد المغرب.

وفي مرحلة أخرى اتجه شرقا لفرض سلطة الأدارسة المطلقة على غرب المغرب الأوسط، بعد غزو «نفزة وتلمسان»[137]. وهو ما يفسر الأهمية "الاستراتيجية"[138] لتلمسان والتي جعل منها الأدارسة بابا أماميا في التصدي للخطر الخارجي، المتمثل أساسا في الأغالبة ولاة العباسيين في إفريقية. وبعد أن «انتظمت كلمة البرابرة وزناتة عليهم ومَحَواْ دعوة الخوارج منهم»[139]، عاد إدريس الثاني إلى فاس في شهر محرم سنة 202هـ/ 817م[140]، التي تزامنت مع هجرة ثوار قرطبة نحو العدوة الجنوبية، فسمح لهم «بالقرار في الحي الشرقي»[141] بعد أن طردهم الحَكم الأول أمير قرطبة الأموي وذلك عقِب «وقعة الربض»[142]. لتستقبل فاس على إثر هذا الخطير «حوالي ثمانية ألف أسرة اشتغل أفرادها بمهام مركزية داخل الجهاز المخزني الإدريسي»[143].

(137)- البكري، الممالك والمسالك، ص805. «جدد بناء مسجدها وأصلح منبرها، وأقام بها ثلاث سنوات». تاريخ ابن خلدون، ج 4، ص18.

(138)- عزّز المرابطون فيما بعد هذه القيمة الاستراتيجية للمدينة في مواجهة أي تهديد محتمل، كإمكانية حصول تحالف بين عرب إفريقية وبني حماد الصنهاجيين مثلا من أجل تملك المدينة بأبعاد سياسية واقتصادية. أنظرا مقال الباحث محمد البركة، المجال واستراتيجية المشروع المرابطي: تلمسان ونهاية الدولة، عصور الجديدة – العدد 2 (عدد خاص بتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية) مختبر البحث التاريخي - تاريخ الجزائر. جامعة وهران - الجزائر. 2011م/1432هـ، من الصفحة111 إلى الصفحة 122.

(139)- تاريخ ابن خلدون، ج 4، ص18.

(140)- سالم، تاريخ المغرب والأندلس، ص391.

(141)- بروفنصال، الإسلام في المغرب والأندلس، م.س، ص10.

(142)- المرجع نفسه والصفحة.

(143)-Abitbol (Michel); Histoire du Maroc,collection,tempus-editions Perrin, 2009, France. p: 46.



الخريطة رقم (1):

المرجع: شوقي أبو خليل،أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، دمشق - سورية، 2005، ص51

هذه التحولات التي رافقت المشروع السياسي للأدارسة جعلت من مدينة فاس «دار علم وفقه وصلاح ودين، وقاعدة بلاد المغرب وقطرها ومركزها وقطبها»[144]. بل وستشكل هذه المدينة فيما نخال مشتركا سياسيا وماديا ورمزيا بين الأدارسة والمرابطين والموحدين ثم المرينيين، من حيث ثقلها السياسي والاقتصادي والديني والعلمي عبر مسار تطور الدولة بالمغرب وتعاقب السلالات الحاكمة عليها. فقد أصبحت فاس حاضرة تكتسي أهمية "استراتيجية" ليس بالمعنى العسكري، ولكن من حيث القيمة الحضارية للمدينة منذ أن صارت دار ملك الأدارسة[145]. فقد أخذت هذه الحاضرة المغربية «تنشر الثقافة الإسلامية بين البربر، وتُهيِّئ لقيام حضارة مغربية إسلامية اشتد ساعدها في القرن الخامس الهجري»[146].

(144)- ابن أبي زرع، القرطاس، ص32.
(145)- ابن أبي دينار، المؤنس، ص99.
(146)- حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص15.

وإذا كانت فاس تمثل رمزا للسلطان والعلم طيلة حكم الأسر والعصبيات الكبرى المتعاقبة على حكم الدولة المغربية خلال العصر الإسلامي، فإن أهمية هذه المدينة برزت منذ وقت مبكرعلى مستوى النظم التي هي سمة الدول المركزية. فقد احتضنت هذه الحاضرة وبشكل مبكر دار سِكّةٍ «من أكثر معامل ضرب النقود نشاطا بالغرب الإسلامي وبالمغرب الأقصى»[147]. وقد أشار في هذا الإطار محمد الحضري، إلى أن إسم فاس لم يَرِد «إلا في أواخر الفترة الإدريسية على نقوذ ذهبية (لأول مرّة) وفّضية تسرّبت باسم خلفاء بني أمية بالأندلس»[148].علما أن المسارعة لضرب السكة منذ عهد إدريس الأول، إلى جانب ما له من رمزية في البُعد الخاص بتنظيم نظام الحكم، فإنه إعلان عن «استقلاله بالحكم وعدم تبعيته لأية سلطة خارجية»[149]. كما أن ضرب السكة في هذا الوقت المبكر، يضل فيما نحسب علامة بارزة في تاريخ المغرب"الأقصى". وهنا يشير أحد المصادر إلى ما يفيد رواج للعملة الإدريسية المتمثلة في دنانير «مضروبة باسم إدريس الحسني»[150]. ولعل انتشار العملة زمن الأدارسة ومن بعدهم المرابطون والموحدون، معناه التحكم في المجال و«بسط السيادة على كل جهة تغلغلت فيها الدعوة»[151].

وفي إطار تجسيد تبلور شخصية الدولة المغربية الناشئة، أصبحت معالم التنظيم المركزي خلال العصر الأول لظهور الأدارسة، تتجسد في نظام الإدارة والاقتصاد، إذ لم ينحصر الأمر في إقرار وترسيخ نظم البلاط ورسوم الوزارة والإدارة ونظم القضاء والجباية والجيش[152]، بل وفي التطور الإيجابي الذي شهدته قطاعات اقتصادية حيوية كالميدان الفلاحي والصناعي. حيث كانت أسواق أغمات «يذبح بها مائة ثور وألف شاة كل أسبوع»[153]. ويبقى كافيا أن يزدهر قطاعي الجلود التي اشتهرت بها فاس...والأدوات

(147)- الحضري(محمد)، تطور السِّكَّة والمسكوكات بفاس حتى عهد بني مرين، كلية الأداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر – أكادير، مجلة دراسات وأبحاث أثرية مغربية، دار أبو رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2020، عدد 12، ص219.
(148)- المرجع نفسه، ص220.
(149)- العروي، مجمل تاريخ المغرب، م.س، ص21.
(150)- ابن الأبار(أبو عبد الله محمد بن عبد الله البلنسي، 595هـ/ 1199م)، الحلة السيراء، ج.2، حققه وعلق على حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف – القاهرة، ط.1، 1963/ ط.2، 1985.، ص165.
(151)- العروي، م.س، ص22.
(152)- محمود إسماعيل، الأدارسة، ص74.
(153)- المرجع نفسه، ص73.

الخشبية التي أنتجتها بلاد الريف، ونهج سياسة جبائية عادلة حسب الشريعة[154]، لكي تنشط حركة التجارة مع بلاد السودان والأندلس. وهي مؤشرات اقتصادية واجتماعية إيجابية أسهمت في حرص الأدارسة على فرض سياسة الأمن وترسيخ الاستقرار. مما دفع بكثير من الحرفيين في الشرق والغرب إلى الهجرة نحو دولة الأدارسة، الشيء الذي حملهم على تحسين وسائل الإنتاج[155]. وهنا يظهر للأستاذ محمد زنيبر «الدولة الإدريسية، برغم "بساطتها" قد تركت وراءها خميرة ستساعد فيما بعد على تكوين الدولتين المرابطية والموحدية»[156]، كما رأى فيما حسبناه إرهاصات لتجربة الوحدة زمن المرابطين والموحدين، أن دور الأدارسة في المغرب " الأقصى" شكّل «أول محاولة للتوحيد السياسي والديني»[157].

يبدو إذن أن النتائج السياسية والمقومات المادية التي توفرت للأدارسة قد أسهمت في خلق فرص التلاقح الاجتماعي والثقافي بين المكون البشري لبلاد المغرب الأقصى، وذلك بعد أن التحم شمل عدد كبير من القبائل تحت ظل حكمهم.في هذا الإطار يرى الأستاذ حسين مؤنس أن «الأثر الحضاري الذي خلفته دولة الأدارسة كان عميقا وبعيد المدى...فقد رأت قبائل المغرب "الأقصى" كيف قامت في بلادهم دولة قوية الجانب منظَّمة الإدارة، يقوم على رأسها إمام مطاع ومحبوب، تُعز به السنة والجماعة ويستقيم بجاهه الإسلام الصحيح ويظهر به أمر قبائل بربرية لم تكن ذات شأن سياسي كبير»[158]. بينما محمود إسماعيل تحدث عن قيام مشروع سياسي علوي تمثل في «تأسيس دولة نواة تطلعت للتوسع شرقا لتضم سائر العالم الإسلامي»[159]، بكل ما يمكن أن يختزله مفهوم الدولة النواة من بُعد وحْـدَوِيّ داخل جزء مهم من مجال بلاد المغرب "الأقصى"، بما فيها تلمسان باب إفريقية[160]. رغم أن أحد الباحثين في تقييمه لدور الأدارسة المبكر في ظهور ملامح الدولة

(154)- نفسه والصفحة.
(155)- نفسه، والصفحة. هذه المؤشرات اعتمدنا فيها على باحث متمرس من حجم محمود إسماعيل الذي احتك كثيرا بالمصادر خاصة كتب الجغرافيا والرحلات.
(156)- زنيبر محمد، المغرب في العصر الوسيط،ص18.
(157)- المرجع نفسه والصفحة.
(158)- عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق مؤنس حسين، مكتبة الثقافة الدينية – شارع بور سعيد/ الظاهر،ط.1997،1، ص6.
(159)- محمود إسماعيل، الأدارسة، ص53.
(160)– ابن أبي زرع، القرطاس، ص22.

حدد مستوى تنظيمها في الجباية وضرب السكة وتنظيم الحملات العسكرية[161]، أمام ندرة المعلومات حول الأدارسة. أكثر من هذا يظهر لنا أن الأستاذ محمود إسماعيل بالغ في التضخيم في موضوع تطلعات الأدارسة لمشروع من حجم ضم سائر العالم الإسلامي[162].

فالعباسيون خلال هذه المرحلة، كانوا في أوج قوتهم لكي يسمحوا بقيام دولة كبيرة يقودها آل البيت انطلاقا من بلاد المغرب الإسلامي. وبمجرد وفاة المؤسسين الأولين بدأت ملامح الضعف تظهر على الأدارسة والتي تجسدت بشكل واضح في تفتيت المجال بين أبناء وأحفاد إدريس الثاني. إذ أصبحت «الإمارة الإدريسية محصورة في مدينة فاس، ولا يمثل الأدارسة في خارجها إلا صورة روحية فقط»[163]. وهو ما فتح بلاد المغرب "الأقصى" على مرحلة "فراغ سياسي" طال زمانه، بعد أن أصبح ساحة صراع بين خلفاء بني أمية في الأندلس والفاطميين الشيعة في إفريقية[164]. فكلتا الخلافتين وظفتا القبائل الزناتية في هذا الصراع ضمن واقع التحالفات المؤقتّة بأبعادها النفعية[165]. ولعل مثل هذه التفاعلات قد أربكت مسار ما تحقق من وحدة لجزء مهم من مجال المغرب الأقصى" زمن الأدارسة المؤسسين، ليدخل البلد بعد ذلك فترة طويلة على وقع الصراع القبلي بين كيانات محلية متعددة، إلى حدود ظهور المرابطين الذين لم يتوقف سقف مشروعهم السياسي في حدود توحيد المغرب "الأقصى" بكامله، بل تعدّاه إلى أفق أوسع بما أملته مجموعة من الظروف الإقليمية الجديدة على رأسها استفحال أمر نصارى الشمال في الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط.

ونختم تقييمنا لتجربة الأدارسة الجنينية ــ التي حسبناها أرضية أولى لما سيليها من تجارب سياسية تهم توحيد جزء من مجال شاسع شكّل نواة لتجربة سياسية كبرى بالغرب

(161)– Abitbol Michel, Histoire du Maroc, op.cit; p: 47 .

(162)- يُذكرنا هذا الأمر بمشروع الخلافة الموحدية الذي تجاوز الطموح الأيديولوجي لمؤسسيها الواقع السياسي الإقليمي والدولي آنذاك، ذاك الواقع الذي فرض على الموحدين من داخلهم تفويض حكم إفريقية للحفصيين بالنظر إلى حجم التحدي الكبير في الأندلس.

(163)– هاشم العلوي، مجتمع المغرب الأقصى، ج2، ص252. .

(164)- حظي المجال الإفريقي باهتمامنا في هذا البحث، سواء ضمن السياق التاريخي المغاربي من حيث واقع الانقسام الداخلي ودور العرب ثم هجومات نصارى النورمان، ثم ضمن تجليات التجربة الوحدوية من بعض مظاهر التقارب بين المرابطين والزيريين زمن التجربة الوحدوية، قبل أن يضم الموحدون كامل مجال صنهاجة الشمال.

(165)– أنظر ما نقله ابن عذاري عن محمد بن يوسف الوراق في كتابه "المقباس في أخبار أهل فاس" البيان المُغرب، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال،ج1، ص 253-255.

الإسلامي زمن المرابطين والموحدين ـ باستخلاص آراء مجموعة من الباحثين حول هذه المرحلة التي تهمّ بداية مركزة المجال ببلاد المغرب "الأقصى".

فالباحث محمد شقير يرى أن تجربة الأدارسة في الحكم «قد ساهمت بشكل كبير في بلورة ملامح الدولة بالمغرب»[166]، وذلك بعد أن أتيحت لهم فرصة الوصول إلى حكم منطقة تكتسي أهمية كبيرة من البلاد المغاربية، بحكم مجاورتها لبلاد الأندلس وباعتبارها مجالا حيويا لمرور القوافل التجارية التي تربط المنطقة بأعماق الصحراء وبالبحر الأبيض المتوسط.

أما الأستاذ محمد زنيبر فقد جعل من الأشراف الأدارسة أصحاب «البذرة الأولى للدولة في التربة المغربية فأخصبت واستمرت على يد دول متعاقبة، ولم يتوقف تيارها برغم الأزمات والفتن إلى اليوم»[167]. وقد نقل لنا شهادة تاريخية لأحد الغربيين يشبّه فيها دور الأدارسة بالخميرة التي ستساعد فيما بعد على ما خِلناه قيام وتطور تجربة سياسية من حجم توحيد بلاد العدوتين على يد المرابطين والموحدين، ك«أول محاولة للتوحيد السياسي والديني»[168]. كما أن تيراس (Terrasse) فقد جعل قيمة ما أسس له الأدارسة «في المَثَل الذي ضربوه لمن جاءوا بعدهم والذي استمر في الحياة بعد عهدهم»[169]. أما محقق "وثائق المرابطين والموحدين" يرى أن«النتائج السياسية التي تركها الأدارسة وراءهم كانت لا تقل عن النتائج الحضارية»[170]. بينما حسن محمود يرى أن شخصية المغرب "الأقصى" «وضحت وضوحا تاما في ظل الأدارسة خاصة بعد تأسيس مدينة فاس» [171].

استنتاج عام:

(166)- شقير محمد، تطور الدولة في المغرب، م.س، ص79.
(167)- زنيبر محمد، المغرب في العصر الوسيط، م.س، ص17.
(168)- جان دراك، صورة أولية عن تاريخ المغرب الديني، ص13، نقلا عن: محمد زنيبر المغرب في العصر الوسيط، ص18.
(169)- تيراس، تاريخ المغرب، 133/1، نقلا عن محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، ص18.
(170)- في التمهيد لكتاب "المعجب" لعبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، 1997، ط1، ص6.
(171)- حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص15.

نحسب أن التمهيد لموضوع البحث بتجربة الأدارسة في حكم جزء مهم من مجال المغرب "الأقصى"، أرضية خصبة باعتبارها إرهاصات أولى في بداية توحيد أجزاء من المجال، الذي في الوقت نفسه ظل يعيش على وقع الانقسام السياسي الداخلي الذي أسهم فيه الفاطميون والأمويون الذين سيوظفون المجال المغربي لأجل مصالحهم. وهي الأرضية التي من الممكن أن يكون المرابطون قد استفادوا منها نظريا في التأسيس لتجربتهم في الحكم. ورغم بُعد المسافة الزمنية بين الأدارسة والمرابطين، فإن اجتهادنا في تحديد مظاهر هذه العلاقة الممكنة بين حلقتين من حلقات تاريخ المغرب، ظهرت لنا من ثلاثة زوايا رئيسة:

الأولى ما حسبناه التفافا للمكون البشري في هذا الجزء الغربي من بلاد المغرب الإسلامي الكبير حول الأدارسة، كنوع من القابلية لدى المجتمع القبلي المغربي للالتفاف حول إدريس الأكبر ــ بعيدا عن عامل الصدفة ــ والذي ركّزنا فيه على ما لأهل البيت من مكانة في نفوس المغاربة. ولعل هذه القابلية للعيش في ظل الوحدة التي كانت لدى جزء مهم من المُكون القبلي في بلاد المغرب "الأقصى" هو الذي ساعد المرابطين فيما نرى على فتح أكبر حواضر المغرب الأقصى أبوابها في وجه أصحاب مشروع سياسي وحدوي وإصلاحي يهدف إلى القضاء على واقع التجزئة والانقسام والظلم الاجتماعي وتردي الوضع الديني.

أما **الزاوية الثانية** التي حسبناها معيارا في إبراز علاقة موضوع الأدارسة بالتجربة الوحدوية زمن المرابطين، فتتعلق بأهمية فاس التي «كانت دار مملكة الأدارسة الحسنيين الذين اختطوها»[172]، والذين سيُكسبونها إلى جانب رمزيتها السياسية، مكانة اقتصادية وعلمية وحضارية، خاصة لِما اجتمع لديهم من عنصر بشري متنوع من داخل المغرب وخارجه، الحامل لمؤثرات الجنوب والشرق والشمال. ففاس حاضرة الأدارسة لم تفقد قيمتها ووزنها حتى بعد أن أصبحت مراكش مركز تجربة وحدة الغرب الإسلامي زمن

(172)ـ ابن أبي زرع، القرطاس، ص32.

المرابطين ثم الموحدين من بعدهم. ذلك بأن خُطة الملثمين في عملية تمهيد حواضر المغرب الأقصى، جعلت من فاس قطب الرحى بالنظر لمكانتها الدينية والعلمية والتجارية.

التحقت فاس عصر المرابطين بركب سجلماسة وأغمات في موضوع ضرب النقود بعد التطور الواضح «من الناحيتين التقنية والجمالية للخط الكوفي المنقوش على النقود الذهبية»[173]. وازدادت أهمية فاس زمن الموحدين بعد أن أصبحت «إحدى دور الغرب المتخصصة في سك العملة الذهبية»[174]، الأمر الذي جعل منها مدينة قُفْلا بتعبير الإدريسي[175]. وعندما جاء الموحدون ركزوا بدورهم كل الجهد للظفر بمدينة فاس،التي جعلوا منها رمزا لقوة دولتهم في كل الأبعاد الاقتصادية والدينية والعلمية والحضارية. فهي من زاوية أحد المصادر الفاسية، إلى جانب أنها «دار فقه وعلم وصلاح ودين»[176] فهي كذلك «قاعدة بلاد المغرب وقطرها ومركزها وقطبها»[177] وستزداد مكانتها عُلُوًا وفق نفس الرواية المصدرية، وذلك مع مجيء المرينيين إلى الحكم. إذ أصبحت «أمّ بلاد المغرب في القديم والجديد»[178].

أما **الزاوية الثالثة** لعلاقة إرهاصات التجربة الإدريسية بقيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين، فتتمثل فيما استقيناه من إشارتين مصدريتين، الأولى تحدثت عن علاقة قديمة نسجتها قبائل صنهاجة الصحراء مع الشمال المغربي، وذلك أنه «لما بلغهم خبر خلافة الإمام إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل وأنه قدم إلى المغرب وبايعه أهله، قدم عليه وفد وأسلموا إليه بلادهم»[179]. كما أن إشارة مصدرية ثانية في نفس السياق تحدثت عن كون

(173)ـ محمد الحضري، تطور السِّكَّة والمسكوكات بفاس حتى عهد بني مرين، م.س، ص222. أنظر اللوحة 1 و2، الملحق.

(174)ـ نفسه، ص223.

(175)ـ وظفنا المصطلح بالنسبة لفاس لأنها كانت تكتسي أهمية كبيرة لمختلف أنظمة الحكم التي حكمت المغرب الأقصى، رغم أن الإدريسي تحدث في هذا السياق عن تلمسان. الإدريسي (الشريف)،وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى بتصحيحه ونشره هسبيريس – كلية الآداب بجامعة الجزائر، الجزائر، 1376هـ/ 1957م، ص56.

(176)ـ ابن أبي زرع، م.س، ص32.

(177)ـ نفس المصدر والصفحة.

(178)ـ نفس. م وص.

(179)ـ إسماعيل بن الأحمر (725هـ - 805هـ/ 1325م – 1405م)، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة الوراقة – الرباط، 1972، ص27. وإن كنا نتحفظ على كون صنهاجة الصحراء أسلموا بلادهم للأدارسة، لأن الأخيرين لم تكن إمكانياتهم تسمح لهم بحكم مجال شاسع بهذا القدر، إلا ما خلا من علاقة تبعية روحية وعلاقات

محمد بن سليمان بن عبد الله أخ إدريس الأول والذي استقر بتلمسان، «توغل بعض بنيه بالسوس الأقصى»[180] المجاور للمجال الصنهاجي حيث كانت إمكانية التواصل بين آل البيت وسكان الصحراء. ويزكي هذا الأمر كلام العروي الذي تحدث فيه عن «عودة صنهاجة في القرن 5هـ/ 11م إلى جنوب المغرب ليجدوا فيه إسلاما من نوع آخر أكثر التحاما بالشريعة، بسبب دعوة الأدارسة والاتصال المستمر مع قواعد الأندلس»[181]. وعليه فإن حديثنا عن إرهاصات أولى لقيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين، انطلاقا من زمن الأدارسة في إطار ربط الماضي بالحاضر[182]، أردنا منه أن نجعل للأحداث التاريخية معنىً. وحيث إن التاريخ هو عبارة عن حلقات لاتفتأ تضيع حلقة منه حتى يضيع الخيط الناظم داخله، هنا يستعصي فهم الكثير من الأحداث التاريخية وتظل الضبابية تلفها من كل الجوانب، فيضيع بذلك الحد الأدنى من الحقيقة التاريخية في إطارها النسبي.

تجارية فيما نحسب. علما أن رأيا آخر يتحدث عن إشارة المصادر إلى أن إسلام السودان ترسّخ في ق3هـ/ 9م على يد الأدارسة.

(180)- مجهول، مفاخر البربر،ص200.

(181)- العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص111.

(182)- تجنبا لمنهج الإقصاء بدوافع أيديولوجية ما، وبعيدا عن الميل إلى الطرح الرسمي للتاريخ، لا أزعم أن تجربة الأدارسة في حكم جزء من المغرب الأقصى، هو الأنموذج الوحيد الذي شهدته المرحلة. إلا أنه في إطار المنهج المقارن تبين لي أن الإمارة الإدريسية هي التي شهدت توسعا مهما داخل مجال المغرب الأقصى جنوبا وشرقا، بناء على ما استخلصناه من المصادر وعلى وجه التحديد (مقدمة ابن خلدون كمصدر ومجتمع المغرب الأقصى:هاشم العلوي كمرجع) فحاولنا أن نجعل من هذا الأمر إرهاصات أولى لما سيشهده مجال المغرب الأقصى من تغيرات زمن حكم المرابطين والموحدين، في إطار «البروز التدريجي لهوية المغرب الأقصى عبر علاقات التبعية والصراع والتبادل مع كيانات متعددة تقع في بقية بلاد المغارب وبلاد الأندلس بالإضافة إلى المشرق و"بلاد السودان"» م.م، تحيين وتركيب، ص143.

الباب الأول:

السياق التاريخي للتجربة الوحدوية بالغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين

إن الخوض في السياق التاريخي[183] لأية ظاهرة تاريخية في أبعادها السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، لا يمكن أن تخفى أهميته على الباحثين في مجال التاريخ، وذلك باعتبار السياق التاريخي الوعاء الذي يحوي الظروف الموضوعية المتعلقة بقيام أول تجربة سياسية تهمّ توحيد مجال شاسع من حجم ما تحقق على يد المرابطين والموحدين بالغرب الإسلامي. لكن هذا الأمر لم يتحقق فجأة، حسب ما تروم إليه نظرية الصدفة. ذلك أن التجربة السياسية التي توسعت مجاليا، كان أساسها توحيد المغرب "الأقصى" وبروز الدور المركزي لحاضرة مراكش، التي ستتحول إلى "عاصمة" لبلاد الغرب الإسلامي.

يمكن إذن اعتبار السياق التاريخي الذي في إطاره بزغ فجر وحدة الغرب الإسلامي زمن المرابطين، وفي إطاره أيضا حصلت تطورات سياسية على مسلسل هذه الوحدة زمن الموحدين، الخطوة الأولى لفهم دور تأثير الماضي في الحاضر المرتبط بتاريخ المغرب الإسلامي الوسيط. وذلك من خلال تمثُّل حجم التّحدي الذي رفعته قبائل صنهاجة الصحراء بقيادة الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين، الذي وضع اللبنة الأولى للمشروع السياسي للملثمين في قلب الصحراء، بداية من منتصف القرن الخامس الهجري/ القرن 11م. هذا المشروع الذي سيشهد ترجمته "الحقيقية" زمن يوسف بن تاشفين مُوحّد ما يُعرف ببلاد العدوتين. بالمقابل ظهر الفقيه عبد الله بن تومرت خلال العقد الثاني من القرن السادس الهجري بمشروع سياسي ملفوف بأيديولوجية "جديدة "، أوصلت المصامدة إلى الحكم عام 541هـ/ 1146م، بعد تحطيم أركان الدولة المرابطية. واضعين أمام أعينهم المحافظة على إرث سياسي تركه المرابطون، والذي يظهر أنه كان وراء إطالة عمر الدولة الإسلامية في الجناح الجنوبي الغربي لأوربا القروسطوية إلى نهاية القرن التاسع الهجري (ق.15م). ولن تكون مقاربتنا لهذا الموضوع بذات جدوى إلا من خلال تمحيص واستنطاق المصادر التي تختزل ما نحن بصدد البحث عنه في موضوع السياق التاريخي للتجربة الوحدوية، ومقارنة السياقين اللّذين على أنقاضهما قام حكم كل من المرابطين والموحدين، بُغية الخروج بنتائج نطمح إلى أن تزيح بعض الضبابية عن هذه المرحلة المهمة.

(183)- تتم دراسة التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين وفق أنموذج أساسه القيام والتطور، لأن ما يُسوّغ التمييز الإجرائي بين الدولتين الصنهاجية والمصمودية هو تباين سياقهما من حيث البُنى الداخلية والعوامل الخارجية (إمارة المسلمين/ المذهب المالكي - وإمارة المؤمنين/التومرتية والمهدوية والظاهرية والأشعرية.

ولمقاربة موضوع السياق التاريخي للتجربة الوحدوية للغرب الإسلامي ، نحتاج إلى طرح مجموعة من الأسئلة التي تُعد الإجابة عنها وفق المنهج التاريخي العلمي عملا مؤسِّسا(184)، لفهم قيمة ما جلبته التجربة الوحدوية خلال العصر الإسلامي المغربي الوسيط، كبديل عن واقع الانقسام والتجزئة الذي ساد لقرون عديدة بعد تجربة الأدارسة في توحيد جزء من مجال المغرب "الأقصى".

- فما هي إذن أهم معالم واقع الصراع القبلي والانقسام الداخلي والتدخل الإقليمي داخل البلاد المغاربية قبيل قيام دولة المرابطين؟ ثم حالة الوضع السياسي داخل هذا المجال قبل ظهور الدعوة الموحدية؟

- ما هو الوضع السياسي الذي ميّز تاريخ الأندلس قبيل الزلاقة؟ وما هو السياق الذي جاءت في إطاره الدعوة الموحدية؟

(184)- اعتمدناه كأساس لمقاربة موضوع من حجم "التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين" وذلك قصد إبراز أهم معالم تهرأ "المشهد" السياسي والمجتمعي الذي كانت تعيشه البلاد المغاربية والأندلس، قبل أن يبزغ فجر حركة المرابطين في التأسيس لتجربة توحيد بلاد المغرب الأقصى والأندلس، بعد حدث الزلاقة الذي قلب موازين القوة في منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. وجاءت الحركة الموحدية بمشروع جديد يجمل معالم خلافة إسلامية، عملت على ترسيخ واقع التجربة الوحدوية، لكن بالتوسع وفق هندسة أفقية على حساب مجال صنهاجة الشمال بكامله.

الفصل الأول: سياق بلاد المغرب "الأقصى"

لعل أهم ما ميز بلاد المغرب "الأقصى"[185] طيلة القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس الهجري، تفتت المشهد السياسي بعد أفول نجم الشرفاء الأدارسة الذين كانوا قد وضعوا اللبنة الأولى فيما نحسب، لفجر وحدة جزء مهم من تراب المغرب "الأقصى"، والذي مثلت خلاله مدينة فاس العاصمة السياسية، رمزا لتلك التجربة في إطارها الجنيني. فقد تقاسمت تراب المغرب "الأقصى"عدة كيانات سياسية متجاورة[186] «تضم إمارات ومدنا قائمة بذاتها، كدول ظهرت خلال فترات مختلفة»[187]، إلى جانب قيام إمارات جديدة[188] والتي اشتدت معها وتيرة «الصراعات المذهبية والسياسية، التي شجعت على تزايد التدخلات الأجنبية في المغرب "الأقصى" الذي أصبح مسرحا لتنافس مختلف القوى الإقليمية التي كان لها نفوذ في المنطقة»[189].

المبحث الأول: الأوضاع بالمغرب"الأقصى" قبل قيام دولة المرابطين:

1- مظاهر الصراع القبلي:

أورد صاحب البيان المغرب ما يفيد تغلب كل شخص من أهل المغرب وأمراءه على موضعه، على منوال ما «فعل ملوك طوائف الأندلس»[190]، مما جعل بلاد المغرب

(185)- المجال المقصود هنا أقصى غرب بلاد المغارب والملتصق جنوبا بمضارب صنهاجة الصحراء. والذي كان جزء منه قد تم توحيده عهد إدريس الأول وإدريس الثاني.

(186)- جسدت فاس بعدوتيها مظهرا من مظاهر الانقسام الحضري مع بداية اضمحلال الدولة الإدريسية، فابتداء من 213هـ/ 830م«ظهرت فاس على شكل "مدينتين مستقلتين" وكان هذا الانشطار المديني ناتجا عن الانشطار السياسي الذي عرفه المغرب الأقصى، واستمر كذلك معبرا على ظواهر الانقسام والتجزئة التي عرفتها البلاد، إلى قيام المرابطين في أواسط القرن الخامس الهجري/11م.» هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري (منتصف القرن العشر الميلادي)، مطبعة فضالة - المحمدية، 1415هـ / 1995م، ج2. ص385.

(187)- م.م، تاريخ المغرب تحيين تركيب، ص161. هاشم العلوي، مجتمع المغرب الأقصى، ج2 (الخريطة السياسية المذهبية خلال الفترة الممتدة بين 296– 316هـ/ 909م – 930م)، ص271.

(188)- أورد بعض الباحثين ما يمكن اعتباره خريطة سياسية لبلاد المغرب تبرز انقسام المجال بين عدد من الكيانات *إمارة بني خزرون بسجلماسة « اجتاحها المرابطون سنة 448هـ /1056م» قبائل مغراوة بفاس وبنو يفرن بسلا وتادلا. منذ 410هـ تم في منطقة النكور تأسيس إمارة إزداجة والتي كانت من المعاقل التي لم يتم إسقاطها من طرف المرابطين إلا في أوائل العقد السابع من القرن الخامس الهجري. كما تأخر إسقاط إمارة سقوت البرغواطي حتى 477هـ/ 1084، سنتين قبل دخول المرابطين الأندلس. أنظر: القبلي، تحيين وتركيب، م.س، ص161.

(189)- محمد شقير، تطور الدولة في المغرب، ص170.

(190)- ابن عذاري (المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ــ قسم المرابطين ــ تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط.3، ج.4، 1983م، ص10.

«يتوجع تحت حكم ملوك طوائفه، لكل بلدة حاكم، ولكل قبيلة رئيس أو أمير»[191]. فأصبحت بذلك خريطة المغرب الأقصى تعبر عن عدم الوحدة السياسية والاجتماعية[192] والذي عبّر عنه أحد الدارسين ب«مجتمع الانقسام والتجزئة»[193].

ولن يقف الأمر عند هذا الحد، بل سيزيده التدخل الأجنبي استفحالا بفعل ما كان يتعرض له المغرب "الأقصى" من ضغوط سياسية ومذهبية على يد الفاطميين انطلاقا من إفريقية، والأمويين حكام بلاد العدوة الشمالية. فقد مثل الصراع الفاطمي – الأموي السمة البارزة في تاريخ المغرب والأندلس خلال القرن الرابع الهجري (ق.10م)[194]. حيث ذهب أحد الباحثين إلى أن «الصراع السياسي بين الخلافتين العبيدية والأموية على المغرب "الأقصى" كان في جميع الحالات صراعا مع القبائل المغربية»[195]. ذلك بأن الفاطميين بعد فشلهم في ترسيخ المذهب الشيعي في وسط مغاربي سني مالكي، عملوا على استمالة بعض القبائل المغربية ضد أخرى، بغية تأجيج «نيران العصبيات القبلية في المغرب إلى درجة جعلت هذه القبائل تدخل بعضها مع بعض في حروب إبادة. بل هرب بعض زعماء البربر إلى الأندلس ناجين بأنفسهم من صراع القبلية في المغرب»[196].

في هذا الإطار يرى أحد الباحثين أن المغرب خلال هذه الفترة «كان مُوزّعا بين قوتين أو اتجاهين: الاتجاه الأموي الأندلسي وكان يواليه الزناتيون، والاتجاه الفاطمي وكان يسانده

(191)- أبو بكر محمد بن الحسن المرادي (متوفى 489ه)، كتاب السياسة أو « الإشارة في تدبير الإمارة»، تحقيق سامي النشار، ط.1، 1430هـ/2009م، جمهورية مصر– القاهرة - الإسكندرية. ص11.

(192)- الأدارسة- مغراوة الشرق وأغمات ونفيس– مكناسة بفزاز – تمدلت ونول لمطة – بني يفرن المكناسية – بنو مدرار بسجلماسة - بنو عاصم بسبتة – برغواطة في غرب المغرب الأقصى: (بتصرف): أنظر التفاصيل، هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري (منتصف القرن العشر الميلادي)، مطبعة فضالة - المحمدية، 1415 ه / 1995م، ج2، ص271.

(193)- هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، م.س، ج2، ص272.: مجتمع الانقسام هذا ساده « حكم الأقلية ذات الأفق السياسي الضيق» نفسه، ص266.

(194)- الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي،الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مجلة عالم المعرفة، مطابع السياسة – الكويت، شتنبر 2005 / رجب 1426، ع. 319، ص 265.

(195)- هاشم العلوي، م.س، ج2، ص 266. سيطر في مغرب ما قبل وصول المرابطين إلى الحكم، إلى جانب الصدامات القبلية، ما عمّه من « بلوى الصراعات الإقليمية، خاصة المواجهة الفاطمية والأموية في مرحلة تمزق بين الإمارات المغراوية بفاس وسجلماسة وأغمات والسوس، وإمارتي بني يفرن بسلا وتادلة، وإمارة إزاجة بنكور وإمارة سقوت البرغواطي بسبتة التي أقامها على أنقاض إمارة الحموديين، فضلا عن إمارة زناتة بتازة وتسول « القبلي، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، م.س، ص151.

(196)- مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص153.

الصنهاجيون. وكانت لهاتين القبيلتين أو المجموعتين من القبائل، إمارات يمكن أن نسميها إمارات حاجزة أو عازل" من شأنها أن تحول دون تسرّب الخطر للطرف الآخر»[197].

لكن أكثر من هذا ينبغي أن نستحضر هنا الشرخ الكبير الذي أحدثه الفاطميون داخل الحلف القبلي الزناتي، من خلال «الحملة التي قادها مصالة بن حبوس[198] لإخضاع المغرب الأقصى... وفرض الحكم الشيعي الفاطمي «[199]، قبل أن يستقر الأمر لمكناسة في مرحلة أخرى بقيادة موسى بن أبي العافية وأبنائه. بينما في الجهة الأخرى استغل الأمويون الصدام بين العبيديين والمغراويين الذين هُمْ جزء من «التجمع الحلفي الزناتي»[200]، ليتحالفوا مع بني يفرن تحقيقا لما يمكننا وصفه بالتوازن"الاستراتيجي"، حيث يرى أحد الدارسين أن «الصراع في هذه الجهات الغربية كان على المصالح الاقتصادية والاستراتيجية أكثر مما كان عقديا ومذهبيا»[201] ولتكون نتيجة هذا الصدام النفعي، حول بلاد المغرب الأقصى، غير مقتصرة «على تفكيك نظمه السياسية، بل كان وقعها أعمق، إذ أسفرت عن تحركات للقبائل النفزية والبرنسية والمصمودية والمكناسية، باستثناء قبائل صنهاجة التي ظلت مقيمة بمضاربها الصحراوية»[202]. وهذه الظروف هي التي تركت قبائل زناتة تستفرد بجزء مهم من بلاد المغرب "الأقصى" خاصة منهم مغراوة وبني يفرن «أعتى قبائل الزناتيين وأكثرها إفسادا. ولولا أن الله تدارك المغرب بالمرابطين فالموحدين فإننا يصعب أن نتصور اعتدال ميزان المغرب بعد العاصفة الفاطمية»[203].

(197)- عباس الجراري، دروس حسنية (وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ: قدمته الإذاعة والتلفزة مساء الأحد 28 رمضان 1395هـ الموافق 5 أكتوبر 1975م)، جمع وتقديم حميدة الصائغ الجراري، ط.1، ربيع الثاني 1436= فبراير 2015م، مكتبة دار السلام للطباعة والتوزيع، منشورات النادي الجراري(64) - الرباط. ص59.

(198)- زعيم قبلي ينتمي لقبيلة مكناسة ذات النفوذ شرق ملوية، بعد أن كان عاملا على تاهرت «قاعدة القيادة العبيدية في الجهات الغربية... عينه الخليفة عبيد الله المهدي واليا على المغرب الأقصى وفوض له حق التصرف في الرقاب والأموال» هاشم العلوي، مجتمع المغرب الأقصى، م.س، ج2، ص328.
كما تم توظيفه في الصراع ضد الأمويين من خلال مهاجمة سعيد بن صالح أمير نكور، الذي بعد أن فر للاحتماء بالأمويين - في مرحلة أولى- قبل رجوعه واسترداد ملكه بمنطقة النكور ليعلن ولاءه عام 305 لقرطبة: أنظر الحبيب الجنحاني، عالم المعرفة، العدد 319، ص269.

(199)- هاشم العلوي، م.س، ج2، ص328 - 329.

(200)- نفسه، ص328.

(201)- هاشم العلوي، م.س، ص251.

(202)- م.م، تاريخ المغرب تحيين تركيب، ص160.

(203)- مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، م.س، ص 153.

إن هذا الجو السياسي المجتمعي العام الذي تميز بالتأزم وسيادة مظاهر الانقسام الداخلي، صب لصالح قبائل زناتة طيلة النصف الأول من القرن الخامس الهجري(ق.11م)، وهي الفترة التي أطلقت عليها بعض الكتابات "المرحلة الزناتية"، التي سادتها «حالة من التمزق والتشرذم الذي نتج عنه نظام سياسي مهترئ»[204] طغى عليه واقع الظلم الاجتماعي من خلال سياسة ضريبية مجحفة في حق السكان، وانعدام الأمن حتى داخل حواضر من حجم فاس حاضرة الأدارسة[205] ورمز الإرهاصات الأولى لرسوخ الحكم المركزي بالمغرب "الأقصى"، قبل أن تتحول إلى ساحة "صراعات دموية" بين أبناء دوناس بن حمامة، الفتوح وعجيسة[206]، «لا يحسن ذكرها ـ لبشاعتها ـ»[207] حسب تعبير ابن عذاري المراكشي. هذا إلى جانب ما أشارت إليه بعض المصادر، من سيادة الخوف كما «غلت الأسعار واشتدت المجاعة وعظُم الهرج وقويّت الفتن في جميع نواحي المغرب»[208]. وقد تزامن هذا الوضع المأزوم في بلاد المغرب الأقصى الذي «كثر فيه الشتات»[209]، مع استفحال نظام حكم ملوك الطوائف بالأندلس، الذي سنقف على أهم مظاهره من خلال السياق الأندلسي.

2- بعض ملامح الوضعية الدينية المتردية:

شهد المغرب "الأقصى" طيلة القرن الرابع الهجري، انتشار ظاهرة ادّعاء النبوة وتحريف الدين، من مبتدعين أبرزهم صالح بن طريف البرغواطي الذي زامن «أيام هشام

(204)- القادري بوتشيش إبراهيم، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط.1، مارس، 2002. ص776.

(205)- كان الفاطميون قد جعلوا من مدينة فاس هدفا استراتيجيا في حملاتهم باعتبار وزنها السياسي منذ عهد الأدارسة، ثم لعلاقة المدينة بسجلماسة في البعد الاقتصادي التجاري. وكان دوناس بن حمامة بن عطية، قد ورث عن والده حمامة بن المعز بن عطية وضعا سياسيا آمنا حيث « ولي مدينة فاس وأكثر أعمال المغرب بعد أبيه، فكانت أيامه أيام هدنة ودعة وأُدير على أرباضها السور». ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، تحقيق مختار العبادي، ص161-162 «وقصدها الناس والتجار من جميع النواحي والبلاد» ابن ابي زرع، القرطاس، الرباط، 1972، ص111.

(206)- جسوس(عز الدين)، موقف الرعية من السلطة السياسية في المغرب والأندلس على عهد المرابطين – دراسة في علم الاجتماع السياسي، مطابع افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2014، ص201. أنظر بعض التفاصيل حول الفوضى السياسية خلال المرحلة الزناتية.

(207)- ابن عذاري، البيان، ج1، ص254.

(208)- ابن أبي زرع، القرطاس، ص111.

(209)- ابن عذاري، م.س، ص254.

بن عبد الملك بن مروان»[210]. فقد وردت في هذا الإطار إشارة عند البكري تؤكد هذا الادعاء الموصوف بالضلال، بعد أن شرّع هذا "المُدّعي" ما حسبه صاحب الاستبصار ارتداداعن الدين[211]، شرّع: «.. . صوم رجب وأكل شهر رمضان .. والتضحية في اليوم الحادي عشر .. . »[212]. وبهذا يكون قد عمل على تشويه العقيدة الإسلامية «لتتفق مع أذواق بني قومه، واستبدال اللغة البربرية باللغة العربية في ديانته الجديدة لقبولها» [213]. وهو ما دفع أحد الدارسين إلى اعتبار هذا الأمر انحرافا عقديا «يصح بحقه وصفه بالردة عن المد الإسلامي الذي شمل المغرب في القرنين الأول والثاني»[214]. أما ألفرد بيل فإنه لا يرى داعيا للاندهاش « من أن الحكام المسلمين في المغرب والأندلس، حين بسطوا سلطانهم على النواحي المجاورة لديار برغواطة وحلفائهم، حاربوهم بوصفهم، أي برغواطة يدينون بمذاهب مبتدعة ملحدة»[215]. وإذا كان من المعلوم أن الطابع السني كان هو الغالب في بلاد المغرب "الأقصى"، فإن الصراع السياسي- المذهبي بين الفاطميين والأمويين سمح للبرغواطيين بإحداث تغييرات جوهرية على مستوى العقيدة، وذلك بالنظر إلى وضع صالح بن طريف قرآنا لقومه، بعد أن ادعى «أنه تلقى من الله قرآنا باللغة البربرية مؤلفا من ثمانين سورة»[216]. أولها حسب ما ورد عند البكري« سورة أيوب وآخرها سورة يونس»[217] ولعل ما حسبناه تردّيا دينيا، لم يقتصر على البرغواطيين، بل تعدّاه إلى ما أسماه "ألفرد بيل"«الهياج الديني الكبير الذي أحدثته في البربر المذاهب المبتدعة الإسلامية»[218].

(210)- ابن أبي زرع، م.س، ص130.
(211)- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص197.
(212)- البكري، المسالك والممالك، م.س، ص1376.
(213)- الفرد بيل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، مكتبة المهتدين الإسلامية، ط: 1969- 1981-1987، ص174.
(214)- النجار عبد المجيد،تجربة الإصلاح في عهد المهدي ابن تومرت، م.س، ص44-45.
(215)- المرجع نفسه والصفحة.
(216)- ألفرد بيل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، م.س، ص179.
(217)- البكري، المسالك والممالك، م.س، 1379.
(218)- ألفرد بيل، الفرق الإسلامية، ص172.

ورغم أن الأمويين كانوا يمثلون وجها للطابع السني لمملكتهم الواسعة، فإنهم لم يروا «حاجة إلى بسط سلطانهم حيث برغواطة»[219].وهنا يظهر أن كسب الطرفين رهان السيادة سياسيا واقتصاديا داخل البلد، كان هو الأهم، رغم أن حملات زعماء بني زيري "بالوكالة" عن أسيادهم الفاطميين، كانت تستهدف قبائل برغواطة بشكل مباشر.

وإذا كان واقع الفوضى السياسية وانقسام مجتمع المغرب "الأقصى" داخليا، لم يترك البلد مُجزّءا وسهْل التوظيف في الصراعات الإقليمية من قبل الفاطميين والأمويين، فإن هذا المغرب لم يسلم من وضع ديني يشوبه الانحراف عن الدين الصحيح بفعل انتشار بُؤرٍ لادّعاء النبوةوانتشار البدع والخرافات، كما هو حال برغواطة التي تزعم فيها أميرها أبو حفص عبد الله بن أبي بن أبي عبيد محمد بن مقلد بن اليسع بن صالح بن طريف البرغواطي[220]، تزعم ما ورثه عن آبائه من تشويه للعقيدة. الأمر الذي سيصبح فيه برنامج المرابطين السياسي بزعامة الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر في مرحلة ما قبل تأسيس مراكش، يرتكز على محاربة الظواهر المخالفة للإسلام، والتي كانت بالنسبة إليهم بمرتبة الجهاد. وهنا يكون البرغواطيون قد شكّلوا هدفا رئيسا للمرابطين بعد أن رأوا «أن الواجب تقديم جهادهم على غيرهم»[221].علما أن البرغواطيين لم يكونوا «مستعدين للتخلي عن استقلالهم السياسي ولا عن مذهبهم»[222]. مما يؤكد أن الأسلوب الذي نهجه المرابطون ضدهم لن يكون دعويا، بقدر ما اتخذ طابعا حربيا لكون برغواطة "مُحرّفون" للدين الإسلامي[223]. وبعد حوالي قرن من الزمان، وزوال حكم المرابطين، أجهز«الموحدون في القرن السادس على البقية الباقية منهم»[224]،وهو ما دفع أحد

(219)- نفسه والصفحة.
(220)- ابن أبي زرع، القرطاس، م.س، ص132.
(221)- المصدر نفسه، ص131.
(222)- عز الدين جسوس،موقف الرعية، م.س، ص 213.
(223)- سنقف على الموضوع في الفصل الخاص بتجليات التجربة الوحدوية مجاليا ومجتمعيا على صعيد بلاد الغرب الإسلامي مع المرابطين والموحدين، مبحث التأسيس للتجربة انطلاقا من جنوب المغرب «الأقصى».
(224)- ألفرد بيل، الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا، ص 180.

الدارسين إلى وضع علاقة بين جهاد الموحدين للبورغواطيين وبناء «مدينة الرباط – رباط الفتح – الحالية» [225].

يبدو لنا في خلاصة هذا المبحث أن مجتمع المغرب "الأقصى" عاش بعد الوحدة الجزئية التي تحققت مع الأدارسة، على وقع الصراعات القبلية المتعلقة بفرض السلطان على المجال بأبعاده السياسية والاقتصادية، كما أن قبائل زناتة التي دخلت لعبة التحالفات مع القوى السياسية الخارجية، استفحل أمرها بما أصبحت تقوم به من أدوار متناقضة رسخت من خلالها واقع الانقسام والتجزئة بعد أن أصبحت قبائلها تتأرجح بين الولاء للفاطميين وأمويي الأندلس، كما أنها فرضت مغارم متعددة على الجهات التي كانت تبسط نفوذها عليها. وإلى جانب هذا الوضع السياسي المضطرب أصبح المغرب يعيش على وقع تردي الوضع الديني في الشمال والغرب وفي بلاد السوس. مما سيجعل مهمة المرابطين صعبة في بداية تأسيسهم لتجربة توحيد المغرب الأقصى.

المبحث الثاني: الظروف التي ولدت فيها الدعوة الموحدية

إذا نحن صدّقنا بوجود خلفية سياسية تحت مظلة دعوة دينية تجديدية لابن تومرت منذ قَفَل راجعا في رحلة العودة من بلاد المشرق إلى المغرب الأقصى، فهل كانت هناك عوامل موضوعية تستدعي القيام ضد حكم المرابطين؟ وهم الذين كانوا يتبوأون مقعد مؤسّسي أول تجربة سياسية وحدوية تجاوزت حدود المغرب "الأقصى" إلى بلاد العدوة الشمالية.

بِغَضّ النظر عن الاقتناع الذي حصل للمهدي بن تومرت بضرورة تغيير حكم المرابطين، تحت حجة استباحة المرابطين «أكل أموال الناس بالباطل... وغير ذلك مما عُلم من أباطيلهم وجورهم وفسادهم في الأرض»[226]، حسب زعم الرواية الرسمية الموحدية. وبِغضّ النظر عن السِّجال الكبير بين الباحثين في تفسير وتأويل حدث إحراق "الإحياء"،

(225)- سعد زغلول عبد المجيد، تاريخ المغرب العربي، م.س، ص 210. ـــ استطاعت بورغواطة، وفق ما جاء في رأي الأستاذ عبد اللطيف أكنوش «أن تصمد في وجه كل التحرشات والاعتداءات، سواء أنن من الأدارسة جيرانهم أو من أمويي الأندلس. وقد كانت تبسط سيطرته السياسية على رقعة إقليمية تمتد من المحيط الأطلسي إلى تخوم الأطلس المتوسط، ومن جبال الريف إلى شمال الإقليم السوسي» عبد اللطيف أكنوش، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، إفريقيا الشرق – الدار البيضاء، 1987م ص56.

(226)- محمد بن تومرت مهدي الموحدين، أعز ما يطلب، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، صدر عن وزارة الثقافة، الجزائرعاصمة الثقافة العربية، 2007، ص260-261.

يبدو أن ما يجب التركيز عليه، البحث في"حقيقة" الأوضاع التي وجدها ابن تومرت تربة مناسبة لاستنبات تجربة سياسية جديدة، من خلال ثورته في وجه الحكام المرابطين الذين كانوا وراء أول تجربة سياسية وحدوية جمعت شمل المغاربة والأندلسيين؟

لكن قبل هذا يبدو من المهم فهم نوع العلاقة التي جمعت بين صنهاجة الجنوب ومصامدة بلاد درن، وذلك منذ وصول المرابطين إلى أغمات؟ بمعنى هل للثورة على المرابطين انطلاقا من جبل درن علاقة بصراع قَبَلي مُتأصّل بين صنهاجة ومصمودة، والذي يُشكّل الأرضية لابن تومرت كي يأخذ بالثأر من المرابطين؟

1- علاقة المرابطين بالمصامدة منذ قيام دعوة عبد الله بن ياسين:

يكاد ينفرد ابن خلدون برواية مفادها أن المصامدة كان «لهم مع لمتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوته فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين ومن صنهاجة بإفريقة حسبما هو مشهور «[227]. وهو موقف يفسَّر بانحياز ابن خلدون للمهدي بن تومرت وللموحدين. ويساير هذا الطرح الخلدوني أحد الباحثين عندما يرى أن «المصامدة بوجه خاص لم يكونوا على وئام مع المرابطين الذين بنوا عاصمتهم مراكش بالقرب منهم»[228].

لكن من خلال ما أمكننا الإطلاع عليه في بعض المصادر، دفعنا لكي نرجح حصول نوع من التوافق بين المصامدة والمرابطين أثناء اكتساح الأخيرين مجال المغرب "الأقصى" الذي كانت تعيث فيه قبائل زناتة وتثقل كاهل الساكنة بالمغارم.فصاحب القرطاس مثلا يشير إلى جذور هذه العلاقة الإيجابية مع المصامدة في بداية وضع المرابطين الأسس الأولى للدولة المرابطية من خلال ما قام به عبد الله بن ياسين بعد تأسيسه للرباط في قلب صحراء صنهاجة، حيث «بعث بمال عظيم مما اجتمع عنده من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبة بلاد المصامدة وقضاتها، واشتهر أمرهم في جميع بلاد الصحراء وبلاد القبلة وبلاد

(227)- ابن خلدون، م.س، ج6، ص299
(228)- عز الدين موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991، ص38-39.

المصامدة وسائر بلاد المغرب»[229]. وحين دخل عبد الله بن ياسين وبعده أبو بكر بن عمر في مواجهة مباشرة مع برغواطة، ظهر خلالها دور العنصر القبلي المتنوع وعلى رأسهم «جمع عظيم من المرابطين والمصامدة»[230]. كما أن ابن عذاري تحدث عن مشاركة المصامدة في العمليات العسكرية التي كان يقوم بها المرابطون خاصة في مواجهة «رؤساء القبايل القاطنين بأرض المغرب وكان أكبرُهُم شوكة بني يفرن الزناتيين»[231]، في منطقة فازاز وذلك منذ كان يوسف بن تاشفين[232] قائدا تحت إمرة أبي بكر بن عمر[233]، أو حتى بعد أن أصبح أميرا للمسلمين حينما تحرك «مع جيوش المرابطين والمصموديين والجنود والحشود يوم الجواز إلى بلاد الأندلس»[234].

ويرى أحد الدارسين أن العلاقات المتبادلة بين مصامدة الجبل والمناطق الحضريةكانت سببا في انتشار«الدعوة المرابطية في جميع المجال المصمودي»[235]، وحتى عندما توغل المرابطون نحو المناطق الداخلية والشمال، لم نجد في المصادر ما يُؤكد على تورّط المصامدة في طعن ظهر المرابطين. بل وإلى حدود ظهور دعوة المهدي بن تومرت« لم يثبت أن هناك تنازعا كان قائما بين المصامدة وصنهاجة»[236]. وهنا نلتقط عند ابن خلدون نفسِه إشارة حول قوة العلاقة التي جمعت المصامدة بالمرابطين، وذلك بعد «أن أظلّتهم دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستفحلا، وشأنهم على أهل السلطان والدولة مهما»[237]. علما أن وصية يوسف بن تاشفين لابنه عليا تضمنت ما يفيد ضرورة المحافظة على سياسة مهادنة المصامدة، إذ من بين ما تضمنته تلك الوصية، «ألا يهيج أهل جبل درن ومَن مِن ورائه من

(229)- ابن أبي زرع الفاسي، القرطاس، م.س، ص126.
(230)- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد أحمد أعراب، 1403هـ/ 1983، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ج8،ص82.
(231)- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط.3، 1983م، ج.4، ص18.
(232)- أنظر ترجمة ليوسف بن تاشفين. ابن عذاري، البيان، م.س، ص46. والحلل الموشية ص81-82.
(233)- ابن عذاري، البيان، م.س، ص18. بعد استشهاد عبد الله بن ياسين خرج أبو بكر بن عمر لبرغواطة التي أذعنت له «بالطاعة وأسلموا إسلاما جديدا... فخرج بجيوشه (452هـ) إلى بلاد المغرب في أمم لا تحصى من صنهاجة وجزولة والمصامدة». القرطاس، ص133.
(234)- ابن عذاري، البيان، ص48.
(235)- جسوس عز الدين، موقف الرعية من السلطة السياسية في المغرب والأندلس على عهد المرابطين – دراسة في علم الاجتماع السياسي، مطابع افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2014. ص211.
(236)- كنون (عبد الله)، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط.2، 1380هـ/ 1960م، ج.1، ص101.
(237)- ابن خلدون، م.س، ج6. ص 300.

المصامدة وأهل القبلة»[238]. لنخلص إلى ما استنتجه باحث أجنبي بأن «ليس ثَمّ ما يدل على أن شعورا بالثورة ضد السلطة الحاكمة كان قد ظهر في أذهان المصامدة قبل عودة ابن تومرت إليهم بعد إقامته في المشرق «[239]. فما هي إذن الظروف التي أسهمت في احتضان مصامدة الجبل الدعوة الموحدية؟

2- الظروف المواكبة لظهور الدعوة التومرتية:

إن أول قضية نرى أنها تكتسي أهمية خاصة في علاقة مع السياق الموحدي وظهور دعوة المهدي بن تومرت، تتعلق بموضوع الصراع بين فقهاء المرابطين وأنصار "الإحياء" نتيجة إحراق كتاب الغزالي. وقد رأى فيه محمد القبلي أنه « صراع أندلسي بالدرجة الأولى»[240]. ومثل هذا الأمر يدفع إلى ضرورة الوقوف عند بعض ملامح هذه القضية، من خلال بعض المؤشرات الواردة في المصادر التي تطرقت لهذا الموضوع، وذلك قصد فهم حالة التذمر "الشعبي" من هذا الفعل[241]، ومحاولة استجلاء درجة استفادة ابن تومرت من هذا الحدث لخدمة ما يبدو مشروعا سياسيا أخذ فيه الضوء الأخضر من الإمام الغزالي.

إن الشاهد على أمر استثمار المهدي ابن تومرت في قضية إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" يتجلى ـ حسب ما أورده صاحب البيان المُغرب على لسان ابن القطان ـ في وقوفه بين يدي الإمام الغزالي[242]، بعد أن أُخْبِر بإحراق كتابه الإحياء، وطلبه منه أن يجعل تمزيق ملك المرابطين علي يده[243]. علما أن ابن خلدون كان قد أشار إلى أن المهدي بن تومرت زعيم

(238)- مجهول، الحلل الموشية، ص82-83.
(239)- لوتورنو، حركة الموحدين في المغرب، ص13.
(240)- محمد القبلي، مراجعات، ص28.
(241)- من الممكن جدا أن يكون فعل حرق كتاب الإحياء قد أثار سخط العامة والنخبة، بالنظر إلى السّمعة التي حظي بها يوسف بن تاشفين عند الإمام الغزالي إلى الدرجة التي كان يتمنى فيها اللقاء ببطل الزلاقة، وبالتالي فقهاء المالكية بقيادة ابن حمدين يكونون قد أساؤوا لهذا الموقف، كما أن هذا السخط على الفقهاء له ما يبرره إذا علمنا أن من أفتوا بحرق الإحياء هم أنفسهم الذين يفتون <<بضرائب>> جديدة.
(242)- «لقي فيما زعموا أبا حامد الغزالي وفاوضه بذات صدره بذلك فأراده عليه، لما كان فيه الإسلام يومئذ بأقطار المغرب من اختلال الدولة وتقويض أركان السلطان الجامع الأمة» ابن خلدون، م.س، ج6، ص301.
(243)- ابن عذاري، البيان، ج.4، ص60.

الدعوة الموحدية الذي «أفاد علما واسعا وكان يُحدّث نفسه بالدولة لقومه على يده، لما كان الكهان والحزاء يتحينون ظهور دولة يومئذ بالمغرب»[244].

فهل قرار الفقهاء بإحراق إحياء علوم الدين، يمكن أن يجد تفسيره حسب أحد الباحثين الأجانب، في كون«التربة في بلاد المغرب لم تكن مهيّأة بعدُ لأفكار الغزالي»[245]؟ بالمقابل ألا يمكن أن يكون هذا الفعل الغير محسوب العواقب، قد هيّأ التربة للمهدي بن تومرت لكي يوظف الآثار السلبية لموقف الفقهاء المالكيين والسلطة المرابطية تجاه الغزالي، توظيفاسياسيا في مرحلة تبدو بعيدة زمنيا عن فترة عملية الحرق[246]؟.

بعد أن تحدث البكري عن كون المرابطين كدعاة للحق بعد أن رفعوا شعار «ردّ المظالم وقطع جميع المغارم... »[247]، يظهر أن موضوع الجهاد في الأندلس، أصبح يُشكّل بالنسبة إليهم مُبرّرا شرعيا لفرض مغارم جديدة، خاصة وأن الضرائب الشرعية لم تعُد «تَفِ بالتزامات الدولة العسكرية في الأندلس»[248]. وهنا يُرجِع أحد الباحثين، الحدّة التي تعامل بها الفقهاء مع "الإحياء" إلى «موقف الغزالي من الضرائب غير الشرعية على المسلمين»[249]. وهو الموقف الذي يتضمن بشكل غير مباشر، نوعا من التحريض عليهم. وإذا كانت حجة الفقهاء، في تبرير تلك الضرائب الإضافية له علاقة بموضوع الجهاد[250]،

---

(244)- ابن خلدون، م.س، ج6، ص301.

(254)- Goldziher. ibn toumert et la theologie de l' islam dans le nord de L'Afrique au xi siecle, Alger 1903, p38.

(246)- لاحظ عبد الجليل لحمنات في أطروحته حول التصوف المغربي، أن سنة 507هـ التي افترض الأستاذ محمد القبلي أنها تاريخ إحراق إحياء علوم الدين وليس 503هـ ـــ التي أرخت بها المصادر الموحدية لذلك الحدث بغية تكييف زوال المرابطين بدعوة الغزالي ـــ لاحظ أنها بدورها محكومة بما ورد عند مرتضى العبيدي في" إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين" حينما أشار إلى أن الغزالي قبل وفاته كان قد ألف كتاب " الإملاء في إشكالات الإحياء" ردّ فيه عن منتقدي الإحياء، و ذلك قبل 505هـ. أنظر: **عبد الجليل لحمنات، التصوف المغربي في القرن السادس الهجري "مقدمة لدراسة تاريخ التصوف بالمغرب" رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 1989-1990، ص240.**

(247)ـ البكري، المسالك والممالك، ص858.

(248)ـ عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي، م.س، ص165. سنتطرق في السياق الأندلسي لموضوع سقوط سرقسطة وهزيمة قتندة كأحداث خدمت بشكل من الأشكال خطة المهدي بن تومرت التي هيأها للثورة في وجه المرابطين.

(249)ـ بنسباع مصطفى، السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، مطابع الشويخ – تطوان، ط1، 1999، ص88.

(250)ـ هناك القليل ممن يشك في كون موضوع استنجاد الأندلسيين بيوسف بن تاشفين كان له علاقة مباشرة بعملية الجهاد الذي تخلى عنه ملوك الطوائف المسلمين ضد الممالك النصرانية، هذا الجهاد الذي كان أحد المُحفزات الرئيسة ليوسف بن تاشفين للاستجابة لنداء الاستنجاد وفق ما استقيناه من مصادرنا. وفي هذا الإطار يشير أحد المتخصصين الأجانب في

فإن هذا التبرير لا يستقيم فيما نحسب مع اتساع مكاسبهم[251] وزيادة «ثرواتهم ونفوذهم عما كانوا عليه»[252].خاصة بعد أن«استطال ذراعهم في دواليب الدولة»[253]. فالفقيه المُشاور أصبح في نظر إحدى الباحثات «حاكما مدنيا إلى جانب القائد المرابطي الذي كان حاكما عسكريا»[254].وهنا يبدو لنا أن السلطان السياسي الذي أصبح للفقهاء، لما استأثروا به من مناصب مهمة في الدولة من قضاء وغيره[255]، إلى جانب الجاه الذي كانوا يتمتعون به، لم يخدم فيما يبدو قضية إعطائهم الإشارة بإحراق " إحياء علوم الدين" الذي نحسبه قرارا متسرعا، بعد أن ترك انطباعا سلبيا لدى الرعية في بلاد المغرب. وقد تجلى هذا الانطباع في عدم التجاوب مع السلطات بحرق نُسَخِه. بل وأن «حركة استنساخ "الإحياء" لم تتوقف رغم الحظر الصريح المتشدّد»[256]. ولعل النموذج البارز لهذه الحركة الاستنساخية للإحياء مثّلها يوسف بن محمد بن يوسف بن النحوي[257] الذي كان «قد انتسخ الإحياء في ثلاثين جزءا»[258] و«انتصر للغزالي»[259].

ويذكر صاحب التشوف أن أبا عبد الله [المليجي] الرجراجي الأصل من أغمات وريكة، الشديد الورع والزهد «أنه لمّا أفتى الفقهاء بمراكش بإحراق كتاب الإحياء للغزالي فأُحرِق

التاريخ الوسيط أن «تاريخ السلالة المرابطية ما هو إلا تعميق للإدراك وممارسة الجهاد تحت رعاية بعض الفقهاء المالكيين الأندلسيين»

:LAGARDÈRE(Vincent), Les Almoravides. Le djihâd andalou(1106-1143), Paris, L'Harmattan,1998 (1999), 328 p. (bibliogr.), p:16 .

(251)- المراكشي(عبد الواحد) ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب – الكتاب الثالث، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1963م، ص235.

(252)- دندش عصمت عبد اللطيف، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين– عصر الطوائف الثاني (510-546هـ/ 1116- 1151م) ، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 1، 1988، ص26.

(253)- زنيبر(محمد)، المغرب في العصر الوسيط.ص124.

(254)- دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، م.س، ص26.

(255)- أمبروسيو(هويثي ميراندا) "التاريخ السياسي للأمبراطورية الموحدية" (Historia Political Del Imperio Almohade)، تعريب عبد الواحد إكمير، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.1، 2004، ص25.

(256)- القبلي (محمد)، رمز الإحياء وقضية الحكم في المغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط.1، 1987. ص29.

(257)- المكنى بأبي الفضل، أدركه الشيخ أبو الحسن بن حرزهم وهو صغير وتبرّك به.. توفي بموضع قلعة بني حماد عام 513هـ: ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال – الرباط، 1407هـ - 1408هـ، ص108. كان من الفقهاء المالكيين الذين رفضوا قرار إحراق كتاب الإحياء. أنظر عباس الجراري، الموحدون ثورة سياسية ومذهبية، المناهل، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط – المغرب، ع.1، السنة الأولى، 1394هـ/1974م (صص 84 – 121)، ص86.

(258)- ابن الزيات (التادلي)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح بالجديدة، ط2، 1997م، ص96.

(259)- ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، م.س، ص108.

بصحن جامع السلطان، سأل أبو محمد عن الذين أفتوا بإحراقه، فكان كلما سُمّي له واحد منهم دعا عليه ثم قال: والله لا أفلح هؤلاء الأشقياء! فما انقضى شهر حتى مات جميع أولئك الفقهاء»[260] وكان جماعة من الطلبة قد استفسروا الفقيه القباب[261] الذي «ولي الفتوى بمدينة فاس وله نوازل مشهورة»[262] استفسروه بشأن نازلة إنكار فقهاء المرابطين كتاب الإحياء، وأنه إماتة للدين وليس إحياء له حسب فقهاء قرطبة المالكيين، وكون ما جاء به «بدعة في الدين وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد»[263]. اعتبر الرجل أن «هذا كلام منكر وكلام مبتدع وغبي جاهل بحق الرجل وبحق كتابه»[264].

إذا نحن اقتصرنا على هذه الأمثلة يمكن أن نستنتج منها روح التذمر عند فقهاء أعلام لهم شعبية في أوساط النخبة والعوام، مما شكل أرضية نفسية، استغلها وفق ما حسبناه بُعدا "برغماتيا" الزعيم الروحي للمصامدة المهدي بن تومرت، الذي «جعل من قضية إحراق المرابطين كتاب الغزالي الإحياء فرس رهانه السياسي»[265]. فالرجل استغل بشكل مناسب ما يبدو لنا خطأً سياسيا سقط فيه فقهاء المرابطين في موضوع إحراق كتاب إحياء علوم الدين، ليدّعي لقائه بالغزالي وأخذه منه الإذن بإسقاط حكم المرابطين. فالحلقة الموحدية حسب ما ذكره مجموعة من الباحثين المغاربة تميزت بكون«الأيديولوجية قد احتلت فيها مكان الصدارة»[266]، بعد أن «استغل ابن تومرت ذاك التذمر الناتج عن إحراق كتاب

(260)- ابن الزيات، التشوف، م.س، ص145..

(261)- تعرف عليه لسان الدين بن الخطيب بفاس وعرفه بأنه: أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن (ت.779هـ) من أهل فاس ويُكنى أبا العباس المعروف بابن القبّاب. صدر عُدول الحضرة الفاسية، فقيه نبيه مدرك، وُلّي القضاء بجبل الفتح، دخل غرناطة في عام اثنتين وستين وسبعمائة. الإحاطة في أخبار غرناطة، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط2، 1393هـ / 1973م، مج.1، ص187 – 188.

(262)- أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة – الرباط، 1973م / 1393هـ. الترجمة 56، ص123. أنظر أيضا نيل الابتهاج للتنبكتي ص 102-103، سلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني، 3/304-305، الديباج المذهب لابن فرحون 162/1

(263)-.المراكشي، المعجب، م.س، ص 237.

(264)- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، 1401ه-1981م، ج12، ص184.

(265)- علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ط.1، 1996، ص208.

(266)- محمد القبلي وآخرون، تحيين وتركيب، م.س، ص165.

من يطالع "أعز ما يطلب" يلاحظ خلفية ابن تومرت وإسقاطاته التي بدأت بتقديم تقييم غير موضوعي لمسيرة المرابطين، وما حققوه من وحدة سياسية وما قدموه من تضحيات سواء في سبيل اجتثاث مظاهر تردي الأوضاع الدينية أو جهاد نصارى الشمال والنورمان. فابن تومرت لكي ينتزع الشرعية من المرابطين قام بإسقاط مجموعة من الأحاديث

الإحياء، فاعتد بمباركة مؤلف الغزالي وأعلن الحرب على المرابطين متهما إياهم بالتجسيم «[267]، وهو ماسيفتح في وجه المرابطين جبهات متعدّدة[268] لن يفطنوا بخطرها، حتى ثارت في وجههم جموع مصامدة جبل درن. إذ «في عنفوان تلك الدولة على عهد علي بن يوسف منها نجم إمامهم العالم الشهير محمد بن تومرت»[269]، الذي كان بإمكان المرابطين إقبار ثورته في مهدها وهو الذي كان صرح بين يدي أمير المسلمين علي بن يوسف قائلا:«أنا رجل فقير، طالب للآخرة، ولست بطالب دنيا، ولا حاجة لي بها، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»[270]. إلا أن الوزير مالك بن وهيب توجس شرا من ابن تومرت، وطالب بقتله أو سجنه لكونه «لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما يريد إثارة فتنة»[271]، غير أن الرجل «أبى عليه ذلك دينه »[272] كما صرح بذلك المراكشي، الذي يبدو من كلامه أنه برّر لمحمد بن تومرت ثورته في وجه المرابطين لماانتشر من« مناكر كثيرة وفواحش شنيعة»[273]، وأن عليا بن يوسف أهمل أمور الرعية غاية الإهمال وانكبّ بالمقابل على حياة التعبد وترك أمر العباد[274].

يبدو إذن ونحن بصدد السياق الذي جاء فيه إعلان ابن تومرت عن مهدويته، أن ضجة الإحياء وما ولّدته من نفسية داخل المجتمع المغربي، لم تكن سوى حدثا مساعدا لإعطاء دعوته نوعا من المصداقية وإثارة الناس. وإلا فإن أحد الدارسين يرى أن«في وسع المرء القول إن ضجة إحراق كتاب الإحياء لم تكن عاملا حاسما في إسقاط حكم المرابطين[275]. علما أن الموحدين سيحصدون هزيمة في معركة البحيرة عام 524هـ/1129م، رغم ما

النبوية عليهم باعتبارهم:» الحفاة العراة العالة، رعاة الشاء والبهم، الجاهلون بأمر الله» تقديم وتحقيق عمار الطالبي، صدر عن وزارة الثقافة، الجزائر، 2007. ص242.

(267)- المرجع نفسه والصفحة.

(268)- من الممكن جدا أن سقوط سرقسطة 512هـ وهزيمة قتندة 514هـ وثورة قرطبة خدمت قضية المهدي بن تومرت في الاتجاه الذي يكون قد وجد فيه المناخ والتربة المناسبة لتوظيف حدث إحراق الإحياء لما يخدم «أجندته» السياسية.

(269)- ابن خلدون، م.س، ج6، ص301.

(270)- ابن ابي زرع، القرطاس، ص174.

(271)- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط.4، 1424هـ/2003م، ج9، ص196.

(272)- المراكشي، المعجب، م.س، ص253.

(273)- نفس المصدر والصفحة.

(274)- نفسه، ص241.

(275)- لوتورنو، حركة الموحدين، ص17.

توفر لديهم من حشود كبيرة بزعامة عبد المؤمن. وهو ما اعترف به البيذق مؤرخ الموحدين، حين تحدث عن انخراط «أهل أيلان عن بكرة أبيهم»[276]. لكن جرت الهزيمة عليهم «ونجا الموحدون ومات من مات وافترق الناس»[277]. ويظهر أن الدعاية المرابطية لم تكن قوية بالشكل الذي تعاملت به دولة النظم الموحدية في مرحلة التمكين. وإلا كان من الممكن أن يجعل المرابطون عِصمة ومهدوية ابن تومرت في مهب الرياح، بعد تلك الهزيمة الشنيعة. وفي تقييمه لعلاقة المرابطين بالرعية، يذهب أحد الباحثين الغربيين إلى أن البربر حتى في أحلك الظروف «وجدوا أن الحكام المرابطين افتأتوا أحيانا على حرياتهم، ولكن ذلك لم يكن بصورة أكثر شدة مما قامت به الدول المختلفة التي تعاقبت على الحكم في المغرب الأقصى»[278]، خاصة قبائل زناتة التي أثقلت كاهلهم بالجباية قبل وصول المرابطين. علما أن إهمال أمير المسلمين عليّا أمور رعيّته والانكباب على حياة التّعبّد، على حدّ وصف صاحب " المُعجب" لا ينسجم كثيرا فيما يبدو مع مواقف الرجل السياسية والجهادية، والتي يؤكدها صاحب المعجب نفسه عندما تحدث عما كان يتوفر عليه الرجل من مقومات رجل الدولة، وأنه «جرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد»[279] وهو وصف قرَنه مباشرة بحُسن سيرة الأمير علي ونزاهة نفسه وبُعده عن الظلم، بل كان «إلى أن يُعدّ في الزُّهّاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين»[280] وبقي في الحكم إلى حدود 537هـ/ 1142م، يُجابه تحديات الأندلس إلى وفاته.

فالمتصفح لمجموعة من المصادر يعلم أن المرابطين تحت قيادة علي بن يوسف، ظلوا يعيشون تحديات الممالك النصرانية الشمالية طيلة وجودهم بالأندلس، إذ «تحرك أمير المسلمين علي بن يوسف من حضرته مراكش إلى بلاد الأندلس... وتأهبت العساكر الأندلسية ولحقت من قرطبة لمّة الفقهاء والعلماء ولفيف من المجاهدين الزعماء خيلا

(276)- البيدق (أبو بكر بن علي الصنهاجي)، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971. ص40.
(277)- نفس المصدر والصفحة.
(278)- لوتورنو، م.س، ص17.
(279)- المراكشي، المعجب، ص235.«وجد البلاد هادئة والأموال فائدة والملك قد توطّأ والأمور قد استقامت» ابن أبي زرع، القرطاس، م.س، ص157.
(280)- المراكشي، نفس الصفحة.

ورجلا.. »[281]. بل وموازاة مع خروج المهدي بن تومرت عن المرابطين وإعلان مهدويته كان الملثمون يستجيبون لطلب الاستنجاد بهم من طرف ملوك بني زيري في إفريقية. فمن خلال إشارة مصدرية، نجد توصل الحسن بن علي الزيري بدعم الأسطول البحري المرابطي، إذ «لما كان من غزو عبد الله ما كان لم يشك رجار صاحب صقلية أن السبب الباعث على ذلك والمحرك له صاحب المهدية»[282]. ولعل مثل هذه الإشارات تفند ما عكسته المصادر الموحدية الرسمية من خمول وكسل علي بن يوسف.

في تحليلنا لواقع أحداث السياق التاريخي الخاص بالمغرب الأقصى خلال مرحلتين تاريخيتين مختلفتين تماما، نخلص إلى تسجيل فرق كبير بين ما كان عليه الوضع في المغرب الأقصى قبل قيام دولة المرابطين وبين الوضع الذي ستقوم على أساسه تجربة الموحدين السياسية. فعودة واقع التجزئة والانقسام الداخلي والصراع القبلي الذي ساد بعد أفول دولة الأدارسة جعل المغرب "الأقصى"يعاني من مشكل التدخلات الإقليمية التي كان وراءها كل من الأمويين السُّنة والفاطميين الشّيعة وما كان لهما من أدوار في استنزاف قدرات البلد الاقتصادية وانتشار "الفوضى" السياسية، إلى جانب ظهور بؤر انحراف ديني وصراع عقدي، إلى جانب تفشي الجور والظلم، كالذي مارسته قبائل زناتة.

بالمقابل جاء ظهور الدعوة الموحدية واستفحالها في وقت كان فيه المغرب الأقصى يعيش على وقع تجربة وحدوية جعلت من مراكش "عاصمة دولية" بمعطيات تلك المرحلة من تاريخ المغرب الإسلامي. كما أن ظهور الموحدين جاء في الوقت الذي كان فيه المرابطون يدافعون عن بيضة الإسلام في الأندلس ضد الممالك النصرانية التي كانت تسعى للانتقام من نكسة الزلاقة،وذلك بدعم كنسي مستمر. علما أن المرابطين رغم حجم التحدي النصراني في الأندلس، لم يبخلوا في تقديم الدعم لبني زيري في تصديهم لتحرشات النورمان في بلاد إفريقية، كما سنقف على ذلك بتفصيل في مبحث السياق المغاربي. وهنا يبدو لنا أن قيام الموحدين في وجه المرابطين مثّل طعنة في ظهرهم، مما أسهم بشكل من الأشكال في إرباك مشروعهم السياسي وأثّر سلبا على مركزهم العسكري في الأندلس.

(281)- ابن عذاري، البيان، ج4، م.س، ص64.
(282)- ابن عذاري، م.س، ص67.

الفصل الثاني: السياق التاريخي للتجربة الوحدوية في الأندلس

يظهر أن سقوط نظام الخلافة في الأندلس بعد قيام ما يعرف تاريخيا بالفتنة "البربرية" في قرطبة عام 422هـ/ 1028م، شكل حافزا مهما أمام نصارى الشمال للتحرش بممتلكات المسلمين في الأندلس، من خلال نهج سياسة ترسيخ الانقسام الداخلي زمن حكم ملوك الطوائف، وعقد تحالفات مؤقتة مع العائلات الحاكمة لضرب بعضهم بالبعض الأخر، مما سمح للممالك النصرانية بقضم الأطراف بشكل ممنهج. وقد أفضت هذه السياسة إلى سقوط طليطلة عام 478هـ/ 1085م. حيث شكل احتلال هذه المدينة الحصن بداية التطلع للسيطرة على كامل بلاد الأندلس. وقد تزامن هذا الأمر مع توحيد المرابطين بلاد المغرب الأقصى وتحكمهم في إقليم تلمسان الذي سمح لهم بالوصول إلى جزائر بني مزغنة، وتأمين ظهرهم خاصة بعد تصاعد نداءات الاستنجاد بهم من الأندلس.

المبحث الأول: السياق التاريخي الأندلسي قبل الجواز الأول للمرابطين

1- مظاهر الضعف والانقسام الداخلي خلال حكم ملوك الطوائف[283]:

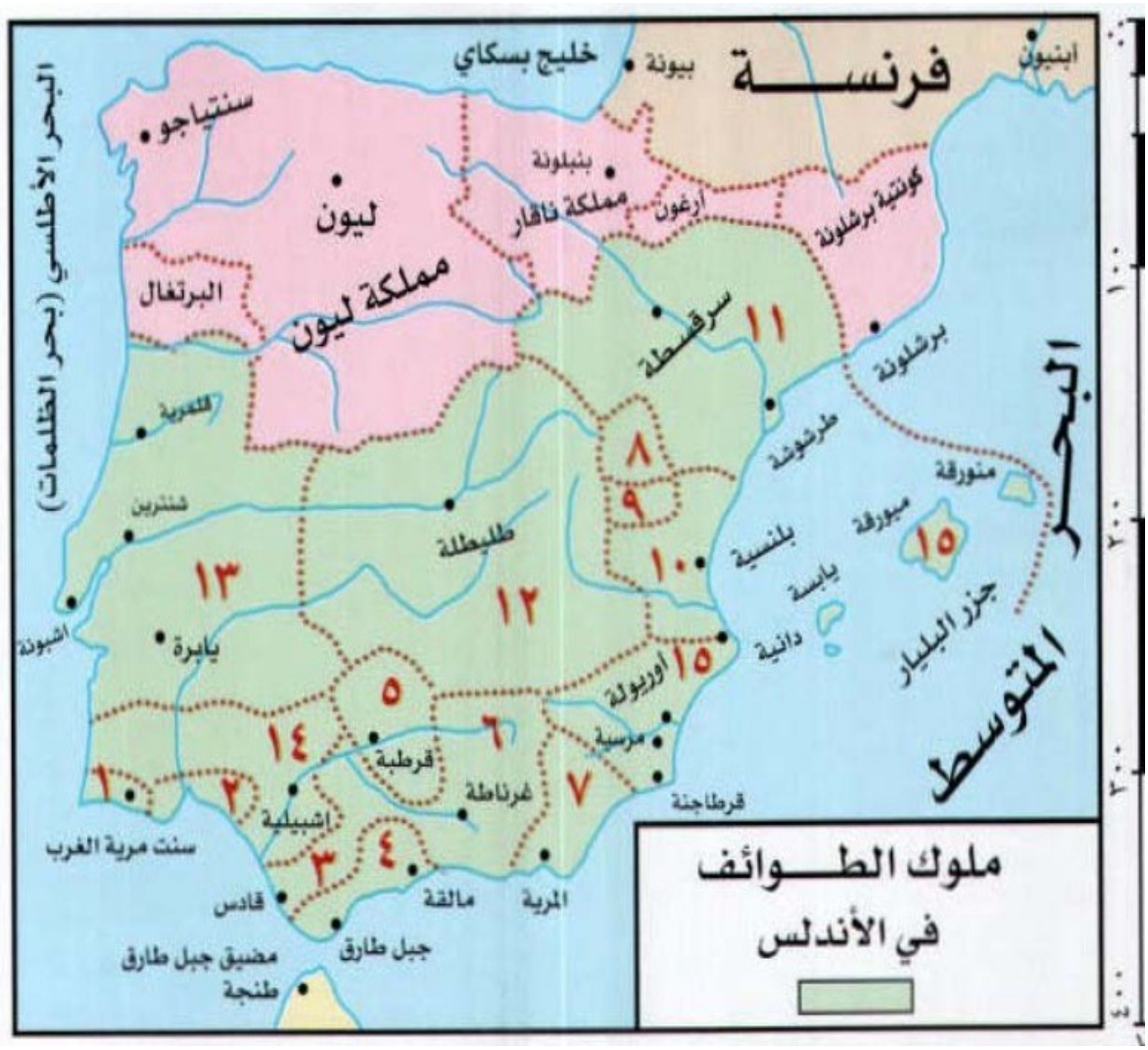
تشير أغلب المصادر إلى أن سقوط نظام الخلافة في الأندلس بشكل نهائي، جاء بسبب أحداث فتنة قرطبة عام422هـ/ 1028م، والتي كانت بمثابةنقطة تحول بارزة في تعطيل مسار وحدة الأندلس. ولعل تسمية الرواية المصدرية هذه المرحلة بـ«أيام الفرق»[284]، يدل بشكل واضح على كل معاني التشرذم السياسي والانقسام المجتمعي، وذلك بعد أن «انقرضت الدولة المروانية وانشقت عصا الأمة، ومرج أمر الناس بالأندلس، وصار المسلمون شيعا مفرقين يقتل بعضهم بعضا وينهب»[285]. وقد علق ابن حزم على هذا الحدث السياسي "الخطير" قائلا:«وأما ما سألتم عنه من أمرالفتنة وملابسة الناس بها، مع

(283)- بالنسبة لحكم الطوائف في الأندلس لتميز بعض الدراسات بين ثلاث مراحل لتحديد الخصائص المشتركة لهذه الظاهرة السياسية في الحكم: عصر الطوائف الأول والثاني والثالث. لكن يبدو لنا أن العصر الأول الذي نحن بصدده في هذه المرحلة يتميز كثيرا عن المراحل القادمة، وهذا ما سنفصل فيه داخل المبحث الأول.

(284)- ابن الكردبوس" تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط: نصان جديدان"، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، 1966-1965، ع.13، ص87.

(285)- ابن عذاري، البيان، ج1، ص254.

ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمر امتحنا به، نسأل الله السلامة، وهي فتنة سوء أهملت الأديان إلا من وقى الله تعالى»[286]. إلا أن شيخ المؤرخين الأندلسيين ابن



المرجع: شوقي أبوخليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ص77.

حيان[287] كان قد وسم هذه الفتنة بالبربرية «الشنعاء المُدلهمّة المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤثلة، المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية»[288]. فقد استبد

(286)- ابن حزم، مجموعة رسائل ابن حزم، تحقيق د,إحسان عباس، بيروت 1960، ج3، ص173.
(287)- أورد ابن سعيد في ترجمة وجيزة (رقم 54) لابن حيان قصة قرار عبد الملك بن جهْور سفك دمه، فنهاه والده أبو الوليد قائلا: «والله لئن طرأ على ابن حيان أمر لا آخذنّ أحدا فيه سواك. أتريد أن يُضرب بنا المثل في سائر

«رؤساء الأندلس وثوارها [فيما] في أيديهم من البلاد والمعاقل وبغى بعضهم على بعض ولله الحول والقوة»[289]. كما «تميّز أمراء الأندلس وملوكهم من قبائل البربر وغيرهم، وصاروا فريقين ما منهم من يحذر الآخرة»[290]، وهو مؤشر على تفكك رهيب داخل الأندلس على حد تعبير امحمد بن عبود وحلول نظام التجزئة والفوضى محلّ الوحدة التي عمّت أيام الخلافة. وما نتج عن هذا الأمر «من تداعيات خطيرة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي»[291]. وهنا تشير الرواية المصدرية إلى الموضع المهترئ للأندلس التي«طما بمُتْرفيها، سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه... فصار كل منهم يشن الغارة على جاره ويحاربه في عقر داره»[292]، مما عرى ظهر الأندلسيين وملوكهم، وفتح المجال أمام «عدو في الدين يعادي ويراوح معاقلهم بالعَيْث ويُغادي»[293].بعد أن لم تصبح لملوك الطوائف، حسب عبد الله بن بلقين قدرة على ملاقاة ألفونسو السادس أو وجود عون عليه[294]. وهو الذي ما فتيء يشعل فتيل المشاحنات والدسائس ضد الأندلسيين بعضهم البعض[295]. الأمر اعتبرته بعض المصادر المعاصرة للأحداث «تهاونا بالأمر، وقعودا عن النصر، واستظهارا بأحزاب الكفر»[296].

البلدان بأنا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدنا تحت كنفنا مع أن الملوك في البلاد القاصية تُداريه وتُهاديه؟» المُغرب في حُلى المغرب، حققه وعلق عليه شوقي ضيف، دار المعارف – القاهرة، ط.4، 1964، ص117، ج.2.

(288)- ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، حققه وقدم له وعلق عليه محمود علي مكي، منشورات لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1415هـ / 1994، ص23. وهناك تحقيق آخر ابن حيان (أبو مروان القرطبي 377هـ -469هـ)، لكتاب المقتبس في أخبار بلاد الأندلس، تحقيق عبد الرحمان علي الحجي، دار الثقافة، بيروت – لبنان، 1965 (تاريخ وارد في مقدمة المحقق).

(289)- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تاريخ إفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال، دار الثقافة – بيروت، 1983م، ط3، ج3، ص152.

(290)- المصدرنفسه، ص 219.

(291)-BENABOUD(M'hammed),(1980-1981):Assabiyya and social relations in Al-Andalusduringthe period of the Taifa states, (11century A.D./5thA.H), Hespéris–Tamuda, vol.×I×,Rabat, pp: 5 – 46. P :10.

(292)- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ط1. دار صادر - بيروت 1968، ج4، ص446.

(293)- المقري، نفح الطيب، م س، ص446.

(294)- ابن بلقين (عبد الله)، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (469هـ - 483هـ) المسماة بكتاب"التبيان"، نشر وتحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر، 1955م. ص89.

(295)- الطيبي (أمين توفيق)، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، م.س، ص203.

(296)- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1، 1399/1979م، القسم4، مج1، ص145.

ولعل الأنموذج الحي لواقع التشرذم السياسي زمن ملوك الطوائف، هو ما جسّده كل من يحيى المأمون صاحب طليطلة، وسليمان بن هود صاحب سرقسطة، اللذين نعتتهما الرواية المصدرية بالأسدين ـ المشئومين ـ[297]، وذلك بالنظر إلى ترسيخهما واقع استمرار الفتنة، من سنة 435هـ إلى 438هـ والتي فورقت بموت سليمان بن هود منهما[298]. هذا الأخير الذي ورث عنه ابنه أحمد بن سليمان الحكم على صفيح ساخن، بعد أن «آلتمس محالفة غرسية ملك نافار أخ فرناندو ملك قشتالة، وبعث إليه بالأموال والتحف»[299]. بينما المأمون بن ذي النون كان قد لجأ إلى التفاوض مع فرناندو ملك قشتالة، للانتقام من بني هود. و «وهكذا سيستبيح الملوك النصارى أراضي المملكتين الإسلاميتين، بمساعي ابن هود وابن ذي النون ـ الذميمة ـ وانهارت فيها خطوط الدفاع، وساءت أحوال المسلمين إلى أبعد حد»[300]. ولعل في استشهادنا بهذا المثال، ما يؤكد حجم "النكوص السياسي" وتردّي الوضع الاجتماعي والنفسي للرعية فترة حكم ملوك الطوائف، الأمر الذي كان ينبئ بعواقب وخيمة على مستقبل الأندلس.

وحسب دارس أجنبي لم يكن «ليستفيد من هذا الانحلال والتفكك في تلك البلاد إلا ملوك الإفرنج وحدهم»[301]، وعلى رأسهم فرناندو، الذي انتقل من دور المنشط للفتن الداخلية بين ملوك الثغر، إلى حليف لبني ذي النون ثم إلى متحالف مع أحمد بن هود، وأخيرا إلى حامل لخطاب مُعاديّ لمسلمي الأندلس، بدا جليا من قسوته وفظاعته في معاملة المدنيين من أهل البلاد الإسلامية المفتوحة، و«سفك دمائهم دون تمييز ولا حرج، واسترقاقهم جملة»[302]. وهنا يتجلى بوضوح استغلال فرناندو بشكل جيد وضع ملوك الطوائف المنقسمين على أنفسهم، لتكريس عملية إخضاعهم، وممارسة الضغوط النفسية على

(297)- هو مثال من ضمن أمثلة كثيرة كانت تعيش على وترها الأندلس في إطار العلاقة المتوترة بين ملوك الطوائف، فقد كان من المفروض وضع حد للصراعات السابقة بين الآباء، والسعي إلى العيش في ظل الوحدة والتضامن لدرء خطر الممالك النصرانية المتوثبة. انظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج2، ص177.

(298)- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2003، ج2، ص177.

(299)- عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس – العصر الثاني: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط.4، 1417هـ/ 1997م، ص99.

(300)- نفسه، ص: 99 – 100.

(301)- دوزي، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ط 1، 2012، ص11.

(302)- عنان، دولة الإسلام في الأندلس – العصر الثاني، م.س، ص 386.

الأندلسيين من خلال أداته العسكرية، نحو تسهيل مهمته في استباحة الأراضي الأندلسية. وهو وضع أسهم في اتساع مملكة قشتالة في عهد الرجل اتساعا عظيما[303]، بعد أن «دفعت حدودها إلى الجنوب وإلى الشرق والغرب على حساب المملكة الإسلامية»[304].

2- موقف ملوك الطوائف بعد سقوط طليطلة عام 478هـ(1085م):

رغم المشاكل العميقة التي كانت تعيشها الممالك النصرانية[305]، ونظرا للدعم غير المنقطع للكنيسة[306] في بلاد ما يعرف بإسبانيا وفي روما، سيقود ألفونسو السادس حركة "حروب الاسترداد" التي انطلقت من «الشمال الإيبيري مع منتصف القرن الحادي عشر للميلاد... لتشن هجماتها المُركّزة على الأراضي والثغور الإسلامية قبل أن تستولي بزعامة قشتالة على مدينة طليطلة»[307] وذلك عام 478هـ/ 1085م.

بينما المسلمون ظل «دأبهم الإذعان والانقياد»[308]للملوك النصارى، ولعل خير من نقل صورة تقريبية لهذا الوضع المأزوم الشاعر الأندلسي ابن العسال الذي اقتطفنا له هذه الأبيات الشعرية، التي قال فيها:

ماتت قلوب المسلمين برعبهم === فحُماتنا في حربهم جبناء

ولَكَم رضيع فرقوا من أمه === فله إليها ضجة وبغاء

لولا ذنوب المسلمين وأنهم === ركبوا الكبائر ما لهن خفاء

ما كان يُنصر للنصارى فارس === أبدا عليهم فالذنوب الداء

فشرارها لا يختفون بشرهم === وصلاح منتحلي الصلاح رياء[309]

(303)- نفس المرجع نفسه والصفحة.
(304)- نفسه والصفحة.
(305)- أنظر مقالنا " اختراق ممالك النصارى للمجال الأندلسي خلال عصر الطوائف (قراءة في السياقات الأسباب)، المجلة الدولية لنشر البحوث والدراسات، مج.2، الإصدار الثامن عشر، 20 أبريل 2021، صص: 354- 372.
(306)- تحدثت بعض الدراسات الأجنبية عن دور غريغوري السابع كأول بابا يطور استراتيجية نشيطة في اقتحام إسبانيا:.
(307)- القبلي، المغرب والأندلس والمجال المتوسطي، ص7.
(308)- ابن بسام، الذخيرة، م.س، 1/2، ص248.
(309)- الحميري، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، ص90-91.

وهنا يظهر أن فئات من المجتمع الأندلسي، ومنذ استباحة النورمان[310]لدماء وأعراض السكان المسلمين في مدينة بُربُشتر[311]، أصبحت على درجة "عالية" من النّقمة على ملوكهم الذين نبذوا «السلاح.. وعطلوا الجهاد، وقعدوا فوق الأرائك مقعد الجبابرة المتفاتنين بين أهل موْسطة الأندلس، ينتظر من ينبعث من أهلها للقتال عنهم حسبة... فتبا لهم تبا»[312]. فبعد أن كانت الحرب سجالا[313] في السابق بين المسلمين والنصارى، يبدو أن المناخ السياسي العام المتمثل في "تفرق كلمة الأندلسيين"[314] خلال حكم الطوائف، هو الذي سيشكل الفرصة المناسبة لألفونسو السادس الذي ضرب على ملوك الطوائف أنواع الجِزي»[315]، وذلك نتيجة ما تملّك حكام الطوائف والنخب التي تدور في فلكهم، من نفسية مهزومة، تبحث عن استرضاء النصارى بكل الطرق. ولعل النموذج البارز في هذا الموضوع، مثّله يحيى القادر الحلقة الأضعف وسط ملوك الطوائف الأندلسيين. هذا الملك كان ـ حسب ما اقتطفه على ما يبدو باحث أجنبي من أحد المصادر الأندلسية ـ قد أضرّ به «ترف الحياة، ونعيم القصر حتى أصبح ألعوبة الخصيان... ولفداحة ما كان يرهق به رعيته من الظلم والمغارم، لم يسلس له قيادهم، فلجأ إلى الأذفونش يشكو إليه أنه لا يستطيع أن يملك زمامهم»[316]. ولعل هذا الموقف قد فتح الباب أمام ألفونسو ليتربص بطليطلة «واسطة السلك، وأشمخ ذُرى الملك»[317]. ولأن الظفر بها سيشكل بداية خنق الأندلس وتطويقها تدريجيا، عمل ألفونسو بشكل حثيث على ابتزاز القادر، من خلال دفعه إلى إهانة رعيته أولا، بعد أن أقسم على أن يجعل النساء والبنين رهنا في يد ملك قشتالة، إذا لم يأتوه بالمال الذي طلبه منه الطاغية، كما تنعته بذلك المصادر العربية، الشيء الذي دفع بأهل

(318)- "Norman and Anglo-Norman Participation in the Iberian Reconquista" (June;2007);c.1018-c.1248,MA,Thesis submitted totheuniversityof Nottingham for the degree of Doctor of Philosophy. P:64.

-ALTAMIRA (Rafael); (1925)A history Of Spain From The Beginings To Present Day; The Macmillan company; New York; U.S.A; p:44.

(311)– أنظر ترجمة لهذه المدينة الأندلسية عند البكري، المسالك والممالك، م.س، ص909. أطلق صاحب البيان على نصارى النورمان إسم "الرُّدمانيين"، ج1، ص302. أنظر كذلك محمد حجي محقق المقتبس لأبي مروان بن حيان، ص249 – 250.

(312)– ابن بسام. الذخيرة، م.س، 1/3. ص850-851،

(313)- ابن الكردبوس،" تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط: نصان جديدان"، م.س، ص80.

(314)- دوزي، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام،.م. س، ص124.

(315)- المرجع نفسه والصفحة.

(316)- نفسه، ص123.

(317)- ابن بسام، م.س، القسم3، مج1، ص92.

طليطلة إلى الاستغاثة بجارهم ابن الأفطس صاحب بطليوس[318]. وكانت الرعية قد ثارت في وجه القادر بسبب مقتل العالم والفقيه ابن الحديدي، في إطار مؤامرة داخلية تتحدث المصادر عن تورط القادر[319] فيها. وقد فتح هذا الأمر الباب أمام ألفونسو السادس، لكي يستبيح طليطلة «ينتسف مرافقها، فغلت الأسعار، وكثر القتل والجلاء والتخريب، وطفق سكانها يستصرخون ملوك الطوائف فلا يجدون معين»[320]، وبمجرد تسلمه أمر طليطلة، عمل على تمزيق ثروة يحي القادر «وبدد حصونه حصنا حصنا، وذهبه دينارا دينارا وهو مستسلم مرغم»[321].وتؤكد الرواية الأندلسية حجم التردي والخُذلان الممهد لسقوط مدينة عظيمة من حجم طليطلة، إذ«لم يزل التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند، حتى حلت الفاقرة وقضيت القضية وتُعُجّلت البلية بحصول مدينة طليطلةفي أيدي النصارى وذلك في سنة ثمان وسبعين»[322].

في هذا السياق تحدث أحد الباحثين عن ملوك الطوائف بعدم استغلالهم «مفهوم الأرض لإذكاء وعي جماعي، فلم تكتسب الدولة الطائفية معنى الوطن حسب المفهوم الحديث»[323]، والذي من شأنه أن يشكل حافزا للدفاع عن الأرض من خلال دفع ضريبة الدم. فملوك الطوائف بالقدر الذي لم يعودوا مستعدين لرفع راية الجهاد ومتشبثين بكراسي الملك، بالقدر الذي جعل منهم ملوك النصارى رهائن لهم. وإذا كان ابن عباد قد اقتنع بإنابة

(318)- تصف المصادر فراره في وجه ألفونسو بعد أن تذكر عواقب الطمع.. وأجلى مبادرا إلى بطليوس دار قراره، وذلك بعد أن كان طريح أكواب ودنان.. وتجافت عن انتهابه الفتنة من فرش فخم، وسرادق ضخم.. وأهل طليطلة الممتحنون في غمرتهم ساهون، وعلى أعقابهم ينكصون. التفاصيل: ابن بسام، الذخيرة، م.س، القسم4، مج1، ص160- 161.

(319)- نقل ابن الخطيب انتقام آل العالم ابن الحديدي من يحيى القادر، وذلك بعد استدعاء أهل بلنسية ابن عكاشة قائد يوسف بن تاشفين، في مرسية، والتمكن من القادر الذي قرر في حقه القاضي ابن جحان، القتل، وذلك بيد فتى من بني الحديدي. أعمال الأعلام، ج2، ص180.

(320)- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، طبعة دار الشروق، عمان، 1997، ص19.

(321)- دوزي، ملوك الطوائف، ص126.

(322)- ابن بسام، الذخيرة، م.س، القسم2، مج1، ص249. كان ألفونسو السادس خلال فترة منفاه على يد أخيه سانشو «قد عاين أمر طليطلة وعملها وتكشف عليها». ابن عذاري، ج3، ص232، وفطن لأهميتها الاستراتيجية ورمزية سقوطها في يده، بحيث هي «من الجزيرة كنقطة الدائرة، وواسطة القلادة، تدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الأضرار بها قاصيها ودانيها «ابن بسام، م.س، القسم2، مج1، ص249.

(323)- ابن عبود (امحمد)، التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف، (414هـ/1023-484هـ/1091م،مطابع شويخ ديسبريس»، تطوان، 1983م، ص67.

ألفونسو إلى السلم كما تحدثت المصادر عن ذلك، فإنه بمجرد تمكنه من طليطلة عام 478هـ(1086م)، غدت سرقسطة هدفه القادم، بعد أن «أقسم لَيسْتوْلِيّن عليها»[324].

لعل من علامات الضعف التي أصيب بها ملوك الطوائف، قيامهم بما يمكن اعتباره حروبا بـ "الوكالة"، والتي خدمت إلى حد بعيد الممالك النصرانية المتصارعة، بعد أن أصبح حكام الأندلس «يداخلون طوائف الروم، ويكتري كل واحد منهم عسكرا بجملة من المال، يخرجه إلى بلد كاشِحه، ويسلطه على من عانده ممن يجاوره من البلاد، حسدا له وطمعا في بلده أن يصير طوع يده، فكانت نيران الفتنة بينهم مشتعلة، والرعية مهملة»[325]. كما عملوا على طعن ظهر بعضهم البعض، بعد أن «جعلوا من أعداء أسلافهم أصدقاء يتقربون إليهم بثغور وأعراض المسلمين»[326]، إلى الدرجة التي استولى فيها ألفونسو السادس على «ربع الأندلس دون أن يستعمل سلاحا»[327]. و«لولا اهتبال ملوك الطوائف بإقامة مرافقه وإصغاؤهم إلى هدر شقاشقه، لطار شعاعا، وذهب ضياعا»[328]. وهي إشارة مصدرية معاصرة لتلك الفترة من تاريخ الأندلس، تجعلنا نفهم أن ألفونسو السادس لم يكن بتلك القوة التي من شأنها إنهاء حكم المسلمين وبسط نفوذه على البلاد بالكامل. ذلك أن إمعان الرجل في إذلال سلاطين الأندلس، يرجع إلى تنافس كل واحد منهم «في شراء الذخائر الملوكية متى طرأت من المشرق كي يوجهها إلى ألفنش هدية، ليتقرب بها إليه ويحظى دون مطالبه لديه، إلى أن ضعف من أولئك الثوار الطالب والمطلوب، وذل الرئيس والمرءوس... وصاروا للفنش عمالا يجبون له الأموال لا يخالف أمره أحد»[329]. وهو وجه صريح لقابلية نفسية للهزيمة ومقدمة ل"للتّبعية"للممالك النصرانية.

(324)- دوزي، م.س، ص127.
(325)- ابن بسام، الذخيرة، م.س، ص254.
(326)- العماري. اضمحلال دولة الخلافة، م.س، ص146.
(327)- مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 195.
(328)- ابن بسام، الذخيرة، م.س، القسم4، مج1، ص165.
(329)- ابن الكردبوس، م.س، ص77.

إن هذا الوضع السياسي الذي يبدو غير طبيعي داخل الأندلس، لم يقف عند ضياع طليطلة من الأندلسيين، بل أصبح ملوك الطوائف[330] «كلهم يُدارون الطاغية ويتُقونه بالجِزى»[331]، كعلامة على الضعف «حتى لم يقدروا إلا على التحصن والاحتجار»[332]. وهو المشهد الذي ظلت صورته تساور ذاكرة الرعية من خلال الأمثال الشعبية التي كانت تزخر بها الساحة الشعبية الأندلسية. فقد عبر صاحب " أمثال العوام في الأندلس" عن هذا الواقع قائلا:

إذا رأيت لحية جارك تُنتف === اجعل متاعَكْ فالْبالْ[333]

كما أن أحد الشعراء الأندلسيين[334] نظم أبياتا شعرية، تحمل بعض المؤشرات السياسية والنفسية، لمجتمع أندلسي وُجد بين مطرقة نصارى الشمال وملوك طوائف ضعاف.

حثوا مطاياكم عن أرض أندلس === فما المقام بهـــا إلا مـن الغلـــــط

فالثوب ينسل من أطرافه وأرى === ثوب الجزيرة منسولا من الوسـط

ونحـن بيـن عـــدوّ لا يفـارقـــنا === كيف الحياة مـع الحيّات في سفـط[335].

إن الدرس المستفاد من هذا النوع من الإنتاج الأدبي[336]، يجعلنا نشعر بشيوع نوع من روح اليأس والخوف من الأعداء داخل المجتمع الأندلسي، كعلامة على القابلية للتفريط بالتدريج في أرض الأندلس. وهو ما استنتجناه من كلام لابن عباد صاحب اشبيلية جاء فيه

(330)- كابن حبوس صاحب غرناطة وابن الأفطس في بطليوس وابن صمادح بألمرية.
(331)- المقري، النفح الطيب، م.س، ج1، ص 439.
(332)- ابن الخطيب، تاريخ إسبانية الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت – لبنان، ط.2، آذار 1956، ص243.
(333)- الزجالي (يحيى عبيد الله بن أحمد القرطبي 617هـ - 694هـ)، أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتابه "رأي الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام"، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بنشريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيلي(بدون تاريخ)، القسم الثاني، ص1.
(334)- هوعبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال (الشاعر الطليطلي)
(335)- المقري، النفح الطيب، م.س، ج4، ص352. ابن خلكان وفيات الأعيان، ج4، ص118.
(336)- انظر في هذا الإطار أهمية المادة المصدرية الأدبية في تقريب الواقع السياسي والاجتماعي في بلاد الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، وبالتحديد الأحداث التي شهدتها الأندلس والتي كانت تنذر بسوء المآل، نموذج حي لهذا الأمر جاء في مقال تاريخي للباحث الدكتور سعيد بنحمادة تحت عنوان: المجتمع والسلطة في المغرب والأندلس من خلال كتب الأمثال والأزجال، مجلة كان التاريخية، العدد 43، مارس 2019.

«من لا يمكن مقاواته ومخاشنته، فليس إلا مداراته وملاينته»[337]، وهي فيما نرجح عقلية "استسلامية" لا يمكن إيجاد تفسير لها، إلا بما ذكرته بعض المصادر المغربية والأندلسية من «فساد أحوال الجميع بالكليةبعد أن زالت من النفوس الأنفة الإسلامية[338]، وبعد أن «صب الله تعالى على أهل الثغور من الجبن عن العدو ما لا كفاء له»[339]. والسبب الرئيسي في ذلك كما جاء على لسان أحد ملوك الطوائف المتوكل على الله بن الأفطس، الذي خاطب ألفونسو المتوثب قائلا: «أما تعييرك المسلمين فيما وهن من أحوالهم، وظهر من اختلالهم، فبالذنوب المركوبة والفرقة المكتوبة»[340].

يظهر إذن أن استدعاء المرابطين صار أمرا حتميا لدرء ما أسماه دوزي خطر النصرانية، لأنه من وجهة نظر هذا الدارس أصبح استدعاؤهم أمرا لا مناص منه «لدرء هذا الخطر المحدق بالجزيرة»[341] حيث حصل شبه إجماع حول الاستنجاد بالمرابطين للتصدي لجشع ألفونسو والحد من عنجهية نصارى الشمال وذلك بعدما اتفق أمراء الأندلس ورؤساؤها «على جواز يوسف بن تاشفين»[342] حيث «استصرخوا أمير المسلمين وناصر الدين، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين رحمه الله، فأجاز في صدر سنة تسع وسبعين»[343]، لتحصل أشهر معارك المسلمين في الأندلس يوم الزلاقة[344].

(337)- ابن بسام، م.س، ج2، مج1، ص: 252.
(338)- تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، م.س، ص77. وإذا كنا لا نتفق مع ابن الكردبوس بهذا التعميم، فلأن الأندلس كانت حبلى بفقهاء وعلماء تميزوا بالصلاح وكانت لهم الكلمة الفصل في اجتماع كلمة الأندلسيين ــ بما فيهم بعض ملوك الطوائف كإبن الأفطس وابن عباد ــ على ضرورة الاستنجاد بالمرابطين، لإيقاف المد النصراني. ونذكر هنا دور الفقيه المالكي الفقيه أبو بكر بن القصيرة (ذو الوزارتين)، في تقريب وجهات النظر حول موضوع الاستنجاد بالمرابطين بعد تسليم طليطلة للنصارى، فـ «انصرفت وجوه آمالهم إلى أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف ابن تاشفين رحمه الله» ابن بسام، الذخيرة،ج2، مج1، م.س، ص 240 و242.
(339)- ابن عذاري، البيان المغرب، م.س، ج3، ص280. فقد كان لا يكاد أحد من المسلمين «يلقى نصرانيا في قرار من الأرض إلا ويوليه الدّبُر غير مستحيي من الله سبحانه من الفرار أمامه، حتى تعوّد أعداء الله ذلك منهم» نفس المصدر والصفحة.
(340)- مجهول، الحلل الموشية، ص 36.
(341)- دوزي، ملوك الطوائف، م.س، ص129.
(342)- ابن ابي زرع، القرطاس،ص144.
(343)- ابن بسام، الذخيرة، م.س، ج2، مج1، ص 256 – 255.
(344)- في الفصل الخاص بالسياق التاريخي لدخول المرابطين الأندلس، أثرت تأجيل الخوض في دور العلماء والفتوى التي أصدروها في شأن جواز المرابطين إليهم، إلى الفصل الثاني من الباب الثاني الذي خصصته لتجليات التجربة الوحدوية خلال المرحلة الأولى الخاصة بحكم المرابطين.

المبحث الثاني: السياق التاريخي لدخول الموحدين بلاد الأندلس

1- تناقضات الوضع الداخلي في الأندلس أيام المرابطين:

يبدو من المهم في هذا المحور الثاني من السياق التاريخي الذي جاءت فيه تجربة الحكم الموحدي، الوقوف على أهم الإكراهات السياسية والعسكرية والاجتماعية التي شكلت أسبابا مقنعة في نظر المهدي بن تومرت لقيادة ثورته السياسية بغطاء ديني، فيما نحسب، في وجه المرابطين.

فماهي أهم الظروف الاجتماعية والسياسية التي شكلت سياقا تاريخيا لثورة المهدي بن تومرت قبل دخول الموحدين بلاد العدوة الشمالية مطلع الأربعينيات من القرن السادس الهجري (ق.12م)؟

بعيدا عن معضلة التبرير والتعميم التي تطبع تاريخنا الإسلامي بكل مراحله، يبدو لنا من الطبيعي جدا أن يتأثر المرابطون بمختلف فئاتهم، بواقع وثقافة الأندلسيين، ف«الحياة البسيطة لم تستمر طويلا بعد وفاة يوسف بن تاشفين، إذ تغلبت الحياة الأندلسية بمتعها ومسراتها، ولم يكن ممكنا أن يقاوم المرابطون هذه المتع طويلا»[345] كما «اتخذ الأمراء والقواد القصور الحسان... واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنين والنُّدماء ويمنحونهم العطايا الكبيرة»[346]، هذا إلى جانب عقلية الاستعلاء من لدى بعض عبيد المرابطين وحشمهم الذين كانوا يسيئون إلى الناس[347]. وهو ما جرّ على المرابطين عداء شريحة واسعة من الأندلسيين، مما تسبب في مواجهات، كان أبرزها ثورة سكان قرطبة عام 515هـ/ 1121م والتي انفجرت في وجه والي المدينة بسبب سلوك أحد العبيد اتجاه امرأة أندلسية. هذه الثورة التي اعتبرها صاحب الحلل الموشية «فتنة كبيرة»[348].

(345)- عصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصر الطوائف الثاني 510-564هـ/1116-1151م، تاريخ سياسي وحضاري، الفصل الثاني، طبقات المجتمع وطوائفه، ص268.
(346)- المرجع نفسه، ص269.
(347)- نفسه الصفحة.
(348)- مجهول، الحلل الموشية، ص86.

وبجواز علي بن يوسف لإخماد تلك الثورة وقف على حقيقة اندلاع ما اعتبره ابن رشد[349] فتنة، وحينها تبين لأمير المسلمين من خلال تدخل قاضي المدينة أبي الوليد[350]، أن الأمر «لم يكن بذاءة منهم، وإنما كان ذبّا عن الحُرُم، والدماء، والأموال»[351]. وقد ذكّر وجهاء قرطبة وأعيانها، الأميرَ عليّا بوصية والده يوسف بن تاشفين بـ «أن يقبل من محسن أهل قرطبة ويتجاوز عن مُسيئهم»[352]. فكان هذا التوافق سببا فيما يبدو في إطفاء نار هذه الفتنة، وحصول التراضي بين الطرفين، وحينها بلغ الأمير» ظهور المهدي بالسوس الأقصى، فعاد إلى العدوة»[353]، بينما أشار أحد الباحثين إلى عدم اكتراث علي بن يوسف« بخروج ابن تومرت على طاعته، هذا الخروج الذي تزامن مع تلك الثورة»[354]، بل ويشير صاحب المعجب إلى أن «اشتغال علي بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة»[355]. وهنا نجد أن صاحب المعجب انفرد فيما يبدو بما اعتبره أدوارا سلبية للأمير علي بن يوسف في الحد من الفساد المتفشي داخل الأندلس وخارجها، حيث «أهمل أمور الرعية غاية الإهمال»[356]بسبب ميله إلى حياة الزهد على شاكلة والده، وانكبابه على حياة التعبد وترك أمر العباد، كما«ظهرت في بلاده مناكر كثيرة»[357] و«استولى النساءُ على الأحوال...فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس»[358]. وهنا يتناقض المراكشي مع ما سبق واعترف به من اشتغال الأمير المرابطي بثورة ابن تومرت الذي كان سببا حسب رأيه

(349)- تحدث ابن رشد كممثل لأهل قرطبة أمام أمير المسلمين، علي أن ما حصل من فتنة ليس فيه شَقّ للطاعة ولا نكث للبيعة. أنظر: محمد الحبيب التجكاني، مسائل أبي الوليد بن رشد(الجد)، تحقيق عن ست نسخ خطية مع دراسة عن المؤلف والكتاب، دار الجيل – بيروت ودار الآفاق الجديدة – المغرب، تطوان، 1414هـ/ 1993م، ط2، (رسالة دبلوم الدراسات العليا في الشريعة الإسلامية، 1398هـ/ 1978م). ص34.

(350)- جاء في ترجمة قصيرة عندابن عذاري أنه: «محمد بن أحمد ابن رشد وله شرح <<المستخرجة>> كتأليف لم يسبق أحد من العلماء إلى مثله كما ذكرصاحب <<الأنوار الجلية في محاسن الدولة المرابطية وله مقدمات في الفقه فسر فيها مذهب مالك بأبلغ حجة وأوضح معنى». البيان، قسم المرابطين، ص74.

(351)- الحلل الموشية، م.س، ص86.

(352)- نفسه، ص87.

(353)- المصدر نفسه والصفحة.

(354)- بنسباع مصطفى، السلطة بين التسنن والتشيع، م.س، ص10.

(355)- المراكشي، المعجب، ص 277.

(356)- المصدر نفسه، ص241.

(357)- نفسه والصحفة.

(358)- نفس المصدروالصفحة. شن المهدي بن تومرت ما يمكن اعتباره حربا دعائية على المرابطين بعد 515هـ، وهو يمهد لإعلان مهدويته ولكي يعطي لنفسه شرعية خاصة عند الفئات المحرومة وليكسب شرائح مجتمعية يتقوى بها للقضاء على أعدائه المرابطين.

في إهمال أمور الأندلس[359]. وعكس ما روجت له الرواية الموحدية، تحدث صاحب البيان المُغرب عن رسالة بعث بها علي بن يوسف عام 510هـ/ 1116م يحضُّ فيها أبا محمد بن فاطمة «على إقامة الحق»[360]، ثم في عام 511هـ/ 1117م جاز إلى الأندلس وغزا قلمورية[361]، فانبرى بعض شعراء الأندلس يمتدحون أمراء المرابطين في تصديهم لنصارى الشمال.

وإذا كانت الحرب سجالا بين المسلمين والنصارى، فإن المرابطين حتى بعد هزيمة قتندة عام 514هـ(1120م)[362] سجلوا انتصارات مهمة على نصارى الشمال رغم ظروف "فتنة" المهدي بن تومرت، خاصة في معركة إفراغة في 23 رمضان من عام 528هـ(1134م)، التي وقع فيها جيش ألفونسو المحارب ملك أراكون بين فكّي كماشة جيوش المرابطين بقيادة يحيى بن غانية وأهل إفراغة[363].

وبعيدا عن التهويل لاحظ أحد الدارسين الغربيين أن عددا من الفئات الاجتماعية كانت غير«راضية تماما على نظام حكم المرابطين، غير أن ذلك كان عبارة عن حالة غامضة من الشعور بالضيق، لم تتخذ أبدا ــ حتى ذلك الوقت في حد علمنا ــ شكل ثورة علنية»[364] ليخلص إلى نتيجة مفادها أن المرء يميل «إلى الشعور بأنه بدون تأثير ابن تومرت كان من الممكن أن يستمر الوضع مدة أطول كثيرا»[365]. في إشارة إلى استقرار نسبي في ظل تجربة الوحدة، مقارنة مع مرحلة حكم الطوائف.

(359)- ورغم ما يكون قد حصل للمرابطين من عثرات أخلاقية وإخفاقات سياسية وعسكرية وظلم اجتماعي، فإن ما يمكن يشفع للدولة المرابطية، أنها ظلت ترفع راية الجهاد في الأندلس طيلة حكم علي بن يوسف وابنه تاشفين.

(360)- ابن عذاري، البيان، م.س، ص 63. أنظر نص الرسالة التي تحث الأمير المرابطي على أن يجعل الحق أمامه ويأخذ الحق للضعيف من القوي، والاستجابة لحاجة المظلوم وإنصاف الرعية... المصدر نفسه، ص63-64.

(361)- أنظر ترجمتها في هامش رقم (1): البيان المغرب، م.س، 64.

(362)- سماها ابن الأبار «وقيعة قتندة»وجعل تاريخها في سنة 513هـ : المعجم في أصحاب القاضي الإمام الصدفي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دارالكتاب المصري، القاهرة – دارالكتاب اللبناني، بيروت،ط.1، 1410هـ/1989م، ص7-8.

(363)- موقع قصة الإسلام، إشراف الدكتور راغب السرجاني: "معركة إفراغة... أعظم أيام رمضان في الأندلس"، مقال لشريف عبد العزيز، 2017/03/08.

(364)- لوتورنو، حركة الموحدين في المغرب، ص46.

(365)- المرجع نفسه، والصفحة نفسها

2- ضجة حرق إحياء علوم الدين في الأندلس:

إن اعتمادنا لحدث إحراق كتاب الإحياء للغزالي ضمن السياق التاريخي الأندلسي، لِما قبل ظهور الدعوة التومرتية، يأتي في إطار اعتبار أحد الدارسين المغاربة «الصراعَ الذي قام بين فقهاء المرابطين وأنصار "الإحياء" صراع أندلسي بالدرجة الأولى»[366]. وهو طرح يزكيه باحث آخر في كون «الذين أفتوا بالإحراق هم بعض فقهاء الأندلس، أما علي بن يوسف فكان السلطة التي أمرت بالتنفيذ»[367]. ولعل هدفنا من وراء إثارة موضوع دوافع قضية إحراق إحياء علوم الدين للغزالي، استجابة من علي بن يوسف لقرار اتخذه بعض فقهاء الأندلس على رأسهم بن حمدين، لا يهم تفاصيل هذا الحدث، بقدر ما نريد أن نفهم مآلاته ضمن الجو السياسي العام السائد خلال عصر سريان التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن المرابطين. ثم كيف استفاد ابن تومرت، قبل أن يصبح «مهديا معصوما»، من أجواء التوتر التي أحدثها سريان التأثير السلبي لعملية الإحراق في نفوس "العامة"[368].

ورغم الاختلاف حول تاريخ إحراق كتاب الإحياء للإمام الغزالي، هل هو عام 503هـ/ 1109م أو 507هـ/ 1113م، نحسب أن تاريخ هذا الحدث لا يخرج عن العقد الأول من القرن السادس الهجري (ق.12م). إذ يذكر مصدر أندلسي أن كتاب الغزالي الذي سماه " الإحياء" كان قد «وصل إلى المغرب والأندلس وأن فقهاء قرطبة تكلموا فيه، وأنكروا فيه أشياء»[369].في الوقت الذي أرجع مصدر مغربي سبب هذا الإنكار إلى ما تضمنه إحياء علوم الدين من مخالفة في الدين حسب زعم ابن حمدين، فـ «قرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له»[370]، فتقدم علي بن يوسف «بالوعيد الشديد، من سفك

(366)- القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ص28.
(367)- مصطفى بنسباع، السلطة بين التسنن و"التشيع"والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، ط1، تطوان، 1999، ص82.
(368)- كنا قد تحدثنا عن موضوع ضجة إحراق إحياء علوم الدين، في السياق المغربي ليس من باب تكرار نفس المعلومات بقدر ما هي محاولة لإيجاد خيط ناظم بين السياقين المغربي والأندلسي من حيث استغلال ابن تومرت التذمر الذي أحدثه فِعل الفقهاء في قرطبة والذي جاءت فرصته لإحياء ذاك التذمر من خلال الأحداث التي كانت تشهدها الجبهة العسكرية خاصة بعد سقوط سرقسطة وهزيمة قتندة. الشيء الذي يبدو أنه قد خدم قضيته من حيث جعل الإعلان عن ثورته على المرابطين، أمرا مقبولا ومستصاغا.
(369)- مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص104.
(370)- المراكشي، المعجب، ص236-237.

الدم واستئصال المال، إلى من وجد عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك»[371]. وبالنظر إلى ما أحدثه قرار إحراق "الإحياء" من ضجة لدى النخبة على وجه الخصوص، ينقل صاحب الحلل عن ابن القطان ما يفيد تحميل المسؤولية للقاضي ابن حمدين[372]، من كونه بالغ في ذلك الإنكار «حتى كفّر جميع من قرأه، وعمل به، وأغرى به السلطان، واستشهد بالفقهاء، فأجمعوا على حرقه»[373]. وهو ما كان «سببا لزوال ملكهم وانتثار سلكهم»[374] حسبما نقل صاحب البيان عن ابن القطان. لكن لابد أن نحتاط عند تقييم تجربة الفقهاء المالكيين[375]، وأن نتجنب وضع الجميع على خط المساواة في قضية الإحياء[376]، كما أنه إذا استثنينا حجم الضغط الذي مارسه جماعة من فقهاء الأندلس في بلاد العدوة الشمالية، فإن «بقية بلاد المغرب الكبير قد عاملت كتاب الإحياء معاملتها لجميع النصوص المماثلة بشكل أو بآخر، فلم تقاومه رسميا ولم تقم بإحراقه ولا بمطاردة ممتلكيه»[377]). ولهذا لا يبدو أن حدثا كهذا يمكن أن يكون قد شكل لعنة على المرابطين وكان سبب هلاكهم كما روج لذلك أعداء المرابطين، الذين ظلوا يواجهون تحديات داخلية وخارجية لا يشكل فيها إحراق الإحياء سوى حدثا ثانويا. لكن في الوقت نفسه، أجواء التوتر التي أسهم فيها قرار بعض فقهاء المالكية الأندلسيين بإحراق كتاب الإحياء، استغله المهدي بن تومرت بشكل من الأشكال، من خلال إحياء ذكراه في النفوس عند بداية الدعوة لنفسه، وذلك بهدف تقويض سمعة المرابطين. في هذا الإطار يرى أحد الدارسين أن فريقا كان ينظر إلى هؤلاء الفقهاء

(371)- نفس المصدر، ص237.
(372)- هو الذي قام بتزعم عملية الإحراق بمدينة قرطبة. أنظر محمد القبلي، مراجعات (رمز الإحياء)، م.س، ص30.
(373)- مجهول، الحلل الموشية، م.س، ص104.
(374)- ابن عذاري (المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الرابع ـــ قسم المرابطين ـــ تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، 1983م.، ص59
(375)- أصبح فقهاء الأندلس مثار سخرية واستهزاء فئات من المجتمع الأندلسي، وجه لذلك مثله لون أدبي مثله أبو جعفر المعروف بابن البني:

أهل الرياء لبستم ناموسكم === كالذئب أدلج في الظلام العاتـــم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك === وقسمتمو الأموال بابن القاسم

المرجع: كامل كيلاني، الوعظ القصصي والوعظ الكاذب ومقالات أخرى، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2011، ص212.
(376)- أنظر المقارنة التي قام بها محمد القبلي في تحديد موقف مجموعة من الفقهاء المالكيين البارزين، في قضية الإحراق. مراجعات، م.س، صص 30، 31، 32،33.
(377)- نفسه، ص28. (أنظر الونشريسي، العيار، ج.12، ص184).

على أنهم «يمثلون قوى ردود الفعل والتخلف والصلابة والتعصب، بينما بالنسبة لآخرين فهم يشكلون قوة للتقدم والحركية بل والتنوير»[378].

3- وضع الجبهة العسكرية في الأندلس بعد سقوط سرقسطة:

كان لسقوط سرقسطة[379] في يد النصارى عام 512هـ(1118م)، أثرًا سلبيا على مسار الدولة المرابطية، ومؤشرا على بداية الشرخ السياسي بكل آثاره السلبية على تجربة وحدة العدوتين التي تحققت مع المرابطين، خاصة على المستوى النفسي والمعنوي[380]، خاصة بعد حصد المرابطين لهزيمة كتندة[381]، المشهورة ــ حسب ابن الأبار ـ بيوم الثغر الأعلى،وهو «يوم الخميس لست بقين من ربيع الآخر من السنة وحقت على المسلمين الهزيمة»[382].التي حسبها ابن الأثير« هزيمة منكرة»[383] وذلك بما حدث من قتل كبير في صفوف المسلمين، إلى جانب ما يمكن أن يرفع من معنويات النصارى مع ما يظهر من بداية «رجحان كفة القوى المسيحية في الأندلس»[384]، التي حاولت تدارك ما أفسده انتصار الزلاقة من جهة، مقابل بداية فَقْدِ المجتمع الأندلسي ثقته في الدولة الحامية، خاصة بعد أن استفحل أمر فتنة الغُنوصي ابن تومرت[385] حسب تعبير سامي النشار. علما أن

(378)-BENABOUD(M'hammed)(Spring-Summer)1991, SOCIO-POLITICAL ROLE OF ANDALUSIAN 'ULAMĀ' DURING THE FIFTH/ELEVENTH CENTURY;
IslamicStudies,Vol. 30, No.1, Special Issue on Muslim Heritage in Spain, pp: 179-211 (33pages), p: 186.

(379)- خصص عبد الله عنان الفصل الثالث بكامله من مؤلفه الضخم دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثالث: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الأول عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، خصصه لحيثيات وتفاصيل سقوط سرقسطة بيد نصارى النورمان.أنظر ترجمة لحاضرة سرقسطة: الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر)، كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية – ش. بور سعيد، الظاهر، المركز الإسلامي للطباعة – الجيزة. (بدون تاريخ)، ص81 [ت.210].

(380)- تعتبر الأثار النفسية والمعنوية ذات أهمية كبيرة في معارك حاسمة ضد نصارى الشمال في بلاد العدوة الشمالية، إذ بعد قرابة قرن من الزمان على خسارة المسلمين حاضرة سرقسطة عام 512هـ/1118م سينهزم الموحدون في معركة العقاب عام 609هـ/1212م، والتي شكلت بداية النهاية للحكم الموحدي في الأندلس. لكن بالنسبة للمرابطين، فإنهم استطاعوا حتى بعد ضياع سرقسطة تحقيق انتصارات مهمة على الممالك النصرانية خاصة في أفراغة عام 523هـ/ 1128م.

(381)- اعتبرها " ليتورنو" هزيمة غير مؤثرة في الوضع العام للإمبراطورية ولا يتأثر بها مركز الحكم، بالمقابل ركز على حركة المهدي التي اعتبرناها أول مسمار في نعش المرابطين، رغم أن الأثر الواضح لدعوة المهدي لم يعط أكله إلا بعد وفاته، بل وإلى ما بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين عام 538هـ/ 1143م.

(382)- ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الإمام الصدفي، ص7-8.

(383)- ابن الأثير، الكامل، م.س، ج.9، ص206.

(384)- بنسباع مصطفى، السلطة، م.س، ص115.

(385)- أنظر مقدمة محقق كتاب السياسة (الإشارة في تدبير الإمارة للمرادي الحضرمي). الدكتور سامي النشار.

باحثا غربيا قلّل من شأن هزائم المرابطين، وأكد على أنه «في سنة 514هـ /1120م كانت إمبراطورية المرابطين تنعم بحياة آمنة»[386]. فحين نرجع إلى ما أورده صاحب القرطاس في موضوع ضياع سرقسطة، نجد أن ذاك السقوط جاء في سياق لا ينمّ عن ضعف الجيوش المرابطية. وإلا فمسلسل المعارك بين المرابطين والممالك المسيحية لم ينته إلا بعد وفاة الخليفة الثاني على بن يوسف[387]، وانشغال الخليفة تاشفين بحرب الموحدين، أواخر العقد الثالث من القرن السادس الهجري(ق.12م). ونضرب هنا بمثال حروب عبد الله بن مزدلي العظيمة - حسب تعبير صاحب القرطاس - ضد ألفونسو الأول (ابن رذمير)«حتى هزمه وأخرجه عن البلاد»[388]. كما أقلعه تميم بن يوسف بن تاشفين «عن لاردة خاسئا خاسرا»[389]. إلا أن الرجل استغل فرصة الفراغ في سرقسطة بعد وفاة الأمير المرابطي، فاستنجد «بطوائف الإفرنج يستنصر بهم على سرقسطة، فأتوا في أمم كالنمل والجراد»[390]. ولم يُجْدِ وصول جيش من عدوة المغرب «مكون من عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين علي لاستنقاذها»[391]، إذ كانت المدينة قد سُلِّمت وهجرها أهلها[392]. ولعل بتتبُّعنا لبعض تفاصيل الرواية الإسلامية والرواية الفرنجية، نجد أنفسنا أمام طائفة من الروايات المتناقضة[393]. فالمدينة ظلت تنعم بنوع من "الاستقلال الذاتي"[394] إلى حدود 503هـ/ 1109م، حين دخلها المرابطون خلال هذا العام «استجابة لصريخ أهلها»[395]. الأمر الذي سيكلفهم كثيرا حين سيشعرون مستقبلا، وفق رأي عبد الله عنان «بفداحة مهمتهم

(386)- روجر ليتورنو، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، م.س، ص46.
(387)- أنظر جدول مجموعة من المعارك بين المرابطين ونصارى الشمال: أطروحة محمد المرتضي، "الأندلس في سياسة الدولة المرابطية بين الإنقاذ والاستحواذ" ص60 وص61. / المصادر: القرطاس، ص164/ الإحاطة، ج1، ص451 وص452/ البيان المغرب، ج4، ص 80 وص81. وص85 ثم ص90 وص91وص96 / نظم الجمان، ص251.
(388)- القرطاس، م.س، ص162.
(389)- نفس المصدر والصفحة.
(390)- نفسه، ص163.
(391)- نفسه، والصفحة.
(392)- كان أهل سرقسطة قد اشترطوا على عماد الدولة بن المستعين (عبد الملك) بعد استشهاد أبيه على حد تعبير صاحب البيان، ألا يستخدم الروم. ابن عذاري، قسم المرابطين، م.س، ص53.
(393)- أنظر عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، الهامش رقم313، ص92.
(394)- مما يؤكد هذه الاستقلالية هو إشارة، من اعتبرهم صاحب الحلل، أهل الدولة على علي بن يوسف «أن يطلب مُلك بني هود بشرق الأندلس، وقالوا له: الشرع يدعوك أن تسعى في أخذ تلك البلاد منهم، لكونهم مسالمين للروم، فأخذ برأيهم «(394)، فجاء كتاب من صاحب سرقسطة يذكره بموقف والده يوسف بن تاشفين وحسن معاملته(394)، فخاطب علي بن يوسف الأمير أبا بكر بن تيفلويت «يأمره بالكف عن بلاده»(394) أي بلاد عماد الدولة أبو مروان عبد الملك بن هود..
(395)- عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثالث: عصر المرابطين والموحدين، ص87.

في حمايتها والاحتفاظ بها «[396]. فهل صدقت رؤية يوسف بن تاشفين الاستشرافية حين أوصى بترك سرقسطة تنعم بما حسبناه استقلالا ذاتيا وأن تظل حاجزا بين المرابطين ونصارى الشمال؟

لكن ما يثير الانتباه هو كيف تجاهل صاحب الحلل الموشية هذا الحدث المشهور في إطار الكرونولوجيا التاريخية التي أوردها، والخاصة بالعقدين الأولين من القرن السادس الهجري. فقد انتقل من الحديث عن الجواز الثالث للأمير علي بن يوسف عام 511هـ/ 1117م، الذي افتتح خلاله «مدينة قلمرية ودوّخ بلاد الشرك بجيوش لا تُحصى، وكان أثره بهاعظيما»[397]، انتقل مباشرة إلى عام 515هـ/1121م، للحديث عن ثورة قرطبة التي حسبها «فتنة كبيرة»[398]. علما أن النصارى المعاهدون[399] كان لهم دور كبير في إثارة الاضطرابات كلما أُتيحت لهم الفرصة. ويظهر أن خطورة هذه الفئة تجلت في ربط أحد الدارسين، بين جواز أبي الوليد بن رشد إلى العدوة الجنوبية وخيانة النصارى المعاهدين لجيرانهم المسلمين في الأندلس[400]، بفعل ما«جَنَوْه عليها من استدعاء ابن رذمير»[401]، الذي تواترت عليه «رسلهم مُلحّة في الاستعداد، مطمعة في دخول غرناطة»[402]. علما أن تحركات هؤلاء النصارى المُعاهدين خاصة منهم المستقرين "بكورة غرناطة"[403]، تزامنت مع توهّج حركة المهدي بن تومرت، بفعل الانتصارات التي حققها أتباعه على المرابطين، قبل معركة البحيرة الحاسمة عام 524هـ/1130م، قرب مراكش التي تلقى خلالها الموحدون هزيمة قاضية. كما أن المرابطون تمكنوا زمن علي بن يوسف من تحطيم

(396)- نفس المرجع والصفحة.
(397)- مجهول، الحلل الموشية، م.س، ص86.
(398)- المصدر نفسه والصفحة.
(399)- كان ابن رشد قد أفتى بتغريب من نقضوا عهدهم مع الدولة المسلمة التي يعيشون في كنفها. أنظر الحلل الموشية، ص90 وص91.
(400)-DOZY, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age, 3eéd,tome I,Paris-Leyde,1881,pp. 350-361.(d'après un texte arabe reconstitué à partir d'Ibn al-Khatib et du Hulal al-Mawshiya, qui figure dans l'appendice XXVIII, à la fin du même ouvrage).
(401)- مجهول، الحلل، ص90.
(402)- نفسه والصفحة.
(403)- المصدر نفسه، ص91. في هذا الإطار نقتطف إشارة أوردها صاحب الحلل الموشية، وهي لابن الصيرفي صاحب مؤلف " الأنوار الجليّة" المفقود، يشير فيها إلى تبخّر مسعى النصارى المُعاهدين، عندما «افتضح تدبيرهم في اجتلابه» نفسه، ص93.

القوة العسكرية لنصارى الشمال بقيادة ملك أراجون ألفونسو الأول (ابن رذمير) في "معركة إفراغة"عام 528هـ(1133م). وهو ما حسبه **فرانشيسكو دي كوديرا** نصرا مجيدا للمسلمين[404]، خاصة بعد فرار ابن رذمير من المعركة ووفاته بعد حين[405]. وقد نقل إلينا ابن الخطيب شِعرا لابن الصيرفي مؤرخ المرابطين قال في بعض أبياته:

أَشْكو الغليل بحيث المشرب الخضر === حسبي وإلا فوِرد ماله صدر

تجهّمت لي وجوه الصبر مُنكرة === ولاحظتني عيون حشوها حَـذَر

سيف به ثُلَّ عرش الروم وطّدت === قواعد المُلك واستولى به الظفر[406]

وإذا كنا لم نستطع أن نجد داخل ثنايا المصادر التي اطّلعنا عليها، الأسباب الكامنة وراء عدم استثمار المرابطين نصرهم في البحيرة واجتثات دعوة المهدي بن تومرت وحركة الموحدين، فإن حرب "الاستنزاف" التي فرضها عبد المؤمن بعد وفاة المهدي، سمحت فيما نحسب ببروز حركات سياسية "انقلابية" في الأندلس، اتّشحت بثوب ديني، كتلك التي قادها ابن قسّي[407] «أول الثائرين بالأندلس عند اختلال دولة المرابطين»[408]. وأوّل "المهرولين" نحو الموحدين حتى وهم لا زالواْ يتربصون بحضرة مراكش. علما أن الرجل «نشأ مشتغلا بالأعمال المخزنية ثم تزهد بزعمه»[409]. بينما في الجهة الأخرى ظهر ثائرآخر بثوب"قومي"ـ حسب رأي عبد الله عنان ـ من أبناء الأسر والبيوتات الحاكمة سابقا بعد أن «تزعموا مدنهم وأعلنوا الثورة واستقلوا بهذه المدن، وكوّنوا ما عرف بعصر

(403)- D.FRANCISCO CODERA de la R.A. de la historia catedratico de lengua Arabe en la Universidad Central SARAGOSA TIP. DE COMAS, PILAR1, p : 268.

في هذا الإطار يحيلنا كوديرا على ابن الأثير حول الاختلاف بين تاريخ المعركة وتاريخ وفاة ألفونسو الأول، حيث جعلها صاحب الكامل عام 529هـ. أنظر تفاصيل معركة إفراغة والجيش الذي جهزه المرابطون والذي بواسطته وضعوا حدا لانتصارات ابن رذمير: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج9، ص287. الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي مع فهارس شاملة، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان - بيروت، ط.1 / 1975 و ط.2 /1984، ص48-49.

(405)- ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، من الصفحة 407 إلى الصفحة 415

(406)- المصدر نفسه، ص407 - 408.

(407)- أنظر ترجمته عند ابن الأبار، الحلة السيراء، م.س، ج2، (الترجمة 142)، ص197.

(408)- نفس المصدر والصفحة. أنظر ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، الروافد والمعطيات. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان، جامعة عبد المالك السعدي، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء. 26 – 27 – 28 أبريل 1993، ص364. بنسباع، السلطة بين التسنن والتشيع، ص86.

(409)- الحلة السيراء، م.س، ص197..

الطوائف الثاني»[410] أواخر عقد الثلاثينيات من القرن السادس الهجري(ق.12م). وهو الأمر الذيعرّى ظهر الأندلس وجعلها عرضة للمناوئين بإشعال نار الفتن، في الوقت الذي كانت فيه الطبقة "الأرستقراطية" لاهية عمّا يحيط بالبلاد من أخطار[411]. لكن الذي سيزيد الوضع تأزُّما هو انقلاب فقهاء وقضاة مالكيين بزعامة ابن حمدين على المرابطين لأسباب لم نجد لها مبررا. وهو القاضي الذي لما حاصره ابن غانية في حصن أندوجار، استنجد بالنصارى الذين استغلوا ظروف احتدام الصدام بين الموحدين والمرابطين، فأصبحوا بحلول عام 541هـ/ 1148م يسيطرون على مجموعة كبيرة من الثغور ك« شنتمرية وباجة وماردة وأشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها»[412] لتعود الأندلس إلى سيرتها الأولى زمن عصر الطوائف الأول[413] «وذلك لاختلاف المسلمين» [414].

بناء على ما سبق يبدولنا أن السياق التاريخي الذي جاء في إطاره استنجاد الأندلسيين بالمرابطين بكل ما شهدته الأندلس خلال حكم ملوك الطوائف من مظاهر التقسيم والتجزئة والفوضى، لم يكن هو نفس السياق الذي ظهر خلاله الموحدون كثائرين بقيادة المهدي بن تومرت. فقد استطاعت الأندلس أن تعيش نوعا من الاستقرار السياسي والمجتمعي في إطار التجربة الوحدوية زمن المرابطين، كما سنتطرق لذلك في الباب الثاني.

(410)- عصمت دندش، الأندلس نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، م.س، ج2،ص276.
(411)- نفس المرجع، ص278.
(412)- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 733هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (بدون تاريخ) ، ج24، ص165.
(413)- المراكشي، المعجب، م.س، ص277.
(414)- النويري، نهاية الأرب، م.س، ص165. في هذا الإطار يمكن أن نستشهد بحديث شريف حول السنن التي تجري على المسلمين عبر تاريخهم الطويل وذلك كلما عمّ بينهم الخلاف والانقسام، وكلما تعلّقوا بالحياة الدنيا وتخلوا عن رسالة الاستخلاف وإعمار الأرض وليس الإفساد فيها. فعن أبي عبد السلام، عن ثوبان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها)، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ؟ قال : (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، ولَيَقْذِفنَّ في قلوبكم الوهن فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن؟ قال : حب الدنيا، وكراهية الموت) أخرجه أبو داود في سننه (2/ 210)، والروياني في مسنده (ج 25/ 134/ 2)؛ من طريق: عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عنه، ورجاله ثقات كلهم غير أبي عبد السلام هذا فهو مجهول، لكنه لم يتفرد به، بل توبع -كما يأتي- فالحديث صحيح. أنظر شرح الشمائل المحمدية للإمام الترميذي المسمى منية السائل خلاصة الشمائل، تأليف الشيخ محمد عبد الحي الكتاني، 1302 – 1382هـ/ 1885 – 1962م، اعتنى به ابراهيم بوسبيع، ضبط نصه وعلق عليه عبد الحكيم واحسين، دار الكتب العلمية، ص313.

الفصل الثالث: السياق المغاربي (مجال بني زيري وبني حماد)

سنقف في موضوع السياق التاريخي المغاربي على أهم التحديات التي واجهها حكام صنهاجة الشمال بعد انفصالهم عن حكم العبيديين الشيعة، والذي وضع المنطقة المغاربية ضمن معادلة صعبة سياسيا واقتصاديا و"أيديولوجيا" وذلك بالنظر إلى حضور الخلفية المذهبية الشيعية في المشروع الفاطمي ببلاد المغرب، ودخول العرب على خط تعميق الأزمة السياسية داخل مجال بني زيري وبني حماد الصنهاجيين، وذلك بما أحدثوه من ارتباك كبير في مسيرة حكام إفريقية والمغرب الأوسط. هذا المجال الذي سيصبح ساحة لكل أنواع الفوضى والفتن، ومظهرا بارزا من مظاهر الانقسام والتجزئة التي شهدتها المنطقة المغاربية إلى أن جاء الموحدون الذي عملوا على ضم المنطقة بكاملها إلى الحكم المركزي في مراكش.

فكيف سعى بنو زيري وبنو حماد للانعتاق من الوصاية الفاطمية الشيعية وتأسيس الدولة المستقلة؟ وما المشاكل التي واجهها بنو زيري وبنو حماد في ترسيخ حكمهم في كل من إفريقية والمغرب «الأوسط»؟

ثم ماذا سيقدم هذا السياق لموضوع التجربة الوحدوية التي شهدها الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين؟

المبحث الأول: الوضع السياسي داخل مجال صنهاجة الشمال قبل قيام دولة المرابطين

1- وضع صنهاجة الشمال قبل منتصف القرن 5هـ(ق.11م):

ظلت بلاد المغرب تتمتع بجاذبية خاصة على مر العصور والأزمنة، ولهذا وجدنا النبش في واقع الدينامية التاريخية التي شهدتها خلال العصر الإسلامي المغربي الوسيط، أمرا مركزيا وعملا تأصيليا لما نحن بصدده في محاولة تقييم الواقع الذي في سياقه جاءت تجربة توحيد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين.

لقد بدا لنا أن سعي العبيديين الشيعة لتثبيت سلطان الزيريين، ودعم وجودهم بكثافة في بلاد المغرب الإسلامي قبل انقسام صفهم، لا يمكن شرحه فقط انطلاقا من البُعد المذهبي في إطار الصراع السني - الشيعي بين الأمويين والفاطميين، بل ولترسيخ واقع التجزئة داخل

المجال المغاربي وتفتيت قوة القبائل المغاربية وشلّ قوتها، وصولا للتحكم في أوصال التجارة الصحراوية وتجارة حوض البحر الأبيض المتوسط.

ونظرا لتربص زناتة الكبرى[415] بصنهاجة الشمال «أنهض باديس عمه حمادا[416] إليهم وجعل له تملُّك كل ما يفتحه وأعفاه من الوصول إلى إفريقية»[417]. وحسب إشارة لصاحب "المؤنس"، فقد عقد باديس بن المنصور في عام 387هـ/ 996م لعمه حماد بن بلقين على أشير والمغرب وجعله عاملا على تلك البلاد[418]. وهو ما يمكن أن نفهم منه المكانة التي كانت لحماد بن بُلقين عند ابن أخيه، قبل أن تصبح لحمّاد أطماع شخصية في الملك سيترجمها وأبناوه من بعده، إلى الاستئثار بحكم المغرب الأوسط. فبعد أن وصل حماد إلى الحكم «قتل الرافضة وأظهر السنة ورضي عن الشيخين ونبذ طاعة العبيديين جملة وراجع دعوة آل العباس وذلك سنة 405هـ»[419]. ورغم أن بني زيري سارعواْ بدورهم للخروج من قبضة العبيديين سياسيا ومذهبيا في عهد المعز بن باديس، إلا أنهم أدوا الثمن غاليا بعد حملة العرب البدو الذين خرجوا «من مصر إلى إفريقية سنة 440هـ/ 1048مبتدبير من الفاطميين»[420]. وعوضا عن تظافر جهود صنهاجة الشمال للتصدي لذاك العدوان، دخل الطرفان في حروب طاحنة أوهنت كاهلهم. إذ لم يزل الحماديون يحاولون الاستقلال والمعز يخضعهم، حتى جاء الهلاليون الذين كان لهم دور بارز في

(415)- كانت قبائل زناتة تنتشر في في أجزاء مهمة من البلاد المغاربية، وبالتحديد في المناطق الرعوية، فكانت بالتالي مكونا رئيسيا ضمن واقع الانقسام والصدام ضد مختلف مكونات المشهد القبلي الانشطاري، على حد تعبير الأستاذ هاشم العلوي القاسمي. وستكون زناتة على موعد مع خوض تجربة الحكم عندما سيتمكن بنو مرين في مطلع النصف الثاني من القرن السابع الهجري،إزاحة الموحدين عن الحكم.

(416)- يعتبر "حماد بن بلقين" مؤسس الدولة الحمادية (المستقلة) وأحد الوجوه البارزة في الصراع ضد الزيريين و زناتة، وكانت بينه وبين ابن أخيه باديس حربا طاحنة حوالي 405هـ/1011م. وقد أبدى باديس وابنه المعز مقاومة شرسة ضد طموحات حماد (أنظر أعلام الأعلام، ج3، ص 71-72). الشيء الذي كان ينبئ بانقسامات حادة وارتفاع حدة التوتر والصراع حول مجال النفوذ على طول المجال المغاربي وبالتحديد المناطق الحضرية التي تعد مركز الثقل السياسي والاقتصادي. أنظر: المراكشي، المعجب، صص272 - 273 (تحقيق سعيد العريان). وتشير بعض المصادر إلى أن حماد بن بلقين هو الذي شيد ما يعرف بقلعة بني حماد أنظر: الاستبصار في عجائب الأمصار ص168-170 وأعمال الأعلام، ص85.

(417)- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، م.س، ج3، ص69.

(418)- ابن ابي دينار، الفقيه أبي عبد الله الشيخ محمد بن أبي القاسم الرميني القيرواني) ، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، ط.1، 1286هـ، ص78.

(419)- ابن خلدون، ج6، ص 202.

(420)- الطاهري عبد الحق، الدولة الموحدية أسس الشرعية والمشروع السياسي، إفريقيا الشرق، البيضاء، 2015. ص 24.

إضعاف دولة المعز وبنيه، فأعلن القائد ابن حماد الاستقلال[421]. وهي علامة واضحة على واقع التجزئة والانقسام السياسي في بلاد المغرب الإسلامي بين أبناء نفس البيت الحاكم، إذ «لم يدُم بينهم سِلم حتى انقضت أيامهم»[422]. وهو مشهد لا يختلف كثيرا عن الأوضاع في بلاد الأندلس أيام حكم ملوك الطوائف. ويبدو لنا أن الخاسر الأكبر في هذا الصراع الداخلي، بنو باديس الزيريون بعد أن تقلص مجالهم السياسي في إفريقية، تحت الضربات المباشرة للعرب مما اضطرهم بعد جين إلى نقل عاصمة ملكهم إلى المهدية.

ويعتبر تأسيس حماد بن بُلُقين دولة في جهة قسطنطينة[423]، مظهرا من مظاهر انشطار حكم صنهاجة الشمال إلى «إمارة شرقية وقاعدتها القيروان وإمارة غربية وقاعدتها قلعة بني حماد»[424]. وهنا يظهرأن هذا الانقسام المبكر الذي حصل داخل البيت الصنهاجي بين بني زيري وبني حماد، سهّل مهمة اختراق مجالهم السيادي والتحكم فيه من طرف عرب مصر، ثم نصارى النورمان في صقلية في وقت لاحق[425].

2- الوضع السياسي في إفريقية والمغرب"الأوسط" خلال النصف الثاني من ق.5هـ(ق.11م)

أ- دور عرب بني هلال في تفتيت المجال الزيري:

يبدو أن التحدي الكبير الذي وضع فيه المعز بن باديس نفسه داخل مجال حكمه في إفريقية، هو تخليه عن التبعية للفاطميين في مصر، واضعا بذلك حدا للتبعية السياسية للعبيديين، الذين سمحوا للعرب بدخول المجال الزيري نكاية فيهم. فما هي المستويات التي من خلالها يمكننا تجسيد خطورة الوضع داخل المجال السياسي لبني زيري؟

(421)- مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص238.

(422)- المرجع نفسه، والصفحة. ورغم الصلح الذي سيتم بين الناصر والمعز عام 470هـ، فقد بدا لنا من خلال الإطلاع على مجموعة من التفاصيل التاريخية، أنه صلح "تكتيكي"، هدف من ورائه الناصر الاستعداد للحد من أي طموح للمرابطين الزاحفين الذين كانوا قد اقتربوا من توحيد مجال المغرب الأقصى. أبرزت الأحداث أن الأطماع الحمادية في المجال الزيري لم تتوقف. بينما المرابطون تمكنوا من تقديم الدعم العسكري لبني زيري كما سنوضح ذلك في الباب الذي خصصناه لتجليات التجربة الوحدوية مع المرابطين بإثباتات مصدرية،

(423)- ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق صالح بن عبد الله الغامدي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة،مكتبة الملك فهد الوطنية، ط.1، 1429هـ/2008م، ج1، ص30.

(424)- المصدر نفسه والصفحة.

(425)- أشار ابن عذاري إلى علاقة حسن الجوار مع الروم الذين توصل المعز من ملكهم بهدية عام 426هـ/1034م، لم ير مثلها في كثرة ما اشتملت عليه من أمتعة الديباج(أنظر : ابن عذاري،البيان، ج1، ص275.

يرى ابن خلدون أن مرحلة حكم المعز بن باديس[426] من سنة 406هـ(1014م) إلى 453هـ(1061م) هي«أضخم ملك عُرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه»[427]، رغم حجم التحديات الكبرى التي واجهت الرجل، بدءا بحروبه الكثيرة ضد زناتة، خاصة مواجهة ما يعرف ب"الجَفْنة" التي انتقمت فيها جيوش المعز من جموع الزناتيين الذين سقط منهم عدد كبير[428]، ثم ضد صاحب قلعة بني حماد التي «حاصرها مدة سنتين، وأخذ بمخنق حماد فيها»[429]، وذلك عام 432هـ/ 1038م، قبل أن يستقيم «الأمر للقائد بن حماد، لاشتغال المعز بن باديس عنه بما دهمه من العرب»[430].

في ظل هذا الوضع الداخلي المأزوم ستدخل العلاقة الزيرية - الفاطمية منعرجا صعبا، وذلك بعد أن أعلن المعز بن باديس القطيعة مع العبيديين، وخطب للقائم بأمر الله العباسي[431] في سنة 433[432]. وقد حدد صاحبا "المُعجب"و"الكامل" تاريخ قطْع خطبة المستنصر العبيدي"الفاطمي" وخلع طاعته عام 435هـ(1093م)[433]. كما أزاح الأمير الزيري أسماء الفاطميين من الطراز والرايات سنة 437هـ(1045م)[434]. وعمل على قطع الدعوة لهم بصفة نهائية سنة 440هـ(1048م)[435]، قبل أن يعمد إلى إزالة أسماء الفاطميين من السكة في سنة إحدى وأربعين[436].بكل ما سيحمله هذا الأمر من أبعاد مادية

(426)- يعتبر مؤسس دولة بني زيري الحقيقي، عمل تحت تأثير وزيره وفقهاء مالكيين على الانقلاب على العبيديين الذين كانوا قد لقبوه بشرف الدولة: أنظر ابن خلكان، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر - بيروت، 1397هـ/1977، ج5، ترجمة 730، صص233، 234، 235.

(427)- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، م.س، (ج 6)، ص 210.

(428)- ابن الأثير، الكامل في التاريخ،مج.8، ص221.

(429)- ابن عذاري، البيان المغرب، م.س، ص 275. ويشير ابن كثير إلى أنه«في هذه السنة (432هـ) خالف أولاد حماد على المعز بن باديس صاحب إفريقة وعادوا إلى ما كانوا عليه من العصيان والخلاف عليه فسار إليهم... وضيق عليهم وأقام عليهم نحو سنتين.» الكامل، ج8، ص248.

(430)- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، م.س، ج3، ص86.

(431)-ابن خلكان، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، م.س، **ج5**، ص: 234. ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، ص 72. ابن عذاري، البيان المغرب،(ج1)، صص 273-274، وابن أبي دينار، المؤنس،ص81.

(432)- ابن عذاري، البيان، م.س، ج1، ص 275.

(433)- المراكشي، المعجب، م.س، هامش ص275: لسان الدين بن الخطيب،أعمال الأعلام، م.س، ج 3، ص 73 . ابن الأثير، الكامل، م.س، مج.9، ص564.

(434)- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، " الفاطميون وبني زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين " مطبعة أطلس بالإسكندرية – الناشر المعارف، القاهرة، ج.3، 1990، ج3، ص389،

(435)- ابن عذاري، البيان، م.س، ج1، ص 274.

(436)- لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام، م.س، ج 3، ص73. البيان المغرب، ج2، ص 288 . سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، (ج3)، ص 393.

ورمزية والتي على ما يبدو كلفت الرجل استباحة مجاله السيادي من طرف عرب مصر أواخر العقد الرابع من القرن الخامس الهجري. وسيتخذ المعز بن باديس إجراءات أخرى كانت وراء إثارة سخط الفاطميين في مصر، بعد أن «صرّح على المنابر بلعنهم وذلك سنة أربع وأربعين وأربعمائة وألف»[437] وجعل المذهب المالكي مذهبا رسميا للدولة[438]، باعتباره مطلبا «شعبيا» في معظم بلاد المغرب الإسلامي. وهو ما سيكرسه المرابطون بعد وصولهم إلى الحكم وتوحيدهم لبلاد العدوتين[439]. ويرجَّح أن يكون فقهاء المالكية قد مهّدوا الطريق أمام المعز وكذا الحماديين لتبني المالكية وإزاحة المذهب الشيعي.وذلك بما كان لهم منأدوار، حسب أحد الدارسين، في مشهد «تسلسل المقاومة الشعبية للمذهب الإسماعلي، منذ بداية عهد المعز بن باديس»[440]. وهنا يمكن أن نربط بين هذا الأمر وتخريب العرب لحاضرة القيروان بكل ما كانت ترمز له آنذاك كمحضن للعلماء والفقهاء السُّنة ولمواكب الحج القادمة من الأندلس وبلاد المغرب.

ولعل مثل هذا التحدي الذي رفعه المعزبن باديس[441] في وجه العبيديين، هو ما رأى فيه أحد الباحثين تبلورا «للشخصية الخاصة لبلاد المغرب، تحت المظلة السنية المالكية، وعلى أكتاف العصبية الصنهاجية، في كل من إفريقية التونسية، وبلاد الغرب المراكشية

(437)- التيجاني (أبوعبدالله)، رحلة التيجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981، ص328.

(438)- الخوني الصادق "دور المذهب المالكي في بعض التحولات السياسية: الصنهاجيون والمرابطون". ملتقى القيروان مركز علمي مالكي بين المشرق والمغرب حتى نهاية القرن 5هـ، من 15 إلى 17 /4/4/ 1994 القيروان: مركز الدراسات الإسلامية، 1995م، ص 365 – 369.نقلا عن بولطيف لخضر محمد، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية، ص76.

(439) - مما ينهض دليلا على أن الحركة السنية مثلت ظاهرة عامة بصمت مسيرة الدولتين، وهو ما يفسر من جهة ثانية الترابط الوثيق بين وحدة المغرب العربي والخلافة العباسية في الشرق، إذا علمنا أن بني حماد والزيريين نبذوا دعوة الفاطميين الإسماعليين على حد تعبير القادري بوتشيش: قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، ص 70.

(440)- زغلول، تاريخ المغرب العربي، م.س، ص. 392.

(441)- تحدث مؤلف "دولة صنهاجة" عن نوع من تضخيم دور المعز في موضوع القطيعة تلك، حيث يشير إلى «تأويل شبه خرافي مستمد من المصادر السنية، للقطيعة التي اعتبرت إنجازا لمخطط مدبر من قبل، قد استنبطه المعز منذ شبابه المبكر.» إدريس روجي، م.س، ص 214. ومع ذلك فهو يُقرّ ب «مدى أهمية العمل العميق والمتواصل الذي كان يقوم به فقهاء القيروان. ذلك أن هؤلاء المرشدين الروحيين للجماهير الشعبية والفئات الاجتماعية الوسطى على حد تعبيره، "واصلوا العمل الذي بدأه الإمام سحنون، وكانوا الباعثين الحقيقيين لانتعاش المذهب السني في إفريقية". المرجع نفسه والصفحة.

الفاسية»[442]. فأين تجلى رد الفعل الفاطمي اتجاه المجال الإفريقي الذي خرج عن التبعية لهم. وما هي أهم نتائجه؟

جاء تسريح المستنصر الفاطمي، للعرب المقيمين بمصر[443]، كرد فعل ضد فك المعز بن باديس الارتباط بالعبيديين الشيعة[444]، إذ يذكر ابن الخطيب في هذا المقام، أن الرجل أباح للعرب«مجاز النيل إلى المغرب وكان ممنوعا عنها قبل ذلك»[445]، ووعدهم بالمدد والعدد، وهو ما شجع العرب على الدخول إلى إفريقيةعام 442هـ(1050)[446]م. بينما اعتبر باحث غربي أن وصول القبائل العربية الرحل كان في عام 443هـ(1051م)، حيث «تجزأ شرق المغرب، أي إفريقية، إلى عدة إمارات صغيرة حكمت بعضها أسر عربية، وحكمت البعض الآخر أُسر من البربر»[447]. وقد كان الهدف من هذا الأمر تفتيت الوحدة السياسية لإفريقية بعد إسنادها «كإقطاع من قِبَل الفاطميين إلى القبائل العربية المنحشرة بصعيد مصر ونعني قبائل بني هلال وبني سليم مما أدى إلى هجرة هذه القبائل وإسهامها في القضاء على الحكم الزيري»[448]. وقد كانت السنوات الفاصلة بين 446هـ و449هـ(1054م و1057م)، حاسمة في تاريخ إفريقية، إذ بعد أن خسر المعز معاركه ضد العرب الغزاة، تم حصار القيروان و« اشتداد فتنة العرب عليها سنة سبع وأربعين

(442)- سعد زغلول، م.س، صص. 393 – 394. يوافق رأيه هذا حسن أحمد محمود (قيام دولة المرابطين) وحسين مؤنس(مقدمة تحقيق رياض النفوس).

(443)- وهم قبائل من هلال بن عامر، خرجوا إلى البلاد حين خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب، فعاثوا في القيروان عيثا شديدا أوجب خرابها إلى اليوم، ودوخوا مملكة بني زيري بن مناد (أنظر المراكشي، المعجب، م، س، ص 294. ينحدر بنو هلال من عامر بن صعصعة وأبناء عمومتهم بنو سليم بن منصور من قيس عيلان بن مضر، ولكنهم كانوا يختلفون في طبيعتهم وأخلاقهم عن أجدادهم هوازن) مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 166.

(444)- بعد أن غضب العبيديون على المعز بن باديس، سرح المستنصر أعراب الصعيد على إفريقية وأمدهم بالسلاح فهزم المعز، وتراجع إلى المهدية وعاثوا في إفريقية فسادا وخربوا القيروان.... إلى أن من الله على الناس بظهور دولة الموحدين فوضحت بها معالم الدين وسبل الحق ورسوم الشرع، فظهر بظهورها بإفريقية العلماء والصلحاء، وذلك في سنة الأخماس سنة خمس وخمسين وخمسمائة، والله تعالى أعلم».الدباغ أبو زيد عبد الرحمان، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق وتعليق محمد ماضود، المكتبة العتيقة بتونس، ج3، 1978م.ص204.

(445)- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج.3، ص75.

(446)- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج.8، ص296.

(447)- لوتورنو، حركة الموحدين في المغرب، ص18.

(448)- مجموعة مؤلفين، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، م.س، ص 162. يبدو أنه خلال هذه المرحلة لا يمكن أن نتكلم عن سقوط الحكم الزيري إلا من جهة الشرخ الذي سيحصل في صفوف صنهاجة الشمال والذي كان مُكلّفا لبني زيري بدرجة أولى ثم بني حماد، الذين اضطروا في مراحل متقدمة إلى تحويل <<عواصم>> ملكهم نحو المهدية وبجاية، بكل ما يحمله الأمر من معاني تقلُّص المجال الصنهاجي قبل مرحلة الضعف والأفول.

وأربعمائة»[449]. وذلك لما مارسه العرب منهدم للحصون والقصور ومن قطع للثمار وتخريب للأنهار[450]. ولعل الأدوار السلبية للعرب في إفريقية هي التي عرّت ظهر مجال بني زيري للغزو النورماندي في مستقبل الأيام. كما أنهم كرّسوا الانقسام الداخلي الصنهاجي، إلى الدرجة التي يبدو فيها أن العرب أصبحوا وبنوع من "البراغماتية الفوضوية"، يتحالفون مع طرف ضد طرف آخر في أعمال تخريب ونهب، دون هدف سياسي واضح.

إن حدث تهجير الفاطميين للعرب البدو نحو إفريقية، كان فيما يبدو مؤشرا يُنذر بخلط أوراق حكام صنهاجة الشمال، وزعزعة أمن المنطقة المغاربية ووحدتها السياسية، من خلال الدفع بها إلى مستنقع التجزئة، وذلك بالنظر إلى دورهم التخريبي بما حسبته الرواية المصدرية معدودا» في مصائب الإسلام»[451]. وهذا الأمر جعل المنطقة تشهد فوضى التجزئة والانقسامات، على غرار ما كانت تشهده الأندلس خلال نفس هذه الفترة، أيام حكم ملوك الطوائف.

فمع غزو العرب البدو لمجال بني زيري«اضطرمت أفريقية نارا... وانقطعت تونس عن ملك المعز»[452]، واقتسمت العرب البلاد عمالات، وامتنع كثير من البلاد على ملوك آل باديس مثل أهل سوسة وصفاقس وقابس[453]، مما اضطر صاحب القيروان إلى تحويل عاصمة ملكه أواخر العقد الرابع من القرن الخامس الهجري، بعد أن كان العرب قد حاصروا القيروان سنة 446هـ(1054م)[454]. كما سينهج تميم بن المعز سياسة التحالفات

(449)- ابن بشكوال(ت.578هـ)، كتاب الصلة لابن بشكوال ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي (ت.708هـ)، تحقيق شريف أبو العلا العدراوي، كتاب صلة الصلة، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ط.1، 1429هـ/2008، ج.3، ص6.

(450)- ابن الأثير، الكامل، م.س، ص297.

(451)- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، م.س، (ج 3)، ص77.
إلى جانب دور العرب التخريبي في المنطقة، هناك الأدوار السلبية لفصائل زناتة في تأجيج التصادم بين صنهاجة الشمال خدمة للمشروع الفاطمي الأموي، حيث تم توظيف موسى بن أبي العافية وأبنائه من بعده في مناصرة " حماد بن بلكين في حربه ضد ابن أخيه باديس بن المنصور": زغلول، تاريخ المغرب العربي، م.س، ص501.

(452)- تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص:217.

(453)- المصدر نفسه والصفحة.

(454- النويري، نهاية الأرب، ج24، ص121.

المصلحية لاختراق صفوف العرب الغزاة، وهو ما نفهمه من استعمال زغبة ورياح عام 456هـ(1063م)[455].

وقد كان رحيل المعز بن باديس نحو المهدية سببا في انتقال كثير من أهل القرى والبلاد إلى بني حماد لحصانتها، فعمرت بلادهم وكثرت أموالهم، وفي نفوسهم ما فيها من الضغائن والحقود من باديسوبنيه، يرثه صغير عن كبير[456]. وهنا لم نجد في المصادر الأخرى ما يفصح عن سبب هذه الضغائن، إذ ورد عند صاحب البيان المغرب، أنه في سنة 455هـ (1062م)، فتح تميم مدينة سوسة، وكان أهلها قد نافقوا على أبيه فعفا عنهم[457]. وهنا نرجح أن يكون هروب عامة الناس نحو قلعة بني حماد، أمرا طبيعيا أمام غزو العرب البدو لبلاد أفريقية، الذين«أفسدوا السابلة والقرى»[458]. وأما الضغائن فقد كانت شأنا داخليا بين أبناء العمومة من صنهاجة، الذين توارثوا الأحقاد، وهو ما ستفصح عنه سياسة الناصر بن علناس في محاولات تأزيم وضع تميم كما سنقف على ذلك من خلال أحداث ما يعرف بموقعة "سبيبة"[459] عام 457هـ(1064م)، التي قلب فيها تميم كفة المجن على الناصر. إلا أنه «إلى جانب الهموم المستجدة مع الانفصال»[460]، سيصبح مجال صنهاجة الشمال مستباحا بسبب دور الأعراب الذين كانوا وراء تخريب القيروان الحاضرة الرمز. فهل سيصْحا الصنهاجيون على ما يهدد مستقبل حكمهم وسيادتهم على جزء مهم من المجال المغاربي المُغري للعرب البدو ولزناتة؟

إن الأوضاع المضطربة التي ورثها المعز بن باديس عن آبائه، الذي قضى السنوات الأخيرة من حكمه سجينا في المهدية وشريط من الأرض حولها حتى توفي سنة

(455)– ابن عذاري، البيان، ج1، ص299.
(456)– النويري، م.س، ص122.
(457)– ابن عذاري، نفس. المصدر السابق والصفحة.
(458) – ابن خلدون، ج6، ص:211.
(459)– يقول الإدريسي : «هي مدينة أزلية كثيرة المياه والجنات وعليها سور من حجارة حصين، ولها ربض فيه الأسواق والخانات وشربهم من عين جارية كبيرة عليها جناتهم وبساتينهم وغلاتهم من الكمون والكروياء والبقول»، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، م.س، ص88. وقعت في هذه المدينة معركة مشهورة عام457هـ/1065م تحت إسم"سبيبة" بين حلف يجمع بني حماد ومن معهم من صنهاجة وزناتة، وحلف المعز بن زيري مع القبائل العربية من زغبة ورياح، وانتهت بهزيمة الحماديين.
(460)– زغلول عبد المجيد، تاريخ المغرب العربي، ص:496.

454هـ(1061م)[461]، هي ما سيخلفه بدوره لابنه تميم[462]، الذي حاول استرجاع هيبة بني زيري في إفريقية و «إرجاع الدولة الصنهاجية المفككة إلى سالف عزها»[463].

إلا أنه اصطدم بتركة سياسية ثقيلة، خاصة وأن سيادته داخل المجال الإفريقي اقتصرت على المهدية وأحوازها وصفاقس وقابس وجزيرة جلابة[464].وهو الوضع الذي كان ومنذ وقت مبكر ينذر بتدهور الحكم في بلاد إفريقية، إثر واقع التجزئة الذي تسبب فيه انقسام المجال السيادي لصنهاجة على نفسه، بل واستفحل الوضع مع العرب البدو الذين أحدثوا فوضى في المنطقة، التي ستصبح منذ أواخر القرن الخامس الهجري عرضة لهجومات النورمان على السواحل الأفريقية، مما جعل مملكة المهدية الصغيرة مؤشرا على «بداية لعصر الاضمحلال بالنسبة للأسرة الزيرية»[465]. رغم ما بذله الأمراء المتأخرون من محاولات لرأب الصدع، كما سنقف على ذلك في موضوع تجليات الوحدة المغاربية.لكن مقابل ما أصبحت عليه إفريقية خلال هذه المرحلة، ما هو الوضع السياسي لبني حماد عهد الناصر بن علناس؟

ب-إسهام بني حماد في ترسيخ التجزئة والانقسام[466]:(منتصف ق.5 هـ/ ق.11م)

في الوقت الذي كان فيه "المشهد السياسي" داخل بلاد المغرب "الأقصى" يشهد منحىً تصاعديا في اتجاه وحدة المجال سياسيا على يد المرابطين، نجد الناصر الحمادي بالمقابل يتخذ مواقف "براغماتية" اتجاه بني زيري بعد أن «وضع أمله الأكبر لتوسيع مملكته، في سقوط مملكة القيروان»[467]. وهو موقف له علاقة فيما يبدو بما كان قد حدث «بين باديس بن المنصور وبين عمه حماد بن بلكين، من حيث هو صراع بين آل بلكين ومن حيث ما

(461)– يشير ابن الخطيب إلى أن وفاة المعز بن باديس كانت يوم السبت لخمس بقين من شعبان سنة أربع وخمسين(أنظر أعمال الأعلام، ج3، ص76)

(462)– أنظر تراجم الرجل في بعض المصادر: كالحلة السيراء، ج.1، ص307 . البيان المغرب، من ص298 إلى ص304. نهاية الأرب،ج.2، ص160 وص161. العبر،ج.6، ص160.

(463)– إدريس هادي، الدولة الصنهاجية، م.س، ص293.

(464)– مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص171.

(465)– سعد زغلول عبد المجيد، م.س، ج3، ص: 442.

(466)– موازاة مع الإرهاصات الأولى لعملية توحيد مجال المغرب الأقصى انطلاقا من الجنوب على يد عبد الله بن ياسين وأبو بكر بن عمر.

(467)ـ محمد شقير، تطور الدولة في المغرب، م.س، ص 128.

انتهت إليه من تقسيم الدولة إلى مملكتين»[468] وهو ما أسهم في تفتيت حكم صنهاجة الشمال بعد أن «دخل العرب القيروان وانتهبوها»[469]، كانتقام من الفاطميين حلفائهم السابقين في إفريقية. وقد كان بإمكان الناصر«التعاون مع أبناء عمومته على ترويض أو مواجهة القبائل العربية التي دمرت حضارة القيروان»[470]. إلا أن عداوة الحماديين لأبناء عمومتهم من الزيريين في إفريقية، شكل فيما يبدو عاملا أساسيا في استفحال أمرالعرب التخريبي وتجزيء المنطقة المغاربية. بل ووجّهوا نظرهم أيضا نحو مملكة بني حماد[471].

فما هو إذن الوضع السياسي لبني زيري وبني حماد مرحلة حكم تميم بن المعز والناصر بن علناس؟

كان المشهد السياسي داخل مجال صنهاجة الشمال يشهد مزيدا من التجزئة وتقلص حجم السيادة عليه، خاصة داخل إفريقية، وذلك بسبب الدور السلبي لأعراب مصر في المنطقة من خلال انتشار مظاهر الاضطراب والانقسام[472].الأمر الذي جعل المجال الزيري مستباحا سواء من العرب أو بني حماد. إذ تشير رواية مصدرية أن أطماع الناصر في أفريقية كانت أحد الأسباب المُسعِّرة للصدام العسكري بين بني زيري وبني حماد [473] المتحالفين معي العرب. فقد صح عند تميم بن المعز أن الناصر بن علناس «عزم على المسير ليحاصره بالمهدية، وأنه حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليعينوه على حصار المهدية «[474]. لكن في «سنة 457 كُسر عسكر الناصر بن حماد[475]، وكان قد

(468)– سعد زغلول، م.س، ج3، ص:368.
(469)– ابن خلدون، ج.6، ص211.
(470)– عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الوفاء للطباعة – دار الصحوة للنشر والتوزيع – القاهرة، ط.2، 1411هـ/1991م، ص109- 110.
(471)- "هي دولة بربرية قامت في المغرب «الأوسط» في مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي". لوتورنو، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، م.س، ص 18.
بدا لنا أن سيادة بني حماد على ما يعتبر مغربا أوسطا هي أولا سيادة نسبية بالمعنى السياسي، نظرا لتقاسم قبائل زناتة أجزاءا منه مع صنهاجة الشمال، قبل مجيء المرابطين، الذين في إطار انتزاعهم مناطق النفوذ من زناتة، استطاعوا مدّ سيادتهم داخل المجال الشرقي إلى حدود جزائر بني مزغنة، كما سنوضح ذلك في موضوع توسيع الملثمين مجال التجربة السياسية الوحدوية.
(472)- أنظر التفاصيل في تاريخ ابن خلدون، ج6، ص211: ".. .غلب حمد بن مليل البرغواطي على صفاقص عام 451هـ/ 1059م، وولي عبد الحق بن خراسان على تونس من طرف الحماديين، وتغلب موسى بن يحيى على قابس..."
(473)- أنظر تفاصيل تعريف بني حماد في علاقتهم مع بني زيري في هامش كتاب المعجب للمراكشي، تحقيق سعيد العريان، ج.2، ص272، الهامش2.
(474)– النويري، ج24، ص122-123.

خرج في عدد كثير من صنهاجة وزناتة وعدي والأثبج، فلقيتهم رياح وزغبة وسُليم، فانهزم الناصر... وكان من أعظم الأسباب في ذلك ما أبرمه تميم في أمره»[476] وفي هذا السياق تحدثت بعض المصادر عن حرب "سبيبة" باعتبارها قاصمة ظهر ملوك إفريقية والمغرب الأوسط[477]. وإذا كنا نفهم من هذه الإشارة أن العرب لم يشكلوا كتلة واحدة ذات مشروع واضح، بعد أن أصبح كل أمير أو حاكم محلي يتطلع إلى الاستقواء بأحد الأطراف للحفاظ على بعض المكتسبات على الأرض، فإنه في إطار المقارنة وليس الإسقاط نكاد نكون أمام نفس المشهد زمن ملوك الطوائف في الأندلس.

وبِغضّ النظر عن اختلاف المصادر حول الأسباب الحقيقية لتلك المواجهة، فإنها تجمع على أن ما حصل«بين تميم والناصر صاحب القلعة، [من] فتن كان سماسرتها العرب يجأجئون بالناصرمن قلعته، ويوطئون عساكره ببلاد إفريقية، وربما ملك بعض أمصارها، ثم يردّونه على عقبه إلى داره»[478]. وهنا يبدو لنا أنالناصر أصبح مدينا للعرب بالتبعية،بعد أن أصبحوا في رأي أحدهم أمرا واقعا و«حقيقة من حقائق الوجود المغربي»[479]. فهل الخوف من العربهو الذي سيدفع بالناصر إلى محاولة التخفيف من ضغطهم من خلال كسب ثقتهم، والاستظهار بهم في حرب الزناتية بالمغرب الأوسط[480]، يوم كان زناتة المغروايون[481] يخططون لتطويق الدولة الزيرية من مغربها إلى مشرقها»[482]؟.

---

(475)– يبدو أن صاحب الاستبصار اختلط عليه الأمر عندما حدد المواجهة في سبيبة بين تميم بن باديس والمنصور بن الناصر، مع العلم أن المصادر الأخرى تتحدث عن تميم والناصر وهو الأمر الذي يبدو قريبا للحقيقة. إذ أن المنصور لم يتسلم الحكم إلا بعد وفاة أبيه متم 481هـ، (أنظر:مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء،1985، ص 128-129.)

(476)– ابن عذاري، البيان، ج1، ص299. الاستبصار، ص 128-129.

(477)– نفس المصدر.والصفحة.

(478)– ابن خلدون، ج.6، ص212. هناك إشارة لابن خلدون حول امتداد نفوذ الحماديين زمن الناصر إلى مجال بني زيري، بعد أن نصبوا بني خراسان حكاما لتونس في إطار حكم وراثي، وإن كان صاحب المقدمة يجد تبريرا لهذا الأمر في قدوم وفد من مشيخة تونس «على الناصر بن علناس، فولى عليها عبد العزيز بن خراسان»نفس المصدر،ص217، ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص315.

(479)–عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، م.س، ص125.

(480)– سعد زغلول عبد المجيد، تاريخ المغرب العربي " الفاطميون وبني زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين، ج3، ص499.

(481)– هم أصحاب"تاهرت وتلمسان" حسب سعد زغلول عبد المجيد، م.س، 498.

(482)– المرجع نفسه، م.س، ص498.

يبدو أن عملية تحييد العرب من خلال سياسية التقرب إليهم، كان يهدف من وراءه الناصر بسط نفوذه فيما بقي تحت يد بني عمومته الزيريين. وهو ما يدفعنا للحديث عن مخطط توسعي للحماديين، من خلال ما نستشفُّه من بعض الإشارات المصدرية التي تحدثت عن «استفحال ملكهم وشغوفه على ملك بني باديس إخوانهم بالمهدية»(483). حيث طمع بنو حماد«في ملك إفريقية، وصارت عمالة القيروان في أيديهم مدة بمداخلتهم العرب»(484). وإذا كان يفهم من إشارة لابن الخطيب، فيها نوع من "شرعنة" توسع بني حماد على حساب أبناء عمومتهم، وهو يتحدث عن اتساع «مملكة الناصر إلى أن بايعه أهل القيروان سنة ستين وأربعمائة، وأمنه الناس وقصده الشعراء»(485)، فإن الواقع كان يشهد على حالة الانقسام السياسي بين حكام صنهاجة الشمال، والتي شكلت فرصة استفاد منها العرب بشكل كبير. إذ «بقي تميم بالمهدية وأحوازها من قابس وجربة وصفاقس وأموره مُعتلّة فيها تارة له، وتارة عليه»(486)، في الوقت الذي«لم يُعرف عن بني حماد أنهم تحركوا بدافع النخوة القبلية لحماية أبناء عمومتهم»(487)، إلى أن «اصطلحا سنة سبعين وأربعمائة»(488).

والخلاصة أن العرب وبني حماد أسهما بشكل كبير في تقسيم الجزء الشرقي من البلاد المغاربية، والخاسر الأكبر فيما نحسب هم الزيريون رغم مسارعة الناصر إلى عقد الصلح مع أبناء عمومته عام 470هـ/ 1078م. ذلك أن مثل هذا الصلح، لا يبدو لنا صلحا "استراتيجيا"، بقدر ما كان صلحا ظرفيا، فرضته عليهم سياسة العرب التخريبية في المنطقة من جهة، وما يمكن أن يكون خوفا من القوة السياسية الصاعدة في جهة الغرب والمتمثلة في المرابطين. خاصة وأن الأخيرين أصبحواْ يحظون بسمعة كبيرة، إلى الدرجة التي ارتفعت فيها أصوات الأندلسيين من النخبة ومن العامة، مستنجدين بهم منذ السنوات الأولى من سبعينيات القرن الخامس الهجري (ق.11م).

(483)– ابن خلدون، م.س، ج6، ص232.
(484) ــ ابن عذاري، البيان، م.س، ج1، ص:315.
(485) – ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج3، ص 96.
(486) – نفسه، ص 78 - ص79
(487) – عويس، دولة بني حماد، ص 129.
(488) – تاريخ ابن خلدون، م.س، ص: 212.

المبحث الثاني: الوضع السياسي في إفريقية والمغرب"الأوسط" خلال النصف الأول من القرن6هـ(ق.12م)

بينما كان ظهور المرابطين في بلاد المغرب "الأقصى" ينِمّ عن توجه وحدوي، زاده توهّجا استنجاد الأندلس بيوسف بن تاشفين أمام قوة التكالب النصراني، فإن "المشهد السياسي" داخل المجال الزيري والحمادي(صنهاجة الشمال) كان يسير في اتجاه مزيد من الانقسام وذلك بفعل تظافر عدة أسباب، أبرزها أطماع الناصر الحمادي في امتلاك أجزاء من إفريقية[489]، إلى جانب دور عرب مصر في الإجهاز على المجال الإفريقي وتفتيته، مما تسبب في انكماش المجال السيادي لبني زيري، خاص وأدى إلى تحويل عاصمة ملكهم نحو المهدية بكل ما يرمز إليه هذا التحول من ضعف وتراجع.

وإذا كان هذا حال الوضع السياسي في مجال صنهاجة الشمال أثناء وضع المرابطين حجر الأساس لأول تجربة وحدوية سياسيا ومجاليا، فما هو وضع الزيريين والحماديين طيلة النصف الأول من القرن السادس الهجري، كسياق للبروز الموحديوالثورة في وجه المرابطين؟

1- بنو زيري في إفريقية:

سيشهد مطلع القرن السادس الهجري (ق12م)، وفاة أحد أبرز قادة بني زيري، تميما بن المعز بن باديس، وخلفه ابنه يحيى[490] الذي وصفته الرواية المصدرية بكونه كان «رحيما بالضعفاء والفقراء كثير الصدقة، يقرب أهل العلم والفضل»[491]، كما كان «موْقوف الفكرة على سياسة رعيته وتدبير دولته»[492]، كما تميزت مرحلة حكمه بالحزم العسكري حيث استطاع فتح قلعة إقْليبية[493]، وكان والده تميما «قد رامها فلم يقدر على

(489)– تحدث ابن الخطيب عنمبايعه أهل القيروان سنة ستين وأربعمائة للناصر وأمنه الناس وقصده الشعراء. أعمال الأعلام، م.س، ج3، ص 96.

(490)– تزامن وصوله إلى الحكم مع وصول المهدي محمد بن تومرت إلى المهدية من طرابلس، أنظر: النويري، نهاية الإرب، ج24، ص 132.أنظر ترجمة ليحيى بن تميم عند ابن عذاري في البيان المغرب، م.س، ج1، ص305.

(491)– النويري، م.س، (ج24)، ص 132.

(492)– ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، ج.3، ص80.

(493)– حصن منيع بإفريقية قرب قرطاجنة مطل على البحر الأبيض المتوسط... هامش ص131، النويري، المصدر السابق، (ج24)، ص 131.

فتحها»[494]. وبعد وفاة الملك يحيى جاء بعده إلى الحكم ابنه عليا، الذي ما إن استقرت له الأمور حتى «جهّز أسطولا إلى جربة، وكان أهلها يقطعون على الناس في البحر»[495]، حيث استطاع توفير «أمن من يسافر في البحر»[496]. كما عمل عام 510هـ/ 1116م على تجهيز جيش «إلى مدينة تونس... فصالح ابن خراسان السلطان على ما أراد»[497]. وفي إنتاج أدبي يجسد قيمة الرجل، رثى عبد الجبار محمد ابن حمديس الصقلي الملك يحيى بعد وفاته، وفي الآن نفسه مدح عليا خليفته بقوله:

بموت يحيى أُميت الناس كلهم *** حتى إذا ما علي جاءهم نُشروا[498]

وهو سياق يمكن أن نستخلص منه نتيجة مفادها تحقُّق نوع من الاستقرار السياسي طيلة العقدين الأولين من القرن السادس الهجري داخل المجال الزيري. إذ بالرجوع إلى حكم علي بن يحيى الزيري[499]، نجد بعض الإشارات المصدرية التي تشير إلى بعض الاستقرار خلال هذه المرحلة، ولو أن الأمر كان يهمّ مجالا سياديا ضيقا من إفريقية[500]. فقد اعتمد الرجل سياسة الترهيب والترغيب في علاقته برُجار صاحب صقلية[501]، وذلك من خلال عقد اتفاقيات بعد كل تصادم أو نزاع، ل«تأكيد العهود وتجديد العقود»[502]. كما حاصر علي بن يحيى مدينة قابس «فكان الظهور لأصحاب علي»[503] الذي تركز نفوذه «بالمهدية وبعض بلاد إفريقية»[504]. ولعل هذا الأمر هو الذي ما سمح للأمير الزيري بضبط أمن هذا المجال المحدود من أرض إفريقية والذود عنه، بعد أن «استتب له الأمر، واستوسق له الملك»[505]. وبالوصول إلى عهد الحسن بن علي، نجد وصوله إلى الحكم قد

(494)– النويري، نهاية الأرب، م.س، ج24، ص 131.
(495)– المصدر نفسه، ص 133- 134.
(496)– نفسه، ص 134. كان للعرب البدو دورا كبيرا في إقراره على حكم صفاقص كمظهر من مظاهر التقسيم والتجزئة، أو ما يمكن اعتباره حكم الطوائف في إفريقية بني زيري.
(497)– النويري، نهاية الإرب، (ج24)، ص 134.
(498)– المصدر نفسه، ص 133.
(499)– ورد عند بن عذاري أنه «كان يلي سَفاقُس»، ج1، ص306. قبل وفاة والده يحيى.
(500)– علما أنه إلى حدود حكم يحي الزيري نجد المصادر تنعته بأمير إفريقية: ابن عذاري، البيان، ج1، ص305.
(501)– كان يخترق المجال الإفريقي من خلال توطيد علاقته بحكام مدن خارجين عن طاعة الزيريين، كرافع بن مكمن الدهماني صاحب مدينة قابس.
(502)– ابن عذاري، البيان، م. س، ج1، ص307. النويري، نهاية الإرب، ص 135.
(503) – النويري، م.س، ص 134.
(504) – ابن عذاري، م.س، ص306.
(505) – نفس المصدر والصفحة.

تزامن مع قيام دعوة المهدي بن تومرت في المغرب الأقصى[506]، وتركز أطماع نصارى النورمان في شرق بلاد المغارب بين طرابلس والمهدية. وإذا كان المرابطون ــ كما سنفصل في ذلك في الفصل الثاني من الباب الثاني في موضوع تجليات التجربة الوحدوية زمن المرابطين مغاربيا ــ قد تدخلوا على خط صراع الزيريين ضد "النورمان"[507]، إلا أن هؤلاء سيظلون يتربصون بإفريقية وينتظرون الفرصة المناسبة للإنقضاض على مدنها، خاصة بعد تطور الصراع المرابطي – الموحدي طيلة ثلاثينيات القرن السادس الهجري. فقد أشارت بعض المصادرإلى تغلب«الفرنج على جربة من بلاد إفريقية وكان أهلها لا يدخلون تحت طاعة سلطان»[508]، كما ملكوا مطلع العقد الخامس من القرن السادس الهجري، «مدينة طرابلس الغرب وذلك في إحدى وأربعين وخمسمائة»[509] الذي تزامن مع حدث سقوط العاصمة مراكش في يد المصامدة. قبل أن يجهز صاحب صقلية على المهدية عام 543هـ/ 1148م[510] وقد وصف صاحب البيان المُغرب هذه الواقعة « بكائنة يوم الاثنين وبقيت بأيدي الروم حتى افتتحها الموحدون»[511]، الذين وضعوا حدّا للأطماع النورماندية في المنطقة بشكل نهائي، كما سنتطرق لذلك في الباب الثاني بخصوص تجليات التجربة الوحدوية زمن الموحدين.

2- بنو حماد في المغرب الأوسط:

اعتبر أحد الباحثين أن «السِّلم بقي السمة البارزة للأمراء المرابطين»[512] خلال مرحلة حكم علي بن يوسف بن تاشفين، بعد مرحلة التوتر التي مرت بها علاقة والده بالمنصور

(506) – نجد في كثير من الأحيان نوعا من الارتباك في المصادر على مستوى ضبط "الكرونولوجيا" التاريخية، ونضرب لذلك بمثال البيان المغرب، حيث نجد الحديث عن كون حكم الحسن لم يدم طويلا، «... وأميرها (المهدية) الحسن بن علي بن يحيى بن تميم إلى سنة 517هـ»ابن عذاري، (ج1)، ص309. في نفس الوقت يشير إلى تزامن استفحال أمر المهدي بن تومرت في 518هـ «وأمير إفريقية الحسن بن علي بن يحيى» نفس المصدر والصفحة. علما أن ابن عذاري سيؤكد استمرار حكم الحسن بن علي إلى نهاية الدولة الزيرية عام 543هـ، وهي السنة التي احتلت فيها المهدية من طرف ملك صقلية (أنظر البيان، ج1، ص309).

(507)– التفاصيل، ابن عذاري، البيان، ج1، ص308.

(508)– النويري، نهاية الأرب، م.س، ج24، ص135.

(509)– المصدر نفسه، ص136.

(510)– ابن عذاري، البيان، ج1، ص309. أنظر أيضاابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، م.س، القسم 3، ص83.. سينتقم صاحب صقلية من الزيريين وذلك بما حدث لجيوشه الغازية من طرف الزيريين والعرب عام 517هـ الذين دافعوا عن المهدية.

(511)– المصدر نفسه، ص313.

(512)– عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، م.س، ص180.

الحمادي، الشيء الذي أسهم من وجهة نظره في حدوث تقارب حمادي – مرابطي، بعد أن جنح الملثمونحو السلم بحكم الظروف المحيطة بهما. لكن يبدو لنا في هذا الإطار أن الحماديين إذا كانوا قد بدؤوا يهتمون بأمر تطبيع العلاقة مع المرابطين، فليس لأن الأمر متعلق بغياب يوسف بن تاشفين عن الساحة السياسية، بل لأن ظهور المهدي بن تومرت، ووضعه أسس الدولة الموحدية، فرض واقعا جديدا داخل بلاد المغرب الأقصى، وأصبح يهدد دولة المرابطين بقوة. علما أن حركة المهدي بن تومرت والخلفاء من بعده ستتسم بطابعها "الدموي". ومن تم يبدو أن الحماديين بدأوا يشعرون بالخوف من هذا التحول السياسي غرب بلادهم، فكان عليهم فيما بدا لنا، أن يُدبّروا أمر التقارب مع المرابطين اتقاء شرّ الموحدين.

لكن استمرار العزيز بن المنصور الحمادي، على نهج أبيه في استهداف المجال الزيري الذي تقلص بشكل كبير، لم يسمح فيما نحسب لبني حماد بتأمين الجهة الغربية التي بدأ الموحدون يفرضون داخلها وضعا جديدا. فقد ذكر صاحب البيان أنه في عام 530هـ(1138م)، «نزل عليّ بن حمود على المهدية بعسكر من قِبل صاحب بجاية العزيز بن المنصور، ومال برسم العرب... فأخرج إليهم صاحب المهدية أسطوله»[513]، مما سيفرض على عسكر الحماديين الرحيل«عن المهدية بعد إقامته سبعون يوما»[514]. وأمام اشتغال المرابطين بواقع الصدام المسلح مع الموحدين بقيادة عبد المؤمن، سيهب النورمان نحو إفريقية، مستغلين في حينه دور العداوة بين بني حماد وبني زيري، ليُجهّز النورمان عام 530هـ(1138م) بقيادة روجار«أسطولا فقصدوا جزيرة جربة، واستولوا عليها وسَبَوْا أهلها»[515]. قبل أن تسقط في يدهم مدينة سَفاقُس عام 538هـ(1146م)والمهدية عام 543هـ(1151م) التي أطلقت عليها بعض المصادر إسم «الكائنة الشنعاء»[516]. ولما كانت بلاد المغرب الأقصى تشهد المراحل النهائية من إحكام الموحدين القبضة على الحكم في مراكش، فإن عبد المؤمن كانت عينه فيما نحسب على مجال بني حماد الذي كان

(513)– ابن عذاري، ج1، ص312.
(514)– المصدر نفسه والصفحة.
(515)– المصدر نفسه والصفحة.
(516)– المصدر نفسه، ص313.

على مشارف الانهيار في عهد يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن الناصر من بني حماد[517]، حيث اعتمد أسلوب المفاجئة لصاحب بجاية بحركته إليه[518]. علما أن يحيى الحمادي هذا لم يفهم أن عداوته لبني أعمامهم الزيريين ستُضعف الجميع، وهو كان قد سُرّ بما ناله من أخذ الفرنج بلاد ابن عمه المهدية، عاصمةَ الزيريين[519].علما أنه «لم تطل المدة حتى فاجأه القدر واستلب ملكه»[520]. فيحيى بن عبد العزيز هذا الذي كان مغرما بالصيد «كلفا بالملهين»[521] ولاهيّا عن مصير دولة وفق ما تحدثت به بعض المصادر، كان طبيعيا أن يستسلم للموحدين بدون شروط «مستأمنا لنفسه»[522]. وهنا نخلص إلى أحد الأسباب الرئيسة لسقوط حكم الحماديين والزيريين من خلال المنظور الخلدوني الذي أرجع الأمر إلى فساد «عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها واستمرت لهم الدولة مُتقلِّصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور أفريقية. وربما انتزى بتلك الثغور من نازعهم الملك... حتى تأذن الله بانقراض الدولة»[523].

إن تركيزنا على الأحداث التي سقناها في هذا الباب الخاص بالسياق التاريخي لقيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين وتطورها مرحلة حكم الموحدين، إنما الهدف منه مقارنة الوضع السياسي الذي سبق قيام التجربة من خلال تقييم علمي لحجم التحديات التي قامت على أساسها تجربة الملثمين وبعدها تجربة المصامدة في الحكم، وذلك بُغية تمثُّل أهمية البديل السياسي الذي تحقق مع المرابطين واستمر مع الموحدين، وذلك في إطار واقع السيرورة التاريخية الخاص ببناء كيان الدولة المركزية بالغرب الإسلامي. وهنا نحسب أنه بدون بناء مقاربتنا هذه على أحداث السياق التاريخي، نكون قد قفزنا على حلقة مهمة من تاريخ الغرب الإسلامي، لما يمكن أن يتركه من فجوة معرفية في موضوع بحثنا، والذي

(517)– وردت إشارة مهمة عند صاحب البيان المغرب حول علاقة قديمة بين بني حمدون وبني حماد منذ عهد الناصر بن علناس، إذ كان للحماديين «وُزراء يُعرفون ببني حمدون، توارثوا وِزارتهم، منهم ميمون بن حمدون عند يحيى» ابن عذاري، ج1، ص310. ونظرا لإساءة أحد أبناء يحيى للوزير ميمون بن حمدون اضطر إلى الاستنجاد بالموحدين، فخاطب «أبا محمد عبد المؤمن» نفس المصدر والصفحة.

(518)– عبّر عن سروره بتسلم بجاية من بني حماد من خلال رسالة إلى «أهل العدوة والأندلس... ووفى شرح هذا الفتح بما أبهج القلوب والأسماع وبعث بها إلى سائر الأصقاع»ابن الخطيب، م.س، ج.3، ص101.

(519)- النويري، نهاية الأرب، ج24، ص167.

(520)- المصدر نفسه والصفحة. .

(521)- ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، م.س، ص99.

(522)- المصدر نفسه، ص100.

(523)- ابن خلدون، المقدمة، ص195.

لايمكن أن تكون فيه التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين قد أتت بمحض الصدفة.

الباب الثاني:

مقومات التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين ومراحلها

أثناء الحديث عن الثابت والمتحول في موضوع التجربة الوحدوية التي شهدها الغرب الإسلامي خلال العصر الإسلامي الوسيط وبالتحديد زمن المرابطين والموحدين، يبرز الخيط الناظم بين مقومات قيام ما حسبه البعض تجربة سياسية فريدة[524] وبين مظاهر وتجليات هذا المشروع السياسي الوحدوي الضخم الذي جعل من مراكش عاصمة مجال شاسع عبر عنه البعض ب"الإمبراطوري"[525]، وذلك بحكم ما امتلكه المرابطون ثم الموحدون من بعدهم من أسباب القوة، إذ لم يقتصر الأمر على توحيد المغرب الأقصى تحت ظل حكم مركزي، بل تجاوزه إلى تقويض مشروع نصارى الشمال في الأندلس ونصارى النورمان في إفريقية.

آثرنا تقديم موضوع التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي على أساس دراسة مقارنة نحاول من خلالها تحديد أوجه التشابه والاختلاف بين حكم المرابطين وحكم الموحدين داخل هذا المجال الشاسع، من خلال محاولة الإجابة عن السؤال المركزي للأطروحة: هل نحن أمام تجربة واحدة ترمز للاستمرارية والتطور في خط متصاعد، أم هما تجربتان مختلفتان جملة وتفصيلا؟ وهو ما يوحي بكوننا أمام قطيعة في مسار التجربة الوحدوية وفي التطور السياسي للبلاد المغاربية؟. لكن ونحن بصدد الدخول إلى غمار تحديد مقومات ومراحل قيام وتطور هذه التجربة السياسية الوحدوية خلال العصر الإسلامي الوسيط، هل باستطاعة " الإستوغرافيا" أن تساعدنا في تقديم إشارات واضحة وجلية حول توحيد مجال شاسع من الغرب الإسلامي، زمن المرابطين والموحدين؟

(524)- القادري بوتشيش، قراءة في التجربة الوحدوية المرابطية للغرب الإسلامي، م.س، ص64.
(525)- المؤرخ الإسباني أمبروثيو هويثي ميراندا.

الفصل الأول: مقومات التجربة الوحدوية

قبل التطرق لأهم عناصر التجربة السياسية الوحدوية التي شهد أطوار نشأتها وتطورها مجال الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين[526]، ارتأينا من الناحية المنهجية، ونحن بصدد ظاهرة معقدة وليس حدثا عاديا، ربط النتائج بالعلل من خلال التقديم لتجربة وحدة الغرب الإسلامي، بموضوع الثوابت المجتمعية الدينية والثقافية والحضارية، إلى جانب المعطيات المادية التي وفرها المجال المغاربي والأندلسي، لتحقيق مثل هذا التحدي السياسي[527]. وذلك بعد أن كنّا قد مهّدنا في هذا البحث لما حسبناه تجربة جنينية للأدارسة في توحيد جزء من بلاد المغرب "الأقصى"، كإرهاصات أولى لقيام تجربة سياسية جديدة، ملأت مرحلة فراغ دامت زمنا طويلا، جراء واقع التجزئة المجتمعية والصراع القبلي وانتشار الكيانات السياسية الصغيرة.

المبحث الأول: أسس بناء الوحدة المجتمعية ومظاهر وحدة المجال

1- العصبية القبلية عامل مؤسس للوحدة المجتمعية:

تطلب موضوع تحقيق المرابطين والموحدين حلم توحيد بلاد المغارب والأندلس، إعداد العنصر البشري المؤهل تربية وتنظيما من أجل بناء القوة العسكرية والمادية، كمقومات ضرورية لعمليات تمهيد مجال شاسع من حجم البلاد المغاربية. لهذا ارتأينا تناول موضوع توحيد المجال عصر قيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين وتطورها زمن الموحدين، وفق منهج تاريخي مقارن لتقريب الوقائع – وصفا وتحليلا وتركيبا - من الأذهان، في حدود ما يمكن أن توفره المادة المصدرية التي نعتمدها كمؤشرات في تقديم قراءة جديدة، نراهن من خلالها إحداث تراكم معرفي ومنهجي في إطار البحث العلمي الرصين.

(526)- وجه الاختلاف البارز بين المرابطين والموحدين على مستوى نظام الحكم تجلى في تبني المرابطين لقب أمير المسلمين مع تبعية رمزية لخلفاء بني العباس في بغداد. أما الموحدون فقد جعلوا من أنفسهم أمراء للمؤمنين وعدم اعترافهم بالتبعية للخلافة في بلاد الشرق الإسلامي. ولكن يظهر أن لكلا الحكمين قاسم مشترك يجسده الجانب النظري المرتبط بموضوع الإمامة أو الخلافة، من أن قيام حكمهما مرتبط أساسا ب« حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع .. .» الماوردي(أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب ت.450هـ)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، جامعة الكويت، قسم العلوم السياسية، ط.1، دار ابن قتيبة، الكويت، 1409هـ/1989م، ص43.

(527)- « لابد من الارتكاز على منهج علمي في دراسة التاريخ وتناول صفحاته وأحقابه وأحداثه والأحداث التي تربط ربطا موضوعيا وجدليا بين ما يراه البعض ركاما من الأحداث»عمارة (محمد)، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، دار الرشاد – القاهرة، ط.2، 1417هـ/ 1997م، ص34.

أ- التعريف بعصبية صنهاجة الصحراء ومصامدة جبل درن:

ــ يرفع صاحب الحلل الموشية أنساب صنهاجة الجنوب «إلى حمير، وأنهم خرجوا من اليمن، وارتحلوا إلى الصحراء، وهي موطنهم بالمغرب»[528]، وهم من عرّفتهم بعض المصادر بالملثمين الذين«انتقلوا من قطر إلى قطر ومن مكان إلى مكان حتى صاروا بالمغرب الأقصى ببلاد البربر... وإنما تبربرت ألسنتهم لمجاورتهم البربر»[529]. كما أنهم « ظواعن في الصحراء...على دين الإسلام واتّباع السنة يجاهدون غيرهم من طوائف السودان»[530]، يرجع انتماؤهم «إلى صنهاج بن عبد شمس ابن وائل بن حمير. وتنقسم صنهاجة إلى سبعين قبيلة منهم لمتونة ومسوفة، وجدالة ولمطة، وهم صحراوين... وكانوا على السنة والجماعة، يجاهدون السودان»[531].

ويظهر من تعريف لسان الدين الخطيب في ذكر ملوك لمتونة المسمّين بالمرابطين، أن هذا المُلك والإمارة كانوا يتوارثونهما منذ أول ملوكهم «الأمير يرلونان اللمتوني، وهو ملك عظيم دان له من ملوك السودان واتّقوه بأداء الجزية أزيد من عشرين ملكا... ووافقت أيامه أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس»[532].

من أشهر قبائل صنهاجة الصحراء لمتونة ومسوفة وكدالة، وقد «كان لمتونة [إيلمظن] يتمركزون في الوسط... وهم المعروفون بلمطة (إلمطن = إيولمظن) في الشمال المتاخم للسوس»[533] أما «مسوفة [إيمسوفن] فقد انتشروا على طول مسالك المحور الرابط بين سجلماسة وغانة ولم تكن لهم أي مدينة باستثناء مدينة وادي درعة أو تيومتين الواقعة على

(528)ـ مجهول، الحلل الموشية، ص18.
(529)ـ المصدر نفسه، ص19.
(530)ـ نفسه، ص17.
(531)ـ ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ق.3، ص225. أنظر كذلك الحلل الموشية، ص17.
(532)ـ نفس المصدر والصفحة.
(533)ـ حماه الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنكيطى (موريتانيا) من العصور القديمة إلى حرب شرْبُبّه الكبرى بين أولاد الناصر ودولة إبدّوكل اللمتونية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1971، ص40 – 41.

مسيرة خمسة أيام من سجلماسة»[534]، وأخيرا قبائل كدالة (إكدلن) أو جدالة، فهم الذين كانوا «منتشرين على طول الساحل الأطلسي، مُحكمين سيطرتهم على مملحة أوليل «[535].

ــ أما المصامدة بصفة عامة فيُعرّفهم صاحب المقدمة بكونهم «هم ولد مصمود بن يونس بربر، فهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم. من بطونهم: برغواطة وغمارة وأهل جبل درن، ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة»[536]، ويرجع إلى نوع من التخصيص حينما يتحدث عن المنتمين منهم إلى جبال درن، ليذكر«هرغة وهنتاتة وتينملل وكدموية وكنفيسة ووريكة وركراكة وهزميرة ودكالة وحاحة وأمادين وازكيت وبنو ماكر وإيلانة ويقال هيلانة»[537]. ويرى عبد الحق الطاهري أن المصامدة «ليسوا قبيلة واحدة متجانسة، إنما هم اتحادية تشكلت عبر التاريخ من خليط من القبائل والبطون، انصهرت في مجتمع قبلي»[538]. بينما يشير " لو تورنو روجر" إلى العناية التي حظي بها المصامدة في دراسة لروبير مونتان[539]. فالمصامدة من وجهة النظر هذه، كانوا «يشكلون جماعة أصيلة ومتجانسة... وكانوا ينقسمون إلى عدد من الوحدات السياسية المتباينة الأهمية: اتحادات قبائل، وقبائل أو بطون»[540]. وهنا يهمنا بالتحديد مصامدة الأطلس الكبير في أقصى الجنوب الغربي من بلاد المغرب "الأقصى" كقبائل «كانت تقطن جبال درن والسوس انتهاء بالأطلس الصغير المتاخم للحدود الصحراوية»[541]، والذين سيجدون أنفسهم وجها لوجه مع مدّ بشري من قلب صحراء صنهاجة يتجه في عملية غزو المجال الداخلي لبلاد المغرب " الأقصى"في اتجاه الشمال ليس في حركة انتجاع، بل كأصحاب مشروع سياسي إصلاحي وكحركة دعوية بقيادة الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين من أجل وضع حدّ لواقع التجزئة السياسية والظلم الاجتماعي وتردّي الوضع الديني.

(534)ـ المصدر نفسه، ص41..
(535)ـ نفسه والصفحة.
(536)ـ ابن خلدون، ج6، ص275.
(537)ـ المصدر نفسه، ص299.
(538)ـ الطاهري، الدولة الموحدية أسس الشرعية والمشروع السياسي،ص53.
(539)ـ " البربر والمخزن في جنوب المغرب الأقصى"، ودراسة جاك بيرك "البنيات الاجتماعية في الأطلس الأعلى"، باريس 1955.
(540)ـ لوتورنو، حركة الموحدين في المغرب، ص 12.
(541)ـ الطاهري، الدولة الموحدية، ص55.

ب- العصبية القبلية ثابت رئيس في قيام حكم المرابطين والموحدين:

يعتبر تبني معظم الباحثين تعريف ابن خلدون للعصبية[542]منطلقا منهجيا لتفسير نشأة الدولة من رحم القبيلة في المغرب الوسيط. وهو الإطار الذي من خلاله قدم محمد عابد الجابري تعريفا مبسطا لمفهوم العصبية عند ابن خلدون على كونها «رابطة اجتماعية سيكولوجية شعورية ولا شعورية معا، تربط أفراد جماعة ما قائمة على القرابة ربطا مستمرا»[543]. وإذا كانت العصبية رمزا لقوة اللحمة والتضامن والتعاون بين مكونها البشري، إلا أن «الرئاسة إنما تكون بالغَلْب»[544]، وهنا يؤكد صاحب المقدمة على وجوب «أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب»[545]. وقد رأى ابن خلدون أن «نَعْرةَ كل أحد على نسبه وعصبيته أهمُّ... وبها يكون التّعاضد والتّناصر وتعظُم رهبة العدو لهم»[546]. فالعصبية القبلية تتضمن حسب صاحب المقدمة التحام النسب وصلة الرحم، «كأمر طبيعي في البشر... ومن صِلتها النُّعرة على ذوي القُربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيْم أو تُصيبهم هَلَكة»[547]. قبل أن ينتقل موضوع العصبية إلى هدف أكبر مما هو انتصار لذوي الأرحام ظالمين أو مظلومين، وذلك حين يجد قبيل ما في نفسه القدرة على توحيد وتجميع القبائل المنتسبة للعصبية الكبرى، من أجل الوصول إلى حكم مجال أوسع كما حصل مع صنهاجة الجنوب ومصامدة جبال درن.

وإذا «كانت العصبية عماد الدعوة والدولة»[548]، فإن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية[549]، ما يثبت دور الدين في تواري الصراعات القبلية الداخلية لصالح توحيد الكلمة والاستفادة من الزخم البشري الذي تُوفّره القبيلة الأم الذي لا يحتاج

(542)ـ "ظاهرة اجتماعية ذات خصائص مميزة ووليدة ظروف معينة" محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5 وط6، يونيو 1992 و أبريل 1994، ص166.
(543)ـ الجابري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، ص168.
(544)- ابن خلدون، المقدمة،ص164.
(545)- المصدر نفسه والصفحة.
(546)ـ المصدر نفسه، ص 159- 160.
(547)ـ نفسه، ص160.
(548)ـ النادي (محمد فتحي)، الدولة المدنية والدولة الدينية وصراع الهويات، تقديم سيف الدين عبد الفتاح، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، 01 يناير 2000، ص100.
(549)ـ التفاصيل، مقدمة ابن خلدون، م.س، ص198.

سوى إلى التنظيم والتأطير، اللذين بواسطتهما يتم تحرير الطاقة الكامنة داخل العنصر البشري نحو محيط أوسع. فبالدين يذهب التنافس ويقل الخلاف ويحسن التعاون والتعاضد ويتسع نطاق الكلمة(550). ومن المعروف أن الإسلام منذ انتشاره بمجال الغرب الإسلامي، شكل الإطار العام الثابت لمختلف العلاقات المجتمعية. إذ كان بمثابة «المحرك الأساس لإنجاز الوحدة»(551) ونشْر«العمل الصالح»(552). وبواسطته شكلت العصبية القبلية القوة المادية لتغيير الأوضاع الفاسدة(553).

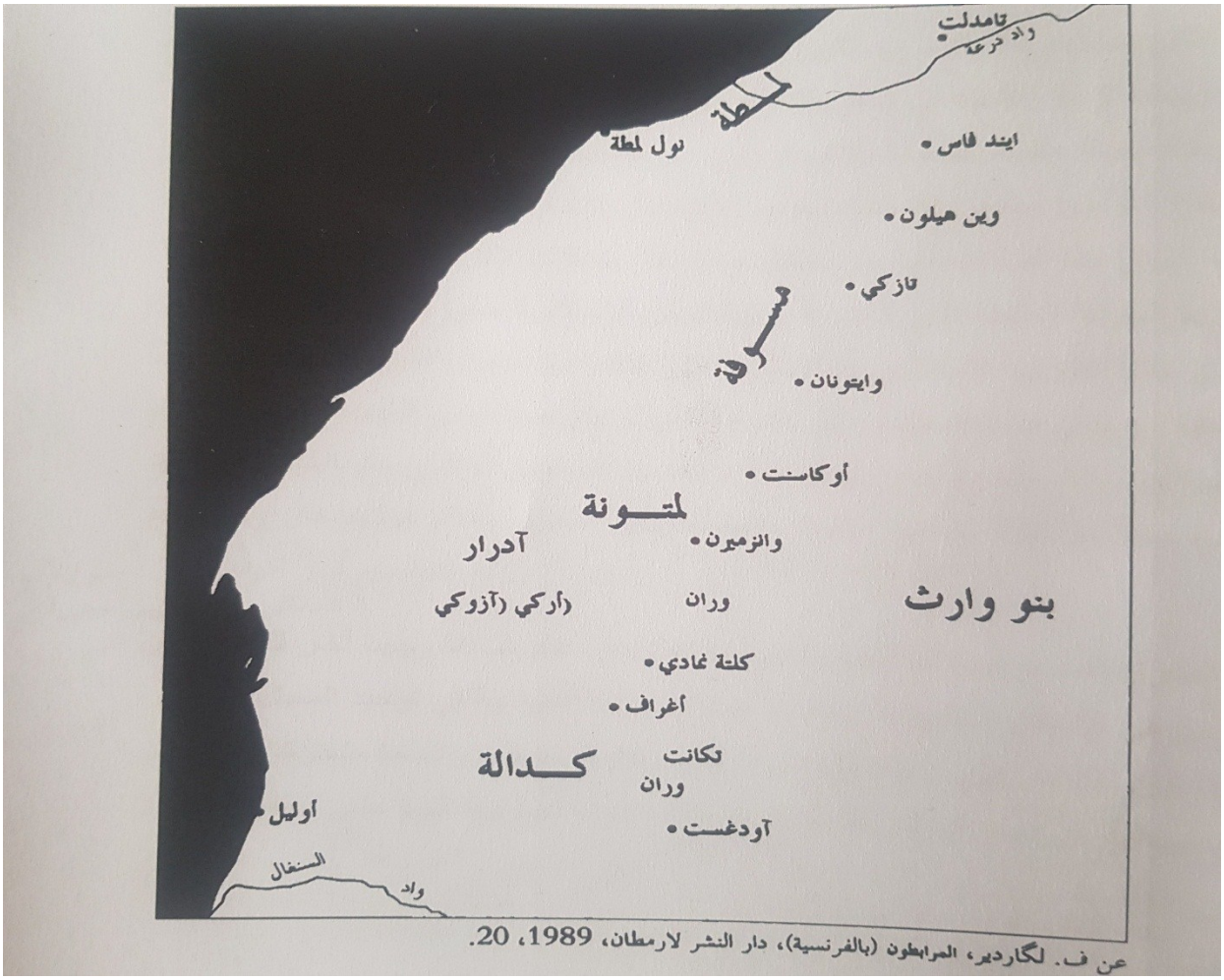
لقد أصبحت العلاقة بين العصبية والدين «علاقة تآزر وتعاضد وتكامل: الدين يزيد من قوة العصبية بالتخفيف من مظاهر التعصب... بتوجيه أهل العصبية كلهم إلى الله، والعصبية من جهتها تمنح الدعوة الدينية قوة وفاعلية»(554). ولعل مثل هذا التعاون يكون السبيل الصحيح الذي يسعى من ورائه الزعماء الروحيون والسياسيون، الوصول إلى تحقيق سلطة سياسية مركزية «بقوة العصبية من جهة وبمشروع إصلاحي يستمد عناصره من الإسلام من جهة ثانية»(555).

سنجد ترجمة لهذا الجانب النظري في دور العصبية والنسب والدين م أنموذج عصبيتي صنهاجة الصحراء ومصامدة جبال الأطلس الكبير الغربي. إذ أكد ابن خلدون على أهمية الاجتماع الديني في مضاعفة قوة عصبيتي لِمتونة والموحدين(556) إذ لا شك أن الدعوتين المرابطية والموحدية استفادتا كثيرا من هذه المقومات الثابتة التي بواسطتها «اشتدت شوكتهما وخُشِي جانبهما(557).

(550)ـ ابن خلدون، نفسه، ص198.
(551)- عز الدين جسوس، موقف الرعية، م.س، ص 193.
(552)ـ الجابري، فكر ابن خلدون، ص189.
(553)ـ الجابري، م.س، ص189.
(554)ـ المصدر نفسه والصفحة.
(555)ـ الطاهري، الدولة الموحدية، ص126.
(556)ـ ابن خلدون، نفسه، ص198.
(557)ـ ابن خلدون، م.س، ص 159.

فقد استطاع ملثمو الصحراء في مرحلة عرّفها أحد الباحثين، ب"الدور الصحراوي"[558]، الخروج نحو الأجزاء الداخلية الشرقية والجنوبية الغربية لبلاد المغرب "الأقصى"، لكن بعد مرحلة رباط وتربية على يد عبد الله بن ياسين الفقيه المالكي وتلميذ وجاج بن زلو، وهو ما أثمر تشكيل حِلف و«توحيد قبائل الملثمين»[559]. وقد «استطاع ذلك الحلف الذي بُعث بعثا جديدا أن يبسُط نفوذ الملثمين على صحراء المغرب»[560]، بكل ما يحمله هذا الأمر من معاني وحدة مجتمع الصحراء وتحكمه في الموارد التجارية. الشيء الذي يجعلنا نرجح أن هذا الدور كان بمثابة المرحلة المؤسِّسة لبزوغ فجر توحيد بلاد المغرب الأقصى وبعده توحيد العدوتين. إذ «لما رأى الشيخ أبو محمد عبد الله بن ياسين استقامة لمتونة، واجتهادهم، أراد أن يظهرهم ويملكهم بلاد المغرب»[561]. ففي عام سبع وأربعين وأربعمائة «ظهر أمر اللمتونيين[وهم] المسمون بالمرابطين وخرجوا من الصحراء إلى سجلماسة»[562]. ويظهر أن هذا الخروج لم يكن اعتباطيا أو مغامرة يحذوها الغزو من أجل السلب والنهب، بل كان في إطار ما اجتمع لعبد الله بن ياسين من أسباب للإقدام على خطوات مستقبلية مليئة بالتحديات.

(558)ـ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 186.
(559)ـ المرجع نفسه والصفحة
(560)ـ نفسه والصفحة.
(561)ـ مجهول، الحلل الموشية، ص22.
(562)ـ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تاريخ إفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال، ط3. بيروت. دار الثقافة، 1983م، **ج3**، ص243.



الخريطة رقم (3): مواطن القبائل الصنهاجية

المرجع: تحيين وتركيب، تحت إشراف القبلي محمد، ص166

فقد قال موجها الخطاب لمرابطي الصحراء: «إنكم صبرتم، ونصرتم دين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد فتحتم ما كان أمامكم، وستفتحون إن شاء الله ما وراءكم، فأمرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة»(563)..

من هنا نرجح أن ما نحسبه أخلاق القوة على مستوى البناء العقدي والسلوكي الذي أصبح عليه أتباع عبد الله بن ياسين، جعل من أهل الرباط في قلب الصحراء، طاقة تواقة للتحرر من واقع ضيِّق الأفق نحو فضاء خارجي أوسع. ف«هو تيار كان لا بد أن يندفع

(563)ـ مجهول، الحلل الموشية، م.س، ص 22. أنظر ترجمة لحاضرة سجلماسة في هامش نفس المرجع والصفحة.

نحو غاية معينة، لابد أن تتحقق في وقت عجزت فيه قبائل المغرب عن المقاومة بسبب تفرقها وضعفها وتخاذلها»(564).

من جانب آخر إذا كنا قد ركزنا على دور النسب في المجتمع القبلي لكونه «من أهم شروط العصبية، وهو من المكونات الاعتبارية المؤسسة لوحدتها»(565) حسب رأي أحد الباحثين، فهناك الدور الحاسم للعامل الجغرافي(566)الذي كان وراء توفير الحماية للدعوة الموحدية خلال مراحل ولادتها الأولى وتوفير أسباب نجاحها وإزاحة المرابطين عن الحكم. علما أن مؤسس دولة المرابطين يوسف بن تاشفين سبق وأن نبّه خَلَفَهُ إلى ضرورة أخذ مصامدة جبل درن بعين التفهم. وذلك في إطار ثلاث وصايا لولي عهده الأمير علي بن يوسف من بينها «ألا يهيج أهل جبل دَرَن ومَن وراءه من المصامدة وأهل القبلة»(567). وهنا نطرح السؤال: هل هذه الوصية، التي يظهر لنا أنها كانت ذات بُعدٍ أمني، لم يتعامل معها خلفاء يوسف بن تاشفين بجد؟ خاصة بعد ظهور فقيه معارض من حجم المهدي بن تومرت الذي دق أول مسمار في نعش المرابطين، بينما كان إقبار دعوته في بدايتها شيئا ممكنا قبل أن يستفحل أمره.

أخيرا عندما أثرنا دور العصبية القبلية في قيام أمر المرابطين والموحدين، فلأن هذا الثابت بالنسبة لبروز نجم الدول خلال العصر الإسلامي الوسيط، قد وفر من بين ما وفر الأداة العملية والأساسية في عملية غزو المجال والمتمثل في الجيش الذي بواسطته تم إخضاع الحواضر الكبرى وتوحيد البلاد. قبل أن يتسع حجم هذا الجيش وقوته بفعل التعبئة للجهاد الذي أصبحت أرض الأندلس مجاله الرئيس زمن المرابطين والموحدين، وهو ما سنخصص له فصلا كاملا في إطار تجليات التجربة الوحدوية في مواجهة الممالك النصرانية (نصارى الشمال).

(564)ـ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص189.
(565)ـ الطاهري، الدولة الموحدية، ص64.
(566)ـ أنظر رابطة الدين محمد، الأسس الجغرافية للحركة التومرتية، مجلة تاريخ المغرب، ع.2، أبريل 1982، ص52، نقلا عن عبد الحق الطاهري، المرجع نفسه والصفحة.
(567)ـ مجهول، الحلل الموشية، ص82-83. أنظر ترجمة ليوسف بن تاشفين عند عبد الله كنون في: ذكريات مشاهير أهل المغرب ص1479.

2- دورالمقوم الديني والعلاقات الثقافية والعلمية في ترسيخ الوحدة المجتمعية

إلى جانب أهمية دور المجال على المستوى السياسي والاقتصادي قياسا بما يوفره من مقومات لقيام الدعوة وتحقيق الدولة والملك، هناك دور الدين والعلاقات الاجتماعية والثقافية والعلمية لمجتمع بلاد الغرب الإسلامي(568)، الذي ظلت ذهنيته متأثرة بدور الثابت الديني المتمثل في الإسلام الذي ظل بمثابة رأسمال رمزي للمسلمين وحكامهم، وذلك بالنظر إلى «الدور الكبير الذي يلعبه الدين في حياة المغاربة. وهو دور يتجلى في تنظيم وتأطير مختلف وجوه الحياة لديهم»(569). فذهنية المجتمع، توحدت بشكل تلقائي حول كون المجال المغاربي والأندلسي هو مجال واحد لا حدود سياسية تُجزّئه وتفصل بين مناطقه. وهذا ما نستنبطه من مؤشر مصدري يشير إلى أن المسلمين «حيثما كانوا إخوة لاسيما من بهذه الجزيرة وبتلك العدوة. فالقلوب بتوفيق الله تعالى غير متنافرة، والعزائم بحوله تعالى وقوته متعاضدة ومتضافرة»(570)، وبناء عليه لم تعُد الوحدة هنا، حسب رأي محمد القبلي «وحدة مجال أو تراب فقط، بل إنها قد تعدّت هذا المستوى، فأصبحت وحدة حقل ثقافي...ووحدة المعطيات والنوازل، ووحدة أدوات التفكير والاجتهاد»(571).

هذا المشترك الثقافي دفع إلى انتقال الشعور بالانتماء لنفس الجغرافيا والتاريخ للمكون البشري لبلاد الغرب الإسلامي من «الانتماء التلقائي إلى مستوى التجاوب والتمازج والانصهار»(572). وبناء عليه يأتي «اعتماد هذا الواقع الثقافي الحيوي كبعد ثابت في التعامل مع المجتمع المغربي الوسيط جهد المستطاع«(573). ويبدو أن هذا المُعطى الثقافي

(568)ـ «ينقسم عند بعض المؤلفين إلى مجموعتين متميزتين... مجموعة طرابلس وإفريقية من جهة، ومجموعة المغربين الأقصى والأوسط والأندلس من جهة ثانية »القبلي محمد،مراجعات، 1987، ص10.

(569)ـ محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 إلى 9هـ/ 12 -15م)، جامعة الحسن الثاني عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدار البيضاء، سلسلة الأطروحات والرسائل، 1999، ص125.

(570)ـ مجهول، الحلل الموشية. ص12.

(571)ـ القبلي، مراجعات، صص17 و 18 و19. مثلت نوازل ابن رشد رمزا ومظهرا من مظاهر الإنتاج الفقهي المالكي المعبر عن وحدة مجتمع العدوتين بالنظر إلى تشابه القضايا وتشابه النوازل الفقهية في بلاد الغرب الإسلامي. فقد كانت النوازل تأتي للرجل – لكونه كان مرجعا في الإفتاء - من « شرق الأندلس وغربه، ومن بَرّ العدوة من حاضرة المغرب ومدنه» ابن رشد، فتاوى ابن رشد، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق المختار بن الطاهر التّليلي، دار الغرب الإسلامي، السفر الأول، ط.1، 1417هـ/ 1987م، ص61. أنظر كذلك فتاوى ابن الحاج وابن ونوازل بن بشتعير وأحكام المالكي ومذاهب الحكام للقاضي عياض. في الفقه النوازلي زمن المرابطين.

(572)ـ نفس المرجع، ص20.

(573)ـ القبلي، حول تاريخ المجتمع المغربي، ص14.

لا يتأثر كثيرا بواقع الأزمات السياسية خلال الفترات الانتقالية[574]. فعلى سبيل المثال حتى بعد أن أتى العرب على القيروان كمركز للعلم وللثقافة الإسلامية والإشعاع الحضاري في المغرب والأندلس، فإن مجيء المرابطين، الذين وضعوا مشروع وحدة المغرب الكبير على رأس برنامجهم السياسي[575]، مكّن «لمدارس المغرب الأقصى وعلمائها من متابعة الرسالة المقدسة»[576] في مدن «فاس وسبتة وطنجة وأغمات وتلمسان»[577]، إلى الدرجة التي قيل فيها إن «جامعة فاس، ورثت تقاليد القيروان، وخلفتها في مضمار الثقافة الإسلامية»[578].

في هذا السياق سنحاول أن نُبرز من خلال هذا الإطار الثقافي الذي كرّس واقع «الانتماء الواعي لنفس الحقل الثقافي»[579]، دور حركة دينية علمية لم تتوقف على طول وعرض المجال الجغرافي والسياسي لبلاد الغرب الإسلامي والتي مثّلها أعلام بارزون من الفقهاء والعلماء. وفي هذا المقام سنقتصر على تقييم أدوار هؤلاء العلماء والفقهاء البارزين من خلال بعض كتب التراجم والمناقب بشكل خاص، والتي في مجملها «تتفق على الإشادة بشخص المُترجم له فتثني على علمه وعلى ورعه... لكن من الناذر جدا العثور على ما من شأنه أن يضعهم في نفس الموقع مع عامة الناس»[580]، وذلك لما لهم من مكانة خاصة في "المخيال الجمعي" للسكان.علما أن أمر هؤلاء الفقهاء سيتعاظم زمن حكم المرابطين والموحدين،بما مثله المشتغلون منهم بالخطط، من دعامة للدولة وسيطرة على مراكز القرار[581]، كما سنبرز ذلك في موضوع تجليات التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن السيادة المرابطية والموحدية أو عصر الإمبراطورية المغربية.

(574)ـ «الدين والثقافة والعلم والتجارة كلها عوامل كانت عبارة عن ـ Internetـ عملت على تحطيم الحدود بين الكيانات السياسية التي كانت تتوزع العالم الإسلامي» جسوس عز الدين، موقف الرعية من السلطة السياسية في المغرب والأندلس على عهد المرابطين – دراسة في علم الاجتماع السياسي، مطابع افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014، ص249.

(575)ـ القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط.1، أيلول(سبتمبر) 1994.ص65.

(576)ـ حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص425.

(577)ـ المرجع نفسه والصفحة.

(578)ـ نفسه والصفحة.

(579)ـ القبلي، مراجعات، ص20.

(580)ـ محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، ص126

(581)ـ نفس المرجع والصفحة.

فإذا كانت مجموعة من المصادر تتجاهل شخصية أندلسية من حجم أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي[582](ت.489هـ/ 1095م) خلال عصر المرابطين، فإن ورود اسمه عند ابن بسام وابن الزيات يؤكد قيمة الرجل كفقيه وكسياسي. فهو «أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى[583]، فنزل بأغمات وريكة. فلما توجّه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء حمله و ولاّه القضاء، فمات بأزكي من صحراء المغرب سنة تسع وثمانين وأربعمائة»[584]. هذا الفقيه المالكي الأندلسي القيرواني الأصل (ت489هـ/ 1095م)، غادر بلده زمن ملوك الطوائف ليستقر بالجنوب المغربي بشكل نهائي، وهو «ممن جمع براعة الفقهاء وبراعة الشعراء النبهاء... وقَلّتْ دولة من دول ملوك الطوائف بالأندلس إلا وقد ابتغى إليها وسيلة، وأعمل في الهجوم عليها حالا وحيلة»[585]. وفي «أول العهد المرابطي وصل إلى الصحراء قادما من أغمات»[586] حيث «كرّإلى أمراء المرابطين بالمغرب فانخرط في أسلاكهم... ووقع آخرا منهم محمد بن يحيى بن عمر، فاقتعد صهوة منبره، وولي قضاء معسكره... وإنما أراد أن يسلك في حمل دول المرابطين، مسلك عبد الله بن ياسين»[587]، وقد قُدّر له أن يعيش بعيدا في الصحراء بالتزامن مع ما كان المرابطون يحققونه من إنجازات عسكرية، في اتجاه توحيد بلاد المغرب "الأقصى" ومنه إلى دخول غمرة تجربة توحيد بلاد العدوتين بعد الزلاقة (479هـ/ 1086م).

أما أبو محمد عبد العزيز التونسي(ت.486هـ/ 1093م) فقد جاء عند صاحب التشوف أن هذا الفقيه التونسي الأصل، أخذ علمه على يد أبي عمران الفاسي، وهو الذي كان

(582)ـ لم تسعفنا المصادر التي اطلعنا عليها في العثور على موقف للرجل من أحداث وازنة، كاستنجاد الأندلسيين بالمرابطين، ومعركة الزلاقة ثم توحيد العدوتين بعد ضم الأندلس لحكم المرابطين. فما يثير التساؤل هو أن المرادي الحضرمي عاصر هذه المرحلة وهو في قلب الصحراء التي توفي بها. علما أنه ترك مؤلفا مهما في التاريخ الإسلامي الوسيط، يحمل إسمان: " السياسة" و" الإشارة في تدبير الإمارة"، من تحقيق الدكتور سامي النشار.

(583)ـ «لم يُؤثر عن الحضرمي أنه نشر في صحراء الملثمين آراءه في العقيدة الأشعرية رغم أنه صاغ هذه الآراء ضمن أرجوزات مختصرة سهلة الحفظ». حماه الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنكيطى، ص98.

(584)ـ ابن الزيات (التادلي)، التشوف إلى رجال التصوف، ص106.

(585)ـ أبو الحسن علي ابن بسام الشنتريني علي (ت.542هـ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ط.1، 1399 / 1979م، ق.4-ج1، ص364.

(586)- حماه الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنكيطى موريتانيا، ص97.

(587)- ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، ص364. لكن المثير للانتباه أن رواية ابن بسام لم يَرِدْ فيها ذكر أبي بكر بن عمر الذي حمله وولاّه القضاء فمات بأزكي من صحراء المغرب سنة تسع وثمانين وأربعمائة حسب ما ورد عند ابن الزيات في التشوف، م.س، الصفحة 106.

«زاهدا في الدنيا، متقشفا، استقر بأغمات ومات بها»[588].وقد كانت سياحته نحو بلاد المغرب الأقصى فرصة أمام المصامدة الذين «أخذوا عنه الفقه ثم عادوا إلى بلادهم فسادوا في أقوامهم بما تعلموه وصاروا قضاة وشهودا وخطباء»[589]. ويذكر صاحب "أنس الفقير"، أن الشيخ أبا الحسن بن حرزهم أدركه وتبرّك به[590]. ومن المرجح أن يكون نزوح الرجل نحو بلاد المغرب "الأقصى"، له علاقة أولا بمشاكل العرب البدو في إفريقية والصراع بين بني زيري وبني حماد، إلى جانب دور قيام التجربة الوحدوية في بلاد الغرب الإسلامي وما وفرته من ظروف استقرار سياسي خلال العصر المرابطي. إذ نفهم من تاريخ وفاته أنه عاصر توحيد العدوتين بعد انتصار الزلاقة. وقد اشتهر الرجل بمواقف بارزة، من بينها أنهكان «من جملة المنتقدين لسلوك الفقهاء»[591] أنفسهم خلال العصر المرابطي– خاصة منهم الذين ينعمون بحياة الرفاهية - تماهيا مع انتقادات المجتمع لهم آنذاك.

وهذا ابن النحوي أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف(ت.513هـ/ 1119م) وأصله من مدينة توزر، عاش مرحلة تجربة وحدة العدوتين. كان مثالا حيّا لحرية التنقل بين الحواضر المغاربية. فمن قلعة بني حماد «دخل سجلماسة وفاس ثم عاد إلى القلعة»[592]. وكان أبو حامد الغزالي يُكنّ له التقدير بسبب موقفه المعادي للآمرين بإحراق "الإحياء" وتُوفي «ابن النحوي بموضع قلعة بني حماد سنة ثلاث عشرة وخمسمائة»[593]، المتزامنة مع فترة بداية ضعف الدولة الحمادية.

وذكر ابن الزيات أن يوسف بن موسى الكلبي الضرير الذي يكنى بأبي الحجاج(ت.520هـ/ 1126م)،«أصله من سرقسطة وسكن مراكش وبها توفي سنة عشرين

(588)- ابن الزيات (التادلي)، التشوف، ص93. ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال – الرباط، 1407هـ - 1408هـ، ص106-ص107.

(589)- ابن الزيات، م.س، ص93.

(590)- ابن قنفد، أنس الفقير، م.س، ص108.

(591)- محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، ص126

(592)- ابن الزيات، التشوف، ص95 – 96. أورد صاحب القرطاس أبياتا شعرية للفقيه الصالح الزاهد يوسف بن النحوي في مدح فاس، تعبيرا منه على تعلقه بمدينة العلم والعمران. ابن ابي زرع، م.س، ص34..

(593)- ابن قنفذ، أنس الفقير، ص108.

وخمسمائة»[594]، وهو بالمناسبة تلميذ المرادي الحضرمي. وقد اشتهر أبو الحجاج هذا بكونه كان من «أهل التبحر والتقدم في علوم التوحيد والاعتقادات، وهو آخر أئمة المغرب فيه»[595]. أما أبو عبد الله الجذامي[596]، من أهل القيروان،«كان ابن شرف خرج عن القيروان عند اشتداد فتنة العرب عليها سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وقدم إلى الأندلس وسكن ألمرية وغيرها، وكان من جلة الأدباء وفحول الشعراء»[597].

أندلسي آخر هو محمد بن عيسى بن القاسم الصدفي أبو عبد الله(ت. 529هـ/ 1134م) من «من أهل تُطيلة وسكن باخرة مدينة فاس... كان فقيها عارفا بالوثائق أديبا شاعرا استكتبه بن الملجوم في قضائه بمكناسة وتوفي 529هـ»[598]. وهناك القاضي محمد بن داود بن عطية بن سعد الجراوي تنقل بين عدد من حواضر بلاد العدوتين، فقد«استقضي بتلمسان ثم بإشبيلية ثم بفاس وتوفي سنة 525هـ/ 1130»[599]. أما عبد الحق بن عطية الأندلسي(481هـ - 541هـ/ 1088م – 1148) [600]. فهو من أسرة علم، إذ « كان أبوه وجده وجد أبيه من كبار علماء المترجم لهم»[601]عاش زمن قيام تجربة وحدة الغرب الإسلامي زمن المرابطين، وإلى أفول نجم دولتهم على يد الموحدين.

أما أبو الوليد ابن رشد القرطبي المالكي(450- 520هـ/ 1058م- 1126م)، قد غطّت فتاواه مرحلة زمنية طويلة من تاريخ الغرب الإسلامي، والتي عاصرت «مسائل موضوعات ووقائع شغلت بال الأندلسيين وأوقفت نظر المغاربة... وردت عليه من عامة

(594)- ابن الزيات، ص105.
(595)- ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، حققه وضبط نصه وعلق عليه، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط.1، 2010، ص331.
(596)-محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن محمد بن شرف بن عبدالله بن شرف. توفي.522هـ/ 1128م
(597)- ابن بشكوال، كتاب الصلة لابن بشكوال(ت578هـ) ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي(ت.708هـ)، تحقيق شريف أبو العلا العدراوي، كتاب صلة الصلة، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ط.1، 1429هـ/ 2008م، ج.3، ص6.
(598)- شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ج1، ص121، ومؤسسة هنداوي، 2011، ج2، ص185. أحالنا على ابن الأبار، المعجم، ص116-117.
(599)- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980، ص169. يحيلنا المؤلف على أبي زكريا في بغية الرواد، ج1، ص25.
(600)- هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عبد الرؤوف بن تمام بن عطية بن خالد بن خفاف بن أسلم بن محرم المحاربي. أنظر ابن فرحون، الديباج، م.س، ص275 [الترجمة 358].
(601)- أنظر الدباغ(عمر)، ابن عطية وتفسيره: المحرر الوجيز. – 1 – دعوة الحق مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر، 1957، عدد 305 و 306.

المسلمين وخاصتهم «[602] وذلك «من شرق الأندلس وغربه ومن بَرّ العدوة من حاضرة المغرب ومدنه»[603]. وهي علامة بارزة على وحدة مجتمع العدوتين الذي تتشابه قضاياه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهو ما سنجد ل معنى من خلال ما سمي في فقه النوازل ب" وحدة النازلة".

ولم يكن صَرْف العلماء والفقهاء عن الخطط التي تسند إليهم ــ لأسباب سياسية أو شخصية ـ لتمنعهم من التخلي عن مهمة العلم والتدريس، فابن العربي المعافري أبو بكر الأندلسي عام 493هـ اشتغل بخطة القضاء عصر المرابطين منذ 493، قبل أن يُصرف عنها ويستقر بفاس التي اشتغل داخلها بالعلم والتدريس، وتوفي بعد خروجه من مراكش بداية الموحدين، ودُفن بفاس عام 543هـ/ 1148م[604]. وهناك أيضا ابن الخراط (510هـ - 581هـ/1114م -1185م) أبو محمد الإشبيلي، «كان فقيها حافظا عالما بالحديث وعِلله... موصوفا بالخير والصلاح والزهد والورع ولزوم السُّنة التقلل من الدنيا..» [605]. خرج من الأندلس و«[نزل بجاية] عند الفتنة الواقعة بالأندلس، عند انقراض الدولة اللمتونية»[606]. وقد توفي الرجل«ببجاية بعد محنةٍ نالته من قِبل الولاة في ربيع سنة إحدى وثمانين وخمسمائة»[607]. ما يجعلنا نفهم من الموضوع أنه كان معارضا للموحدين الذين انقلبوا على المرابطين.

أما محمد بن عمر المالقي(523- 563هـ/ 1129–1167م)، فهو من مدينة مالقة جنوب الأندلس «استوطن مدينة فاس وكان حافظا للآداب واللغة والتاريخ بصيرا بالحديث مقيدا ضابطا»[608]. وتوفي بعاصمة الأدارسة عام 563هـ/ 1167م.

(602)- ابن رشد، فتاوى بن رشد، ص 58.
(603)- المصدر نفسه، ص61.
(604)- ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر مَن حلّ مِن الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة – الرباط، 1973، 260 – 261.
(605)- ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط.1، 1417هـ/ 1996م، 276- 277.
(606)- المصدر نفسه والصفحة.
(607)- نفسه والصفحة.
(608)- نفسه، صص274 – 275.

وإذا كانت بيوتات العلم في معظم حواضر البلاد المغاربية تتعبّأ لدعوات الجهاد في الأندلس خاصة بعد قيام التجربة الوحدوية مع المرابطين وتطورها مع الموحدين، فبيوتات فاس كانت مشتهرة بمشاركة رجالها في الجهاد، نموذج لهم مثّله أبو القاسم بن الملجوم (ت605هـ/ 1208م)، الذي رحل إلى الأندلس مرارا في طلب العلم والجهاد، حيث سجل حضوره في «غزوة الأرك مع المنصور»[609].

ومن الأعلام الفقهاء من بلاد المغرب الأوسط نذكر محمد بن علي بن جعفر بن أحمد القيسي، يُكنى بأبي عبد الله، ويُعرف بابن الرمامة (ت.567هـ/ 1171م): أصله من قلعة حماد بن حوز بجاية، ولد عام الزلاقة، دخل الأندلس طالبا للعلم، من بين من أخذ عنهم ابن رشد، ألف كتاب تسهيل المطلب في تحصيل المذهب، واختصر كتاب الإحياء لأبي حامد. ولي قضاء فاس وكان حسن السيرة في أحكامه. كان فاضلا زاهدا، رحل إليه الناس إلى فاس[610].

أما مصعب ابن أبي بكر محمد بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الخشني(ت.604هـ/ 1207م)[611] والذي يكنى أبا ذرّ، فينتمي إلى أهل بيت علم ودين، حيث كان «يلقي دروسه في كثير من الحواضر بالمغرب والأندلس»[612]حيث«أقرأ ببلده جيان وبمدينة بجاية واشبيلية وسبتة وفاس، وبها اسقر آخر عمره إلى أن توفي ضحى يوم الإثنين الحادي عشر لشوال سنة أربع وستمائة»[613] بمدينة فاس.

(609)ـ مجهول، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر: مطبعة جول كربونلي، 1921م، ص47. هذا العالم المجاهد هو «الفقيه الحافظ المحدث العالم المجتهد أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عيسى بن يوسف بن قاسم الملجوم من أعيان فاس وفُضلائها.» نفس المصدر والصفحة.

(610)ـ ابن بشكوال، كتاب الصلة ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي (ت.708هـ)، م.س، ص: 7 و8.

(611)ـ «كان أحد الأئمة المتقنين ضبطا وتقييدا وأحد المعتمدين في اللغة والأدب، إمام في العربية ذا سمْت ووقار وفضل ودين ومروءة «. كتاب الصلة لابن بشكوال(ت578هـ) ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي (ت.708هـ)، تحقيق شريف أبو العلا العدراوي، مج.3، كتاب صلة الصلة، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ط.1، 1429هـ/2008، ص50.

(612)ـ محمد العمراني، الموحدون في الأندلس، الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع من 541هـ/ 1147م إلى 609هـ/ 1212م، مساهمة في استحضار الذاكرة التاريخية المشتركة المغربية الإيبيرية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، 2020، ط.1، ج2، ص370.

(613)ـ ابن بشكوال، كتاب الصلة ومعه كتاب صلة الصلة، م.س، ص50- 51.

وهذا علم آخر من بلاد الأندلس وهو عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن (يكنى أبا محمد): أصله من أندة بشرق الأندلس تردد هو وأخوه سليمان بجهات الأندلس في طلب العلم فسمعا ببلنسية ومرسية وألمرية وقرطبة وغرناطة ومالقة واشبيلية.. ثم بسبتة وسلا ومراكش وغيرها ببلاد العدوة(614).

أما ميمون بن جبارة بن خلفون الكتامي(ت. 584هـ/ 1188م) الفرداوي أبو تميم، فقد «دخل الأندلس عالما رئيسا جميل الأخلاق ندي اليد، ولي القضاء ببلنسية فحمدت سيرته عدلا وجزالة وانتفع أهلها بإقرائه إياهم الأصول... ثم ولي قضاء بجاية ثم صُرف عنها فمات بتلمسان مجتازا عليها إلى مراكش سنة أربع وثمانين وستمئة»(615).

استنتاج:

ما يمكن الخروج به من سرد بعض تراجم ثُلّة من النخبة العالمة خلال العصر الإسلامي الوسيط ببلاد الغرب الإسلامي، هو أننا أمام أدلة من التاريخ تقف شاهدة على ما عرفه هذا المجال الجغرافي الشاسع من حركة دينية وعلمية وثقافية وسياسية، لم تتأثر في أي وقت من الأوقات بالصراعات القبلية وواقع الانقسام السياسي إلا في حدود معينة ومحدودة. الشيء الذي يبرهن على قوة الرابطة بين المكون البشري لبلاد الغرب الإسلامي. وهنا لايمكن أن يخفى دور رحلات الحج إلى الديار المقدسة في تحديد هذا المعنى، إذ كان موسم الحج «تعبيرا غير مباشر عن الشعور الشعبي نحو الوحدة المغاربية»(616)، حيث لا معنى لحدود سياسية تمنع من تسيير قوافل الحج(617)، والتي كانت تضم أفواجا من المغاربيين

(614)ـ أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي، كتاب صلة الصلة. تحقيق شريف أبو العلا العدوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، مج.1، ترجمة 213، ص96.

(615)ـ أبو زكريا، بغية الرواد، م.س، ص68-69. وقد تقلد قضاء بلنسية منذ 568هـ إلى 581هـ كما استقضي بمرسية بعد وفاة قاضيها أبي القاسم بن حُبيش، وقد وردت تلمسان عند صاحب الذيل تحت إسم تِلمسينَ.(أنظر التفاصيل: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ج5، ص295، (ترجمة 184).

(616)- نفس المصدر والصفحة.

(617)- شهد عصر الموحدين ظهور أحد رجال التصوف البارزين زمن سريان التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي، وهو الشيخ أبو محمد صالح دفين آسفي، الذي اشتهر بإنكاره عن الفقهاء زمن حكم الموحدين قضية إسقاط فريضة الحج، (لأسباب أمنية أو سياسية). فقد«ربط دعوته إلى الحج فيما يبدو بالنهي الصريح عن ركوب البحر– بخلاف الفقهاء ـ كما حث الناس بشتى الوسائل على استعمال طرق البر المحظورة حتى الآن من طرف رجال المذهب» القبلي، الدولة والولاية والمجال، م.س، ص92. ويحيلنا على كتاب المنهاج ص350. المقصد (البادسي)، 60 – 61. الرحلة (ابن جبير)، 77 – 78(ط. ليدن، 1907). في هذا الإطار أورد الونشريسي في

والأندلسيين. فقد ظل الحج ثابتا دينيا رئيسا في هذه "الدينامية" وعاملا موحّدا كما هو أمر الجهاد الذي تميز به عصر المرابطين والموحدين.إذ يعتبر «الجهاد من الشعائر الدينية الواجبة على الأمة والتي تقوم بها بقيادة الإمام»[618]، ولم يكن ليخفى دور الجهاد في جمع كلمة المغاربيين والأندلسييتوحيد صفهم رعية وحكاما كلما أعلِن النفير. وقد كانت فئة مهمة من العلماء والفقهاء المغاربيين يتزعمون الحركة الجهادية[619]. إذ شكلت العدوة الشمالية الوعاء الجغرافي والمجال المناسب لمدافعة نصارى الشمال.

لقد ظلت هذه المظاهر الدينية هذه«تفصح عن تجدّر الوحدة الشعبية»[620]، إلى جانب دور العلاقات التجارية[621] التي أسهمت بشكل كبير في تثبيت هذا الشعور بالوحدة. فالإدريسي على سبيل المثال تحدث عن مدينة بجاية[622]، بصفتها «عين بلاد بني حماد»[623]، وأن أهلها كانوا«يُجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء»[624].في صورة واضحة لعمق الروابط المجتمعية داخل بلاد المغارب، ثم بينها وبين الأندلس.

3- مظاهر وحدة المجال:

يبدو أن الحديث عن "المجال" في حقل التاريخ لا يجب أن نربطه فقط بالأشكال التضاريسية وما توفره الأرض من موارد معدنية وإنتاج فلاحي والذي له علاقة بالمناخ السائد في المنطقة المغاربية، أو من حيث أهمية الموقع والتحكم في التجارة الإقليمية أو الدولية في الصحراء وفي البحر. بل المجال كذلك هو ذاك الذي يتضمن التاريخ «المُلقّح" بالجغرافية»[625]، على حد تعبير أحد الباحثين. وهنا يبدو أن المجال لا ينحصر فيما هو

الجزء الأول من كتاب المعيار / نوازل الحج، من ص 432 – 440. وقد أورد أراء العلماء في موضوع إسقاط الحج في حالة تحقق أخطار الطريق، صص433 – 435.

(618)- المغراوي، العلماء والصلحاء والسلطة،أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،الرباط، 2001 – 2002، ص457.

(619)- مجهول، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، م.س، ص47..

(620)- بوتشيش القادري، تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة، ص68.

(621)- سنخصص لها المبحث الموالي للوقوف على أهمية دور التجارة كمقوم ثابت في قيام صرح الدولة الوسيطية وفي سقوطها كذلك.

(622)- الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، ص63.

(623)- المرجع نفسه والصفحة.

(624)- نفسه والصفحة.

(625)– الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، القسم1، 1998- 1999، ص4. رسالة مرقونة.

أبعاد جغرافية، بل يتجاوزه إلى فهم الهوية السياسية والدينية والثقافية والنفسية للمجال الذي تشكلت ضمنه تجربة الوحدة التي تحققت زمن المرابطين والموحدين.

أ- تعريف المجال الجغرافي المغاربي والأندلسي:

ـــ يمتد المجال المغاربي من تخوم مصر إلى البحر المحيط مِثل الشريطة يضغطه من قِبَل الشمال بحر الروم ومن قِبَل الجنوب السودان"(626). أما البكري فقد تحدث عن حدّ إفريقية التي «طولها من برقة شرقا إلى مدينة طنجة الخضراء غربا»(627). وينقل صاحب البيان المُغرب عن أبي مروان في كتاب" المقباس" وإبن حمادُه في كتاب "القبس" أن «حدّ المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية، إلى آخر بلاد المغرب وحدُّه مدينة سلا»(628). بينما صاحب مفاخر البربر تحدث عن ذكر ذوي العناية بعلم الجغرافيا «أن المغرب جزيرة أحاطت بها البحار من كل جهة...دخل فيها مصر والقيروان والمغرب الأوسط والزاب والسوس الأقصى»(629). وحسب الجزنائي ينقسم المجال المغاربي إلى ثلاثة أصقاع:«الصقع الأول هو موضع إفريقية من جبال وبرقة وءاوتان إلى جبال نفوسة. والصقع الثاني المغرب المتوسط وأوله تاهرت إلى سبتة إلى جبل درن. والصقع الثالث السوس الأقصى وحدُّه في الغرب البحر الأعظم من ماسة إلى صحراء المرابطين»(630). ويمثل هذا المجال ذو الخصائص الطبيعية المشتركة، في شعور ووجدان المُكون البشري للمنطقة، بكل انتماءاته العرقية وطبقاته الاجتماعية ونخبه المثقفة، أرضا واحدة لا معنى فيها للحدود.

(626)ـ المقدسي (البشاري)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط.3، 1411هـ/ 1991م، ص62.

(627)ـ البكري (أبو عبيد عبد الله)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري، للدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والداراسات، بيت الحكمة - دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2، ص671.

(628)ـ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق "كولان" و " بروفنسال"، دار الثقافة، بيروت– لبنان، ج1، ط3، 1983، ص 5. ويرى محمد القبلي أن بداية شيوع مصطلح " المغرب الأقصى" خلال العصر المغربي الوسيط، بدأ في التداول مع مجيء المرابطين إلى الحكم، أصبح هذا الجزء المغاربي مجالا متميزا ضمن بقية مجموع المجال الإقليمي المجاور، بكل ما سيصبح لمراكش من رمزية، إذ أصبحت منارة سياسية وحضارية، تضاهي بغداد والقاهرة بعد أن أصبحت عاصمة لبلاد الغرب الإسلامي خلال حكم المرابطين والموحدين.

(629)ـ مجهول،مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2005، ص185.

(630)ـ الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية – الرباط، 1411هـ/1991م. ط.2، ص6.

ـــ أما بالنسبة للجزء الآخر من مجال الغرب الإسلامي الذي هو الأندلس، يسجل التاريخ علاقة قديمة بينها وبين البلاد المغاربية وهو ما عبر عنه محمد القبلي بالاتصال الحميم بين الضفتين بأقصى الغرب المتوسطي، والذي «ارتبط بدوره بنوع من التنافر المستقر بين الشمال والجنوب منذ ما قبل الإسلام، كما انعكس ذلك في الأسطورة المتعلقة بحفر البوغاز على يد الاسكندر المقدوني»(631). لكن الأندلس ستصبح جزءا لا يتجزأ من بلاد المغارب منذ الجواز الثالث ليوسف بن تاشفين عصر المرابطين وإلى حدود نهاية القرن التاسع الهجري(ق.15م).

ب-أهمية المُقوّم الطبيعي:

تكمن في كونه قد شكّل وعاء رئيسا لقيام تجربة سياسية سيتحقق فيها توحيد» مجال مباشر منصهر»(632) كان بمثابة معبر بشري «وقنطرة تجارية لا محيد عنهما في الربط بين ضفاف الأبيض المتوسط وما وراء الصحراء»(633). وهنا نحن لا نتحدث عن المجال المغاربي في بعده الجغرافيالصِرف، كقنطرة برية تربط الشرق المغربي بغربه، بل ونتحدث أيضا عن مجال بريوبحري تجسدت من خلاله وحدة العدوتين سياسيا ومذهبيا في ظل الإسلام السني الذي أفرز حضارة إسلامية تركت بصمتها عبر التاريخ. ولهذا السبب كان «الجغرافيون ينظرون إلى الغرب الإسلامي كرقعة واحدة»(634) يعْمرها المسلمون بصفتهم إخوة «لاسيما من بهذه الجزيرة ومن بتلك العدوة»(635). فالذهنية المعاصرة لواقع ذلك العصر تعاملت مع موضوع المجال المغربي الشاسع باعتباره مجالا واحدا وليس مجالات متعددة أو أجنبية عن بعضها، بكل ما للموضوع من علاقة مع «تأثير المكان في مزاجية الإنسان»(636). فـ «الشعور بالانتماء إلى نفس المجال بحكم الجغرافية قد تعمق

(631)ـ القبلي، الدولة والولاية والمجال، ص14. ويبدو أن التجربة الوحدوية التي وضع أسسها المرابطون وكرسها الموحدون رغم اختلافهما<<الأيديولوجي>>، كان فيها للمجال المائي لحوض البحر الأبيض المتوسط، دورا حيويا بالنظر لما شكله من أهمية كبرى على المستوى الاستراتيجي والعسكري ثم الاقتصادي وأخيرا الحضاري.
(632)ـ القبلي، م.س، ص73.
(633)ـ المرجع نفسه والصفحة.
(634)- القادري بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي، ص66.
(635)ـ مجهول، الحلل الموشية، ص12.
(636)- محمود إسماعيل، الأدارسة، ص37.

بحكم التاريخ... ولم تلبث أرضية المعطيات الثابتة أن التحمت بمكتسبات التاريخ المتجددة فتمخض عن ذلك تطور في الشعور بالانتماء»[637].

يظهر من كل ما أتينا على ذكره أن المجال المغاربي والأندلسي كان يزخر بكل مقومات الحياة طولا وعرضا، حيث نشطت علاقات تبادل السلع والأفكار والعادات والتقاليد المشتركة، وتبادل التأثير والتأثر، بِغَضِّ النظر عن الظروف السياسية السائدة، ونوع علاقات الحكام. كما أن الصحراء كعمق استراتيجي لكلا المجالين، شكلت أحد المقومات الرئيسة في المشهد السياسي المغاربي في علاقاته البينية ومع الأندلس، كان لها دور محوري شكلت خلاله جسرا اقتصاديا وحضاريا بفعل احتضانها التجارة الصحراوية التي شهدت "دينامية" خاصة زمن تمكن العصبيات الكبرى من الحكم.

ولعل الخلاصة الرئيسة التي يمكن الخروج بها من هذا المبحث ، هو أن القواسم المشتركة بين سكان المنطقة، من مجال طبيعي بري وبحري[638] والذي يحمل نفس الخصائص تقريبا، وتاريخ حضاري مشترك شكل خلاله الإسلام أحد عوامل بنائه، إلى جانب اصطفاف معظم المكون البشري لهذه المنطقة الجغرافية الشاسعة ـــ من شرق بلاد المغارب إلى الأندلس ـ وراء المذهب المالكي الممثل الرسمي لوجه التدين السني، كلها عوامل يرى أحد الدارسين أنها «تتغلب في نهاية المطاف على عوامل التنافر والتفرقة، فتعود المنطقة إلى وحدتها المعهودة»[639].

(637)- القبلي، مراجعات، ص20.

(638)- لا نفصل البقعة المائية المتمثلة في حوض البحر الأبيض المتوسط عن المجال البري، إذ لم يكن لتخفى القيمة الاستراتيجية للمجال المائي البحري في تحقيق التوهج السياسي والحضاري لبلاد الغرب الإسلامي زمن فرض المسلمين سلطانهم في المنطقة. أنظر محمد القبلي وأهمية هذه البقعة المائية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا عند القبلي محمد، المغرب والأندلس والمجال المتوسطي مقدمات أولية وملاحظات، سلسلة الدروس الافتتاحية (الدرس الرابع)، مطبعة ناضاف - أكادير، السنة الجامعية 1992 – 1993.

(639)ـ بولقطيب، الدولة الموحدية، ص129.

المبحث الثاني: دور التجارة الصحراوية في دعم نشأة التجربة الوحدوية وتطورها

1- السيطرة على الطرق التجارية الصحراوية(640)

شكلت التجارة الصحراوية ثابتا أساسيا من ثوابت قيام الدول الوسيطية خلال العصر الإسلامي، بالنظر إلى مدّها السلطة السياسية بالمقومات المادية لوجودها. في هذا الإطار اعتبر أحد الباحثين أن الدولة المركزية «دولة تجارية تقوم على احتكار الطرق، وبالتالي على التوسع وإزاحة كل منافس»(641). وفي هذا الإطار ظلت التجارة وطرقها الصحراوية والبحرية زمن تجربة الوحدة، قاعدة ثابتة في تشكل الدولة المركزية، ب«السيطرة على مجموع المحاور الطرقية بالمغرب الأقصى»(642). فكيف يمكن تجسيد أهمية التجارة الصحراوية بصفة خاصة في قيام التجربة الوحدوية مع المرابطين والموحدين باعتبارها أحد ثوابت التجربة ومفتاح اكتساح المجال؟

قبل الاستعانة بمجموعة من الإشارات المصدرية التي نستنبط منها أهمية التجارة الصحراوية ودورها في تثبيت أركان الدولة الحاكمة، في إطار العلاقة الجدلية بين العامل الاقتصادي والعامل السياسي، نقف على وجهات نظر بعض الدراسين من حيث تلك العلاقة الجدلية بين عامل التحكم في التجارة الصحراوية وتأمين طرقها وعامل التحكم في المجال وتوحيده. وذلك بالنظر إلى» التماسك الشبه الحتمي القائم بين غزو المجال والتحكم في الطرق»(643).

يبدو إذن أن مسألة التحكم في شبكة الطرق التجارية الصحراوية وتنظيمها خلال العصور الإسلامية الوسطى، كان أحد أسس قيام حكم صنهاجة الصحراء ومصامدة جبل درن، من خلال تأمين الشبكات الطرقية «وإخضاعها للمغرم واستغلالها رأسا على

(640)ـ يشير الباحث بولقطيب إلى أن استنجاد عدد من الدارسين والباحثين « في كل لحظة وحين بأهمية التجارة البعيدة المدى في تعليل معظم نكسات وإشراقات تاريخ المغرب في العصر الوسيط، قد رفع تحليلاتهم إلى مستوى" المكرور" أحيانا « بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، م.س، ص85. محيلا في هذا الاستنتاج على ما اعتبره محمد القبلي «نوعا من الراحة والترف الفكري لمن شاء أن يريح ويستريح»نفس المرجع والصفحة.
(641)ـ نفسه، ص70.
(642)ـ القبلي، الدولة والولاية والمجال، ص77.
(643)ـ المرجع نفسه، ص76.

المستوى التجاري»[644] وهنا يكون «خط الغزو قد اقترن اقترانا بطرق القوافل التجارية في كلتا الحالتين»[645]، بل ويؤكد محمد القبلي أن «الأسبقية هنا لضبط الشبكة وتقديمها على التوحيد المجالي في حد ذاته وليس العكس»[646].

فعلى مستوى تطور الأحداث الخاصة بدولة المرابطين، يرى أحدهم أن حلف صنهاجة «تولد بحكم العلاقات التجارية التي كانت تربط بلاد المغرب بجنوب الصحراء خلال القرنين الثاني والثالث»[647]، وذلك بعد أن أصبحت «تجارة القوافل الصحراوية تكتسي بُعدا هاما في النظام الاقتصادي الدولي»[648]. ويبدو أن انفراد لمتونة بزعامة الحلف الصنهاجي، جعلها تتُوق في ظل توفرها على قيادة روحية وسياسية التوجه بمشروعها الإصلاحي نحو الشمال المغربي، خاصة إذا ربطنا الأمر بما أشارت إليه بعض المصادر من استدعاء فقهاء سجلماسة ودرعة لمرابطي الصحراء، وهما الحاضرتان اللتان كانتا «يومئذ تحت طاعة أمراء مغراوة من زناتة وأميرهم يومئذ مسعود بن وانودين بن خزرون ابن فلفول الهزرجي»[649]. إذ سيظهر دور المصلحة المشتركة لكل طرف من خلال حضور البعدين الاقتصادي والدعوي في هذه العلاقة المبكرة. فقد ذكر صاحب القرطاس اجتماعا عقده فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهم «فكتبوا إلى الفقيه عبد الله بن ياسين وإلى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغبون منهم الوصول لبلادهم «ليطهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور»[650]. لكن أحد الباحثين يرى أن المغارم الباهضة المفروضة على التجارة كانت «من أهم العوامل التي دفعت الفقهاء من التجار لاستدعاء المرابطين لغزو البلاد الغربية»[651]، وذلك بالنظر لدور صنهاجة الصحراء في

(644)ـ مجموعة مؤلفين، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، م.س، ص163. أنظر كذلك محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال، ص77.
(645)ـ م.م، تحيين وتركيب، ص167.
(646)ـ القبلي، الدولة والولاية والمجال، ص76.
(647)ـ هاشم العلوي، مجتمع المغرب الأقصى، م.س، ج2، ص102.
(648)ـ القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، م.س، ص57.
(649)ـ مجهول، الحلل الموشية، ص 22.
(650)ـ ابن أبي زرع، القرطاس، ص127.
(651)ـ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط.1، 1403هـ/ 1983م، ص266.

مراقبة المحاور «الحيوية لتجارة ما وراء الصحراء وخاصة منها المحور الرابط بين سجلماسة وأَوْدَغُسْتْ»[652].

وخلال مرحلة تحكم دولة المرابطين الناشئة في المسالك التجارية، أصبحت تجني «أرباحا طائلة وظفت عائداتها في تقوية أدائها العسكري، الشيء الذي رفعها إلى مصاف القوى العظمى بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط»[653]. وهنا يرى أحد الباحثين أنه مع سيطرة المرابطين على تجارة العبور تكون قد «توفرت الشروط المادية للنهضة الصنهاجية الثالثة التي تحققت في العقدين الأولين من ذلك القرن، فاستغلت انهيار العالم الإسلامي لتنتج مشروعا سياسيا كان في حاجة إلى سند شرعي»[654].

وإذا كان البعض يحاول أن يرجع بهذا السند الشرعي في قيام دولة المرابطين، إلى حدث الرحلة التاريخية المشهورة للأمير يحيى بن إبراهيم ولقائه بأبي عمران، باعتباره أمرا مخططا له[655]، فإن الدور الذي قام به عبد الله بن ياسين، من أجل تحقيق الوحدة الداخلية لقبائل صنهاجة الصحراء، كان في الحقيقة هو السند الشرعي لتطلع معظم تلك القبائل لفرض نفسها في المنطقة كفاعل سياسي، خاصة وأن الأمر «يتماشى ورغبتهم في الاستحواذ على طرق التجارة والتوسع نحو الشمال»[656]، حسب رأي أحد الدارسين.

أما الموحدون فقد تبنواْ خطة جديدة للتحكم في تجارة بلاد السودان أثناء ثورتهم في وجه المرابطين، وذلك من خلال استحضارهم لأهمية «الدور الاقتصادي والاستراتيجي الذي لعبته مناطق الجنوب والجنوب الشرقي في تاريخ المغرب... فهذه المناطق كانت تمر بها العديد من المسالك التجارية التي تربط بين السودان الغربي موطن التبر والعبيد وبين

(652)ـ م. مؤلفين، تحيين وتركيب، م.س، ص165. ومع حلول القرن الخامس الهجري أصبحت سجلماسة تكتسي أهمية بالغة في التجارة «الدولية» بعد أن انطمس «الطريق التجاري الرابط بين غانة ومصر» أنظر بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، م.س، ص57.

(653)ـ بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، م.س، ص84. أنظر أيضا القبلي، الدولة والولاية والمجال، م.س، ص77.

(654)ـ القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، ص58.

(655)ـ أنظر التفاصيل القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي،"خبايا رحلة يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى الحج حوالي(427هـ). دراسة في مكونات الصلة بين الرحلات الحجية والدعوات السياسية" من ص 54 إلى ص62.

(656)ـ أكنوش عبد اللطيف، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، إفريقيا الشرق – الدار البيضاء، 1987م. ص68.

المغربين الأقصى والأوسط»[657]. علما أن ما يمكن اعتباره أمرا جديدا في المعادلة السياسية والاقتصادية عصر نشأة الموحدين، هو ما جسّده موضوع أهمية الاستفادة من مناجم النحاس والفضة والحديد[658]. فمناطق الجنوب والجنوب الشرقي«تحتوي على أكبر عدد من المناجم»[659]، وليس من المستبعد أن تكون تحركات عبد المؤمن في المناطق الجبال كاستراتيجية عسكرية، لها علاقة بتأمين تلك المناجم لما يخدم الإعداد المادي للدولة الموحدية بعد إزاحة المرابطين. وهنا نُذكّر بأهمية الاعتماد على تحصيل المعادن الثمينة ومحاولة احتكارها كما حصل في الصراع الفاطمي- الأموي، إذ جمعِ المعز لدين الله ما بين 950م و971 ثروة ضخمة من معدن الذهب والذي سمح له من «إرسال ميزانية عسكرية مع القائد جوهر في حملته لفتح مصر بين سنتي 358هـ و 359هـ»[660].

وهنا نخلص إلى نتيجتين وراء دور هذا الثابت في المشهد السياسي، الأولى أن التحكم في الطرق التجارية كان يسير جنبا إلى جنب مع عملية التحكم في المجال، من خلال عملية التوسع بالسيطرة على الحواضر الرئيسة كما سنحلل ذلك في موضوع توسع تجربة توسيع المجال انطلاقا من العمق الصحراوي مع المرابطين. أما في الحالة الخاصة بثورة الموحدين في وجه المرابطين، فقد توصل الحسين بولقطيب إلى أن النجاح الموحدي ارتبط بالتحكم في المسالك التجارية وشل حركة التجارة البعيدة وإفقار الخزينة[661]. أما النتيجة الثانية تتمثل في كون المغرب «الأقصى»«خلال حكم الدولة المرابطية والموحدية برز دوره بشكل ملفت في منطقة الغرب الإسلامي ككل. فقد كان خلال هذه المرحلة مركز إمبراطورية الغرب الإسلامي[662].

(657)- بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ص84.
(658)- يحيلنا بولقطيب في أطروحته على أهمية مجموعة من المناطق المنجمية خلال العصر الموحدي ك» زكندر، تزرارت، تيحمامين، تين أوداد وبوكورزية» El Alaoui (Abdelaziz) «Le Maghreb et le commerce transsaharien (Milieu du XI eme milieu du XIV eme S »Thèse De 3 Cycle ; Bordeau 1983 ; P.374-375. الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، م.س، ص86، الهامش 425.
(659)- بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ص86.
(660)- أنظر الحبيب الجنحاني، المجتمع العربي الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، عالم المعرفة، عدد 319، شتنبر 2005، صص 219- 221.
(661)- بولقطيب، المرجع السابق، ص85.
(662)- البشير أبرزاق، دور الصحراء في العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي خلال العهد المرابطي، مجلة كان التاريخية، العدد الثالث والثلاثون، من ص48 إلى ص53، سبتمبر 2016، ص48..

2- الدور التأسيسي لسجلماسة وأغمات في توحيد المغرب"الأقصى":

يرجع الفضل في ازدهار الحركة التجارية على طول وعرض المجال المغاربي والأندلسي خلال المرحلة الوسيطية، إلى دور مجموعة من الحواضر المغاربية والأندلسية من حيث التزود بالمنتجات من الجنوب ومن الشمال والعمل على توزيعها وتنظيم حركة القوافل التجارية وتنظيمها.

ــ في هذا السياق سنركز على دور سجلماسة(663)، وأغمات(664) في علاقة مع موضوع البروز المرابطي والموحدي وقيام الدولة المركزية. فقد«ظلت الصلات وثيقة بين أغمات وسجلماسة ـ باب تجارة السودان ـ في القرن الخامس الهجري/ 11م... كما كانت أغمات وثيقة الصلة أيضا بمدينة فاس، حيث يمر الطريق بينهما بعدد من المراكز التجارية المزدهرة»(665). ويرى أحد الباحثين أن «بداية توحيد المغرب انطلاقا من سجلماسة كان عاملا تكتيكيا استراتيجيا هاما، لأن سجلماسة كانت تتفرع منها الطرق التجارية من الصحراء إلى المغرب ومن المغرب إلى الصحراء»(666) المشهورة بلاد السودان(667). وبالمناسبة فإن ما حسبناه استنجادا لسجلماسة ودرعة بالمرابطين، لم يقتصر على فقهاء المذهب المالكي بهدف تثبيت أقدام المذهب والحدّ من ظلم زناتة، بل يضاف إليهم فئة التجار المحليين والوافدين الذين عانَوْا من ظلم قبائل مغراوة الزناتيين الذين كانوا يفرضون «مغارم باهظة على التجارة»(668). وبالتالي فإن التحكم في هذا المسار من خلال تنظيم

(663)ـ أنظر ترجمة خاصة بسجلماسة: البكري، المسالك والممالك، ج2، ص 835 – 438 / القبلي، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، ص155. « مدينة متحضرة جدا، دورها جميلة، وسكانها اثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان» الوزان، وصف إفريقيا، ص127. (التوثيق الكامل: الهامش 151).

(664)ـ أشار البيدق في أثناء رحلة هذا الأخير من مراكش نحو تنمل أنهمر بأغمات وايلان، والتي مكث بها ثلاثة أيام، ثم توجه نحو أغمات وريكة: البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، ص29 – 30.

(665)ـ سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي،ج.3،صص 509 – 510. أنظر حديث صاحب الاستبصار حول أغمات حاضرة بلاد المصامدة: عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص207. ويذكر الإدريسي أن المسافة بين مدينة سجلماسة ومدينة أغمات وريكة حوالي ثمانية مراحل. الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، ص38.

(666)ـ عز الدين جسوس، موقف الرعية، ص205. يوظف هنا الباحث مصطلح المغرب بنوع من الإسقاط التاريخي على مرحلة التاريخ المغربي الوسيط.

(667)ـ فقد سمح ذهب السودان للمرابطين بأن تصبح عُملتهم مضرب الأمثال كعملة دولية أولى.: أنظر القبلي، مراجعات، ص17.

(668)ـ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص266.

موارده، وفّر للمرابطين كما سيوفر للموحدين من بعدهم، الإمكانات الاقتصادية والمادية اللازمة لبناء وتمتين صرح الدولة المركزية وتغطية نفقاتها. وهنا لا يمكن أن تخفى الأهمية التجارية والاقتصادية لسجلماسة(669) ودرعة(670) وأغمات(671)في التأسيس لمرحلة التمكين لكل من المرابطين والموحدين.

إن حديث بعض المصادر عن المسافة «من سجلماسة إلى مدينة القيروان ستّ وأربعون مرحلة»(672) ما يؤشر على وجود علاقة وثيقة بين الحواضر المغاربية، رغم بُعد المسافات وقسوة المناخ. إذكان لتلك الحواضر مكانة متميزة على كافة المستويات الاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية. فسمعة سجلماسة مثلا كمركز تجاري تجاوز البُعد الإقليمي إلى الدولي منذ قيام تجربة وحدة بلاد الغرب الإسلامي مع المرابطين، حيث سيتحول «طريق التجارة الذي كان يربط بين غانة ومصر والذي أُهمل بسبب العواصف الرملية، إلى سجلماسة، فكانت مقصد تجار من البصرة والكوفة وبغداد»(673). فموارد سجلماسةالتجارية كانت «تحمل إلى الشرق عن طريق موانئ المغرب أو عن الطريق البري المؤدي إلى أفريقية»(674)، حيث كانت العلاقة الوطيدة مع أم المدن المتحضرة القيروان. وقد ذكر لنا صاحب الممالك والمسالك أن المسافة «من سجلماسة إلى مدينة القيروان ست وأربعون مرحلة»(675).

(669)ـ تتحدث بعض المصادر عن العلاقة القوية بين مجموعة من الأمصار والحواضر في إطار أدوار تكاملية سواء في البُعد الاقتصادي أو السياسي كالإشارات التي وجدناها عند صاحب أحسن التقاسيم، حين يشير في باب اختصره للفقهاء، قائلا» ولسجلماسة درعة»المقدسي (البشاري)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط.3، 1411هـ/1991م، ص56.

(670)ـ كانت درعة تمثل امتدادا لسجلماسة على المستوى السياسي والاقتصادي منذ القرن الثاني الهجري عهد حكم دولة بني مدرار، وذلك في إطار توسع الإمارة السجلماسية « في اتجاه بلاد درعة وتمت السيطرة على معادنها» تحيين وتركيب، م.س، ص156.

(671)ـ« مبنية على منحدر جبل من جبال الأطلس» الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، 1983، ط.2، ج1، القسم الثاني، ص135.وقد اشتهرت بمواردها الطبيعية والبشرية إذ كان تجارها يحملون « قناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف...» الإدريسي، وصف إفريقيا، م.س ص43.

(672)ـ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص841. أنظر ترجمة لسجلماسة عند صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار، م.س، 1985.ص200.

(673)ـ حمدي عبد المنعم حسنين، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، 1997م، ص351.

(674)ـ حمدي عبد المنعم حسنين، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس عصر المرابطين، م.س، ص351.

(675)ـ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص841..

وتزداد قيمة سجلماسة خلال هذه المرحلة بأهمية علاقتها بحواضر مغاربية حظيت بأهمية خاصة لدى المرابطين والموحدين على السواء، من مثل تلمسان[676] التي شكلت جزءا أساسا في تجربة توحيد المجال، إلى جانب تقوية علاقتها الداخلية مع أغمات ودرعة. في هذا الإطار يشير الإدريسي إلى أن من «أراد الطريق إلى تلمسان من مدينة سجلماسة بالقوافل، تسير من تلمسان إلى فاس ومن فاس إلى صفروي إلى تادلة إلى أغمات إلى بني درعة إلى سجلماسة»[677]، هذه الأخيرة التي كان كثير من نبلائها حسب ما ذكره الحسن الوزان، يذهبون «إلى بلاد السودان يحملون إليها بضائع من بلاد البربر ويستبدلون به الذهب والعبيد»[678].

ـــ أما أغمات فهي عبارة عن مدينتين سهليتين «إحداهما تسمى أغمات إيلان والأخرى أغمات وريكة»[679]، وقد كانت أغمات هذه من بين «أهم مراكز التجارة الداخلية في المغرب في عصر علي بن يوسف»[680]، وستزداد أهميتها أثناء نشأة حركة الموحدين إذ أن القيمة الاستراتيجية لأغمات بالنسبة للموحدين لا يمكن أن تخفى في ظل تموقعها في قلب المجال المصمودي من جهة ومن حيث امتداد جسورها إلى نفيس و «مدينة مصمودة الآهلة العمران، وتامرورت من حيث يكون الصعود إلى جبل درن»[681] من جهة ثانية.

في إطار أهمية أغمات[682] بالنسبة لقيام حكم المرابطين، يتحدث الإدريسي عن ثراء أهل أغمات الذين يتكونون من «هوارة من قبائل البربر المتبربرين بالمجاورة، وهم تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان... ولم يكن في دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا»[683]، بها كان «ينزل التجار على القديم لأنها كانت دار التجهيز

(676)ـ «ومدينة تلمسان قُفل بلاد المغرب وهي على رصيف للداخل والخارج منه لابد منها والاجتياز بها على كل حال» الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، م.س، ص56.
(677)ـ الإدريسي، وصف إفريقيا، ص55. مجهول، الاستبصار، ص206.من سجلماسة إلى أزكي 13 مرحلة، ومن هذه الأخيرة إلى نول لمطة 7 مراحل. أنظر الإدريسي، نفسه، ص37.
(678)ـ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص126 (المصدر: الهامش 151).
(679)ـ البكري، المسالك والممالك، ص841. وردت أغمات إيلان تحت إسم "هيلانة" حسب صاحب الاستبصار، ص207.
(680)ـ حمدي حسنين، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس عصر المرابطين، ص351.
(681)ـ سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص 510.
(682)ـ أنظر ترجمة مستفيضة حول أهم الأحداث التاريخية التي ميزت حاضرة أغمات منذ الفتح الإسلامي إلى أن طرد منها المرابطون أميرها لقوط الزناتي: البيدق، أخبار المهدي، ص29، (الهامش 35.)
(683)ـالإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، ص42.

للصحراء»[684]. وأغمات مرتبطة على وجه الخصوص بكل من فاس وسجلماسة بصلات تجارية وطرق مواصلات عامرة بالمسافرين من التجار· فأغمات كمنطقة عبور اكتست أهمية كبرى عند مغراوة الزناتيين[685] قبل مجيء المرابطين. كما أنها مع الموحدين أصبحت «مُتحضرة جدا وتدعى مراكش الثانية»[686]. وهي إشارات تاريخية تؤكد أهمية هذه المدينة في تداول الحكم خلال العصر المغربي الوسيط، خاصة زمن المرابطين والموحدين الذين وضعوا أيديهم ليس على تجارة الصحراء من حيث الجانب الإداري، بل ومن خلال التحكم في معادن نفيسة من مثل الفضة والنحاس والحديد، والتي دفعت بأحد الباحثين للتساؤل عن مدى ما شكلته مراقبة المناجم[687] من حجر أساس في قيام الدول وسقوطها خلال العصر الوسيط[688]؟ خاصة وأن التجارة مع بلاد السودان من وجهة نظره كانت تعتمد «على المواد المعدنية المستخرجة من هذه المناجم»[689]. كما أنه لا يمكن أن تخفى العلاقة الكائنة بين دور تلك المناجم وأهمية انتشار العملة المرابطية[690] والموحدية، التي توسع التعامل بواسطتها بما شهده المجال السيادي للموحدين من تمدّدٍ على طول وعرض بلاد الغرب الإسلامي. خاصة مع ما وفرته بلاد السودان من الذهب[691] الذي كان«يصل إلى المغرب»[692].

(684)ـ مجهول، الاستبصار، ص207.
(685)ـ الإدريسي، م.س، ص42.
(686)ـ الوزان، وصف إفريقيا، ص136.
(687)ـ كونها من وجهة نظر بولقطيب « الأساس المحرك للتجارة القافلية برمتها»بولقطيب الحسين، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ص86.
(688)ـ المرجع نفسه والصفحة. لا يبدو الحديث عن اكتشاف المعادن وأهميتها بالنسبة لحكام المغرب الإسلامي الوسيط له علاقة بالموحدين كما يعتقد البعض. فهناك إشارة عند مؤلفي كتاب تحيين وتركيب تتحدث عن وضع أحد أمراء بني مدرار « يده على مناجم النحاس بتِيحمّامين الواقعة على بُعد يومين إلى الجنوب الغربي من سجلماسة» نفسه، ص156.
(689)ـ نفسه، ص86.
(690)ـ بعد توحيد بلاد المغرب الأقصى بسط المرابطون نفوذهم السياسي «في المجال الشرقي عبر العملة الذهبية وليس الفضية... حيث احتلت دار تلمسان مرتبة متقدمة من بين العشرين دار بعد سجلماسة وأغمات ومراكس وفاس ونول لمطة وسلا وسبتة «محمد البركة، المجال واستراتيجية المشروع المرابطي: تلمسان ونهاية الدولة، عصور الجديدة – العدد 2 من ص 111 إلى ص 123(عدد خاص بتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية) 2011م/1432هـ، ص116.
(691)ـ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص126 (الهامش: 151).
(692)- توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، مكتبة المهتدين، 1984، ص303.

ولا يمكن أن يخفى ما كان لانتشار العملة من دلالات سياسية ورمزية تجسد وحدة المجال والمجتمع. فقد عبر «التحول السياسي الناتج عن ميلاد وحدة سياسية على يد المرابطين والموحدين عن ظهور شروط الازدهار الاقتصادي»[693]، كماأن «احتكار الشبكة الطرقية في النهاية هو الذي أسفر عن احتكار المجال وتوحيده سياسيا»[694]بالنسبة لكلتا العصبيتين. فأهمية التحكم في الطرق التجارية معناه ضمان المكاسب المالية لتوفير الدعم لحركة تمهيد مجال المغرب الأقصى، وبناء القوة المادية والعسكرية للدولة المركزية.

نخلص من خلال رصدنا لأهم المقومات التي قامت على أساسها تجربة وحدة الغرب الإسلامي زمن المرابطين ثم الموحدين، إلى أن هذه التجربة السياسية، لم تكن لتخرج من فراغ، أو أنها تحققت بمحض الصدفة. فالمقومات الطبيعية والبشرية والاقتصادية مكنت الملثمين والمصامدة على السواء من بناء كيانهم السياسي الوحدوي على أرض المغرب الأقصى كمركز انطلاق تجربتهما السياسية الخاصة بتوحيد مجال شاسع من حجم بلاد الغرب الإسلامي، وذلك بشكل تدريجي، وفق هندسة مجالية عمودية وأفقية. ولعل تمهيد المغرب الأقصى سياسيا وإخضاعه عسكريا كان بمثابة المفتاح للتحول نحو الشمال (الأندلس) والشرق (المغرب «الأوسط» وإفريقية) بخطط مختلفة باختلاف نظام الحكم وزاوية الرؤية لدى المرابطين والموحدين.

(693)ـ لحمنات، التصوف المغربي، م.س، ص110.
(694)ـ القبلي، الدولة والولاية والمجال، ص 76.

الفصل الثاني: مراحل التجربة الوحدوية زمن المرابطين

أثناء الحديث عن الثابت والمتحول في موضوع التجربة السياسية الوحدوية التي شهدها الغرب الإسلامي ــ زمن وصول عصبتين قبليتين من حجم صنهاجة الجنوب ومصامدة جبال درن ــ يبرز الخيط الناظم بين مقومات قيام ما حسبه البعض تجربة فريدة[695]، وبين تجليات هذا المشروع السياسي الوحدوي الذي دشّنه المرابطون بداية من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (ق.11م). والذي كان هدفه الرئيس وضع حدٍّ لواقع التجزئة والانقسام الداخلي، قبل أن يرتفع سقف التجربة السياسية المرابطية في إطار واقع ما عبر عنه أحد المستشرقين بالتحدي والاستجابة[696]، وذلك بالانتقال من توحيد مجال المغرب الأقصى إلى توحيد الغرب الإسلامي كأكبر إنجاز سياسي وحضاري بعد ضم الأندلس ابتداء من عام 484هـ/1091م، لتصبح بذلك مراكش حاضرة عالمية شأنها في ذلك شأن بغداد والقاهرة خلال العصور الإسلامية الوسطى. و سنركز في فرضيتنا الخاصة بالمرحل الكبرى التي مرت بها تجربة توحيد المجال زمن المرابطين، على دور العامل السياسي وعلاقته بالمذهب المالكي في توحيد مجال المغرب الأقصى.

المبحث الأول: مرحلة التأسيس لتجربة توحيد المغرب "الأقصى" زمن المرابطين[697]

1- ظروف نشأة التجربة الوحدوية انطلاقا من الجنوب المغربي:

يرى أحد الباحثين أن سبب الخروج من الصحراء ارتبط بموضوع ما شهدته صحراء صنهاجة[698] من صحوة دينية بسبب قيام حركة إصلاحية تشكلت في قلب الصحراء، قادها الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين. فبعد مرحلة ترتيب البيت الصنهاجي الصحراوي الداخلي، وبعد أن «رأى الشيخ أبو محمد عبد الله بن ياسين استقامة لمتونة، وجدهم واجتهادهم، أراد

(695)- تحدث الأستاذ القادري بوتشيش عن مشروع توحيد المغرب الإسلامي الذي كاد أن يهمل بالمرة مع أنه شكل حسب الباحث حجر الزاوية في برنامج المرابطين السياسي: أنظر " تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة قراءة في التجربة الوحدوية المرابطية للغرب الإسلامي" دار الطليعة، بيروت، ط.1، شتنبر 1994م، ص64.

(696)- أنظر المعنى العام للمصطلحين توينبي ونظريته التحدي والاستجابة (الحضارة الإسلامية أنموذجا)، منشورات الهئية العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة – دمشق، 2010، ص8.

(697)- أنظر البيان المغرب، ج.4، ص12.

(698)ـ أطلق حسن أحمد محمود إسم "الدور الصحراوي" على هذه المرحلة التي تميزت بالحد من شأفة "جدالة" وإخضاع القبائل الوثنية في بلاد السودان. قيام دولة المرابطين، م.س، ص 186.

أن يظهرهم ويملكهم بلاد المغرب»(699) فقال لهم: لقد «غزوتم ونصرتم دين محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد فتحتم ما كان أمامكم، وستفتحون ــ إنشاء الله ــ ما وراءكم، فأمرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة»[700]. وهو ما رأى فيه أحد الباحثين تيارا «كان لا بد أن يندفع نحو غاية معينة، لابد أن تتحقق في وقت عجزت فيه قبائل المغرب عن المقاومة بسبب تفرقها وضعفها وتخاذلها»[701]. لكن يبدو أن هناك حافزا مهما للمرابطين قد دفع بهم لخوض تجربة النزوح من الصحراء نحو الشمال، والذي تمثل فيما أشار إليه محقق كتاب "الإشارة في تدبير الإمارة" من اجتماع فقهاء سجلماسة، وفقهاء درعة وصلحائهم عام 447هـ/1055م «وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين وإلى الأمير يحيى بن عمر، وأشياخ المرابطين يطلبون منهم الوصول لبلادهم، ليُطهّروها من المنكرات، وليُخلِّصوا أهلها من شدة العسف والجور»[702]. كما «عرّفوهم بما هم فيه من أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي»[703]. وهو ما نحسبه عملية استنجاد قام بها الفقهاء المالكيون في منطقتي درعة وسجلماسة، حتى قبل استنجاد أهل الأندلس بالمرابطين مرحلة التمكين بحوالي ثلاثة عقود. وهنا ستندفع جموع صنهاجة الصحراء «صوب الشمال فاتحة غازية»[704]. وكان «أول ما أخذت لمتونة من البلاد بلاد درعة»(705) ثم سجلماسة التي أصلح عبد الله بن ياسين« أحوالها وغير ما وجد من منكرات، وقطع المزامير، وأحرق الديار التي كانت

(699)ـ مجهول، الحلل الموشية، ص22.
(700)- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة إحسان عباس،**ج.4**، ص13. مجهول، الحلل، م.س،ص 10.
(701)ـ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، م.س، ص189.
(702)ـ مقدمة كتاب السياسة للمرادي، سامي النشار، ص26. أنظر البكري في حديثه عن مؤسس حركة المرابطين، في المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري، ج2، ص862-863.
(703) ـ ابن أبي زرع،**القرطاس**، ص127. ابن أبي دينار، **كتاب المؤنس** في أخبار إفريقية وتونس، ص103، ط.1، 1286هـ. ابن الخطيب، **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط**، من كتاب" أعمال الأعلام" ،تحقيق وتعليق الدكتور أحمد مختار العبادي والدكتور محمد إبراهيم الكتاني، نشر وتوزيع دار الكتاب الدار البيضاء،1964 ، ق.3، ص229. مجهول، **الحلل الموشية**، م.س، ص22.
(704)ـ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، م.س، ص188.
(705)ـ ابن عذاري،البيان، ج4، ص11. « مدينة درعة يقال لها "تيومتين"، وهي قاعدة درعة... وهذه المدينة آهلة عامرة بها جامع وأسواق جامعة ومتاجر رابحة» البكري، **المسالك والممالك، ص845.**

تباع بها الخمور، وأزال المكوس، وأسقط المغارم المخزنية، وترك ما أوجب الكتاب والسنة تركه وقدم عليها عاملا من لمتونة»[706].

فهل سؤال "شرعية" اقتحام المرابطين أبواب المغرب "الأقصى"، له علاقة بعملية استقطابهم من لدن الفقهاء المالكيين إلى حواضر الجنوب، الذين استنجدوا بهم،للحدّ من مظالم زناتة المغراويين؟. وهنا يبدو من المفيد الحديث عن جدلية البداية الحقيقية لدور المذهب المالكي في التمكين للمرابطين في بلاد المغرب الأقصى وتوحيده[707]، مقابل دور قيام التجربة السياسية الوحدوية منذ نشأتها إلى حدود مراحل التمكين في ترسيخ مكانة المذهب المالكي، خاصة في مرحلة توحيد الغرب الإسلامي برمته.

يبدو أن تحرك المرابطين من مناطق الرباط في الصحراء نحو شمال المغرب، كان بمثابة بذرة أولى لمشروع سياسي كبير سيتجاوز توحيد المغرب "الأقصى" إلى مجال أوسع داخل بلاد الغرب الإسلامي. كما شكّل في الآن نفسه مؤشرا فيما نحسب، نوعا من القابلية لدى مجتمع المغرب الأقصى ــ على الأقل في حواضره الكبرى ــ لتحقيق وحدتهم السياسية، بعد أن عاش أهله هواجس الانقسام منذ نهاية التجربة الجنينية الخاصة بتوحيد جزء من المغرب "الأقصى" زمن الأدارسة[708]. إلا أن قراءة أولية لأحداث هذه المرحلة، بناء على ما أمدّتنا به بعض المصادر[709]، ظهر لنا أنه من المبكر جدا الحديث عن وقوف فقهاء المغرب "الأقصى" وراء تدبير استراتيجية محددة آنفا، تخص توحيد بلاد المغرب "الأقصى"، كما ذهب إلى ذلك الأستاذ القادري بوتشيش[710].

فالمصادر التي آعتمدناها، لم تبح لنا بوجود مخطط جاهز لقيام ما سيعرف بدولة المرابطين. سواء خلال مرحلة ما قبل تقلّد عبد الله بن ياسين المسؤولية التربوية الدينية، أو خلال مرحلة ما حسبناه استنجادا من بعض الفقهاء المالكيين في سجلماسة بعبد الله بن ياسين

(706)ـ ابن ابي زرع، القرطاس، ص128.

(707)ـ في حقيقة الأمر نخالف الرأي الذي يؤصل لقيام دولة المرابطين من خلال اللقاء الذي تم بين أبي عمران الفاسي والأمير الصنهاجي يحيى بن إبراهيم، والذي تم تحميله ما لا يحتمله وقولوا أبا عمران الفاسي الفقيه ما لم يقله. فبالاحتكام إلى مختلف المصادر التي أشارت لموضوع اللقاء لا يجد ما ذهب إليه بعض الدارسين.

(708)ـ أنظر الفصل التمهيدي من بحثنا.

(709)ـ باعتمادنا على بعض المؤشرات المصدرية عند كل من البكري وابن عذاري وصاحب الحلل الموشية وابن أبي زرع .. .

(710)ـ أنظر "تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة"، من ص54 إلى ص60.

لدفع ظلم زناتة، وذلك لما يمكن أن يكون قد شكله حكام مغراوة من تهديد لمصالحهم التجارية في سجلماسة ودرعة بشكل مباشر. كما أنه من المُبكّر أيضا الحديث، خلال هذه المرحلة من تمهيد المرابطين بلاد المغرب، عن ما جاء على لسان ابن الخطيب، من أن الأخبار كانت قد «اتصلت بخروج الأمير يوسف بن تاشفين من الصحراء في أمة جديدة الإسلام شديدة الاعتزام، مُظْهِرة للقيام بالحق ومجاهدة من زاغ عن الشريعة وأنه قد طوَّع المغرب، وردّ الكلمة في أكثره واحدة»[711].

ــ في جانب آخر له علاقة بما سبق خلال هذه المرحلة المُؤسِّسة، يبدو لنا أنه إلى جانب دور العصبية القبلية، الذي أشرنا له في موضوع الثوابت في قيام حكم الدول الوسيطية في بلاد المغرب، تميزت مرحلة انتزاع المرابطين كلا من سجلماسة ودرعة من مغراوة، بدور بعض قبائل مصامدة "الأطلس الكبير" في الترحيب بعبد الله بن ياسين الذي طلب منهم أن ينعموأ على أبي بكر بن عمر الذي يصلح به الله أمرهم ويجمع كلمتهم[712]. وهم الذين كانوا يسعون لمن يعينهم على الحدّ من «تسلط الزناتيين»[713] الذين شكلوا عبئا على قبائل مصمودة، التي كانت تكرههم «أشد الكره، وتضيق بحكمهم»[714]. فقد أثقلوا كاهل الفلاحين والتجار بالمغارم، وأنزلوأ بالأهالي «الذل والصغار والجور» [715]. ولعل انتماء مجال حضري كأغمات[716] لبلاد مصمودة، سيأخذ أهمية خاصة في تخطيط عبد الله بن

(711)ــ ابن الخطيب، أعمال الأعمال، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت- دار المكشوف، القسم الثاني (تاريخ إسبانيا الإسلامية)، ط2، 1956، ص245. هذا الحديث يمكن أن يكون منسجما مع المراحل الأخيرة من عملية توحيد المغرب الأقصى وبداية التجربة الوحدوية على أسس جديدة، وآفاق جديدة أبرزها الاستجابة لنداء الأندلس.

(712)ــ ابن عذاري، البيان، ص15.

(713)ــ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص 188.

(714)ــ المرجع نفسه، ص، 295. يقوم هذا الأمر دليلا على السلطان الذي توفر للزناتيين وإحكامهم السيطرة على أجزاء مهمة من بلاد المغرب الأقصى منذ عهد الأمويين الذين شكلوا حليفهم الرئيسي وفتحوا بلاد الأندلس أمام تجارتهم، التي حطم قواعدها بروز المرابطين.

(715)ــ ابن أبي زرع، القرطاس، ص127. ابن ابي دينار، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص103.

(716)ــ «وهي مدينتان سهليتان إحداهما تسمى أغمات إيلان والأخرى أغمات وريكة... وبينهما ثمانية أميال... حولها بساتين ونخل كثير... وهو بلد واسع يسكنه قبائل مصمودة في قصور وديار... وبها أسواق جامعة. فسوق أغمات وريكة يقوم الأحد بضروب السلع وأصناف المتاجر، يذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاة وينفد ذلك في ذلك اليوم... وساحل أغمات رباط قوز على البحر المحيط، وفيه تنزل السفن من جميع البلاد..»البكري، المسالك والممالك، م.س، ص842– 843.«بها الحنطة والفواكه واللحوم ما لا يكون في كثير من البلاد غيرها وبها جامع وسوق نافقة» الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، 1422هـ/ 2002م، مج.1، ص229. دخلت أغمات والمجال المصمودي خلال أوائل سنة 450هـ/ 1058م، في طاعة المرابطين دون قتال، بعد فرار حاكمها الزناتي لقوط بن يوسف بن على المغراوي: عز الدين جسوس، موقف الرعية، م.س، ص20.

ياسين[717]، للمراحل المقبلة. فأغمات التي« تكنفها جبل درن»[718]، تتوفر على إمكانيات اقتصادية هائلة[719] وتتوفر على موقع استراتيجي على خط التجارة بين الصحراء والشرق. وإذا كان صاحب القرطاس قد تحدث عن دخول المرابطين «مدينة أغمات وذلك في سنة تسع وأربعين»[720]، فإن صاحبي البيان المغرب والحلل الموشية تحدثا عن وصول أبي بكر بن عمر رفقة شيخه وقائده عبد الله بن ياسين للمدينة «سنة خمسين وأربعمائة «[721]، بعد أن كان عبد الله بن ياسين قد اجتمع بقبائل «وريكة وهيلانة وهزميرة»[722] المصمودية، التي كانت «تملك زمام الأمور بالمنطقة»[723]. مستفيدا على ما يبدو من علاقة معلمه وجاج بن زلو بالمصامدة الذين كانوا يتبركون به. وفي ذلك الاجتماع كان قد تفاوض ابن ياسين مع زعماء المصامدة حول أبي بكر بن عمر«أمير لمتونة الصحراء «[724] الجديد، فأنعموا عليه، وأخذ «عليهم العهود والمواثيق بذلك»[725]. وقد «تلقته أشياخ المصامدة، وأذعنوا له بالطاعة»[726]، وهو ما كان قد بشّر به عبد الله بن ياسين أبا بكر بن عمر في وقت سابق، حين قال له:«تأهب للحركة إليهم وقدومك المبارك إليهم»[727]. إذ قوبل وصول المرابطين إلى أغمات ببيعة «بعض القبائل بها ثم وفدت عليه وفودها فبايعوه»[728].

(717)ـ حسب رأي مفكر مغربي، يُعدُّ عبد الله بن ياسين « ثالث ثلاثة رفعوا منار الإسلام في هذه الأرض، وفتحوا القلوب والضمائر بعد فتح المدن والقرى، ألا وهم عقبة بن نافع، وإدريس بن عبد الله، وصاحبنا عبد الله بن ياسين هذا» عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، مركز التراث الثقافي المغربي- الدار البيضاء، دار بن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط.1، 1430ه/2010م، ج3، ص1422.

(718)ـ الإدريسي، نزهة المشتاق، م.س، مج.1، ص232. هذا المصطلح يؤكد على العلاقة الوطيدة بين أغمات وسكان جبال درن (الأطلس الكبير الغربي).

دخلت أغمات والمجال المصمودي خلال أوائل سنة 450ه/ 1058م، في طاعة المرابطين دون قتال، بعد فرار حاكمها الزناتي لقوط بن يوسف بن على المغراوي: عز الدين جسوس، موقف الرعية، م.س، ص20.

(719)ـ أنظر الإدريسي، نزهة المشتاق، مج.1، 231.

(720)ـ ابن أبي زرع،القرطاس، ص129.

(721)ـ مجهول، الحلل الموشية، ص23.

(722)ـ ابن عذاري، البيان، م.س، ص15.

(723)ـ جسوس عز الدين، موقف الرعية، ص209.

(724)ـ ابن عذاري، البيان، ص15.

(725)ـ نفس المصدر والصفحة.

(726)ـ مجهول، الحلل الموشية، ص23.

(727)ـ ابن عذاري، ج4، ص15.

(728)ـ نفسه، ص15-16.

ولعل من المؤشرات الأولى لانخراط جزء مهم من مصامدة الجنوب المغربي في المشروع الإصلاحي للمرابطين وتحقيق الوحدة السياسية، مشاركة المصامدة في الجيش المرابطي[729]، إذ يعتبر ظهور جمع عظيم من المرابطين والمصامدة[730] في المواجهة ضد بورغواطة المحرفين للشريعة الإسلامية، تجلٍّ من التجليات الأولى لتبلور فكرة الوحدة في ظل المرابطين للقضاء على تردّي الوضع الديني والظلم الاجتماعي. فقد تحدث ابن عذاري عن إرسال أبي بكر بن عمر في عمليات عسكرية، يوسف بن تاشفين «وبعث معه جملة كبيرة من أشياخ لمتونة ومن قبائل البربر المصامدة وغيرهم»[731]. وهو ما نحسبه عملا سياسيا مهما له علاقة ب« سياسة المرابطين في استرضاء قبائل المغرب وتأليف قلوبها »[732]، إلى الدرجة التي أشارت فيه بعض المصادر إلى سرعة احتواء المجال المصمودي خاصة جزولة وماسة وذلك بعد أن دخل المرابطون«تارودانت عاصمة الإقليم دون مقاومة تذكر»[733]. ويرى أحد الباحثين أنه «بسبب العلاقات المتبادلة بين مصامدة الجبل والمناطق الحضرية انتشرت الدعوة المرابطية في جميع المجال المصمودي»[734]، وبذلك «ظهر أمر اللمتونيين»[735] في جنوب المغرب "الأقصى"، قبل أن تستقيم الأمور ابتداء من 460هـ (1058م) حسب صاحب البيان، «للأمير أبي بكر بن عمر وطاعت له البلاد ووجه عماله إليها»[736]. وبالمناسبة هناك من ربط بين تأسيس مراكش والشروع في تشييد صروحها، وبين دور بارز للأشياخ المصامدة الذين «أعانوا على البناء بالمال والرجال»[737]. وبالموازاة مع هذه المتغيرات التي كانت تشهدها جهة الجنوب المغربي مرحلة الإرهاصات الأولى لنشأة حكم المرابطين، كان مجال بني حماد وبني زيري

(729)ـ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، م.س، ص201.
(730)- عياض، ترتيب، ج8، ص82.
(731)- البيان، ج4، ص18، وص48. ابن أبي زرع، القرطاس، ص133 وص142.
(732)ـ نفس المصدر والصفحة.
(733)ـ ابن أبي زرع، القرطاس، م.س، ص81. ابن خلدون ج6، ص183.
(734)ـ جسوس، موقف الرعية، ص211
(735)ـ ابن الخطيب، أعمال، ج3، م.س، ص186.
(736)ـ ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص18.
(737)- Hesperis Tamuda; Editions techniques Nord-Africaines,publication du centre universitaire de la recherche scientifique – faculté de lettres, Rabat, Vol.2, 1961, p:55.

يتعرض لغزو القبائل العربية القادمة من مصر[738]. ووفق هذه الأرضية يلوح سؤال في الأفق، ندعم من خلاله رأينا الذي يخص التشكيك فيما ذهب إليه البعض حول دور أبي عمران الفاسي في التخطيط لقيام دولة المرابطين. فهل كان بالإمكان التطلع نحو تحقيق مشروع سياسي من حجم توحيد المغرب الأقصى، وفق خطة مدروسة منذ أواخر العقد الثاني من القرن الخامس الهجري(ق.11م) لولا هذه المتغيرات التي حصلت في طريق المرابطين، وتفاعلات الوسط الصحراوي مع الحركة الإصلاحية لعبد الله بن ياسين وجماعته بكل التحديات التي واجهتها، ثم "الدينامية" التي شهدتها التجارة الصحراوية .. .؟

وقبل الانتقال إلى المرحلة الثانية المؤسسة لتوحيد المرابطين مجال المغرب الأقصى، نخلص، بناء على ما استقيناه من بعض الإشارات المصدرية ومن آراء بعض الدارسين – إلى أن علاقة المرابطين في مستهل دولتهم بمكون قبلي متنوع في الجزء الجنوبي الشرقي والغربي من بلاد المغرب "الأقصى" شكل مؤشرا إيجابيا على أحد تجليات التأسيس لتجربة توحيد مجال أوسع، مما أصبح تحت يد المرابطين خلال هذه المرحلة، انطلاقا من منطقة السوس الأقصى والجنوب الشرقي لبلاد المغرب. فبعد العمل الكبير الذي قام به مؤسس حركة المرابطين عبد الله بن ياسين، يظهر لنا أن الظروف المحيطة بالمرابطين جعلت سقفهم السياسي يرتفع ليتجاوز حكم منطقة صغيرة في الجنوب المغربي. ولكي نتجنب أي إيحاء لنظرية الصدفة في البروز المرابطي والتطلع نحو أُفق سياسي جديد، نحسب أن الظروف الجديدة التي أفرزها الوضع في منطقة الجنوب المغربي شكل اللبنة الأولى في مشروع سياسي بتوجه ديني إصلاحي، هيأ الأرضية لمرحلة جديدة وحاسمة في تاريخ المرابطين[739] بعد أن استفحل أمرهم. وهو ما سيشكل حافزا ومقدمة لتحقيق حلم الدولة

(738)- أنظر عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع– القاهرة، ط2، 1411هـ/ 1991م، ص179.

(739)– في موقف يبدو لنا عاطفيا إلى حد كبير، رأى أحدهم أن أمر انسحاب أبي بكر بن عمر إلى الصحراء لإخماد الفوضى التي تقف وراءها قبيلة جدالة هو «ما زاد من تدعيم هذه الوحدة الصنهاجية.. لأنها الأساس الذي بنيت عليه الدولة» جسوس عز الدين، موقف الرعية من السلطة السياسية، ص 198.. علما أن توجه أبي بكر بن عمر نحو مضارب صنهاجة في الصحراء، أشارت فيه المصادر إلى ترك الرجل بناء مدينة مراكش والتوجه إلى الصحراء [سنة 463هـ/1061م - 1062، حسب ابن عذاري(البيان، ج4 ص20- 21) و453هـ (1061م) حسب ابن ابي زرع (القرطاس، ص134)]، وذلك قصد إخماد حركة إغارة الجداليين على لمتونة. وسيشكل هذا الحدث منعرجا تاريخيا مهما في تطور دولة المرابطين، بعد ظهور قيادة جديدة من حجم يوسف بن تاشفين، الذي سحب فيما نحسب البساط من تحت أبي بكر بن عمر، لِما أبانه من استعراض لقوة سلطانه وأحقيته بقيادة المرابطين نحو أفق جديد.

التي من خلالها أمكننا الاقتناع ببروز الملامح الأولى لقيام تجربة وحدوية، تعدّت المجال "القطري" إلى مجال أوسع، بعد خوض تجربة تمهيد حواضر المغرب "الأقصى" وجزء من المغرب الأوسط.

2- خطة المرابطين في تمهيد حواضر المغرب «الأقصى»(740)

في يأتي موضوع تتبّعنا لعملية تمهيد المرابطين الحواضر المغربية، في إطار مشروع توحيد المجال السياسي ومَرْكَزتِه، باعتباره مرتكزا سياسيا لأحد تجليات قيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين، والذي نتوخى من ورائه تجاوز الحدث السياسي لذاته، إلى تفسير واستلهام العناصر الدالة على تحقق المؤشرات الأولى للتجربة الوحدوية ورسوخها على مستوى المجال السياسي للمغرب "الأقصى"، الذي كان يطبعه واقع الانقسام والتجزئة. ولكي يظل تناولنا لهذا الموضوع منسجما فيه السابق باللاحق، يبدو من المفيد ونحن نهُمُّ بالبحث في استراتيجية" تمهيد الجيوش المرابطية حواضر الداخل المغربي في اتجاه الشمال والشرق، أن نتتبع خطة السير التي انتهجها المرابطون وفق "الكرونولوجيا" التاريخية التي قارَبَت بها مصادرنا عملية التوغل نحو الداخل المغربي، ومحاولة استخلاص الهاجس الذي كان يحكمهم، هل هو سياسي أو مذهبي أو اقتصادي؟ كما الوقوف على حدود سقفهم السياسي المجالي.

أ- المرحلة الممهدة لإطاحة المرابطين بمغراوة في مدينة فاس:

بعد وصول يوسف بن تاشفين إلى سُدّة الحكم في مراكش، سيتجه المرابطون نحو الداخل المغربي، وفق استراتيجية سياسية عسكرية تقتضي تجمع بين الشدة واللين، وذلك قصد الحصول على المناطق السهلية الغنية، قبل اقتحام عاصمة الأدارسة المعقل الرئيس لقبائل مغراوة الزناتيين. وقد سلكوا خلال هذه المرحلة، سياسة مهادنة لكسب ثقة الناس. وقد تجلت هذه السياسة السلمية في تجربة توحيد المجال، من خلال بعث يوسف بن تاشفين (أبو

(740)ـ من الإشكالات التي تواجه الباحث في مواضيع تاريخ المغرب خلال العصور الإسلامية الوسطى، الاختلاف الكبير بين المصادر في موضوع "كرونولوجيا" الأحداث التاريخية التي شهدتها المرحلة التي نخصها بالدراسة، وهو ما يربك الفهم السليم في تتبع مجريات الأحداث، وهنا يبدو من المفيد أن نستأنس بحذر مع التواريخ التي تحددها تلك المصادر، وإخضاعها لمنهج المقارنة والسياقات التاريخية والأحداث البارزة كمعالم نربط من خلالها السابق باللاحق.

يعقوب) عام 466هـ/ 1073م «مزدلي بن باناونكا بعسكر ضخم إلى ناحية سلافافتتح تلك القبائل من غير قتال»[741]. وتكريسا لهذا النهج العسكري السلمي بعث زعيم المرابطين كتابا إلى صاحب مكناس الخير بن خزر الزناتي[742]، الذي «لم ير سبيلا في حرب المرابطين»[743]. إذ في عام «ست وستين وأربعمائة فتح الأمير يوسف بن تاشفين مدينة مكناسة، واستنزل منها الخير بن خزر الزناتي»[744]. وهي خطوة تُجسد «الأخلاق السياسية التي يتمتع بها القادة الجدد»[745] وميلهم إلى "الدبلوماسية" في تمهيد المدن. وهو ما نستنتجه مما أورده صاحب البيان في هذا الشأن. فقد نقل لنا أن منغفاد بن عبد العزيز مبعوث الخير بن خزر الزناتي قال: « نحن رجال الأمير أبي يعقوب وبلادنا بلاده، غير أنّا لا بد لنا من الاجتماع به وشروط نشترطها عليه وحينئذ نسلم البلاد إليه ونخرج له عنها»[746].

هذه السياسة التي كانت تحمل مؤشرات تدل على قابلية المكناسيين للعيش تحت حكم المرابطين ستتجلى في استصراخ «أهل مكناسة بالأمير يوسف بن تاشفين»[747] بعد تهديد معنصر بن المُعِزّ لهم. وبعد أن قدموا بيعتهم للمرابطين[748]، استدعى أمير المسلمين صاحب مكناسة «ليستجيش به على فاس»[749] عندما همّ بالزحف بجيوشه عليها. ولعل بين استصراخ المكناسيين واستجاشة يوسف بن تاشفين بهم ضد زناتة بتعبير ابن خلدون، ما ينم عن قبول بالمرابطين حكاما لهم مشروع سياسي متمثل في تجميع المجال المشتت ومركزته سعيا وراء تحقيق الوحدة المجتمعية، بعد أن كانت البلاد غارقة في وحل الانقسام والتجزئة.

(741)ـ ابن عذاري، البيان، ج4، ص26.
(742)ـ ورد عند ابن الخطيب تحت إسم المهدي بن يوسف الخزناتي، إذ يبدو أنه مزج خطأ بين إسمين: الخزر الزناتي. كما ورد إسم المهدي بن يوسف عند ابن خلدون: ج.6، ص246.
(743)ـ ابن عذاري، م.س، 27.
(744)ـ مجهول، الحلل، م.س، ص28.
(745)ـ جسوس، موقف الرعية، م.س، ص214.
(746)ـ ابن عذاري، البيان، ج.4، 27
(747)ـابن خلدون، ج6، ص246.
(748)ـ ابن الخطيب، تاريخ المغرب الوسيط، ج3، ص235.
(749)ـ ابن خلدون، ص246.

ب-إخضاع المرابطين مدينة فاس عنوة:

إذا كانت عملية تمهيد المجال وضبطه وإخضاع سُكانه لسلطة الحاكمين الجدد، تحت شعار الإصلاح بأبعاده الدينية، لها علاقة بعامل الزمن والإكراهات الطبيعية و"اللوجيستيكية" والتخطيط والاستخبار، فإننا نميل إلى اعتماد التواريخ التي أوردها ابن عذاري على وجه الخصوص، والتي يتقارب فيها بشكل كبير مع صاحب الحلل الموشية، لما فيها من انسجام مع الوقائع واحترامها لعامل المرحلية في عملية توغل المرابطين داخل الأجزاء الداخلية الشمالية ثم الشرقية. وحجتنا في ذلك حديث ابن خلدون عن افتتاح يوسف بن تاشفين فاس[750]«صلحا سنة خمس وخمسين وأربعمائة ثم رجع إلى غمارة ونازلهم وفتح كثيرا من بلادهم. وأشرف على طنجة وبها سكوت البرغواطي الحاجب صاحب سبتة»[751]. لكن إذا نحن قِسنا تاريخ تأسيس مراكش عام 454هـ (1061 م) بسنة 455هـ (1062) على أساس أنها العام الذي ضم فيه يوسف بن تاشفين كل المجال الذي ذكره صاحب المقدمة، نكون أمام منهج المبالغة في تقدير صعوبة التحرك العسكري بهذه السهولة وهذه السرعة. علما أن كلا من ابن أبي زرع وابن خلدون رجعا ليتحدثا عن كون يوسف بن تاشفين أقبل عام 462هـ/ 1070م «إلى مدينة فاس فنزل عليها بجميع جيوشه وشدد عليها في الحصار حتى دخلها عنوة بالسيف، فقتل بها من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة خلقا كثيرا»[752]. وقد رأى أحد الباحثين الأجانب أن المرابطين كغزاة أعادوا غزو فاس بما وصفها مذبحة مروعة[753] انتقاما من زناتة المغراويين الذين أعادوا الاستيلاء عليها.

بناء على هذه المعطيات، فإننا نميل إلى تَبَنّي عام 467هـ/ 1074م، الذي أورده ابن عذاري وصاحب الحلل الموشية، تاريخا لعملية إخضاع المرابطين للأجزاء الداخلية

(750)ـ « ومدينة فاس أكبر من تلمسان قطرا وأجلّ منها قدرا وأكثر خيرا ومالا وأعلى هِمّة...» الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، ص55.

(751)ـ ابن خلدون، ج.6، ص245. يتوافق رأي ابن خلدون مع رأي ابن أبي ورع حول مرحلة دخول المرابطين مدينة فاس وحول الأحداث المرافقة لها: القرطاس، ص140.

(752)ـ القرطاس، ص141. ديوان المبتدأ والخبر،ج6، ص246.

(753)-Conard (Philippe), l’Espagne sous la domination Almoravid et Almohade ;op.cit; ,p: 2.

والشمالية، بدءا بفاس التي طرق يوسف بن تاشفين[754] أبوابها. فقد واجه الزعيم المرابطي بني مغراوة الزناتيين الذين «جارُواْ على رعيتهم، فأخذوا أموالهم وسفكوا دماءهم وتعرضوا لحُرمهم، فانقطعت عنهم الموارد وكثر الخوف في البلاد»[755]. فأراد كشف «ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم»[756]. ورغم ما تتضمنه رواية ابن أبي زرع من تبرير لاقتحام المرابطين مدينة فاس، الذين بلغة صاحب القرطاس، سلّطهم الله على المغراويين «فأزالوا ملكهم وشتتوا جمعهم»[757]، فإن هذه المدينة من الناحية "الاستراتيجية" تُعدّ واسطة العقد بين ما تم فتحه من المناطق وما تمّ غزوه خلال المراحل القادمة. وعليه أصبحت فاس على المستوى السياسي و" الاستراتيجي" ضمن فقه الأولويات حسب ما تتحدث به بعض القواعد الفقهية[758]. ففي عام «سبع وستين وأربعمائة افتتح أمير المسلمين مدينة فاس»[759] التي كانت بمثابة قنطرة عبور نحو إخضاع المرابطين الشرق والشمال الشرقي للمغرب «الأقصى» وبالتحديد تلمسان ثم سبتة وطنجة. بكل ما يعنيه الأمر من وضع اليد على إمكانيات اقتصادية كبيرة، إلى جانب البُعد الاستراتيجي للمنطقة وتحقيق مشروع توحيد المجال المغربي الذي يُعدّ اللبنة الأولى لمشروع كبير يتعلق بتجربة توحيد بلاد العدوتين[760]. ورغم ما توحي به هذه الرواية من حلول المرابطين بفاس وإخضاعها لسلطانهم، يبدو أنه لم يكن أمرا سهلا، وذلك بالنظر إلى الصعوبات الكبيرة التي واجهها المرابطون في إخضاع عاصمة الأدارسة ذات القيمة "الجيواقتصادية" عبر مراحل، خاصة بعد التفاف الزناتيين حول القاسم بن محمد أحد أحفاد ملوك تازا والتسول[761] الزناتيين.

---

(754)ـ أنظر ترجمة للرجل عند أبي زكريا يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، طبع بمطبعة بيير فونطانا الشرقية في الجزائر، 1321هـ/ 1903م، مج1، ص86.

(755)ـ ابن أبي زرع، القرطاس، م.س، ص113.

(756)ـ ابن خلدون، ج6، ص245.

(757)ـ ابن أبي زرع، م.س، ص114.

(758)ـ أنظر الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية: محمد صدقي بن أحمد بن محمد آل بورنو أبو الحارث الغزي، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط.4، 1416هـ/ 1996، ج1، ص393.

(759)ـ ابن عذاري، قسم المرابطين، ص28. أما ابن خلدون فقد تحدث عن منازلة المرابطين فاس عام 462هـ (1070م) بعد أن «حاصرها مدة ثم افتتحها عنوة» ج6، ص246. وهو تاريخ لا يبدو منسجما مع ما تحدث به صاحب البيان، ويدخل في إطار الإشكالية التي تحدثت عنها في التقديم لهذا الموضوع المتعلق بالاختلاف الكبير بين المصادر في تحديد تواريخ عملية إخضاع المرابطين للمجال وتوحيده.

(760)ـ بدا لنا من خلال ما اطّلعنا عليه من إشارات في موضوع السقف السياسي للمرابطين في موضوع تجربة توحيد المجال، بدا أن يوسف بن تاشفين لم تكن له تطلعات نحو بلاد الأندلس زمن حكم ملوك الطوائف. وبالتالي نحسب أن أي حديث خلال هذه المرحلة عن تخطيط أو تفكير المرابطين في الجواز نحو العدو الشمالية، هو كلام مردود.

(761)ـ ابن خلدون، ج6، 246.

حينها لجأ المرابطون إلى استعمال قانون الضغط[762]. وذلك من خلال حصار فاس التي «أخذوا بمخنقها وقطعوا المرافق عنها»[763] كما نكّلوا بزناتة والمتعاونين. وقدتم الدخول إليها في النهاية «عنوة بالسيف»[764]، وذلك في الثامن من رجب من عام 467هـ (1074م) حيث مات «من أهل فاس بشر كثير وسُلبت ديارهم ثم عفا عنهم»[765]. ويعتبر إخضاع فاس نهائيا مفتاحا لاستمرار عملية تمهيد مجال المغرب "الأقصى" بكامله، بعد أن أصبحت عين يوسف بن تاشفين على تلمسان «قاعدة المغرب الأوسط»[766]، بكل ما يعنيه الأمر من ثقل سياسي واقتصادي واستراتيجي[767] في تأمين خط ما يمكن أن نحسبه "فتحا" مرابطيا.

ت- تمهيد المرابطين منطقة شرق وشمال المغرب "الأقصى":

+ خضوع تلمسان للمرابطين:

في تتبعنا لمرحلة إخضاع فاس من خلال " البيان المغرب" و "الحلل الموشية"، سنجد الحديث عن تجهيز يوسف بن تاشفين ابتداء من عام 468هـ/ 1075م «عسكرا ضخما، وقدم عليه ابن عمه مزدلي اللمتوني وبعثه إلى مدينة تلمسان»[768] ففتحها« في مهلة وحال هدنة»[769]. أما ابن خلدون فقد تحدث عن افتتاح الجيش المرابطي «مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة»[770]، بعد أن كان قد مهّد «مدينة وجدة وبلاد بني يزناسن»[771].

(762)ـ ابن عذاري، البيان، ج4، ص22.
(763)ـ ابن خلدون، ج6، 246.
(764)ـ ابن الخطيب، تاريخ المغرب الوسيط، ج3، ص:235-236. وهو ما حسبه صاحب أعمال الأعمال «الفتح الثاني » نفس المصدر والصفحة. ويذكر أن عدد من قتل من أهل فاس الذين قاموا في وجهه سبعة آلاف نسمة بمسجد القرويين. وهذا أمر يبدو غير صحيح ومبالغ فيه.
(765)ـ ابن عذازي، البيان، ج4، ص28.
(766)- البكري، المسالك والممالك، م.س، ص746. « غلاّتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمّة وخيراتها شاملة ولحومها شحيمة سمينة» الإدريسي، وصف إفريقيا، م.س، ص54. في إطار دراستنا المقارنة، يظهر أن المغرب الأقصى لما كان يشهد المراحل الأولى لتوحيد أجزائه كان الوضع داخل إفريقية والمغرب الأوسط، يشهد انقسامات كبيرة كان فيه للعرب دور رئيس. أنظر سعد زغلول عبد المجيد، تاريخ المغرب العربي"الفاطميون وبني زيريالصنهاجيون إلى قيام المرابطين"، مطبعة أطلس بالإسكندرية، الناشر : المعارف - القاهرة، 1990، ج3، ص518.
(767)ـ أنظر مقال: محمد البركة، المجال واستراتيجية" المشروع المرابطي: تلمسان ونهاية الدولة، صص: 111 – 123، مجلة عصور الجديدة، العدد 2، الجزائر، 2011.
(768)ـ ابن عذاري، م.س، ج.4، ص29.
(769)ـ نفس المصدر والصفحة.
(770)ـ تاريخ بن خلدون، ج6، ص247.
(771)ـ نفس المصدر والصفحة.

بالمقابل تحدث صاحب القرطاس عن دخول القائد مزدلي تلمسان[772] «في عشرين ألف من المرابطين، فهتكها ودخلها»[773]. وهنا يمكن أن نخرج بنتيجة مفادها إظهار المرابطين قوة سلطانهم من خلال تعبئة الجيوش لتمهيد حواضر المغرب، وفي الآن نفسه اختيار الأسلوب "الدبلوماسي" في محاولة ضم معظم الحواضر المغربية سلميا. في هذا الإطار تحدثنا عن تسلم المرابطين مكناسة بطرق سلمية بعد أن اعترف صاحبها لأتباعه بأن المرابطين هم أمر واقع[774]. وهو الأمر نفسه الذي استنتجناه من خلال مصادرنا الرئيسة، فيما حصل مع صاحب تلمسان «العباس بن يحيى الزناتي»[775]، بعد أن توصل ب«كتاب أمير المسلمين»[776].فكانت النتيجة أن لحِق الأمير الزناتي بمراكش، «فأنعم عليه أمير المسلمين بكل خير وأمر له بظهائر كريمة وانصرف إلى وطنه»[777].

وفي محاولة تجاوز الحدث العسكري إلى مؤشرات تهم بداية شق التجربة الوحدوية طريقها من خلال السعي الحثيث للمرابطين لإخضاع مجال المغرب الأقصى بكامله وإنهاء واقع التجزئة[778]. يمكن أن نستخلص بعض العناصر الدالة على نجاح يوسف بن تاشفين في تحقيق هذا الهدف. وهنا نضرب للموضوع بمثال تسليم أمير تلمسان الزناتي المدينة للمرابطين[779]، بكل ما يحمله الحدث من دلالات رمزية على المستوى السياسي والمتمثل فيما نعُدّه جزءا من بيعة أهل شرق المغرب "الأقصى" ليوسف بن تاشفين في العاصمة مراكش، وتحميل الأمير الزناتي ظهائر سلطانية تُكرس تبعية تلمسان للمرابطين. أما مجتمعيا فنقتبس مصطلح الاستلحام[780] الذي ورد في الرواية الخلدونية، لمغراوة وسكان

(772)ـ « قفل بلاد المغرب» الإدريسي، وصف إفريقيا، م.س، ص56.
(773)ـ قد نلمس وراء هذا الكلام لصاحب القرطاس موقفا سلبيا للرجل من زناتة بصفة عامة، من باب نقمته على زناتة الذين كانوا سببا في خروج أبي عمران الفاسي من فاس نحو القيروان، يوم كانوا أسيادا لها. ذلك أن ورود مصطلح الهتك لا يستعمل فيما يبدو إلا في حق عدو معارض.
(774)ـ ابن خلدون، ج6، ص246. ابن عذاري، البيان، (ج.4)، 27.
(775)ـ الحلل الموشية، ص28 وص33. البيان المغرب، ج4، ص29. ويذكر ابن خلدون أن العباس المذكور هو من ولد يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر..: ج6، ص247.
(776)ـ ابن عذاري،ج4، ص29.
(777)ـ نفس المصدر والصفحة.
(778)ـ هنا يرى الأستاذ سعيد بنحمادة أهمية التطرق لوضعية الأرض وأنواع الضرائب العقارية في علاقة مع ما حسبناه تمهيدا للحواضر المغربية عنوة أو صلحا أو اتفاقا حتى يبرز دور العامل السياسي العسكري في توحيد المجال يسير جنبا إلى جنب مع دور العامل الاقتصادي.
(779)ـ نفس المصدر والصفحة. تاريخ بن خلدون، ج6، ص247.
(780)ـ تاريخ بن خلدون، نفس الصفحة.

منطقة تلمسان بكل ما يمكن أن تحمله من معاني الالتفاف والإنضمام للمرابطين أو ضم المرابطين لهم. وذلك من خلال نهج سياسة الترغيب والترهيب أو "قانون الضغط "بلغة ابن عذاري، كما سبقت الإشارة إليه.

+ سيطرة المرابطين على طنجة وسبتة[781]:

في إطار الهاجس السياسي الذي حرك المرابطين لتحقيق تجربة سياسية من حجم توحيد المغرب "الأقصى" عن طريق تمهيد حواضره الكبرى، بعيدا عن عمقهم الصحراوي في الجنوب المغربي، تمّ إخبار قبائل صحراء صنهاجة التي تمثل العمق "الاستراتيجي"للمرابطين(لمتونة – مسوفة – جدالة)، بما فتح الله على يوسف بن تاشفين «من مُلك المغرب وطاعة أهله، ويؤكد عليهم في القدوم عليه»[782]، وذلك من أجل إتمام مشروعه الوحدوي بإخضاع سبتة وطنجة[783]. فحضرت«جزولة ولمطة ومصمودة وقبائل زناتة»[784] إلى جانب إقبال سكان سبتة على المرابطين، بعد أن «تباشرت الرعايا بمقدمهم وانثالوا عليهم»[785]، وهو فيما نحسب تجلّي "شعبي" من تجليات التجربة الوحدوية زمن المرابطين. لهذا لما «فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة وأوقع بهم وافتتح حصن علودان من حصون غمارة من ورائه، وانقاد المغرب لحكمه، صرف وجهه لسَكُّوت»[786]،

(781)ـ ترتبط أهمية سبتة « بموقعها بين عدوة المغرب وعدوة الأندلس وبحركتها العلمية المتميزة وما فرضه الموقع عليها من عدم استقرار في الولاء السياسي « أبو العباس العزفي (757هـ - 633هـ)، دعامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب، دون مكان، 1989، مقدمة التحقيق (الحرف.هـ).ولعل أهمية سبتة في البُعد الاستراتيجي تكمن فيما نحسبه درسا تاريخيا يحتاج منا الوقوف عنده طويلا. ويظهر هذا الأمر جليا من خلال إشارة مهمة بهذا الشأن جاءت في تقديم الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور قدمه يوسف بن تاشفين لكتاب " اختصار الأخبار لما كان بثغر سبتة من سَنِيِّ الآثار . فقد استفاد الأوربيون من درس انتصار الزلاقة في كون لبنات هذا النصر كانت قد وضعت في سبتة والجزيرة الخضراء، ومن تم ظلت حلمهم، منذ سقوط غرناطة، إلى أن استولى عليها البرتغاليون قبل أن يحسم مصيرها الإسبان، ولتظل تمثل جرحا غائرا في جسم المغاربة إلى الآن. (تأليف محمد بن القاسم الأنصاري السبتي)، الرباط، ط.2، 1403هـ/ 1983م، صص: 5 – 9.

(782)ـ مجهول، الحلل الموشية، ص33. ابن أبي زرع، القرطاس، ص142.

(783)ـ أنظر أهمية تعريف ابن عذاري لمدينة سبتة : توجد على « بحر الزقاق من بَرّ العدوة التي هي نظام باب المغربين ومفتاح باب المشرقين» البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال، دار الثقافة – بيروت، ط.2، 1983، ج1، ص200.

(784)ـ نفس المصدر والصفحة.

(785)ـ ابن خلدون، ج6، ص296.

(786)ـ نفس المصدر والصفحة.

الذي رفض طلب أمير المرابطين بأن «يُبيح له فُرض الإجازة إلى الأندلس»[787]، بعث إليه «قائده صالح بن عمران في اثني عشر ألف فارس من المرابطين وعشرين ألفا من سائر قبائل المغرب من زناتة وغيرهم»[788].

هذه المظاهر الخاصة بخط سير المرابطين في توحيد مجال المغرب الأقصى عبر السيطرة على الحواضر الكبرى، جعلت المرابطين َيَبْصُمون على «بداية دور من أدوار الاستقرار والتنظيم، بعد استيلائهم على موارد المغرب المتنوعة»[789]. مما جعل أحد الدارسين يعلق على دور المرابطين في تمهيد المغرب "الأقصى" بكامله على أساس أنه «بداية نجاح الإرهاصات الأولى في توحيد المغرب من أقصاه على شواطئ الأطلنطي إلى أدناه، والقضاء على دويلات الطوائف المغربية حتى إفريقية»[790]. وإذا كنا قد ركزنا على الهاجس السياسي لدى المرابطين في توحيد المجال ومركزته[791]، في إطار ما حسبه أحد الدارسين فتحا يسير جنبا إلى جانب مع الإصلاح[792]، فإن هذا الأمر لن يدفعنا إلى تجاهل الأهمية الكبرى للأدوار التي كانت تقوم بها حواضر من حجم فاس وتلمسان وسبتة خلال هذه المرحلة على المستوى الاقتصادي. وهو ما نستخلصه من بعض المصادر الجغرافية

(787)ـ ابن الأبار(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، ت 658هـ)،الحلة السيراء (تراجم أهل المئات الخامسة والسادسة والسابعة ومن لم يؤثر عنهم شعر)، حققه وعلق على حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف – القاهرة، 1985، ج.2، ص98.

(788)ـ نفس المصدر والصفحة.

(789)ـ حسن محمود، دولة المرابطين، ص188.

(790)ـ عبد الحميد سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص511. يبدو في إشارة سعد زغلول، وجه للمبالغة في حديثه عن قضاء المرابطين على دويلات الطوائف المغربية حتى إفريقية. باستثناء ما سجلناه في الباب الثالث من وصول الأسطول المرابطي إلى المجال البحري لإفريقية دعما لبني زيري المستنجدون بعلي بن يوسف ضد نصارى النورمان.

(791)ـ في تتبعنا للمصادر الرئيسية المعتمدة في بحثنا، والوقوف على بعض المؤشرات الدالة على دخول المغرب تجربة توحيد مجاله زمن المرابطين، لا نكاد نعثر على إشارات بارزة حول دور المذهب المالكي في شخص فقهاء المدن الرئيسة، أثناء عملية تمهيدها من طرف المرابطين. إلا ما خلى من إشارات في بعض التراجم لا يمكن أن نجزم من خلالها بوقوف المذهب المالكي كمؤسسة فقهية وراء بناء التجربة الوحدوية داخل المغرب الأقصى. لكن في الأندلس سيأخذ موضوع الفقهاء حيزا مهما في بحثنا من حيث حضورهم السياسي سواء زمن الاستنجاد بالمرابطين، أو عندما أصدروا فتوى إسقاط حكم ملوك الطوائف.

(792)ـ حسن محمود، دولة المرابطين، م.س، ص209.

التي تتضمن معلومات مفصلة عن قيمة مثل تلك الحواضر[793]، على مستوى ما كانت توفره من إنتاج فلاحي يعتبر محركا للحرف والتجارة.

وكتقييم لهذا الخط السياسي العسكري الذي مهّد خلاله المرابطون حواضر المغرب الأقصى، نخلص إلى ما شهد به دارسون من مدارس متعددة حول النتائج التي تحققت للمرابطين قبيل استنجاد الأندلسيين بهم بسنوات قليلة. فقد أجمعت آراء كل من محمود إسماعيل[794] والحسين مؤنس وعبد الله عنان[795] وعز الدين جسوس[796] ومحمد شقير[797] ومحمد القبلي[798]، على دور المرابطين في إخراج المغرب "الأقصى" من واقع التّشتت والانقسام السياسي، إلى توحيد ترابه ومكونه البشري، كمؤشر على دخول المغرب «الأقصى» تجربة وحدته السياسية، قبل أن يرتفع سقف التجربة الوحدوية تدريجيا، بانتقالها من الُبعد المجالي القُطري إلى بُعد مجالي إقليمي ودولي أوسع، بعد ارتفاع أصوات الاستنجاد بالمرابطين من الأندلس، وهو ما سنفصل فيه في المبحث الثاني.

ث-دور الفقهاء المالكيين في عملية توحيد بلاد المغرب "الأقصى":

في حديثنا عن تجليات التجربة الوحدوية زمن المرابطين وذلك خلال المرحلة الأولىالخاصة بتوحيد المغرب الأقصى، وجدنا صعوبة كبيرة في العثور داخل المصادر المتنوعة على أدوار بارزة للفقهاء المالكيين في عملية الدعاية للمرابطين أثناء عملية

(793)ـ أنظرالشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، م.س، صص: من 51 إلى 57. والحسن الوزان، وصف إفريقيا، (ق. الأول)، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط.2، 1983، ص 207 – 218 – 283 – 285.

(794)ـ يرى أن المرابطين وضعوا « نهاية للفوضى والقلاقل التي انتشرت في بلاد المغرب إبان حقبة السيطرة الزناتية، بل حققوا وحدة المغرب سياسيا ـ باستثناء إفريقية ـ « مقال سياسة المرابطين الفكرية بين التأييد والتنديد، ص59.

(795)ـ تحدث مؤنس عن يوسف بن تاشفين كموحّد للمغرب الأقصى «من حدود الصحراء جنوبي وادي درعة إلى ساحل البحر المتوسط» تاريخ الأندلس والمغرب، م.س، ص191. أما عبد الله عنان فقد رأى في تجربة المرابطين أنها نوع « من الإنقاذ القومي، وأن الأمة المغربية استطاعت أن تعيش في ظل الحكم المرابطي، عزيزة الجانب موحدة الكلمة» دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثالث: عصر المرابطين والموحدين، م.س، ص437.

(796)ـ برّر نجاح المرابطين في تحقيق تجربتهم الوحدوية سياسيا ومذهبيا، بعدم « قيام أي ثورة ضدهم باستثناء ما قام به ابن تومرت» الرعية، م.س، ص219

(797)ـ لا يقف عند حدّ « اعتبار المرابطين أول من أعاد للمغرب وحدته السياسية فقط، بل يمكن اعتبارهم أيضا أول من رسم معالم السياسة الأمبراطورية المغربية» تطور الدولة المغربية، م.س، ص217.

(798)ـ تحدث عن ما أسهم به المرابطون كقوة سياسية ومذهبية، في ظهور « وضع جديد توحد من خلاله المجال... ومما ترتب عن ضم الشتات أن أسفرت العملية كلها على ظهور كيان مرجعي سوف يزداد وضوحا مع الزمن» الدولة والولاية والمجال، م.س، ص74.

إخضاع المجال وتمهيد الحواضر الكبرى، كسلا ومكناسة وفاس وتلمسان ووجدة وطنجة وسبتة، قبل ضمها لحضرة الدولة المركزية في مراكش. فبالنسبة لمدينة فاس سجّلنا إشارة لصاحب الذيل والتكملة[799] حول الفقيه يوسف بن عيسى بن علي بن يوسف بن عيسى بن قاسم (ت.492هـ/ 1098م) من أهل فاس يكنى أبا الحجاج[800] قاضي فاس ويعرف بابن الملجوم[801]. تلك الإشارة تحدثت عن لقاء الرجل بيوسف بن تاشفين وأبي بكر بن عمر بعد دخول المرابطين منطقة السوس عام 461هـ، حيث اشتكى من جور زناتة[802]. لكن لم يرد في هذه الإشارة أن الرجل كان له دور في تهيئة رعية فاس لاستقبال المرابطين. وفي نفس هذا السياق تحدث عز الدين جسوس عن الفقيه عبد الله بن سعدون القروي من أعيان فاس، وأن «رعية فاس أو فئة منها كانت تطمح إلى الاندماج في إطار الوحدة التي أسسها المرابطون»[803]. قبل أن تصبح حاضرة فاس[804] مركز اهتمام الموحدين، بعد سقوط مراكش، لأن في إخضاعها لحكمهم إثبات لقدرتهم على الحفاظ على الوحدة السياسية التي حققها المغرب الأقصى زمن المرابطين، وذلك من خلال إثبات قدرتهم على القضاء على كل الثورات التي قامت في وجههم.

(799)ـ ابن عبد الملك (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد المالك الأنصاري الأوسي المراكشي)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، مج.8/ ق.1، ص429. [الترجمة 224]

(800)ـ ابن الأبار(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، ت 658هـ)، التكملة لكتاب الصلة، عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 1415هـ/ 1995م، ج4، ص225[الترجمة627].

(801)ـ النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي)، تاريخ قضاة الأندلس، سماه كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.5، 1403هـ/ 1983م، ص102.

(802)ـ ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، م.س، ص 430. رغم ما ظهر لنا في هذه الرواية من اضطراب إذ جاء الحديث عن دخول أبي بكر بن عمر فاس عام 452هـ وأخرج منها زناتة مؤقتا قبل أن يأتي الدور على يوسف بن تاشفين عام 462.، الذي التقى بأبي الحجاج بن الملجوم القاضي بفاس، فنقله إلى قضاء مكناس ثم مراكش، وجاز معه للجهاد في الأندلس.

(803)ـ جسوس، موقف الرعية، ص206

(804)ـ ستصبح فاس قبلة فقهاء الأندلس المهاجرين بعد قيام ثورة المريدين وانقلاب جعفر بن حمدين زعيم قضاة الأندلس على المرابطين. من هؤلاء الفقهاء النازحين نحو فاس الفقيه أبو عبد الله بن لواء الجياني (ت 546هـ/1151م) وأبو الوليد بن عمر القرطبي (ت590هـ/1194م) الذي حل بفاس فترة قيام الفتنة زمن المرابطين. كما استقبلت مراكش الفقيه أبو بكر بن ميمون (ت567هـ/ 1172م). وسيلتحق الفقيه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي (ابن الخراط: ت581هـ/1185م) ببجاية إثر ظروف الفتنة بالأندلس: أنظر لخضر بولطيف فقهاء المالكية، ص164و165 مع الهامش..

أما بالنسبة لتلمسان كأحد المراكز الحضرية المحتضنة لفقهاء المذهب المالكي، فقد أشار الدارس لخضر بولطيف صاحب أطروحة "فقهاء المالكية والتجربة السياسية للموحدين"، إلى الفقيه المالكي أبي عمرٍ عثمان بن صاحب الصلاة الذي كان قد «تعرض لابن تومرت حين نزوله بتلمسان، وأنكر عليه مسلكه»[805]. ولعل مثل هذا الأمر يمكن أن يدفعنا إلى إمكانية تفسير صمود أهل تلمسان في وجه الحصار الذي ضربه الموحدون على مدينتهم لمدة طويلة بدور فقهاء المذهب المالكي على طول الشمال المغاربي في معاكسة طموح عبد المؤمن في القضاء على دولة المرابطين. أما ما يتعلق بحاضرتي طنجة وسبتة التابعتين لمجال اغمارة، فقد سعى المرابطون إلى دخولهما تحت شعار القضاء على الانحراف المذهبي على شاكلة ما حصل مع برغواطة في منطقة الغرب. وهنا يذكر صاحب "موقف الرعية" دور الفقيه القاضي أبي محمد مروان بن عبد الملك بن سمجون، في الدعاية للمرابطين والترحيب بهم «عند دخولهم طنجة»[806]، ويبدو أنها المرحلة التي تزامنت مع تطلع الأندلسيين إلى الاستنجاد بالمرابطين وخطْب وُدِّ يوسف بن تاشفين. وكنا قد تعرفنا من خلال التنبكتي على أن أصل الرجل من طنجة، انطلاقا من ترجمة لابن أخيه عبد الله بن علي بن عبد الملك(524هـ/1129م) الذي ولاّه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قضاء غرناطة عام 490هـ/1101م[807].

أما في سبتة فقد وجدنا إشارة مصدرية تثبت بشكل غير مباشر، علاقة بعض فقهاء المذهب المالكي بالمرابطين خلال مراحل اكتساحهم لمجال المغرب الأقصى. ونذكر هنا، عبد الله بن حمو بن عمر اللواتي الذي «يعرف بالمسيلي أبو محمد، سبتي، من أكبر فقهائها ومدرسيها.. اتُّهِم بمخاطبة المرابطين»[808]. أما «الفقيه أبو عبد الله الكتامي، المعروف بابن العجوز.. من جلة فقهاء سبتة»[809]، وكان قد رحل إلى مدينة فاس هاربا على ما يبدو من تسلط سقوت البرغواطي، «فولاه أمير المسلمين ابن تاشفين قضاءها»[810]، بعد أن

(805)ـ بولطيف لخضر محمد، فقهاء المالكية، ص144.(أنظر التفاصيل في المطلب 2، المبحث.3 من الفصل الأول).
(806)ـ نفس المرجع، 208.
(807)ـ ابن الزبير(أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الثقفي العاصمي الغرناطي)، صلة الصلة، ضبط نصه وعلق عليه جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1971، ص92.
(808)ـ القاضي عياض، ترتيب، ج8،ص173.
(809)ـ المصدر نفسه، ص174.
(810)ـ المصدر نفسه، ص175.

استتبّ الأمر للمرابطين. وفي إشارة مصدرية لابن الأبار، لم يقتصر أمر تهيئة الأرضية للمرابطين على دعوات فردية، بل تعدّاه إلى لجوء فقهاء سبتة إلى إصدار فتوى في حق حاكمها سقُّوت بن محمد «بقتاله لصده عن سبيل الله، فقُتل هو وابنه»[811].

ولعل سعي المرابطين إلى السيطرة على الحواضر الرئيسة بشمال المغرب، كان متزامنا مع مرحلة ارتفاع أصوات استنجاد الأندلسيين بهم، أمام التهديد المباشر لألفونسو السادس لملوك الطوائف بالاستيلاء على أملاكهم كلها. ويظهر أن رغبة يوسف بن تاشفين في الحصول على سبتة وطنجة كحواضر لا تخلو من أهمية، أمر له علاقة بتأمين الجواز نحو الأندلس رغبة في الجهاد. ويظهر مما فهمناه من كلام ابن الأبار أن زعيم المرابطين اضطر إلى استعمال الأداة "الدبلوماسية" لأجل إخضاع سقُّوت، إلا أن الرجل «أبى وتمنع من ذلك»[812] مما منح المرابطين شرعية إسقاط حكمه[813]، حسب رأي جسوس.

يظهر من خلال ما عثرنا عليه داخل بعض المصادر من إشارات قليلة حول دور الفقهاء المالكيين في بلاد المغرب الأقصى، وبالتحديد داخل الحواضر الكبرى، أن انخراطهم في المشهد السياسي[814] مرحلة الزحف المرابطي، كان باهتا. مما لم يسمح لنا بإصدار حكم جازم حول دور المذهب المالكي، الواسع الانتشار في بلاد المغارب على المستوى النظري، في بسط المرابطين نفوذهم داخل الحواضر الكبرى، وتحقيق الوحدة السياسية لبلاد المغرب "الأقصى". رغم أن رأيا مناقضا لفكرتنا أكد على الحضور المالكي القوي في الدعاية للمرابطين. فقد أشار عبد الله العروي إلى أنه لما استعصت فاس على المرابطين، ترك يوسف بن تاشفين «للفقهاء داخل العاصمة الوقت الكافي لتحريض العامة على الحكام والاستنجاد بالمرابطين»[815]. وهو ما جعل فاس تفتح «أبوابها لجنود يوسف بن تاشفين

(811)ـ ابن الأبار، الحلة السيراء، م.س، ج.2، ص98.
(812)ـ نفس المصدر والصفحة.
(813)ـ جسوس، موقف الرعية، 207.
(814)ـ وجدنا الفقهاء الذين قدمناهم أنموذجا في الدعاية للمرابطين يتواجدون في الحواضر التي قاومت بشكل قوي دخول المرابطين إليها كفاس وطنجة وسبتة، وهنا تبقى الإشكالية مطروحة للنقاش حول تضخيم بعض الدراسات من دور فقهاء المذهب المالكي داخل حواضر المغرب الأقصى، ومدى تغلغلهم داخل "الأوساط الشعبية". لكن هذا التضخيم لا ينسجم مع إحجام مصادرنا عن التطرق بتفصيل لهذا الموضوع.
(815)ـ العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج2، ص117.

سنة 462هـ/ 1069م»[816]، فإننا لم نجد حسب ما اعتمدناه من مصادر، ما يُثبت أو ينفي هذا الأمر، خاصة وأنه لم يُحلنا على مصدره. ولعل مثار شكّنا، له ما يبرره حين نجد أنفسنا أمام السؤال التالي: لماذا اضطرت الجيوش المرابطية اقتحام مدينة فاس عُنوة وسقوط عدد من الضحايا؟ علما أننا من خلال هذا السؤال لا نلغي في إطار الثابت الديني الدور«الذي كان للفقهاء داخل المجتمع» [817] المغاربي، وذلك بناء على ما كنا قد أشرنا إليه في مستهل قيام دعوة عبد الله بن ياسين، من استدعاء فقهاء سجلماسة مرابطي الصحراء، الذين أزاحوا قبائل زناتة عن عروشها داخل مختلف الحواضر التي استوطنوها في الجنوب المغربي، وذلك قبل مرحلة التوغل نحو الشمال المغربي أي بعد تأسيس مراكش.

خلاصة المبحث الأول المتعلقة بمرحلة التأسيس لتجربة توحيد المغرب الأقصى، أشادت بعض مصادرنا الرئيسة ـ في علاقة مع موضوع تجليات تجربة توحيد المجال سياسيا ـ بما تحقق للمرابطين، من خلال الإشارة إلى عِظَم شوكة يوسف بن تاشفين[818] الذي «غلُظ حِجابه وعظُم ملكه»[819]، بعدما تحقق له في آخر المطاف بيعة أمراء وأشياخ زناتة ومصمودة وغمارة، ف«خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب ويتفقد أحوال الرعية، وينظر إلى سِيَر وُلاتهم وعُمّالهم فيه، فصلح على يديه بذلك كثير من أمور الناس[820] وبهذا «انقاد المغرب لحكمه»[821]. وهنا يمكننا بداية الحديث عن تجربة توحيد المغرب الأقصى التي اكتمل عقدها منتصف سبعينيات القرن الخامس الهجري (ق.11م).

ومن أجل إثراء مقاربتنا الخاصة بموضوع تجربة توحيد المجال سياسيا، ومدى مساهمة فقهاء المالكية في تمهيد الحواضر المغربية للمرابطين، لم نستطع في حدود ما أمدّتنا به مصادري الرئيسة، تجسيد دور بارز للفقهاء خلال هذه المرحلة الأولى من توحيد الحكام الجدد للمجال المغربي. لكن ضمن جدلية الثابت والمتحول في صنع حدث الوحدة السياسية،

(816)ـ المرجع نفسه والصفحة.
(817)ـ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال، دار الثقافة- بيروت، 1983م، ط 2، ج1، ص254.
(818)ـ ابن عذاري، البيان، ج4، ص23.
(819)ـ نفس المصدر والصفحة.
(820)ـ ابن أبي زرع، القرطاس، ص142.
(821)ـ ابن خلدون، ج6، ص296.

سنحاول خلال مرحلة رصد حيثيات جواز المرابطين نحو الأندلس التحقق من دور فقهاء الأندلس في تثبيت الدور المرابطي بالضفة الشمالية.

المبحث الثاني: تجليات التجربة الوحدوية في الأندلس عصر المرابطين

كنّا قد أشرنا أثناء الحديث عن السياق الأندلسي إلى انهيار الوضع السياسي داخل الأندلس مباشرة بعد سقوط دولة الخلافة عام 422هـ/ 1028م، التي استطاعت الحفاظ على استقلالية أرض الأندلس وعلى بيضة الإسلام، سواء زمن الخلفاء الأمويين أو خلال مرحلة حكم الدولة العامرية. إلا أن ما أطلق عليه ابن حيان إسم الفتنة القرطبية[822]، أدخلت الأندلس عصر حكم ملوك الطوائف مرحلة انقسام سياسي صار معه المسلمون «شيعا مفرقين يقتل بعضهم بعضا وينهب»[823]، إلى أن طرق ألفونسو السادس أبواب طليطلة وسرقسطة، وهدّد باحتلال كامل التراب الأندلسي. فكان أن توجهت أَعْيُن الأندلسيين جهة العدوة الجنوبية، مستصرخة «أمير المسلمين وناصر الدين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين»[824]، الذي كان في المراحل الأخيرة من تحقيق وحدة المغرب السياسية.

1- استنجاد الأندلس بالمرابطين مظهر من مظاهر الوحدة

بالرغم من أن دخول المرابطين إلى الأندلس قد أحاط به الكثير من التوجس لدى فئات من الأندلسيين[825]، فإن ما هو ثابت في مجموعة من المصادر أن الأندلسيين هم من طلبوا بدخول المرابطين بلادهم مستظهرين بهم على الممالك النصرانية، وبالتحديد على ألفونسو السادس الذي استباح أرض الأندلس. وهذا الأمر سيدفعنا للحديث عن حيثيات الجواز الأول للمرابطين من خلال بعض المؤشرات المصدرية وآراء بعض الدارسين، وذلك في إطار فرضية حدود توفر إجماع أندلسي حول الاستنجاد بيوسف بن تاشفين. وهنا سنطرح السؤال التالي:

(822)– ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، م.س، ص23.
(823)- ابن عذاري، البيان المغرب،ج1، ص254.
(824)- ابن بسام، الذخيرة السنية، ج2، مج1، ص242.
(825)- في هذا الإطار أحاطت بالمرابطين الكثير من الافتراءات خاصة من جانب بعض الكتابات الإستشراقية التي لم تخف خلفياتها في ربط سلوك المرابطين بالتخلف والبداوة، نموذج لهذا التوجه مثّله المؤرخ الألماني أشباخ، الذي كان له موقف عدائي اتجاههم بسبب نفيهم للمعتمد بن عباد.

ماذا قدمت لنا المصادر بشأن التوجه الشعبي (الرعية) وكذا الرسمي (حكاما ونخبا) نحو بلاد المغرب طلبا للدعم العسكري من المرابطين والذي يمكن اعتباره مظهرا من مظاهر وحدة المسلمين؟.

أ- الإقبال الأندلسي "الشعبي" على المرابطين:

أشارت بعض المصادر إلى بداية اهتمام يوسف بن تاشفين بموضوع الأندلس كجزء من العالم الإسلامي، بعد ارتفاع الأصوات المستنجدة والمستصرخة به من داخل العدوة الشمالية، التي كان يعاني أهلها من الاستفزازات المتكررة من جانب الممالك النصرانية في الشمال. وقد تزامن هذا الوضع مع استفحال أمر يوسف بن تاشفين في بلاد المغرب، الأمر الذي كان وراء تعلق«آمال المسلمين بالأندلس بإعانته»[826]، وكثُر للرجل «الدعاء في المساجد وعلى المنابر، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعا فيها»[827]. وفي إشارة لصاحب الحلل الموشية، وفد على يوسف بن تاشفين منذ عام «أربع وسبعين وأربعمائة، جماعة من أهل الأندلس وشكوا إليه ما حل بهم من أعدائهم فوعدهم بإمدادهم، وإعانتهم، وصرَفَهم إلى أوطانهم»[828]. وسيزداد حجم الإلحاح الشعبي على طلب دعم المرابطين، إثر استفحال أمر ألفونسو السادس ملك قشتالة الذي كان يتعمّد إذلال ملوك الطوائف بسعيه «في طلب الجزية»[829]، مستغلا غياب إرادة جماعية للتصدي لجشعه. وقد دفع به الأمر إلى تهديدهم في عقر ممالكهم.

لهذا السبب تواترت على يوسف بن تاشفين «الكتب بالاستصراخ لنصرة المسلمين ونفي العدو عن مخنق بلادهم»[830]. وهو ما يدل إلى حدٍّ ما على أن الأندلسيين فقدوا الثقة في ملوكهم حتى قبل سقوط طليطلة عام 478هـ(1085م). كما يفيد أيضا «أن فكرة الاستنجاد

(826)- ابن خلدون، ج.4، ص203.
(827)- المراكشي (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الكتاب الثالث، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1963م، ص199. يظهر من متن رواية المراكشي أن للرجل خلفية سياسية حين يجعل من أمر الأندلس فيئا للمرابطين، وهو ما يوحي بعملية غزو كان وراءها طمع في احتلال العدوة الشمالية.
(828)- مجهول، الحلل الموشية، ص33.
(829)- ابن خلدون، ج4، ص203.
(830)- ابن أبي زرع، القرطاس، ص 144.

بالمرابطين أمر فكرت فيه رعية الأندلس»[831] قبل ملوكها. وبمجرد احتلال ألفونسو السادس عاصمة الثغر الأعلى، و«رأى المسلمون أنهم بالجزيرة على طرف، وفي سبيل تمام وتلف»[832]، كاتبه مرة أخرى أهلها «من العلماء والخاصة فاهتز للجهاد»[833]. مستجيبا «لنجدتهم ضد النصارى»[834]. فأمربالجواز نحو الأندلس بعد اتخاذه كامل الاحتياطات من تأمين لظهره في سبتة والجزيرة الخضراء، وذلك في صدر 479هـ(1086م)[835]، وعيْنه فيما نحسب على إيقاف مشروع الممالك المسيحية[836]، الذي بدا أنه يكتسي لبوسا دينيا "استئصاليا" للمسلمين، بقيادة ألفونسو السادس وبدعم من الكنيسة. فهل استجابة ملوك الطوائف المسلمين لنداء الخاصة والعامة من أجل الاستقواء بالمرابطين، كان عاملا حاسما في اجتماع كلمة مسلمي العدوتين، كما كان عاملا رئيسا في تحطم مشروع ألفونسو على صخرة الزلاقة؟

ب-الموقف "الرسمي" من جواز المرابطين إلى الأندلس:

بعد أن أيقن نصارى الشمال «بضعف المِنن وقويت أطماعهم في افتتاح المدن»[837]، تأهبوا لإخضاع ملوك الطوائف عن طريق ابتزازهم إلى أقصى حدّ، ووضعوهم في مأزقٍ أمام الرعية. وخير شاهد على هذا الموقف الصعب ما ذكره عبد الله ابن بُلقين في مذكراته حول مطالبته من طرف ألفونسو القشتالي بجِزية ثلاثة أعوام، فحدّث نفسه:«إن أخذتُ هذه من الرعية، ضجّت وشكت، ويكون مقدمتها بمرّوكُش شاكين يقولون:«أخذ أموالنا وأعطاها للنصارى»[838]، وهو ما يمكن أن نستنتج منه استعدادا قبليا لملوك الطوائف للاستنجاد بدورهم بالمرابطين،بعد أن فغر ألفونسو على الأندلس«فماً وأرسل دموع أهلها دما وملأ

(831)- جسوس، موقف الرعية، ص226.
(832)- ابن بسام، الذخيرة، ج2، ص 255 – 256.
(833)- ابن خلدون، (ج6)، ص248. بعد احتلال طليطلة وكلب العدو عليها عاد بعض أهل الأندلس يطلبون يوسف بن تاشفين لما «كان عليه من القوة والاستعداد والمحبة في الجهاد» مجهول، الحلل، الصفحة 38.
(833)- ابن خلدون، ج4، ص203.
(834)- المصدر نفسه والصفحة.
(835)- ابن بسام، م.س، 255 – 256.
(836)- المتمثلة في الجلالقة والفرنجة والبشكنس والبرتغال.
(837)- مجهول، الحلل الموشية، ص34.
(838)- عبد الله بن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (469هـ - 483هـ) المسماة بكتاب"التبيان"، نشر وتحقيق إ.ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر، 1955م،ص125.

نفوسهم رعبا»[839]. وبعد أن تردّد ملوك الطوائف طويلا، لم يكن أمامهم حسب رأي أحد الباحثين الغربيين[840]إلا أن«حشدواْ لمصلحتهم الغزاة الصحراويين»[841]. وهو عكس ما تضمنه أحد المصادر من أن الرجوع إلى الحق، والذي تمثل في استصراخ حكام الأندلس«بالمرابطين واستنصروا بأمير المسلمين على أن ينخرطوا في سلكه»[842]. وهنا كان قد برز دور ابن عباد ملك اشبيلية حتى قبل سقوط طليطلة، وهو ما نفهمه من إشارة مصدرية من كون الرجل أظهر «من العزيمة على إجازة الصحراويين والاستظهار بهم على ابن فرذلند، فاستبشر الناس وفُتحت لهم أبواب الآمال»[843]. ولعل سقوط طليطلة، مثّل مؤشرا خطيرا لابن عباد الذي أصبحت عاصمة ملكه مهددة بشكل كبير، فخاطب «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مُنْتَجِزا وعده في صريخ الإسلام بالعدوة وجهاد الطاغية»[844]. كما ذكر صاحب الحلل أن صاحب بطليوس المتوكل على الله بن الأفطس، بعث بدوره بكتاب إلى يوسف بن تاشفين «يستصرخه لمّا كلب العدو على بلاده»[845].

وقد أورد أحد الدارسين مقتطفا من رسالة «استصراخ ابن الأفطس أمير بطليوس(Badajoz)»[846]، بيوسف بن تاشفين، يقول فيها:«... لما كان نور الهدى –

(839)- ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حققه وعلق عليه الدكتور حسين يوسف خريوش، مطبعة المنار، الأردن، ط.1، 1409هـ/ 1989م، ص70 – 71.

-(840)-لا يخلو هذا الرأي من خلفية تحط من قدر المرابطين، وتجعل من جهادهم غزوا.

-(841) Philippe conard, l'Espagne sous la domination Almoravid et Almohade, clio voyages culturelle, Aout 2002, pp de 1 à 6, p:2.

من خلال عدة قرائن مصدرية تبين أن الأندلسيين حكاما ومحكومين، هم من استنجد بالمرابطين، وعليه لا نتفق مع صاحب هذا المقال في حديثه عن المرابطين باعتبارهم غزاة. فقد تطلب تدخل المرابطين لصد عدوان ألفونسو السادس «بذل الجهود المتوافرة المتتابعة في الرجال والمال وإمكانيات الدولة الأخرى بكل صدق وإخلاص واهتمام» عبد الرحمان علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة 92هـ - 897هـ (711م – 1492م)، دار القلم، دمشق – بيروت، 1983، ص443.

(842)- ابن الكردبوس،تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، 1971، ص89- 90.

(843)- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي مع فهارس شاملة، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط.1 / 1975 و ط.2 /1984، ص288. تحدثت بعض المصادر عن ورود كتاب على يوسف بن تاشفين من «المعتمد بن عباد يعلمه بحال الأندلس... وسأله نصرها وإعانتها، فأجابه يوسف: إذا فتح الله لي سبتة وصلت بكم فبذلت في جهاد العدو المجهود» ابن أبي زرع، القرطاس، ص143.

(844)- ابن خلدون، ج6، ص248..

(845)- مجهول، الحلل الموشية، ص34. بعض ما جاء في هذا الخطاب أورده صاحب الحلل الموشية مقتضبا من ص34 إلى ص36 حيث كان صاحب بطليوس واضحا بانتقاده لواقع التشرذم السياسي وتفرق كلمة ملوك الطوائف وكيف استغل النصارى الأمر لصالحهم يرافقهم في ذلك حقدهم وكراهيتهم للمسلمين، فعملوا على إذلال حكام الأندلس وبطشوا برعاياهم.

(846)- انظر رسالة عمر المتوكل على الله بن الأفطس أمير بطليوس، إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. تازي عبد الهادي، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، دار نشر المعرفة، 2001، مج.1، ص248.

أيدك الله – دليلك.. ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك... وجب أن تُستدعى لمّا أعضل الداء..» [847]. وهو مؤشر على استعداد رسمي للقبول بالمرابطين كمنقذين، مما سيشكل مقدمة لوحدة بلاد العدوتينالعدوتين بعد التطورات التي ستشهدها المرحلة الممتدة بين 479هـ/ 1086م و484هـ/ 1091م، ولتسترجع بذلك العدوة الشمالية وحدتها السياسية التي ضاعت منها بعد سقوط دولة الخلافة الأموية في الأندلس عام 422هـ/ 1114م.

لكن هناك إشارة مهمة في تذليل الحواجز بين يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف وعلى رأسهم ابن عباد، تتعلق بما قام به أحد كبار فقهاء المالكية ابن قصيرة[848]، الذي سافر بين ملك اشبيلية ويوسف بن تاشفين «مرارا فكثر صوابه، واشتهر في ذات الله مجيئه وذهابه»[849]، وذلك من أجل تقريب وجهات النظر حول موضوع الاستنجاد بالمرابطين بعد سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس عام 478هـ/ 1085م. في هذا الإطار يقول هذا الفقيه الأندلسي(ذو الوَزارتين):«فلم أزل أصل بيني وبينه الأسباب، وأستفتح إلى ما كنت أتخيل من نصره الأبواب، إلى أن ارتفعت الموانع قِبَلَه وانتُهِجت السُّبل القصيّة له، ثم أجاز- على بركة الله وعونه-»[850]. وإذا كان صاحب الحلل الموشية لم يُشر لهذه الوساطة التي جاءت عند ابن بسام كشاهد على تلك الأحداث، فإنه بالمقابل أورد رسالة من المعتمد بن عباد يطلب فيها النُّصرة من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، والتي كان فيها جوابه مشروطا بإخلاء الجزيرة الخضراء[851]. ولعل مسارعة ابن عباد إلى يوسف بن تاشفين، له

(847)- المرجع نفسه والصفحة.

(848)- أنظر دور بعض الفقهاء المالكيين في إقناع ملوك الطوائف بطلب الممدد من المرابطين وفي تشكيل الوفد الذي زار يوسف بن تاشفين في مراكش، ومشاركتهم الفعالة في معركة الزلاقة التي كان ابن القصيرة شاهدا عليها :BENABOUD(M'hammed)(Spring-Summer1991), SOCIO-POLITICAL ROLE OF ANDALUSIAN 'ULAMĀ' DURING THE FIFTH/ELEVENTH CENTURY, Islamic Studies; Vol. 30, N° 1/2, Special Issue on Muslim Heritage in Spain, p: 201.

(849)- ابن بسام، الذخيرة، القسم2، ج1، ص240.

(850)- المصدر نفسه، ص242. أشار محقق الكتاب إلى أن سياق الكلام الأقرب إلى المعنى الصحيح هو: السبل العَصِيّة وليس القصية.

(851)- أنظر التفاصيل في رسالة ابن عباد والرسالة الجوابية من يوسف بن تاشفين، واللتان تجسدان مظاهر الوحدة بين المسلمين وتمهيد الظروف لتحقيق تجربة وحدة الغرب الإسلامي بشكل عملي عندما اقتضت الظروف الإطاحة بملوك الطوائف ومن بينهم المعتمد بن عباد. وردت الرسالتان في "الحلل الموشية، تحقيق زكار، صص: 45 -46 - 47 -48. و ص.50.

علاقة فيما يبدو بنزول ألفونسو على اشبيلية التي «أفسد أحوازها وهتكها»[852].كما له علاقة أيضا بما ذكر ابن بُلقين في مذكراته، وهو الأقرب إلى فهم عقلية ملوك الطوائف، من كون ابن عباد رام إلى كسر ألفونش بطوائف المرابطين، وضرْب بعضهم ببعض[853].

وليس صدفة أن نجد بعض المصادر تتحدث عن بداية تقارب المواقف والنوايا، من ضرورة الاستقواء بالمرابطين. وهو ما نستنتجه من كلام صاحب "المذكرات"، حين تحدث قائلا:«كان رَسلنا مضواْ مع رسل المعتمد إلى أمير المسلمين، على اتفاقٍ، ضمّ بعضُنا فيه بعضا إلى حقيقة، وعاقدْنا أمير المسلمين على أن تتصل الأيدي على غزو الروم بمعونته»[854]. وذلك بعد أن أصبح خطر سقوط الأندلس أمرا وشيكا، بعد احتلال ألفونسو السادس طليطلة عام 478هـ (1085م)، وهو المنتشي بمُلك «ليون وقشتالة وغاليسيا ونافار»[855]. ورغم الموقف السلبي لمؤلف كتاب "ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام" من المرابطين القُساة القتلة المتعصبين حسب ظنه، فإن مع ذلك يعترف بحتمية استدعاء المرابطين، وأنه أمر«لا مناص منه»[856]، باعتباره الوسيلة الوحيدة لدرء هذا الخطر المحدق بالجزيرة[857].

وفي تقييمنا لهذه الهبّة الأندلسية وهذا الاستنفار الكبير الذي ولّده هذا التوجه "الرسمي والشعبي"[858] في طلب المرابطين للجواز لبلاد الأندلس، يظهر أن مبشِّرات النصر وتوحيد العدوتين شعوريا ومعنويا أصبح أمرا ممكنا. فقد هبّ المغاربيون «من بلاد الصحراء والقبلة والزاب.. . فشرع في تجويز الجيش إلى الأندلس»[859]، ملبّون بذلك دعوة يوسف بن تاشفين[860] كلها نزوع نحو الجهاد، مما أسهم في انتصار الزلاقة 479هـ/

(852)- نفس المصدر والصفحة.
(853)- ابن بلقين، التبيان، ص102.
(854)- المصدر نفسه، ص103.
(855)- دوزي (رينهرت)، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة - جمهورية مصر العربية، ط.1، 2012، ص123.
(856)- المرجع نفس المرجع، ص129.
(857)- نفسه، والصفحة.
(858)- نشير إلى أن توظيفنا للمصطلحين جاء في سياق استئناسنا بالقراءة التي قدمها الأستاذ القادري بوتشيش، في موضوع التجربة الوحدوية المرابطية للغرب الإسلامي، تاريخ الغرب الإسلامي، م.س، من ص63 إلى ص 85.
(859)- ابن ابي زرع، القرطاس، ص144.
(860)ـ أنظر الترجمة 218 : ابن الأبار،الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة، تحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، مج.8، ق.1، ص427.

1086م[861]، الذي شكل رمزا من رموز التجليات الوحدوية في بلاد الغرب الإسلامي، وأحد مقدمات ارتفاع السقف السياسي للتجربة الوحدوية زمن المرابطين. علما أن هذا التلاحم الرسمي والشعبي الذي أسهم في هذا النصر الكبير للمسلمين ببلاد الغرب الإسلامي، كانت أخباره تتطاير في الآفاق، وأصبح إسم يوسف بن تاشفين ضمن الأسماء الخالدة في الذاكرة التاريخية للمسلمين شرقا وغربا[862].

ولعل من أهم النتائج السياسية والنفسية التي جلبها هذا الانتصار على أكبر الممالك النصرانية، تجسدت في إحداث ما نحسبه نوعا من التوازن النفسي في صفوف المجتمع الأندلسي، الذي اطمأنت معظم فئاته لهؤلاء المغاربة الذين أنقذوهم[863] من مشروع استئصالي محتوم توحدت حوله أهداف نصارى الشمال والكنيسة[864]. فقد أوقفت هذه المعركة مسلسل استباحة أرض الأندلس، بعد أن «أُشرِب الروم من تلك الوقيعة خوفا وانكماشا»[865]. لكن في الآن نفسه و في إطار الدراسة العلمية للأحداث التاريخية، ألا يمكن أن نتحدث عن عدم استثمار جيد لانتصار الزلاقة على المستوى السياسي، رغم سعي يوسف بن تاشفين لدى ملوك الأندلس من أجل توحيد صفهم؟.

بعد استفحال خطر الممالك النصرانية، لن تظل علاقة المرابطين بالأندلسيين متوقفة على طلب الدعم العسكري من المرابطين كلما اشتد خطر نصارى الشمال، خاصة في ظل عدم وجود إرادة سياسية لدى ملوك الطوائف من أجل توحيد صفوفهم، بل وبقوة الأمر الواقع انتقل المرابطون بمشروعهم السياسي الإصلاحي إلى إخضاع الغرب الإسلامي لنظام حكم.

---

(861)- أنظر ظروف النصر في الزلاقة من خلال رسالة يوسف بن تاشفين لبلاد عدوة المغرب : القرطاس ص 150-151.

(862)- في سياق وفاة يوسف بن تاشفين رثاه مجموعة من الشعراء من ضمنهم أبو بكر بن سوار الذي قال في أحد أبيات مرثيته : **"وصل الجهاد إلى الجهاد موفقا === حتم القضا بكل ما تقضيه" :**

Ambrosio(HuiciMiranda)(1961):«unfragmento inédito de ibn°idârÎ sobrelos Almoravides;Hespéris Tamuda; vol 2; éditions téchniques nords – africaines 22 ; rue du béarn ; Rabat ; p.66.

عنان، دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس(العصر الثالث)، م.س، ص54.

(863)- أنظر محمد المرتضي، الأندلس في سياسة الدولة المرابطية بين الإنقاذ والاستحواذ، أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله - كلية الأداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس، 2019: التقديم، صص: 5 – 6 – 7.

(864)- Michel Abitbol, Histoire du Maroc, op.cit, p73.

(865)- ابن بلقين، التبيان، م.س، ص108.

وإذا كان السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام يتعلق **بالظروف التي كانت وراء مطالبة علماء الأندلس بإسقاط حكم ملوك الطوائف؟** فإننا سنحاول إيجاد الخيط الناظم لفرضيتنا في موضوع حدود دور فقهاء المالكية في دعم التجربة الوحدوية زمن المرابطين، وإسهامهم في توحيد بلاد الغرب الإسلامي؟

2- تدشين المرابطين تجربة توحيد الغرب الإسلامي

يظهر أن مشروع التجربة الوحدوية للمرابطين قد أخذ منحى جديدا وفق ما فرضته الظروف الجديدة بالأندلس، إذا نحن انتقلنا من موضوع الجهاد المقدس في مدافعة نصارى الشمال والحد من عيثهم، إلى ما حسبناه هاجسا سياسيا إصلاحيا للمرابطين أرادوا من ورائه توحيد الأندلس وإخراجها من حالة الانقسام في أفق ضمها إلى عدوة المغرب، بكل أبعاد هذا الأمر سياسيا واقتصاديا وحضاريا، إلى جانب ما سيكون له أيضا من تبعات على مستقبل الحكم المرابطي.

فمع عدم توفر إرادة "سياسية" لدى ملوك الطوائف من أجل توحيد الكلمة، وتحولهم من مساندين للمرابطين إلى الدخول مرة أخرى في ما يمكن أن نسميه توافقات جديدة مع ملك قشتالة المنهزم في الزلاقة. كل هذا عجّل بقرار يوسف بن تاشفين ضم الأندلس لحكمهم. وهنا سننطلق من فرضية دور فقهاء المذهب المالكي بالأندلس في سياسة الدولة المرابطية ومدى خدمتهم مشروع توسيع مجال التجربة الوحدوية من إطارها المغربي الضيق إلى محيط أوسع.

فما هي إذن **أهم الأسباب "الموضوعية" التي على أساسها أفتى الفقهاء بضرورة إسقاط حكم ملوك الطوائف، والتفويض للمرابطين بضم الأندلس لحكمهم؟**.

تركيزنا في الإحاطة بهذا السؤال، دفعنا إلى الاعتماد على مصدر تاريخي له قيمته العلمية من حيث إفادتنا ببعض الحيثيات الكامنة وراء هذا التحول الكبير في سير الأحداث بعد مرحلة الزلاقة. يتعلق الأمر بمذكرات أمير غرناطة عبد الله ابن بلقين، الذي قال في سياق المستجدات التي بدأت تشهدها الأندلس: «لما حان انصرافنا من ليِّط، كلّمْنا أمير

المسلمين في عسكر يتركه عندنا بالأندلس، خوفا من الرومي أن يكلب عليها... فقال: " أصلحوا نياتكم، تُكفوا عدوكم"»[866]. وبعد الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين عام 481هـ(1088م) لم يخرج المعتمد – حسب ابن الأبار - لاستقبال أمير المرابطين والمسلمين « لبطالة كان فيها منغمسا، وكانت أول وحشة قامت بينهما»[867]. وفي سنة 483هـ(1090م) جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس «برسم الجهاد، فلم يلقه أحد من رؤساء الأندلس، وهمُّوا بغدره ففطن بهم وكان عاهدهم ألا يغدر بهم، فلما أحس بمكرهم استفتى علماءهم فكُلُّهم أفتاه بخلعهم»[868]. غير أن صاحب التبيان المعاصر للأحداث ذكر أن يوسف بن تاشفين بعد جوازه اجتمع بالمعتمد بن عباد «وسأله عمّا لَهِجَ الناس به من مداخلة الرومي، فشهد بذلك»[869]، وهو موقف "خطير" دفع أمير المسلمين إلى إرسال كتاب لصاحب غرناطة قال له فيه:«أقبِل إلينا ولا تتأخر ساعة واحدة»[870]. وكان ابن بلقين يرى أن علم الرعية بأمر التقرب من ألفونسو السادس حتى بعد هزيمته في الزلاقة هو بمثابة قاصمة الظَّهر لهم، إذ عبّر حينها قائلا:«إن شعر بذلك أهل حضرتنا كانوا أول من يقاتلنا قبل المرابطين»[871].

هنا يبدو أن ملوك الطوائف لم يبق لهم «أي سند يمكن أن يلجؤوا إليه أو يستندوا إليه أمام رعيتهم وأمام المرابطين لمحاولة الإبقاء على حكمهم»[872]، وقد كان الموقف محرجا لأن ساعة القضاء على مشهد الانقسام السياسي داخل الأندلس حانت. فهل زيارات الوفود الأندلسية إلى مراكش التي كان يشرف عليها الفقهاء المالكيون، هي التي أشّرت ليوسف ابن

(866)- ابن بلقين، التبيان، ص122. أليط (Aledo)هو حصن كان بين لورقة ومورسية، كان الفونسو قد حصنه بعد هزيمته في الزلاقة. وقد تبين ليوسف بن تاشفين اختلاف ملوك الطوائف بعضهم مع بعض في الجهاد ما جعله يرفع الحصار عن لييط : أنظر الحلة السيراء، ج2، الهامش رقم 1، ص86. وعلق أمير المرابطين قائلا:" إنما قصد ابن عباد أن يرينا صعوبة قتال الحصون المنيعة وأن بلاده ذوات معاقل صعبة" إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص23.

(867)- ابن الأبار، الحلة السيراء، م.س، ص85.

(868)- ابن ابي دينار، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية بحاضرتها المحمية، ط.1، 1286هـ، ص102.

(869)- ابن بُلقين، التبيان، ص147.

(870)- المصدر نفسه والصفحة.

(871)- نفسه، ص148-149.

(872)- جسوس عز الدين، موقف الرعية، ص239.

تاشفين على ضرورة تغيير خططه في الأندلس والعمل على توحيدها سياسيا بضمها إلى حكمه؟

لقد تضمنت فتوى الفقهاء إشارات واضحة لسلبيات حكم ملوك الطوائف الذين«لا تجوز طاعتهم لما ارتكبوه من الفجور وانتهاك المحارم وضيّعوا غالب البلاد، فتغيّر عليهم يوسف وخلعهم واحدا بعد واحد»[873]، حيث أزاحوهم «عن مراكزهم ومَحَواْ آثارهم «[874]. وقد ذكرت رواية مصدرية أن سير بن أبي بكر، بعد أن أرسله يوسف بن تاشفين إلى اشبيلية لخلع المعتمد بن عباد، صرّح أن قَسَم أمير المسلمين لأمير اشبيلية بعدم غدره أو خلعه، إنما نسخه الاجتماع الذي عقده يوسف بن تاشفين مع «فقهاء اشبيلية وقضاتها وأعيانها وسراتها، وقالوا له هؤلاء الرؤساء لا تحل طاعتهم ولا تجوز إمارتهم، لأنهم فساق فجرة، فاخلعهم عنّا»[875]. ولعل خير شاهد على"شرعية" هذا الأمر ما شهد به عبد الله بن بلقين نفسه من ضيق الرعية من حكامها وشكواهم بذلك لبطل الزلاقة، الذي قال لهم:«لم نأت لهذا والسلاطين أعلم بما يصنعون في بلادهم»[876] تجنيبا لحكام الأندلس تأليب الرعية عليهم، إلى أن جاء حدث حصار لبيط، التي «أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس»[877] وما رآه يوسف بن تاشفين في ملوك الطوائف «من تماحُق رعاياهم وامتناعهم من مغارم الإقطاع»[878].

وهنا نسوق صورة شعرية معبرة عن ما مثّله المرابطون من طوق للنجاة من كابوس الفرقة، حينما شبه الشاعر أبو تمام بن رباح موقف تَبَرّم الرعية من ملوكها المتخاذلين قائلا:

(873)- نفس المصدر والصفحة.
(874)- ابن خلدون، ج1 ص195. أرجع ابن خلدون سبب سقوط حكم ملوك الطوائف وعدم قدرتهم على مُدافعة المرابطين «لِفُقدان العصبية لديهم» نفس المصدر والصفحة. وهو ما لا يبدو لنا كلاما صائبا. ذلك أن الأندلس ليست هي بلاد المغرب أولا، ثانيا فإن الخبير بتاريخ ملوك الطوائف في الأندلس الذين حلّوا بديلا عن دولة الخلافة في بلاد الغرب الإسلامي، كانت لهم القابلية للعيش وسط واقع الانقسام كما فصلنا في ذلك في الباب الأول الخاص بالسياق التاريخي. وكان السر الذي يُعوِّض مسالة العصبية هو توحيد كلمتهم في ظل "حكم ذاتي" تحت إشراف دولة مركزية موحدة.
(875)- ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، م.س، ص106.
(876)- ابن بلقين، التبيان، ص107.
(877)- المصدر نفسه، ص109.
(878)- نفسه، والصفحة.

كأن بلادهم كانت نساءً ===== تطالب الضرائر بالطلاق[879]

وهذا المعنى يمكن أن نستقيه مما جاء به القاضي ابن سهل أبو الأصبغ عيسى[880] الذي أخبر يوسف ابن تاشفين «أن القُطر ليس عليه فيه مختلف»[881]. ويقصد بذلك اختلال أمر عبد الله ابن بلقين بغرناطة وميل أهلها للصناهجة[882]. وهؤلاء أهل بطليوس لا يستنكفون أن يكونوأ رعايا للحكام الجدد بعد أن راسلوا يوسف بن تاشفين انتقاما من المتوكل بن الأفطس الذي استعان بألفونسو السادس «فاستوحشت لذلك رعِيّته وراسلت اللمتونيين «[883] الذين أطاحوا بملكه.

انطلاقا مما اقتفيناه من مؤشرات مصدرية يظهر أننا أمام واقع اقتناع فئات عريضة من المجتمع الأندلسي، بمعظم الحواضر الأندلسية الرئيسة، بأن يأخذ المرابطون زمام الحكم في الأندلس، بعد « أن دانت لهم الجزيرة بأجمعها»[884].علما أن إخضاع ممالك الطوائف جميعها تطلب حوالي عقدا من الزمن[885]، وقد كانت بلنسية في هذه الظروف مسرحا لمغامرات السيد الكمبيادور تارة وألفونسو السادس تارة أخرى[886]. ولعل الشاهد على ما يمكن أن نحسبه إجماعا "شعبيا" حول المرابطين داخل الأندلس، ما استنبطناه من رواية ابن بلقين، الذي رأى استعداد لدى معظم مكونات رعيته للخضوع للمرابطين. فالجُند «كانوا مغتبطين بهم... وقدّموا كُتبهم بالطاعة»[887]. أما فئة «التجار وأهل البلد، فكانوا على نية أنهم مع من سبق»[888]، لكن عندما وقف صاحب المذكرات عند الرعية، وهو يعلم ما تُكنه من حقد لملوك الطوائف بإخضاعها لكل أنواع الضرائب المُجحفة، قال:«بخٍ بخٍ، ذلك ما كانت تبغي، طمعا في الحرية، وأنها لا يُلزمها سوى الزكاة والعُشُر»[889]. ولما خرج معز

(879)- ابن بسام، الذخيرة، القسم 3، ج.1، ص94.
(880)- أنظر ترجمة هذا العالم الفقيه الأندلسي (486هـ/ 1093م) عند النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص96 - 97.
(881)- المصدر نفسه، ص97.
(882)- المصدر نفسه والصفحة.
(883)- ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، صص: 46 -47.
(884)- المصدر نفسه، والصفحة.
(885)- .
(886)-DOZY(Reinhart Pieter Anne),(1860): LECID, d'après de nouveaux documents, nouvelle édition, Leyde, p: 134 – 135.
(887)- ابن بلقين، التبيان، ص150.
(888)- المصدر نفسه، والصفحة.
(889)- نفسه، والصفحة.

الدولة من آل بن صمادح باسم أنه ناهِض إلى أمير المسلمين بهدية، سُرّ أهل ألمرية بفعله، وقالوا: «هذا هو الصواب، قبل أن يحل بك ما حل بغيرك»[890].أصدر يوسف بن تاشفين كُتبا إلى جهات الأندلس، كتب فيها:«أما بعد فقد جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. إن لم تُطوِّعونا،﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[سورة البقرة: 279]»[891].

فبعد أن أقام المرابطون على غرناطة، حيث المأمون بن المعتمد بن عباد، شهورا «إلى أن صبّحوها يوما لعِدّة كانت بينهم وبين أهلها في تَسَنُّم أسوارها»[892]، أتى بعد ذلك الدور على اشبيلية التي أبدت مقاومة شديدة في وجه المرابطين بقيادة المعتمد بن عباد[893]. إلا أن القائد العسكري سير بن أبي بكر دخلها«عنوة بمداخلة من بعض أهلها»[894]. وكان المرابطون قد تمكنوا قبل ذلك من «تملُّكِ ألمرية ومرسية ودانية وشاطبة»[895]. فملك بذلك «يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها، ولم يختلف عليه شيء منها»[896]. ولذلك «عُدّ من يومئذ في جملة الملوك»[897]، بعد أن «استوسق له أمر الأندلس»[898]. وقد أكدت بعض المصادر على النتائج السياسية الكبيرة التي تحققت للمرابطين والأندلسيين، بعد أن «دانت لهم الجزيرة بأجمعها»[899]، من خلال ما أظهروه«من النكاية في العدو، والدفاع عن المسلمين وحماية الثغور، ما صدق بهم الظنون، وأثلج الصدور، وأقرّ العيون، فزاد حب أهل الأندلس لهم»[900].

(890)- ابن بلقين، م.س، ص 168. الذخيرة القسم.1، مج.1، ص735. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج.2، ص:83-84. وكان المعز هذا قد جعل من قلعة بني حماد وجهته حتى لا يقع في يد المرابطين.

(891)- ابن بلقين، م.س، ص148. كنا قد تطرقنا في متن البحث إلى ما حسبناه تبرُّءا لأهل غرناطة بكل فئاتهم من سلطانهم وهو نموذج يمكن تعميمه على حالة الأندلسيين في علاقتهم بملوكهم باستثناء اشبيلية. أنظر نفس المصدر. ص150-151.

(892)- ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج.1، ص84.

(893)-أنظر أخبار ملك اشبيلية عند المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق عباس إحسان، دار صادر – بيروت، مج4، الترجمة 670، من ص 213 إلى ص 228.

(894)- ابن بلقين، م.س، ص170.

(895)- ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس والمغرب، ص107.

(896)- المراكشي، المعجب، ص227.

(897)- المصدر نفسه والصفحة.

(898)- نفسه، ص226. ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص107.

(899)- نفسه، ص227. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص98.

(900)- ابن الكردبوس، م.س، ص107.

وإذا كان يحْلو لِبعض الدارسين ك"دوزي" و "تيراس" أن يتحدثوا عن المرابطين كغزاة للأندلس[901]، فإن الأخير أشار من خلال كتابه "تاريخ المغرب منذ النشأة وإلى تأسيس الحماية الفرنسية"، إلى أحد تجليات نجاح المشروع السياسي للمرابطين بعض ضم الأندلس لحضرة مراكش، ويتمثل في التعايش الذي حصل «بين إسبانيا وبلاد المغرب العربي»[902]. وهو ما يمكن أن نخاله تجديدا للعهد بين المغرب والأندلس بالنظر لعلاقة تاريخية ذات جذور، وذلك في إطار ما حسبه محمد القبلي تكاملا حيويا ديناميا"[903].

استنتاج:

لعل أهم ما يمكن الخروج به من خلال ما اعتمدنا عليه من مؤشرات مصدرية، أن مشروع المرابطين الجهادي في الأندلس سيتحول فيما يبدو إلى مشروع سياسي مذهبي، بما سيصبح للفقهاء المالكيين من صوت لا يُعلا عليه داخل الغرب الإسلامي. ولعل أهم مؤشر يمكن الاعتماد عليه في تفسير هذا الحضور القوي للفقهاء على مستوى الساحة السياسية الأندلسية على وجه الخصوص، الفتوى التي أجازت للمرابطين وضع حدٍّ لنظام حكم ملوك الطوائف. وهو ما فتح الباب أمام حكام بلاد المغرب "الأقصى" لتوحيد عدوتي الشمال والجنوب زمن المرابطين، مُدشِّنين بذلك مرحلة جديدة تتعلق بخوض تجربة توحيد مجال شاسع من بلاد الغرب الإسلامي، والتي بموجبها انتقل المشروع السياسي للمرابطين من بعده المجالي الضيق المحصور في ما تحقق للملثمين داخل المجال المغربي إلى مجال

(901)- كثيرا ما يتعامل المستشرقون مع المصادر العربية بطريقة انتقائية في إصدار أحكام سلبية في حق المرابطين، ويجدون لذلك سبيلا فيما أحسب من خلال التحيز الذي تعبر عنه بعض مصادرنا لجهة ما. فمثلا تجد ابن دحية صاحب "المطرب من أشعار أهل المغرب " يتحدث عن القهر و والقسر الذي واجه به المرابطون المدن الأندلسية، حيث أشار بهذا الصدد إلى طمع الملثمين في بلاد بني المُظفّر « فحوّلوهم من العيش الأخضر إلى الموت الأحمر.. » تحقيق إبراهيم الأبياري – حامد بن عبد المجيد – أحمد أحمد بدوي، راجعه طه حسين، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان (بدون تاريخ)، ج2، ص26. ويضيف «ثم سلّط الله على الملثمين جماعة الموحدين» المصدر نفسه، ص27. علما أن بعض المصادر شككت في صحة ما ينقله. يقول ابن النجار: « رأيت الناس مجتمعين على كذبه وضعفه وادعائه سماع ما لم يسمعه» صلاح الدين أبو سعيد العلائي، كتاب المختلطين، تحقيق وتعليق رفعت فوزي عبد المطلب وعلي عبد الباسط مزيد، مكتبة الخانجي، القاهرة (بدون تاريخ). ص91.

(902)- Terrasse(Henri), (1949).«Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français», t. I. Un vol. in-8° de vin et 401 pages. Casablanca, Éditions atlantides , P :363.

(903)- القبلي، الدولة والولاية والمجال، م.س، ص14. أورد هذه العلاقة الإيجابية مغلفة أيضا حسب تعبيره بنوع من التنافر الذي يرتبط أساسا بصراع أزلي جسدته أسطورة حفر البوغاز والتي لا تخلو من خلفية أروبية في تجسيد التفوق الأوربي، إلى جانب نوع من شعور العنصر الأندلسي نفسه، بالتفوق الحضاري أمام العنصر المغربي الغازي، حسب تعبيره. نفس المرجع والصفحة.

"دولي" أوسع أصبحت معه مراكش «عاصمة فريدة "لإمبراطورية" بربرية ممتدة عبر إفريقيا أروبا»[904].

3- اكتمال عقد توحيد المرابطين الغرب الإسلامي أواخر القرن الخامس الهجري(ق.11م)

ـــ شكل عام 494هـ/ 1101م بداية نهاية إخضاع المرابطين كل المجال الأندلسي باستثناء طليطلة وسرقسطة. وكان عِقد توحيد حواضر الأندلس وجعلها تابعة لحضرة مراكش، قد اكتمل بضم بلنسية التي كان قد قصدها الأمير مزدلي «مُنازلا ومحاصرا لها... »[905]و بتملُّكها استطاع المرابطون تملك «جميع جزيرة الأندلس سوى سرقسطة بلد المستعين بن هود»[906]، الذي سارع بدوره إلى إرسال ابنه عبد الملك «يطلب العون والإنجاد على مدافعة النصارى وإنقاذ وشقة وهي جناح سرقسطة الدفاعي ودرعها من الشمال»[907].وهو السياق الذي جاء فيه حضور عبد الملك بن المستعين بن هود بيعة علي بن يوسف على أرض الأندلس بكل ما يرمز إليه هذا الأمر من أبعاد وحدوية ومن كون أرض المغرب وأرض الأندلس هي قطعة أرض واحدة لا يفصل بيها سوى الرقعة المائية للبحر المتوسط. فبعث يوسف ابن تاشفين مع عبد الملك برسالة لوالده المستعين[908]، والتي تؤكد أهمية تمتين العلاقة بين المرابطين وملوك سرقسطة بالثغر الأعلى[909]، كمظهر من مظاهر الوحدة التي حلّت محل واقع الانقسام السياسي والمجتمعي داخل الأندلس طيلة مرحلة حكم ملوك الطوائف[910]. وقد تحدث ابن الخطيب عن ابتهاج أهل الثغر الأعلى بما

(904)- Buresi, Les Almoravides, op.cit, P: 5.

(905)- ابن الكردبوس، نصان جديدان، م.س، ص110.

(906)- المصدر نفسه والصفحة.

(907)- عنان، دولة الإسلام في الأندلس - العصر الثاني: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي،ص288.

(908)- «والمستعين هذا ممن لم يهجه أمير لمتونة ولا نازعه مما في يده» ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق كسروي، ج2، ص170. وهو الذي سيُقتل « في ملحمة يوم الإثنين مستهل رجب من السنة ثلاث وخمسمائة» ابن عذاري، البيان، ج.4، ص55.

(909)- أنظر نص الرسالة كاملة في أعمال الأعلام، ج2، ص170.

(910)- أرجع الباحث بنعبود، السبب الرئيس وراء تحقيق الوحدة السياسية في الأندلس ــ بنوع من الإجماع وفي وقت يمكن اعتباره قياسيا ــ أرجعه إلى كون المجتمع الأندلسي رغم واقع الانقسام السياسي، كان «مجتمعا متماسكا وموحدا ثقافيا ولغويا» أنظر:

BENABOUD(M'hammed),(1980-1981):«Assabiyya and social relations in Andalusduring the period of the Taifa states,(11century A.D./5th A.H)», Hespéris – Tamuda, vol.×I×, Rabat, pp: 5 - 46, p: 10-11.

شاع في محلّة «الطاغية، أنه يوسف بن تاشفين، فأوقع الله الرعب في قلب العدو، وانهزم جمعه»[911]. ولعل هذا الأمر أصبح أحد ثوابت العلاقة بين المرابطين وأهالي الثغر الأعلى الذين، بعد وفاة المستعين، بايعوأ عبد الملك بن هود «الملقب عماد الدولة»[912] على شرط «ألا يستخدم الروم ولا يُلابِسهم»[913].لكن مع مطلع القرن السادس الهجري وبمجرد نقض عبد الملك بن هود الملقب بعماد الدولة، العهد « استدعى أهل سرقسطة الأمير عبد الله بن الحاج اللمتوني والي بلنسية... فأمكنوه من البلد»[914].

وبحلول عام497هـ / 1104م، نكون في بداية مرحلة مهمة في سلسلة تجليات التجربة الوحدوية زمن المرابطين، وذلك من خلال ما استنتجناه من إشارة مصدرية تحدثت عن توجه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين«ملك الغرب والأندلس»[915] إلى غرناطة ومعه ابنه الأمير علي، فأخذ له بيعة أهل الأندلس قاطبة. قبل أن يرجع «إلى العدوة، ومُلكه قد أضحى للأندلس سوى سرقسطة، جامعا»[916]. ومع وصول ولده علي بن يوسف إلى الحكم، استطاع أن يجعل تحت سلطانه «جميع بلاد المغرب إلى بجاية إلى الأرض الأندلسية والجزر الجوفية وبلاد القبلة بأسرها، وخُطب له على أكثر من ألفي منبر»[917]. كعلامة بارزة عن توسع مجال التجربة الوحدوية زمن المرابطين، وما ولدته من ميول وحدوية لدى الرعية في جميع أقطار بلاد العدوتين.

ونخلص في إطار تقييم هذا المشروع السياسي الوحدوي زمن المرابطين، إلى ما يمكن أن نحسبه إنجازا تاريخيا وحضاريا للمرابطين بعد اكتمال عقد توحيد مجال جغرافي شاسع من حجم بلاد العدوتين، وذلك من خلال آراء ثلة من الباحثين المهتمين بالتاريخ المغربي

(911)- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، م.س، ص169.
(912)- ابن عذاري، البيان (ق.المرابطين)، ص53.
(913)- ابن الأبار، الحلة السيراء،ج2، ص248.
(914)- المصدر نفسه والصفحة.ابن عذاري، البيان، ج.4، ص54.
(915)-أبو الفدا (المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي 672هـ - 732هـ/ 1273م – 1331م)، المختصر في أخبار البشر، تقديم الحسين مؤنس، تحقيق محمد زينهم عزب – يحيى حسين – محمد فخري الوصيف، دار المعارف – القاهرة، ط.1، ج2، (بدون تاريخ)، ص221.
(916)- ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، نصان جديدان، م.س،ص113.
(917)- ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ج.3، ص253. وجاء في "كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس" أن تاشفين بن علي«ملك جميع بلاد المغرب من بجاية إلى السوس الأقصى وبلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان وجميع بلاد الأندلس، وملك ما لم يملكه أبوه وخطب له على ألفي منبر»، ابن أبي دينار، م.س، ص105. رغم أننا لا نتفق مع ما ورد عنده حول تسميته بأمير المؤمنين.

الوسيط. فبعد أن كان الأستاذ العروي قد تحدث عن المغرب الأقصى بكونه في ظل المرابطين أصبح لأول مرة«تحت سلطة واحدة من الشمال الإدريسي إلى الصحراء اللمتونية، مرورا بالشرق الزناتي والوسط البرغواطي، وكانت السلطة مزدوجة عسكرية ودينية»[918]. وبعيدا عن ما وصم به بعض المؤرخين- خاصة الغربيين منهم - تاريخ ملثمي صحراء صنهاجة من انغلاق وتعصب لبني جنسهم، يرى محمد القبلي على العكس أن هؤلاء المرابطين «ظلوا يتعاملون مع مجال حكمهم سواء في بلاد المغرب أو الأندلس كمجال واحد، لا يميزون بين وحداته في أسلوب إدارتهم»[919]. وهي سمة من سمات التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن حكم المرابطين. أما القادري بوتشيش فقد تحدث عن كون المرابطين أسسوا «التجربة الأم التي يرجع إليها الفضل في تعبيد الطريق للتجربة الموحدية التي استفادت من التراكمات الأولية في توحيد الغرب الإسلامي»[920]. وحسب لوتورنو(Letourneau) لم يقتصر دور المرابطين على التأسيس لتجربتهم السياسية في توحيد الغرب الإسلامي، بل تجاوزه إلى «ما بلغته حضارة المرابطين من ازدهار في ذلك الوقت... إلى درجة تشبيهها بالزهرة الجميلة التي كانت قد نمت بسرعة كبيرة»[921]. وأكد عز الدين جسوس أن«أغلبية حواضر المغرب والأندلس ساندت السلطة السياسية المرابطية وساعدتها على توحيد المجال المغربي الأندلسي» [922].

ولعل الخلاصة التي يمكن الخروج بها في خاتمة هذا الفصل، هو أن دخول الأندلس تحت حكم المرابطين قد شكّل مظهرا بارزا من مظاهر توحيد الغرب الإسلامي بكل الرمزية التي أصبحت لمراكش خلال العصر الإسلامي الوسيط والتي ضاهت خلالها بغداد والقاهرة. وإذا كان الدين الإسلامي الثابت الرئيس في وحدة مسلمي بلاد الغرب الإسلامي بكل أبعاده الدينية والحضارية، فإن توحيد هذا المجال الشاسع جغرافيا يُعد عملا سياسيا رائدا خلال العصور الإسلامية الوسطى، بعد أن ارتفع سقف المرابطين بشكل متدرج من عملية توحيد قبائل صنهاجة الجنوب إلى توحيد بلاد المغرب الأقصى والجزء الغربي من

(918)- العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص118.
(919)- القبلي، مراجعات، ص11.
(920)- القادري بوتشيش، قراءة جديدة، م.س، ص86.
(921)- لوتورنو، حركة الموحدين في المغرب، ص20.
(922)- جسوس، موقف الرعية،ص248 - 249.

المغرب "الأوسط"، انتهاء بضم الأندلس وجعلها تابعة للحكم المركزي في مراكش. وهنا أجد نفسي مضطرا لاستحضار فرضية مبنية على إشكالية البحث أصوغها على شكل سؤال:

هل انتزاع الموحدين الحكم من المرابطين يمثل تجربة سياسية جديدة تضعنا أمام حقيقة "قطيعة تاريخية" بين العصرين؟ أم هي تجربة واحدة تشكل وجها لاستمرار وحدة الغرب الإسلامي سياسيا واجتماعيا وحضاريا ؟

الفصل الثالث: مراحل التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن الموحدين

إذا كان من المشهور أن نشأة دولة المرابطين كانت «بذرة للفقيه المغربي عبد الله بن ياسين(ت.451هـ/ 1059م)»[923]بعد أن «شكل تاريخ الملثمين، واستطاع بمعونة أميرهم أن يحقق ما يشبه المعجزة»[924]، فإن صاحب المقدمة يُرجع فضل خروج مصامدة الجبل (درن) من واقع القبيلة إلى الدولة، إلى اجتماعهم «على المهدي وقيامهم بدعوته، فكانت لهم دولة عظيمة أدالت من لمتونة بالعدوتين، ومن صنهاجة بإفريقية حسبما هو مشهور»[925]. وهنا يتساءل محمد القبلي: **كيف يمكن تفسير عودة هذه الحلقات المتكررة الكبرى لنفس التجربة التسلسلية تقريبا؟**

كان الجواب الأولي عن هذا السؤال أن التجربة المرابطية «تكررت مع اختلافات جزئية بمناسبة قيام الحكم الموحدي... ثم مباشرة بعد قيام الحكم المريني بالمغرب في نهاية القرن السابع الهجري أو الثالث عشر للميلاد»[926]. وهو ما يعني أننا أمام سلسلة تاريخية تتكون من حلقات، كل واحدة منها مرتبطة بسابقتها سلبا وإيجابا، بالشكل الذي يدفعنا إلى الحديث خلال هذا العصر عن إنتاج تاريخي تراكمي، يسمح لنا أولا بتقييم التجربة الوحدوية بشكل علمي، من حيث هي تجربة واحدة أم تجربتان، وثانيا محاولة فهم واقع تطور الدولة المركزية التي ربطنا إرهاصات تشكُّلها بالتجربة الجنينية للأدارسة في حكم جزء من بلاد المغرب "الأقصى".

(923)ـ النجار، تجربة الإصلاح في عهد المهدي ابن تومرت، ص46.
«كان عبد الله بن ياسين قد دخل بلاد الأندلس في دولة ملوك الطوائف فأقام بها سبعة أعوام، وحصل فيهاعلى علوم كثيرة» ابن عذاري، البيان، ج4، ص10 .
(924)ـ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، م.س، ص115.
(925)ـ ابن خلدون، ج6، م.س، ص299.
(926)ـ القبلي، المغرب والأندلس والمجال المتوسطي، م.س، ص7.

المبحث الأول: إخضاع الموحدين حواضر المغرب الأقصى بين 539هـ و541هـ (1144م – 1146م)

1- المرحلة الأولى في خُطّة الموحدين لإسقاط حكم المرابطين[927]:

بالنسبة لسياسة الموحدين في إخضاع المدن الرئيسية التي كان المرابطون قد ركزوا عليها أثناء عملية تمهيد الأجزاء الداخلية الشمالية والشرقية لبلاد المغرب الأقصى، نؤسس لها من خلال فرضية نهج الموحدين أسلوبا جديدا في عملية إخضاع تلك الحواضر، بهاجس سياسي منطلقه "أيديولوجي" علاقة بعقيدة التوحيد المهدوية. تلك العقيدة التي كانت سِمتها البارزة استعمال "العنف"[928]. بناء على هذا الأمر هل شكّل ظهور الموحدين بقوة على "الساحة" السياسية المغربية انطلاقا من عام 539هـ/ 1144م بداية عصر جديد سِمته تفتيت المجال والعودة إلى عصر التجزئة؟

أم سنكون بصدد تجربة سياسية هاجسها المحافظة على وحدة المجال الذي ورثه الموحدون عن المرابطين، باعتباره فيئا طبّقوأ عليه قاعدة توحيد المجال في أفق توحيد المذهب؟.

أ- تلمسان منطلق الموحدين في محاصرة حواضر المغرب الأقصى

يبدو أن أهم ما ميّز خطة الموحدين في تمهيد حواضر المغرب الأقصى، قبل سقوط مراكش في يدهم عام 541هـ/ 1146م، اتخاذهم لخط عكسي في استهداف المدن الرئيسة، بعد أن نقلوا مسرح المواجهات الحاسمة بعيدا عن حاضرة ملك المرابطين، محاولة منهم حسم الأمر انطلاقا من شرق بلاد المغرب الأقصى.

(927)- في سياق ما له علاقة بالموضوع، جاء في حديث كتاب "تحيين وتركيب" عن "محاور الغزو" أن « تأسيس أي حكم قائم على المعتقد الأيديولوجي يقتضي اللجوء إلى التدخل العسكري ... صوب اتجاهات ثلاثة أولها مغربي وثانيها مغاربي والثالث أندلسي. ولكي نتمثل هذا الجانب على الوجه الأكمل، ربما كان من المفيد أن نتبنى اتجاها مقارنا من شأنه أن يسمح برسم كل من الفوارق والسمات المشتركة»، التطور السياسي"بالمغرب الوسيط"، ص166.

(928)- كما سنقف على ذلك بتفصيل من خلال بعض مصادرنا، التي اهتمت بموضوع إخضاع الموحدين الحواضر المغربية.

في هذا الإطار دشن الموحدون خطتهم العسكرية في محاولة إسقاط حكم المرابطين بالاستيلاء على تلمسان[929] ثم وهران[930]أولا، وذلك بعد أن فطنوا للقيمة "الاستراتيجية" للجهة الشرقية[931] ودورها في كسر شوكة المرابطين، قبل حصار فاس ومكناس وسلا وصولا إلى مراكش[932]. في هذا الإطار تذكر بعض المصادر أن عبد المؤمن تواجد على مشارف تلمسان منذ عام 539هـ (1044م)،على أعلى الجبل «المعروف بالصخرتين في شهر المحرم مفتتح عام تسع وثلاثين»[933]، وهي نفس السنة التي يذكرفيها ابن عذاري وصول «محلة من بجاية لنصرة تاشفين»[934]. ويظهر أن هذا الدعم العسكري من بني حماد عهد آخر ملوكهم «يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية»[935]، جاء استجابة لنداء تاشفين بن علي وهو يُعد لمعركة فاصلة ضد الجيش الموحدي على مشارف وهران[936].

ونظرا لعدم تمكن الجيوش الموحدية من اقتحام تلمسان بعد امتناع «قصبتها منه»[937]، تركها عبد المؤمن محاصرة وتوجه نحو وهران التي بها دارت الدائرة على تاشفين بن علي[938]. ويبدو أنه حتى بعد مصرع تاشفين بن علي، لم يستطع عبد المؤمن حسم أمر

(929)ـ هي أول بلاد المغرب .. . دار العلماء والمحدثين وأهل الرأي على مذهب مالك: أنظر الحميري، الروض المعطار، ص135.

(930)ـ إذا كان المرابطون قد جعلوا من مراكش، حاضرة دولتهم، عمقا استراتيجيا في الانطلاق نحو مدن الشمال في عملية توحيد المجال، فإن الموحدين على العكس، بدءوا مسلسل تمهيد الحواضر الرئيسية انطلاقا من تلمسان ووهران.

(931)ـ أنظر مقال محمد البركة، المجال واستراتيجية المشروع المرابطي: تلمسان ونهاية الدولة، م.س، ص112.

(932)ـ لوتورنو، حركة الموحدين، م.س، ص 55.. إذا كنا أثناء تتبع خط سير المرابطين في توحيد مجال المغرب الأقصى قد اعتمدنا بصفة خاصة على البيان المغرب والقرطاس والمبتدأ والخبر في جزئه السادس، سنجد أنفسنا أمام ضرورة التوسع في فهم استراتيجية الموحدين في إخضاع بلاد المغرب الأقصى إلى حدود سقوط مراكش بيدهم عام 541هـ بالإعتماد على مصادر رسمية غير محايدة كالبيذق وابن القطان إلى جانب بعض المصادر المشرقية من مثل الحميري وابن الأثير وغيرهما.

(933)ـ ابن عذاري، البيان المغرب (ق. الموحدين)، تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر ومحمد تاويت وعبد القادر زمامة،(الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر)، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 1406هـ - 1985 م. ص17.
جاء عند ابن خلدون إسم « جبل تَيْطري» ج6، 252. المطل على تلمسان ومكان تمركز جيش عبد المومن. بينما ورد في الهامش 123 من " أخبار المهدي" ص58، إسم «جبل ترنى».

(934)ـ ابن عذاري البيان، (ق. المرابطين)، ص103.

(935)ـ ابن خلدون، ج6، ص252. المراكشي، المعجب، ص272.

(936)ـ سنتطرق لهذا الموضوع بتفصيل في إطار علاقة المرابطين ببني حماد في إطار تقييم حدود اتساع التجربة الوحدوية مغاربيا زمن المرابطين. (أنظر الفصل الأول من الباب الثالث).

(937)ـ ابن عذاري، البيان (قسم الموحدين)، م.س، .ص23. الحميري، الروض المعطار، م.س، ص135.

(938)ـ تفاصيل المواجهة أنظر ابن عذاري، قسم المرابطين، ص104. وصف "لاغارديير" تاشفين بن علي ب« القائد العسكري الكبير» :
LAGARDÈRE (Vincent),(1988): «Evolution de la notion du jihad à l'époque Almoravid (1039 –1147)», in: Cahiers de civilisation médiévale, 41e année, n°16, pp:3 -16,p:13.

تلمسان خلال هذه السنة. علما أنه حسب ما نقله صاحب الحلل كان عبد المؤمن قد« بايعه أكثر زناتة المستوطنون بأحواز تلمسان»[939]. فقدذكر صاحب البيان نقلا عن ابن جبير أنه لمَّا وصل إلى أهلها «ما جرى لأهل وهران خافوا خوفا شديدا وفر جميع من كان فيها من لمتونة»[940]. ويتحدث **هويثي ميراندا** نقلا فيما يبدو عن ما جاء في رواية ابن جبير[941] عن القسوة التي تعامل بها الموحدون في حق طلبة وأعيان وتلاميذ الكتاتيب القرآنية بحضور عبد المؤمن، وذلك على يد من سماه "السفاح" يصلاتن[942].فازداد بذلك إصرار سكان تلمسان على التشبث بمدينتهم. وبعد حصار حدده الدارس السابق بين شوال 539هـ/ 1144م وربيع الثاني 540هـ/ 1145م[943]، غادر عبد المؤمن تلمسان« وترك عسكرا يحاصرها»[944]، وفق ما جاء في"البيان المغرب"نقلا عن ابن جبير. وقد أكد ابن صاحب الصلاة، على امتناع «قصبتها منه بمن فيها ممن خاف على نفسه»[945]، وجعل وجهته المقبلة مدينة فاس التي فر إليها المرابطون لإعادة «تنظيم صفوفهم تحت قيادة الصحراوي»[946].وإذا كانت رواية ابن جبير قد أشارت إلى تولية عبد المؤمن «سليمان بن محمد بن وانودين الهنتاتي ورحل إلى مدينة فاس في ربيع الأخير من عام أربعين»[947]، فإن الحميري تحدث عن تمكن الشيخ أبي حفص من إخضاع تلمسان«سنة إحدى وأربعين وخمسمائة غِبِّ مطاولات ومجاولات»[948].ولعلها مؤشرات "كرونولوجية"يمكن أن نفهم منها صمود أهل تلمسان في وجه الموحدين، رفضا لحكمهم وتشبثا فيما يبدو بالمرابطين. ولهذا سيكون ردّ فعل الموحدين قاسيا اتجاههم، بما مارسوه من ترهيب وتقتيل بعد حصار طويل، حوّلوا خلاله المدينة «إلى مجزرة جماعية»[949]، وفق رأي دارس غربي. وهنا

(939)ـ مجهول، الحلل الموشية، م.س، ص130.
(940)ـ ابن عذاري، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص23. أما صاحب الحلل الموشية فقد تحدث عن دخول عبد المؤمن تلمسان « عنوة وقتل أهلها وسبى حريمها»مجهول، م.س، ص135.
(941)ـ ابن عذاري، البيان، م.س، ص23.
(942)ـ أمبروسيو هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للأمبراطورية الموحدية، م.س، ص127.
(943)ـ نفس المرجع والصفحة.
(944)ـ ابن عذاري، البيان، ص23.
(945)ـ المصدر نفسه والصفحة.
(946)ـ هويثي، التاريخ السياسي للأمبراطورية الموحدية، م.س، ص127..
(947)ـ ابن عذاري، م.س، ص23.
(948)ـ الحميري، الروض المعطار، م.س، ص135.
(949)ـ هويثي، التاريخ السياسي للأمبراطورية الموحدية، ص127.

يمكن أن نتساءل عن مدى دور فقهاء المالكية المتمركزين بتلمسان في التحريض على مقاومة الموحدين، الذين كانوا يُطلق عليهم المرابطون إسم "الخارجيين"؟.

ب-إخضاع الموحدين مدينة وهران

إذا كنا قد تحدثنا عن استعمال المرابطين ما سماه صاحب البيان ب"قانون الضغط" لأجل بسط نفوذهم على المدن ذات الأهمية الكبيرة سياسيا واقتصاديا، فإن مجموعة من المصادر تحدثت عن لجوء الموحدين بقيادة الخليفة عبد المؤمن إلى سفك الدماء في حق غير الموحدين، لإجل إخضاعهم والقضاء بسرعة على نظام حكم المرابطين داخل المدن الكبرى، قبل أن يتم حسم الأمر في مراكش. في هذا الإطار أشار الكاتب الأشيري(950)، بناء على ما نقله عن أبي الحسن الطراز كشاهد عيان على أحداث سياسة القتل الجماعي التي استعملها الموحدون، أشار إلىما حصل في حق سكان مدينة وهران الذين«حكم عبد المؤمن قبحه الله بقتلهم فاستُئصلوا عن آخرهم»(951)، وذلك يوم عيد الفطر من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة(952)، كما روى ذلك ابن جبير الذي أكد على اشتداد «القتال على أهل وهران»(953) الذين مات «أكثرهم بالعطش»(954) بعد أن كان قد «قُطع عنهم الماء»(955).

لقد «أبدى الموحدون من ضروب القسوة والغلوِّ في التنكيل بخصومهم»(956) ما جعل صاحب "المنامات والمقامات والرسائل" لما سأله شيخ بغداد أبي المعالي، عن أخبار الدول جهة بلاد المغارب، قال الوهراني: عن أيها تسأل؟ قال له الشيخ: أول ما أسألك عنه «دولة الملثمين وأبناء أمير المومنين»(957). فأجابه الوهراني قائلا:«تلكم أمة قد خلت وروضة أمحلت، أفلت بدورها فتعطلت صدروها، وطلعت نُحوسها فغابت شموسها، وكانوا أشجع من الليوث، وأرم من الغيوث، وأحسن من الأزهار وأبهى من شمس النهار، فلم تزل

(950)ـ أنظر ترجمة للرجل في" أخبار المهدي" للبيذق، ص58، الهامش125.
(951)ـ ابن عذاري، البيان المغرب، م.س، ص22.
(952)ـ المصدر نفسه والصفحة.
(953)ـ نفسه والصفحة.
(954)ـ نفسه والصفحة
(955)ـ الحميري، الروض المعطار، ص135.
(956)ـ بولطيف لخضر محمد، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، م.س، ص139.
(957)ـ الوهراني (ركن الدين محمد بن محمد بن محرز)، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش، مراجعة الدكتور عبد العزيز الأهواني، كولونيا – ألمانيا، منشورات الجمل، 1998م، ط.1، ص 11.

بدولتهم صروف الليل، حتى صيّرتهم كطيف الخيال تنوح عليها القصور والمنابر، وتبكي لها الأقلام والمحابِرُ»[958]. قال الشيخ فما تقول في عبد المؤمن وأولاده وسيرته في بلاده؟ أجاب الوهراني قائلا:«مؤيد من السماء، خوّاض للدماء، مسلط على من فوق الماء، حكّم سيفه في القِمم، وأعمله في رقاب الأمم، حتى خضعت له التيجان... ولو أن للعِلم لسانا وللورقة إنسانا لتألّمت وتظلّمت، ولأنشدتك في الملا، قول الشيخ أبي العُلا:

جلَوْا صارما وتلَوْا باطلا ** وقالوْا صدِقنا فقلنا نعم

لكن السكوت عن هذا أرجح ومسالمة الأفاعي أنجح وعند الله تجتمع الخصوم «[959].

2- المرحلة الثانية من حصار الموحدين حواضر المغرب الأقصى الداخلية:

أ- حصار فاس[960]:

بعد حسم الموحدين موضوع وهران وتلمسان، تحدث البيذق عن إقلاع الخليفة عبد المؤمن «من تلمسان يريد المغرب بعد توحيد المشرق كله»[961]. وفي طريقه إلى فاس «نزل على وجدات فأخذها ووحّد أهلها.. وقلع منها إلى أكرسيف»[962] التي وجد بها مقاومة ممن حسبهم البيذق ثوارا[963]. وعندما أشرف عبد المؤمن على فاس من مرتفعات

(958)ـ المرجع نفسه والصفحة.

(959)ـ نفسه، ص 11-12. تشهد بعض المصادر على استعمال عبد المؤمن السيف وسفك الدماء سبيلا لإخضاع سكان الحواضر والمناطق التي غزاها، وقد كان تركيزه فيما يظهر لنا، بعد مصرع تاشفين بن علي، على مراكش. وهو ما يمكن أن نفسر به عدم مكوثه طويلا بالمدن التي مر بها جيشه، واستخلافه على كل مدينة أشياخ الموحدين العسكريين. أنظر ابن الأبار، الذيل والتكملة، السفر 1، تحقيق بنشريفة، 228. ابن دحية، المطرب، م.س، ص27. أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، م.س، ص234.

(960)ـ لم يأت البيدق على ذكر ما مارسه الموحدون من مجازر في حق سكان تلمسان ووهران، وتحدث عن " استفتاح فاس": البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، ص60.

(961)ـ البيذق، أخبار المهدي. م.س، ص60.

(962)ـ نفس المصدر والصفحة.

(963)ـ أنظر بعض التفاصيل لنموذجين من بعض الثوار الذين وجدهم الموحدون في طريقهم نحو فاس:

E. Levi Provincal, Documents inédits d'histoire almohade, fragments manuscrits du" Legajo " 1919, du fond arabe de l'Escorial, publiés et traduits avec une introductionet des notes librairie oriontaliste Paul Geuthner,13 rue Jacob, Paris 1928.P: 161.

وجدنا بروفنسال يتحدث بنفس منطق البيدق الذي تحدث عن توحيد المشرق كله، مما جعله يسقط في خطأ منهجي يتمثل في حديثه خلال هذه المرحلة التي لازالت لم تسقط فيها مراكش في يد الموحدين، عن «سقوط الشرق في يد الإمبراطورية الموحدية» نفس المرجع والصفحة.

جبل زلاغ، ارتجَّ أهلها «وقالوا الخارجيون في زلاغ»[964]. ويظهر من خلال ما ذكره البيذق أن عبد المؤمن خرج من فاس التي فرض على أهلها الحصار وسارع نحو مكناسة التي وردت منها بعض الأخبار التي تحدثت عن قتل يدّر بن ولكوط الكتيبة الاستطلاعية الموحدية[965]. وسيتم «استفتاح فاس عام أربعين وخمسمائة»[966]، ونفس هذا التاريخ أكّده صاحب البيان، إلا أنه اعتبر الموضوع استيلاءً «على [مدينة] فاس بعد حصارها سبعة أشهر»[967]. بينما صاحب الحلل تحدث عن المبالغة في حصار فاس«نحو تسعة أشهر وأهلها يقاتلونه خارج البلاد»[968]. ورغم مصرع تاشفين بن علي، يظهر أن أهل المدن ومن ضمنهم أهل فاس[969] ظلوا متشبثين بالحكم القائم الذي كان يرمز لتجربة وحدوية غطت بظلالها مجموع تراب الغرب الإسلامي. وهذا ما نفهمه من كلام لوتورنو الذي ربط بين رفض أغلب المدن فتح أبوابها للموحدين، وتعلُّق سكانها بالمرابطين تعلقا قويا، لما استفادوه من الرخاء والنعم في ظل حكمهم[970].

ب- حصار مكناسة:

يرى صاحب "البيان" أن عبد المؤمن لما وصل من فاس إلى مكناسة «برز عليها وجدَّ في حصارها»[971]، لمدة سبع سنوات حسب صاحب القرطاس، بعد أن «دخلها بالسيف، وذلك يوم الأربعاء الثالث لجمادى الأولى من سنة ثلاث وأربعين المذكورة، وخربت وقتل أكثر رجالها»[972]. غير أن هذه المدة الزمنية لهذا الحصار طويلة جدا وغير منسجمة مع "كرونولوجيا" الأحداث. إذ لا يمكن أن يكون حصار الموحدين لمكناس قد بدأ عام

(964)ـ البيدق، أخبار المهدي، م.س، ص60. أنظر تعريف جبل زلاغ عند الوزان، وصف إفريقيا، ج.1، ص293-294 وكاربخال، إفريقيا، ج2، ص180.
(965)ـ البيدق، م.س، ص62.
(966)ـ البيدق، أخبار المهدي، ص63. / أنظر القرطاس، ص189.
(967)ـ ابن عذاري، البيان، (ق. الموحدين)، ص 24.
(968)ـ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص136.
تبين لنا من خلال إشارة مصدرية أن أمر فاس حُسِم بعد بروز خيوط مؤامرة كان زعيمها والي فاس الجياني الذي فتح أبواب باب الفتوح للموحدين مقابل طلب المال، ويرجع ذلك إلى النزاع الحاصل بينه وبين القائد العسكري المرابطي الصحراوي. أنظر بعض التفاصيل عند ابن عذاري، البيان المغرب (ق.الموحدين)، ص24.
(969)ـ هناك إشارة لابن أبي زرع تحدث فيها عن دخول « عبد المومن مدينة فاس وأمّن أهلها إلا من بها من المرابطين»، القرطاس، ص189.
(970)ـ لوتورنو، حركة الموحدين، م.س، ص55.
(971)ـ ابن عذاري، البيان، (ق.الموحدين)، ص24.
(972)ـ أنظر ابن ابي زرع، القرطاس، ص191،

536هـ(1141م)، منذ حكم علي بن يوسف بن تاشفين. علما أن صاحب الروض الهتون حصر هذا الأمر في«أربع سنين وأشهر»[973].

لكن ما يجمع بين هذه المصادر أن مدة الحصار كانت طويلة، مما يدل على استعصاء المدينة على الموحدين الذين لم يستطيعوا إخضاع سكانها إلا بعد سقوط مراكش بأكثر من سنتين[974] علما أن سكان جبال زرهون «أعانوهم على محاصرة مدينة مكناسة»[975]بعد أن رتّب عبد المؤمن«عسكرا يقيم عليها»[976]. ولعل أهم ما ميز هذا الحصار حسب ما فهمناه من ابن غازي، لجوء الموحدين إلى حفر خنادق على المدينة «خوفا من مَعَرَّةِ أهل البلد»[977]. الأمر الذي جعل صاحب الحلل يشبّه وضع أهلها وكأنهم «في سجن لا يقدرون على الخروج منها لا شرقا ولا غربا»[978]. وذلكبما علِموه من جرأة لديهم إلى جانب«شجاعة عاملها يدّر بن ولكوط»[979]. ويبدو لنا أن أهل مكناسة ظلوا غير وفيّين للحكام الجدد طيلة حكمهم، إذ كانوا سباقين إلى تقديم ولائهم للحفصيين في إفريقية خلال مراحل ضعف الدولة الموحدية.

وإذا كان المرابطون قد دخلوا مكناسة عن طريق هدنة واستعداد أهلها للقبول بهم حكاما جددا وفق شروط[980]، فإن الموحدين لجئوا إلى حصار المدينة طويلا لإرغام أهل مكناسة على الاعتراف بهم حكاما جددا، خاصة بعد سقوط مراكش عام 541هـ/ 1146م. وكأننا أمام تشبثهم بما تحقق على يد المرابطين من وحدة سياسية شملت بلاد العدوتين. وقبل بلوغ خط سير الموحدين مرحلته الحاسمة في غزو المجال الحضري للمغرب الأقصى، توجه عبد المؤمن في طريقه إلى مراكش، نحو مدينة سلا التي كان المرابطون قد تمكنوا بداية

(973)ـ ابن غازي (العثماني محمد)، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة، المطبعة الملكية، الرباط، ط.2، 1408هـ/ 1988م، ص26 -27.

(974)ـ يبدو لنا أن أحد عوامل تأخر عبد المؤمن في التوجه نحو بجاية لإسقاط حكم بني حماد، إلى جانب ثورة الماسي، قضية عدم خضوع مكناسة إلا عام 543هـ/ 1148م.

(975)ـ ابن غازي، الروض الهتون، م.س، ص23.

(976)ـ ابن عذاري، البيان، ص25.

(977)ـ ابن غازي، الروض الهتون، ص20.

(978)ـ مجهول، الحلل الموشية، ص136.

(979)ـ ابن غازي، م.س، 20. تحدث البيدق عن قتل يدر بن ولكوط عسكر عبد المؤمن الذين بعثهم وهو فاس لأجل الاستطلاع على الوضع في مكناسة. أخبار المهدي، م.س، ص62.

(980)ـ ابن عذاري، البيان، (ج4)، 27.

شق طريقهم نحو الداخل المغربي، من إخضاع قبائلها من غير قتال[981]. بينما مع الموحدين يظهر أن المدينة على غرار ما سيكون قد بلغ سكانها من شدة مقاومة فاس ومكناسة لعبد المؤمن، «امتنع أهلها منه»[982]، قبل أن يخضعها لسلطانه ويتوجه في الحادي عشر من ذي الحجة (540هـ/ 1145م) إلى «منازلة مراكش»[983].

ت-إشكالية بيعة سبتة من خلال المصادر

ظلت سبتة بقيادة فقيهها المالكي القاضي عياض تتمتع بثقل سياسي وديني واستراتيجي طيلة سريان التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين. فبعد أن كانت القاعدة الأساسية في عبور المرابطين إلى الأندلس، ظلت تشكل معقلا رئيسا للمذهب السني المالكي. وبناء على هذا الأمر، لم يكن من السهل على الموحدين إخضاع هذه المدينة بالشكل "المُبسط" الذي تحدثت به بعض المصادر. فقد وردت إشارة لابن عذاري تتحدث عن كون أهل سبتة « بايعوا عبد المؤمن من قبل فتح سلا»[984]. أما ابن خلدون فقد أشار إلى أن عبد المؤمن بعد أن ارتحل «من فاس إلى مراكش وصلته في طريقه بيعة أهل سبتة، فولى عليهم يوسف بن مخلوف من مشيخة هنتاتة، ومر على سلا فافتتحها بعد مواقعة قليلة.. ثم تمادى إلى مراكش»[985].

لكن يظهر من خلال سياق الأحداث أن كلتا الروايتين لا تتمتعان بالدقة التي تدفعنا إلى الاقتناع بورود بيعة أهل سبتة في هذا الوقت، الذي لم تكن فيه مراكش قد سقطت بعد في يد الموحدين[986]. علما أن مثل هذا الخبر لم يرد عند صاحب القرطاس ضمن كرونولوجية

(981)ـ نفس المصدر نفسه، ص26.
(982)ـ نفسه.(قسم الموحدين)، ص25.
(983)ـ نفس المصدر والصفحة. علما أن أهل سلا سيثورون في وجه الموحدين بعد قيام ثورة الماسي على غرار ما قام به سكان سبتة حتى بعد تقديمهم بيعة القاضي عياض بمختلف ملابسات تلك البيعة.
(984)ـ نفس المصدر، ص26.
(985)- ابن خلدون، ج6، ص. 309 – 310. الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضود، المكتبة العتيقة، جامع الزيتون، تونس، ط2، 1966، ص8.
كان صاحب البيان قد أشار إلى امتناع أهل سلا منه، لكن بعد أن تغلب عليها « أمّن أهلها ورتب أحوالها» ابن عذاري، البيان، (ق. الموحدين)، ص25. لكن بعد ظهور حركة الماسي في سوس قتل أهل سلا عاملها ولم يرجعوا إلى طاعة الموحدين إلا بعد قضاء الموحدين على ثورته (نفس المصدر والصفحة). أنظر: ثورة الماسي السلاوي. ابن خلدون، ج6، ص310.
(986)- إذا كان ترويج الرواية المشرقية لمثل هذه الأحداث دون رَويّة ـ نظرا لعامل البعد الجغرافي ـ أمرا مُتفهما، فإن ورود خبر بيعة أهل سبتة بهذه الصورة الوصفية الإخبارية والسريعة عند ابن عذاري وابن خلدون، أمر يضع

الأحداث التي أوردها بخصوص هذه المرحلة[987]. أكثر من هذا نحسب أن حدث بيعة أهل سبتة في هذا الوقت، كان سيلتقطه مؤرخ الموحدين البيذق على وجه السرعة خدمة لمشروع الموحدين في إطار الدعاية لهم كحكام شرعيين. إذ بعد حديثه عن مغادرة «الخليفة رضي الله عنه مع الموحدين أعزهم الله بأجمعهم إلى مكناسة»[988]، انتقل مباشرة للحديث عن موضوع «استفتاح مراكش»[989]، التي حسب أحد الباحثين «خلّدت ذكرى العنف الموحدي»[990] بعد الوقائع المؤلمة لعملية ما عرف ب"التمييز" التي شهدها تاريخ المغرب الأقصى مستهل الدعوة الموحدية. وقد فسّر صاحب أطروحة " فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي"لجوء الموحدين إلى نهج الأسلوب"الدموي" في إخضاع حواضر المغرب الأقصى - التي لا تخلو فيما نحسب من تأثير العقيدة المذهبية للمهدي بن تومرت - إلى «إفلاس الدعاية السياسية الموحدية خارج المجال المصمودي»[991].

وإذا علمنا أن أحد علماء حاضرة سبتة وأحد أبرز فقهائها وقضاتها، كان أحد أعمدة الحكم المرابطي ورمزا لإشعاع وقوة المذهب المالكي السني داخل الغرب الإسلامي، فإن موضوع بيعة أهل سبتة للموحدين، أمر يراودنا فيه الشك. ذلك أن خط سير الجيش الموحدي كان بعيدا كل البعد عن سبتة إذا افترضنا أن أهلها خافوا من أن تُسفك دماؤهم. علما أنه ليس من السهل اختراق تلك المدينة الحصن في هذا الوقت الذي لم يحسم فيه الموحدون بَعدُ أمرهم مع المرابطين في حضرة مُلكهم مراكش التي ترمز للسيادة المرابطية. لكن الشيء المؤكد تجسد في إظهار سكان سبتة معارضتهم للحكم الجديد بعد سقوط مراكش في يد الموحدين، رغم أن محمد بن عياض (ت575هـ/ 1179م) ادعى أن

الدارس أمام مشكل تقريب الحدث من الأذهان بعيدا عن التناقضات. إذ يبدو لنا أن اختراق عبد المؤمن مجالا مرابطيا كان يحتضن إلى عهد قريب تجربة وحدوية في ظل دولة قائمة، لم يكن من السهل عليه إخضاعه إلا على الطريقة "الدموية" التي تحدثت عنها المصادر بمختلف مشاربها.

(987)- ابن خلدون، ج6، ص. 309 – 310. والزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضود، المكتبة العتيقة، جامع الزيتون، تونس، ط2، 1966، ص8.

لكن بعد ظهور حركة الماسي في سوس قتل أهل سلا عاملها ولم يرجعوا إلى طاعة الموحدين إلا بعد قضاء الموحدين على ثورته (نفس المصدر والصفحة). أنظر: ثورة الماسي السلاوي. ابن خلدون، ج6، ص310.

(988)- البيدق، أخبار المهدي، ص63.

(989)- المصدر نفسه والصفحة.

(990)- بولطيف لخضر، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، ص141.

(991)- نفس المرجع، ص142.

والده «بادر بالمسابقة إلى الدخول في نظام الموحدين»[992]. بل ونفى أية صلة بين ثورة سبتة وبين والده. إذ أن معارضة السبتيين من وجهة نظره تمت «من غير رضى منه»[993]. وهو ما يُناقض إشارة مصدرية لابن زرع، تحدث خلالها عن موضوع ثورة سبتة، وأنه كان«برأي قاضيهم عياض ابن موسى»[994]. بل وما يمكن أن يؤكد هذا الأمر بشكل قاطع، هو ورود اسم القاضي عياض ضمن لائحة الثائرين المنافقين على الأمر العزيز حسب تعبير البيذق، وأنه في آخر المطاف « وحّد وجاء إلى أمير المؤمنين»[995].

ث-سقوط حاضرة مراكش في يد الموحدين عام 541هـ(1046م)

حسم الموحدون أمر مراكش بعد أن دخلوها «عنوة من باب إيلان وقتلوا جميع من أدركوا من اللمتونيين»[996]، وكانت حضرة الغرب الإسلامي آنذاك قد صمدت في وجه الموحدين حوالي «تسعة أشهر وثمانية عشر يوما»[997]، حتى «أكل الناس دوابهم»[998] و«اتبع السيف سائرهم»[999]، فيما يمكن أن نحسبه "عقابا جماعيا"، كالذي حصل ضد كل من شكك في مهدوية ابن تومرت مستهل الدعوة الموحدية. ويشير في هذا الإطار أحد الباحثين إلى القسوة الشديدة التي واجه بها عبد المؤمن «كبراء دولة المرابطين»[1000]. علما أن موضوع سفك الدماء لم يقتصر على أمراء المرابطين وكبرائهم، بل تجاوزه إلى عامة الناس، من الذين لم يقبلوا بالموحدين حكاما عليهم[1001]. وبسقوط مراكش في يد الموحدين بدأ تشوّف عبد المؤمن لكل من الأندلس وبلاد المغارب، علما أن التحدي الكبير الذي واجهه عبد المؤمن قبل عملية وضعه اليد على مجال العدوتين، تمثل في التصدي للثورات التي قامت في وجه الموحدين داخل بلاد المغرب الأقصى .

(992)- محمد بن القاضي عياض، التعريف بالقاضي عياض، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، يناير 2009، ص 11-12.
(993)- نفس المصدر، ص 12.
(994)- ابن أبي زرع، القرطاس، ص191.
(995)- البيدق، أخبار المهدي، ص86.
(996)- ابن عذاري، البيان، (قسم الموحدين)، ص 27.
(997)- المصدر نفسه والصفحة.
(998)- ابن ابي زرع، القرطاس، ص138.
(999)- نفس المصدر، ص137.
(1000)- مارمول كاربخال، إفريقيا، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، تعريب : محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، المعارف الجديدة، الرباط، 1404هـ/ 1984، ج.1، ص338.
(1001)- نفس المرجع والصفحة.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه في خاتمة مبحث تمهيد الموحدين حواضر المغرب الأقصى بداية من 539هـ (1144م)، وانتهاء بإسقاط حكم المرابطين في مراكش عام 541هـ (1146م) هو: **هل إطاحة الموحدين بدولة المرابطين**- التي استطاعت كعصبية قبلية من جنوب الصحراء توحيد رقعة جغرافية شاسعة من مجال الغرب الإسلامي ـ **معناه إنهاء موضوع التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي؟ أم نحن إزاء عملية إعادة بناء تجربة وحدوية جديدة على أنقاض التجربة السابقة؟**

المبحث الثاني: التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن الموحدين

حتى نحافظ على التسلسل السليم لمقاربة موضوع تجليات التجربة الوحدوية بالأندلس زمن المرابطين والموحدين، أرجع إلى التساؤل الذي افتتحنا به موضوع تجليات التجربة الوحدوية ـ الذي اقتبسناه من الأستاذ محمد القبلي ـ المتعلق بكيفة تفسير عودة هذه الحلقات المتكررة الكبرى لنفس التجربة التسلسلية تقريبا[1002]. حيث ضرب لهذا الأمر بمثال التجربة المرابطية التي«تكررت مع اختلافات جزئية بمناسبة قيام الحكم الموحدي... ثم مباشرة بعد قيام الحكم المريني بالمغرب في نهاية القرن السابع الهجري أو الثالث عشر للميلاد»[1003].

هذا السؤال المركزي يدفعنا إلى محاولة مراقبة خط سير التجربة الوحدوية مع التطلعات الجديدة للموحدين الطامحين إلى تملُّك كامل المجال الذي كان تابعا للمرابطين، وعلى رأسه بلاد الأندلس. فكما هو معلوم دخلت الأندلس مرحلة سياسية انتقالية يمكن أن يُعبّر عليها بمرحلة "فراغ سياسي" منذ اشتداد وطأة الصراع بين المرابطين والموحدين أواخر العقد الرابع من القرن السادس الهجري (ق.12م). فقد دخلت الأندلس خلال هذه المرحلة طور تفتت "المشهد السياسي" الأندلسي من جديد، بعد ظهور المريدين في غرب الأندلس كحركة دينية معارضة تحت قيادة ابن قسّي، مقابل خروج مجموعة من الفقهاء بقيادة ابن حمدين

(1002)- القبلي محمد،المغرب والأندلس والمجال المتوسطي مقدمات أولية وملاحظات، سلسلة الدروس الافتتاحية (الدرس الرابع)، مطبعة ناضاف - أكادير، السنة الجامعية 1992 - 1993، ص 7.
(1003)- القبلي، الدولة والولاية والمجال بالمغرب الوسيط، م.س، ص17.

عن طاعة المرابطين، أما في شرق الأندلس فقد استولى بنو مردنيش على الحكم في هذا الجزء المهم.

1- ظروف إخضاع الموحدين للأندلس:

أ- دور فقهاء المالكية الأندلسيين في منح الشرعية للحكم الموحدي

في حقيقة الأمر يجد الباحث نفسه حائرا أمام حدث دخول الأندلس في طاعة الموحدين بالسرعة التي أوحت بها بعض المصادر. إذ كيف يستقيم أمر السيطرة الموحدية على الجزء الغربي من الأندلس، والعاصمة مراكش لا زالت تحت قبضة المرابطين؟ بل واعتبر صاحب رسائل موحدية أن سقوط مراكش في يد الموحدين لم يكن «فتحا نهائيا للمغرب، وإنما كان عليهم أن يواجهوا عددا من الثورات، خاصة ثورة قبائل الجنوب تحت قيادة الماسي[1004]. وهذا الأمر يُناقض الوضع الذي صوّره المراكشي الذي ذكر أنه «لما انتشرت دعوة المصامدة بالمغرب الأقصى، تَشَوَّف إليهم أعيان مغرب الأندلس، فجعلوا يَفِدون في كل يوم عليهم، ويتنافسون في الهجرة إليهم، فدخل في ملكهم كثير من جزيرة الأندلس»[1005]. **فهل هذا المؤشر المصدري يضعنا أمام حقيقة الوجود المبكر للموحدين على أرض الأندلس؟**علما أن المرابطين ظلوا طيلة حياة علي بن يوسف يحققون انتصارات مهمة على الممالك النصرانية أبرزها في "إفراغة"[1006]عام 528هـ/ 1133م. كعلامة على سيادة مطلقة لهم على بلاد الأندلس[1007].

(1004)- عزاوي(أحمد)، رسائل موحدية مجموعة جديدة، تحقيق ودراسة، ج.1، منشورات كلية الآدابوالعلوم الإنسانية بالقنيطرة، سلسلة نصوص ووثائق رقم 2، ص61.

(1005)- المراكشي،المعجب، ص28 .

أنظر بعض التفاصيل التي ذكرها ابن عذاري حول دور قائد البحر علي بن عيسى بن ميمون في الدعاية للموحدين في قادس في أول عام 450هـ/ 1145. ومرافقته لابن قسي إلى سبتة التي كانت في قبضة الموحدين ومنها إلى عبد المؤمن وهو بجبل العرض قرب فاس. كما ذكر جواز العسكر الموحدي مع أحمد ابن قسي، نقلا عن ابن صاحب الصلاة، نحو الغرب الأندلسي وبداية تجييش الجيوش للدخول إلى اشبيلية. البيان المغرب، . الموحدين)، ص 34 – 35.

(1006)- أنظر: مصادر عربية: الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص48-49. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (مج9)، ص287.ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، من الصفحة 407 إلى الصفحة 415.

D.FRANCISCO CODERA, la historia catedratico de lengua Arabe, p:26

(1007)- أنظر الجدول الملحق رقم: 1، أطروحة المرتضى محمد : جدول لأهم الحملات العسكرية التي قادها تاشفين بن علي في الأندلس تحت إمرة والده، من عام 520هـ/ 1126م إلى 531هـ/ 1137م، الأندلس في سياسة الدولة المرابطية بين الإنقاذ والاستحواذ، أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله - كلية الأداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس، 2019، ص60 و61.

أشار ابن عذاري إلى أن أول وفد"رسمي" من الأندلس والذي تزعمه الفقيه والقاضي المالكي أبو بكر ابن العربي[1008]، حل بمراكش «في شهر ذي الحجة»[1009] من عام إحدى وأربعين وخمسمائة، فقدّم أعضاء الوفد لعبد المؤمن «بيعة أهل اشبيلية، مشهودة بخطوطهم، فقبلها منهم واستحسن فعلهم»[1010]. وكانت هذه الزيارة قد تزامنت مع ثورة الماسي، وتراجع أهل سبتة عن بيعتهم[1011].

بِغضِّ النظر عن الفارق الزمني بين المصدرين في تحديد بداية العلاقة بين الأندلسيين والموحدين مستهل العقد الخامس من القرن السادس الهجري(.12م)، وكذا الفرق في السياق المُحدد لتلك العلاقة، نجد أنفسنا أمام بعض التساؤلات من قبيل، **هل نحن أمام سبقٍ لأعيان الأندلس ونخبها العالمة قبل رَعِيّتِها في الترحيب بالحكم الجديد بدافع "التطبيع" مع حكام المغرب الجدد للمحافظة على مصالحها**[1012]**؟. أم إن النخبة الأندلسية من فقهاء المالكية والأعيان، أرادوا بُمسارعتهم للاعتراف بالموحدين حكاما لهم، وَأْدَ الفتنة ولو بالخضوع لحكم جديد جاء عن طريق فرض الأمر الواقع؟** ثم ألا يمكن أن يكون رسالة من النخبة العالمة للممالك النصرانية من أن الاستنجاد بالمغاربة هو ثابت من الثوابت التي تجعل الأندلس قوية من خلال الحفاظ على عمقها المغربي؟

إذا بدأنا بالتساؤل الأخير، يظهر أن استغلال ملوك نصارى الشمال فرصة انسحاب أغلب الجيوش المرابطية نحو عدوة المغرب لمواجهة جيوش عبد المؤمن، فبدءوا مسلسل استباحة المجال الأندلسي طيلة سنوات المرحلة الانتقالية الممتدة بين 540هـ/1145م

(1008)- « ألقى أبو بكر بن العربي خطبة بليغة كانت محل استحسان من عبد المؤمن» سعيد أعراب، مع القاضي أبي بكر بن العربي، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1407هـ/ 1987م، ص 118– 119.

(1009)- ابن عذاري، البيان المغرب (ق.الموحدين)، م.س، ص33. بينما صاحب الأرب تحدث عن نفس الحدث ولكنه نسبه إلى مجموعة من الأعيان وليس الفقهاء وجعل على رأسهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن حمدين. النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني،ج24، ص164.

(1010)- مؤلف أندلسي، الحلل، ص148. ابن عذاري، البيان المغرب (ق. الموحدين)، م.س، ص33

(1011)- يرى سعيد أعراب أن ابن العربي قُدّر له « أن يرى سقوط دولة آل عباد على يد يوسف بن تاشفين في أول شبابه، وشاءت له الأقدار أن يشهد انهيار صرح الدولة المرابطية على يد الموحدين في أخريات حياته»،مع القاضي أبي بكر بن العربي، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1407هـ/ 1987م، ص118.

(1012)- سنأتي على ذكر بعض الأمثلة حول مثل هذه الاتهامات التي ترد في بعض المصادر والتي على أساسها يبني بعض الدارسين آراءهم في هذا الموضوع.

و543هـ/ 1148م. ذلك أن«الفرنج كانوا قد ملكوا من بلاد المسلمين مدينة شنترين وباجة ومارِدة وأشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها، وذلك في سنة أربعين وخمسمائة»[1013]. وقد ربط النويري هذا الأمر بما «وقع من الاختلاف بين المسلمين، فطمع العدو فيهم»[1014]. وفي عام 542هـ/ 1147م ملك نصارى الشمال كذلك، «مدينة ألمرية ومدينة بياسة وجميع ولاية جيان»[1015]، مستغلين ما يُفهم منه نوعا من قابلية نفسية لفئات من الأندلسيين للعيش مرة أخرى تحت جناح الممالك النصرانية. ورغم سقوط إشبيلية في يد الموحدين بمساعدة أندلسيي الغرب في« الثاني عشر من شعبان المكرم من سنة إحدى وأربعين»[1016]، فإنهم مع ذلك شكّلوا جزءا من الفوضى السياسية التي شهدتها الأندلس خلال هذه المرحلة الانتقالية من الثورة في وجه المرابطين الذين يرجع لهم الفضل في توحيد العدوتين[1017].

هذا الوضع الذي كان ينبئ بتفجر الوضع ورجوع الأندلس إلى واقع الانقسام والتجزئة، لا يدفعنا إلى ما ذهب إليه صاحب المعجب من امتلاك الموحدين للأندلس في هذا الوقت المبكر، وذلك بالنظر أولا لتمكن النصارى، كما بيّنا ذلك، من احتلال أجزاء مهمة من المجال الأندلسي، وثانيا لأن الموحدين وجدوا صعوبات كبيرة في إخضاع حضرة المرابطين مراكش، بعد أن طال حصارها، ولم تسقط في يد عبد المؤمن إلا« يوم السبت الثامن عشر لشوال من عام أحد وأربعين وخمسمائة»[1018]. وثالثا لكون الموحدين حتى بعد قضائهم على المرابطين واحتلال مراكش، وجدوا أنفسهم أمام ثورة الماسي[1019] في الجنوب المغربي. ولعل مع مثل هذه المعطيات لا يظهر لنا أنه من المناسب الحديث عن وجود فعلي للموحدين على أرض الأندلس قبل 543هـ/ 1148م، عندما بدأت تظهر بعض

(1013)- النويري، نهاية الإرب، ص164-165.
(1014)- المصدر نفسه، ص165.
(1015)- نفسه والصفحة.(أنظر تراجم مدن شنترين وبيّاسة ولاردة. هامش نفس المصدر، ص165).
(1016)- ابن عذاري، البيان، (ق. الموحدين)، ص35.
(1017)- انظر عيث الموحدين الأوائل الذين حلّوا باشبيلية، المصدر السابق، ص36 - 37.
(1018)- نفس المصدر السابق، ص27.
(1019)- عبد الله حمادي الإدريسي، قاعدة المغرب الأقصى قبل فاس. سجلماسة ووريثتها تافيلالت تاريخا وأمجادا وجهادا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1991، ص162. أنظر ترجمة الرجل عند ابن عذاري، البيان، ص30 -31.

ملامح استقرار الأوضاع السياسية، إذ أمر حينها «أبو محمد عبد المؤمن بالكتب للبلدان لما استقر بمراكش مريحا للنظر في مصالح المسلمين وقوام أمر الموحدين»[1020].

وبالرجوع إلى موضوع بيعة الأندلسيين لعبد المؤمن، وطلبهم «النصرة على الفرنج»[1021] والوفاء بما رأى فيه أحد الباحثين بيعة مشروطة «بالتزام الخليفة عبد المؤمن بالقيام بواجب الدفاع عن الأندلس من الهجمات النصرانية»[1022]، يمكن أن نفهم منه أن الهدف من زيارة الوفد الإشبيلي الذي ترأسه ابن العربي، له علاقة بمصلحة عامة تتعلق بحفظ كيان الأندلس من العودة إلى واقع ملوك الطوائف مرة أخرى[1023].

ولعل من تجليات بداية أخذ التجربة الوحدوية زمن الموحدين طريقها بعد استتباب الأمن، قرار جواز الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس لمّا تجرّأ ألفونسو ملك أراجون، على حصار قرطبة عام 545هـ/1151م حوالي ثلاثة شهور. فجهز الخليفة الموحدي «اثني عشر ألف فارس ومقدمهم أبو زكريا يحيى بن يومور فساروا حتى قربوا قرطبة»[1024]. علما أن عبد المؤمن وهو يحاول إثبات قوة التواجد الموحدي داخل عدوة الأندلس، كانت عينه على بلاد صنهاجة الشمال (بنو حماد وبنو زيري) التي اهترأ فيه حكم بني حماد وانمحى فيها حكم بني زيري فأصبحت نهبا للعرب ونصارى النورمان[1025].

ب- سياسة عبد المؤمن في استمرار تجربة الوحدة بين الأندلس وبلاد المغرب

يظهر أن التحدي النصراني سيُوَلد الرغبة لدى عبد المؤمن لكي يكسب شرعية حكم تَرِكة المرابطين، بالجواز نحو الأندلس واجتماعه برؤسائها للنظر في كيفية «غزو الروم

(1020)- ابن عذاري، البيان (ق. الموحدين)، ص37.
(1021)- ابن الأثير (عز الدين ابو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني) الكامل في التاريخ،ج9، ص342-343.النويري، نهاية الأرب، ج24، ص164.
(1022)- محمد العمراني، الموحدون في الأندلس: الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع من 541هـ/1147م إلى 609هـ/1212م، مساهمة في استحضار الذاكرة التاريخية المشتركة المغربية الإيبيرية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، ط1، ج1، 2020، ص51.
(1023)- هنا يبدو لنا الحديث عن زيارة وفد أندلسي بقيادة ابن حمدين عبد المؤمن في مراكش أمر مشكوك فيه، وذلك بالنظر لمحاصرة ابن غانية له واضطراره طلب العون من النصارى.
(1024)- النويري، نهاية الأرب، (ج24)، ص165.
(1025)-سنتطرق بتفصيل لعلاقة الموحدين بمجال بني حماد في جزء من المغرب الأوسط وعاصمته بجاية، وبلاد إفريقية من خلال موضوع تجليات التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن الموحدين(في الفصل الثاني من الباب الثالث).

المحاربين»[1026]. وهنا نكون فيما نحسب أمام قاسم مشترك بين الموحدين والمرابطين ويتعلق الأمر بجهاد نصارى الشمال في الأندلس ونصارى النورمان في إفريقية، بما نفهم منه استمرار أهداف ترسيخ تجربة وحدة الغرب الإسلامي سياسيا، وأننا أمام ما يمكن اعتباره تجربة واحدة رغم اختلاف طبيعة نظام الحكم، وهو ما ترمز إليه حسب فهمنا محافظة الموحدين على مراكش كحضرة لبلاد العدوتين.

ـــــ إن مسار محافظة الموحدين على وحدة الغرب الإسلامي كما كان عليه الأمر زمن الحكم المرابطي، صادف الكثير من التحديات التي واجهت عبد المؤمن، إذ تزامن خط سير إعادة توحيد بلاد الأندلس مع خط توحيد بلاد المغارب، والذي اكتمل بمشهد توحيد أهل تونس وطرد الصقليين النورمان من المهدية[1027]عام 555هـ/1161م. قبل أن يجوز في نفس هذه السنة إلى العدوة الشمالية[1028] التي استقبله «من شيوخها وطلبتها وقضاتها أبي بكر الغافقي وأبي بكر بن الجد وسائر أهل النباهة باشبيلية من الكبراء والشعراء وكذلك من أهل قرطبة »[1029]، كما «أتته وفود الأندلس من كل جهة ومكان»[1030]. هذا المشهد يبدو لنا كأحد تجليات التجربة الوحدوية زمن الموحدين، إذ إن القبول بالموحدين حكاما للأندلس وبلاد الغرب الإسلامي، أصبح سِمة هذه المرحلة رغم انتزاء ابن مردنيش بما تحت يده. قبل أن يفرض عليه الموحدون الأمر الواقع، وذلك بما كابده من دخول عساكر بني عبد المؤمن إلى الأندلس وما رآه «منهم من العظائم والهزائم ما ثبت له وظهرت فيه صرامته»[1031]. وهي من علامات سريان واقع تجربة وحدة الغرب الإسلامي كقاسم مشترك بين الموحدين والمرابطين.

(1026)- ابن عذاري، البيان، ص69.
(1027)- « من معاقل المغرب المنيعة لأن بنيانها في غاية الإحكام والوثاقة.. ولا طريق لها من البَرِّ إلا على باب واحد» المراكشي، المعجب، 299. «أقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سبعة أشهر إلا أياما» نفس المصدر، والصفحة.
(1028)- بعد أن«وحّد أهل تونس، ثم قام منها ونزل على المهدية وكان فيها الروم، فأخذها بعد الحصر والمجانيق» البيدق، أخبار المهدي، ص80.
(1029)- المصدر نفسه والصفحة. أنظر المراكشي، المعجب، ص382.
(1030)- مجهول، الحلل الموشية، ص155.
(1031)- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، ط.3، 1980، ج2، ص250-251..

وبعد أن عين أبناءه وبعض الزعماء البارزين من المصامدة كأبي حفص عمر إنتي على ما أصبح تحت يده في بلاد الأندلس، «كرّ عبد المؤمن راجعا إلى مراكش، بعد ما ملأ ما ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلا ورجالا من المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند»[1032]. وفي 556هـ(1162م) سيصل قائد الجيش الموحدي «يوسف بن سليمان بعسكر ضخم إلى اشبيلية جهّزه عبد المؤمن حين وصوله إلى مراكش، فاتصلت آمال الناس عند وصولهم واتصلت المسرات بوصولهم وقويت بهم اشبيلية»[1033]. ويبدو لنا أن أهم عمل سياسي قام به عبد المؤمن لدعم موقف الموحدين الوحدوي داخل الأندلس، تمثل في توظيف العرب توظيفا نفعيا من باب الجهاد، فبعث برسالة يستنفر منهم من «كانوا ببلاد يحيى بن عبد العزيز وهم قبائل من هلال بن عامر»[1034]. ولرفع منسوب حماسة هؤلاء العرب وانخراطهم في صفوف جيشه، قال فيهم شعرا أمر بكتابة أبياته آخر الرسالة:

أقيموا إلى العلياء هُوج الرواحل === وقوموا إلى الهيجاء جُرد الصـــــواهل

وقوموا لنصـر الدين قومة ثائـر=== وشدوا على الأعداء شَدة صائـــــــــل

بني العم من عليا هلال بن عامـر=== وما جمعت من باسل وابن باســــــــل

أهبنا بكم للخير والله حسبـــــنا === وحسبكم واللهُ أعـــــــدل عـــــــادل

فلا تتوانوا فالبِدار غنيمـــــــة === وللمُدلِج الساري صفا المناهـــــــل[1035]

وإذا كان انخراط العرب في عمل الجهاد لا يخلو من أبعاد وحدوية له علاقة بموضوع الثوابت، فإن نتائجه لم تنحصر فيما هو عسكري سياسي، بل ستتجاوزه إلى بُعد أكثر أهمية يتعلق بالتغيير الكبير الذي سيطرأ على الخريطة البشرية داخل بلاد الغرب الإسلامي، مع عملية النزوح الكبير لعرب إفريقية نحو المغرب والأندلس. فقد تحدث المراكشي عن انتشار خلق كثير من نسل العرب[1036] و«زاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف حتى كثروا

(1032)- المراكشي، المعجب، ص293.
(1033)- ابن عذاري، البيان، م.س، ص73.
(1034)- المراكشي، ص293- 294.
(1035)- نفسه، ص294.
(1036)- المصدر نفسه، ص295.

هنالك»[1037]. ودعما من عبد المؤمن لمسلسل الجهاد وترسيخ شرعية الموحدين، قرر عام 558هـ (1163م) الجواز إلى الأندلس، بعد أن «خرج أمره إلى الناس كافة بالغزو إلى بلاد الروم من جزيرة الأندلس، وكتبت عنه الكتب إلى سائر الجهات يستنفر الناس ويحُضُّهم على الجهاد ويُرغِّبهم فيه، فاجتمعت له جموع عظيمة، وخرج يقصد جزيرة الأندلس مُظهرا للغزو والاحتساب، ويُتَمِّم أيضا مما بيد محمد بن سعد المتقدم الذكر»[1038].

ـــ بعد مرحلة حكم عبد المؤمن، وبالنظر إلى التحدي الذي فرضته الممالك النصرانية على الأندلس زمن الموحدين، ستكون من مسؤولية الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[1039] الحفاظ على وحدة الصف، والذي كان فيه لكبار فقهاء المالكية دورا رئيسا[1040]. إذ في هذا الإطار استدعى الخليفة الأول «إليه جماعة من الفقهاء»[1041] كأبي بكر بن الجد وأبي الوليد بن رشد وأبي موسى بن عمران وأبي محمد بن الصفار وأبي محمد بن المالقي، وتم إعداد الجيش الذي «خرج سنة أربع وستين وخمسمائة لاستنقاذ بطليوس من هُوّة الحصار»[1042] وعلى رأسه أبا حفص عمر بن يحيى، الذي «تيمن أهل الأندلس بوصوله وحلوله»[1043]. ولعل من أهم تجليات تجربة الوحدة داخل بلاد الأندلس خلال هذه المرحلة دخول ابن همُشك[1044] في «خدمة الدولة الموحدية»[1045]، بعد «مفارقته صاحبه ابن

(1037)- نفسه والصفحة.
(1038)- نفسه، ص306.
(1039)- هو المُكنى أبا يعقوب، تلقب بأمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين، جاز إلى الأندلس مرتين، وأمر ببناء المسجد الجامع باشبيلية عام 572هـ: الحلل الموشية، ص157. تولى الحكم « بما أشهدهم به أمير المؤمنين من تقديمه الأمر العزيز...» ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق عبد الهادي التازي، تاريخ الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط.1/ 1964 – ط.2/ 1979 – ط.3/ 1987ص163.
(1040)- في إطار الحديث عن بعض تجليات التجربة الوحدوية زمن الموحدين، خصصنا لهذا الموضوع حيزا معينا نحاول من خلال قياس مدى استمرار التجربة الوحدوية التي طرحناها في الإشكالية الرئيسة (تجربة واحدة أم تجربتان) وذلك بإبراز دور فقهاء المالكية في خطة القضاء الموحدي.
(1041)- بولطيف، فقهاء المالكية، ص226.
(1042)- ابن خلدون، المبتدأ والخبر، ج6، ص321. بينما ابن عذاري جعل تاريخ الجواز نحو الأندلس عام 565هـ، ووصوله إلى اشبيلية «في آخر عام خمسة وستين» ابن عذاري، البيان (ق.الموحدين)، ص111.
(1043)- ابن عذاري، قسم الموحدين، ص105. أنظر رسائل موحدية، م. جديدة، (الرسالة 24)، ج.1، ص123.
كان سبب حضور هذا الجيش حسب ما ذكرت الرواية المصدرية، «غدر جِراندة اللعين العلج، لها من ثغورها المثغورة» ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ، م.س، ص436. يذكر تحت إسم جراندة الجليقي، وقد غدر بأهل مدينة بطليوس.
(1044)- كان «صهرا لابن مردنيش وحليفا له في منطقة جيّأن قبل أن يستولي عليها الموحدون» رسائل موحدية (م.ج)، م.س، ص127.
(1045)- عزاوي، رسائل موحدية مجموعة جديدة، ج1، م.س، ص127 وص129.

مردنيش لما حدث بينهما من الشحناء والفتنة»[1046] وعمله على «تمكين الموحدين من بلاده»[1047]. ولعل مسارعة والي قرطبة السيد أبي إسحاق إلى نشر هذا الخبر، يقوم دليلا على أهمية الحدث في إعادة توحيد المجال الأندلسي.

في نفس هذا الإطار«خاطب أهل لورقة السيد أبا حفص يعلمونه بقيامهم بدعوة الموحدين ويستصرخونه بنصره لهم»[1048]. وقد تزامن هذا الأمر مع ما أشار إليه المراكشي من أن الخليفة الثاني أبي يعقوب يوسف بعد أن استوثق له الأمر، ووصلته حشود العرب بدا له الجواز إلى الجزيرة في حدود سنة 567هـ/ 1172م، «مُظهرا قصد غزو الروم ومُبطنا إتمام تملُّك الجزيرة»[1049]. وعلى إثر ذلك سارع هلال بن مردنيش، بعد وفاة والده سعد بن مردنيش، بالوصول إلى اشبيلية «وسلّم على الخليفة أبي يعقوب وبايعه وجميع السادات حضور»[1050]. وبذلك «دان له جميع بلاد شرق الأندلس»[1051]. قبل أن يملك يعقوب يوسف «الجزيرة بأسرها، ودانت له بجملتها، ولم يخرج عن طاعته شيء منها»[1052]. كما في الوقت نفسه اتسع له خراج بلاد العدوتين، إذ حسب رأي المراكشي«لم يرتفع لملك من الملوك قبل أبي يعقوب وبعده ما ارتفع إليه من الأموال»[1053].

لعل الاستنتاج الذي يمكن الخروج به من أدوار الموحدين في جمع شمل الأندلس وإعادة توحيد مجالها من جديد بعد أفول دولة المرابطين[1054]، نجاحهم ـــ رغم أنهم كانوا أحد عوامل نقض بناء التجربة الوحدوية زمن المرابطين ـ في رأب الصدع، بعد أن حالوا دون

(1046)- ابن خلدون، ج6، ص321. ابن عذاري، البيان، (قسم الموحدين) ، ص 110. المراكشي، المعجب، ص321. بن عذاري، م.س، ص112. «تخلي أنصاره عنه تدريجيا ومنهم صهره ابن همُشك» رسائل موحدية (م.ج)، م.س، ص127. فاضطر للإجتماع بأبنائه وأشار قائلا:«يا بني إني أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في طاعتهم، وإني أظن أنه لا طاقة لكم بمُقاومتهم. فسلموا إليهم الأمر اختيارا منكم، تحْظوا بذلك عندهم قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم، وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة» المراكشي، م.س، ص323.

(1047)- ابن عذاري، البيان، (قسم الموحدين) ، ص108. أنظر المن بالإمامة: استيلاء الموحدين على البلاد التي بيد ابن مردنيش وطوعها لهم. ابن صاحب الصلاة، م.س، ص318 و380

(1048)- المصدر نفسه والصفحة.

(1049)- ابن عذاري، البيان، م.س، ص112

(1050)- ابن صاحب الصلاة، م.س، ص380.

(1051)- ابن أبي زرع، القرطاس، ص211.

(1052)- المراكشي، المعجب، ص324.

(1053)ـ المصدر نفسه، ص329.

(1054)ـ لا نبرر للموحدين سياسة التمييز التي كرست "الإرهاب السياسي" وشرعنت دموية نظام حكمهم منذ أعلن ابن تومرت نفسه مهديا وإلى المراحل التي غزا فيها عبد المؤمن حواضر المغرب الأقصى لإسقاط حكم المرابطين.

عودة الأندلس إلى عصر حكم ملوك الطوائف، الذي كان المرابطون قد وضعوا له حدّا أواخِر القرن الخامس الهجري (ق11م). وذلك بما فرضوه من أمر واقععلى الأندلسيين وعلى الممالك النصرانية إلى حدود معركة العُقاب 609هـ/ 1212م.

2- دور الحضور المالكي داخل خِطّة القضاء الموحدي في ترسيخ التجربة الوحدوية

إذا كان فقهاء المذهب المالكي الأندلسيين قد مكنوا لأنفسهم زمن المرابطين على المستوى السياسي، وجعلوا من المذهب المالكي موجها للسياسة الرسمية للدولة المرابطية ومجتمع الغرب الإسلامي، فإنهم في الآن نفسه استطاعوا مراكمة تجارب متعددة من خلال تحكمهم في مختلف خِطط الدولة، بما يحافظ على استقرار الأوضاع السياسية والاجتماعية. ويأتي تقلُّدهم خِطّة القضاء على رأس تلك الخطط التي أثبتت المصادر أهميتها في كل عصر. إذ يقول الأسدي في هذا الإطار:«واعلم أن الحكام الذين تجري على أيديهم الأحكام ست خطط: أولها القضاء وأجلُّها قضاء الجماعة»[1055]. فالقضاء هو «الخِطّة التي لها يُفزع في مشكلات النوازل وبحقها يُصدع في مُبهمات المسائل»[1056]، كما أن القضاء يعتبر الخِطّة الأعظم «قدرا، وأعلاها ذكرا، وأجلّها خطرا»[1057]إلى الدرجة التي رأى فيها ابن تيمية أنه «في بلاد أخرى - كالمغرب - ليس لولي الحرب حكم في شيء، إنما هو منفذ لما يأمر به متولي القضاء»[1058]. ذلك أن على القاضي «مدار الأحكام وإليه النظر في جميع وجوه القضاء»[1059]. الأمر الذي يفيد المكانة التي كان يتمتع بها القضاة، وأدوارهم التي لا تنحصر في نشر العدل والتحكيم بين الناس، بل وإسهامهم في نشر الأمن والاستقرار وتوجيه سياسة الدولة في أمر تنظيم الحرب والجهاد.

(1055)- الأسدي (أبو الأصبغ عيسى) ، الإعلام بنوازل الأحكام المعروف بالأحكام الكبرى، تحقيق نورة محمد عبد العزيز التويجري، 1415هـ/1995، ط.1، ج1، ص28 (بدون بلد النشر والتوزيع).

(1056)- عزاوي(أحمد)، رسائل موحدية (م. ج)، م.س، ص509.

(1057)- الونشريسي (أحمد بن يحيى)، كتاب الولايات ومناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية، نشر وتعليق محمد الأمين بلغيث، لافوميك، اقتناه أبو عبد الله مصطفى بن علي بن محمد المسعودي الجزائري يوم 30 جويليه 1994م، ص38.

(1058)ـ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، اعتنى بها وخرج أحاديثها عامر الجزار – أنور الباز، مج20، الفهارس العامه2، العبيكان، (بدون تاريخ.).

(1059)ـ ابن سهل الجياني(413هـ - 486هـ)، ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقِطر من سير الحكام، تحقيق يحيى مراد، دار الحديث- القاهرة، 1428هـ/ 2007م، ص28.

أ- سياق التقارب بين فقهاء المذهب المالكي والموحدين:

تركز اهتمامنا في هذا الموضوع على كتب التراجم على وجه الخصوص، وعلى أطروحات معاصرة[1060] في تقديم أمثلة متنوعة وعبر مراحل زمنية، حتى لا يكون حديثنا انتقائيا أو شاذّا. كما محاولة فهم واستخلاص نوعية العلاقة التي جمعت بين الخلفاء الموحدين والفقهاء المالكيين من خلال المكانة التي تبوّأها مجموعة من هؤلاء الفقهاء من خلال تقليدهم مسؤولية خِطّة القضاء الخليفي.

في هذا الإطار كان فقهاء المالكية طيلة حكم المرابطين يتمتعون «بسلطة كبيرة جدا»[1061]، منذ زمن حكم يوسف بن تاشفين الذي كان «يُفضل الفقهاء ويُعظم العلماء ويصرِف الأمور إليهم»[1062]، باعتبارهم «أهل الحل والعقد في دولة المرابطين»[1063]. وإذا كان العديد من الباحثين قد ربطوا بين نفوذ الفقهاء داخل دواليب مؤسسات الحكم، وهيمنة المذهب المالكي على المشهد السياسي ببلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين، فإن أحد الدارسين أرجع سبب نفوذ فقهاء المالكية، إلى جهل «أكابر الدولة باللغة العربية»[1064] المتداولة في كافة خطط الدولة. واتبع علي بن يوسف نهج أبيه في جعل الفقهاء المالكيين أصحاب الكلمة العليا. إلا أنه في نهاية دولة المرابطين، وبعد احتدام الصراع بينهم وبين الموحدين، سارعت فئة ليست بالقليلة من النخبة العالمة وعلى رأسهم فقهاء وقضاة مالكيون أندلسيون، إلى "التطبيع" مع الموحدين زمن عبد المؤمن الخليفة الموحدي الأول. ولعل النموذج الأبرز لهذه الهرولة مثَّلها نخبة من الفقهاء الأندلسيين كأبي الحسن ابن القابلة وأبي بكر بن القابلة وأبي الحسن علي محمد بن خُليد اللخمي الإشبيلي(ت.567هـ/ 1171م). فقد أكدت بعض المصادر هذا التقارب من خلال أنموذج أبي الحسن بن القابلة، الفقيه المتحقق

(1060)- أبرزها أطروحة لخضر بولطيف " فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي وأطروحة محمد المغراوي." العلماء والصلحاء والسلطة".

(1061)- هوبكينز، (ج.ف.ب)، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، نقله عن الأنجليزية الدكتور أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، مكتبة المهتدين، ليبيا – تونس، 1980، ص222.

(1062)- ابن عذاري، البيان (ق. المرابطين)، ج4، ص46.

(1063)- عز الدين موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، (دون تاريخ) ص195.

(1064)- عبد اللطيف أكنوش، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، م.س، ص69. ويقصد جهل من حسِبهم اتحادية صنهاجة من بني طرغت مسوفة ولمتونة وجدالة

من علم الكلام، والخطيب البليغ والحافظ للفقه[1065]، والذي بسبب تقربه من عبد المؤمن وإهدائه مصنفا سماه " المعراج" أثناء «حصار أغمات وريكة»[1066]، نال «دنيا عريضة، وَجاها مديدا»[1067]. وهنا يشير أحدهم إلى أن النسق المالكي العام «لا يستنكف أصحابه توثيق عرى التعامل مع الحكام»[1068]، في نفس الوقت الذي«لم تترك السلطة الموحدية أي فرصة لاستقطاب عناصر من المجتمع الأندلسي ومحاولة إغرائها بالأموال تارة، وبتقديم امتيازات تارة أخرى»[1069]، خاصة مع روح القابلية لدى فئات عريضة من النخبة للدخول في طاعة الموحدين، وبالتحديد «أهل شرق الأندلس الذين أتوا أفواجا طمعا في ذات المطلب»[1070]، حسب رأي أحد الدارسين.

وإذا كان واقع الفتنة[1071] أحد السِّمات البارزة للمراحل الانتقالية والتي أطلق عليها بعض الدارسين كعبد الله عنان ودندش مرحلة حكم طوائف ثانية داخل الأندلس، فإن الموحدين حاولوأ فيما يبدو توظيف فئة مهمة من الفقهاء المالكيين بُعد نفعي من أجلمساعدتهم على تهدئة الأوضاع والتصدي لكل «الثائرين المهيجين للفتن»[1072]. وفي الآن نفسه «تمشية العدل ورفع المظالم والجور»[1073]، وذلك بهدف كسب الرعية، وتوحيد الصفوف وعدم السماح بالرجوع إلى حياة الانقسام والتجزئة. علما أن مكانة هذه الفئة العالمة كانت تزداد توهجا في الدعوة للجهاد الذي «جسد اللقاء – الذي بدا لبعض الوقت ممتنعا – بين الموحدين والمالكية»[1074]. وبناء على هذه الحيثيات فإن السعي الموحدي

(1065)ـ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق عباس إحسان، مج.5/ ق.1، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت – لبنان، (الترجمة 589)، ص304. (اعتمدنا تاريخ: مارس 1965 الوارد في ذيل مقدمة المحقق).

(1066)ـ بولطيف، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، ص212.

(1067)ـ ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، م.س، 304.

(1068)ـ بولطيف، م.س، ص212.

(1069)ـ العمراني، الموحدون في الأندلس : الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع، م.س، ص363.

(1070)ـ العمراني (محمد)، المجتمع والنخبة وتدبير السلطة بالأندلس، سلسلة أبحاث ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط، نادية للنشر (بدون تاريخ) ، ص87.

(1071)ـ ابن الأبار، المعجم، م.س، ص189.

(1072)ـ ابن عذاري، البيان المغرب، (ق.الموحدين)، ص16. يظهر أن نزوع الأندلسيين للقيام في وجه المرابطين ارتبط بالفراغ الأمني الذي حصل بعد تعبئة معظم الجيوش المرابطية لمواجهة خطر الموحدين الداهم، خاصة بعد أن أصبح تاشفين بن علي في مقام الخليفة بعد وفاة والده، كما أصبح القائد الفعلي للجيش المرابطي في المواجهة المباشرة لعبد المؤمن والتي انتهت بمصرعه.

(1073)ـ نفسه، ص37.

(1074)ـ بولطيف، م.س، ص228.

إلى كسب النخبة الأندلسية العالمة التي يتزعمها الفقهاء المالكيون، لـه أهميتـه السياسية من حيث الإسهام في تسهيل مهمة تمهيد المجال الأندلسي بكامله للموحدين وتكريس وحدته التـي وضع أسسها المرابطون. إذ إن موضوع الأندلس أصبح فيما نخال أولوية على المستوى "الاستراتيجي" في سياسة الموحدين، بالرغم من اتساع مجال سيادتهم إلى ما وراء إفريقية. فالأندلس شكلت للموحدين إرثا سياسيا وحضاريا، رسّخوا من خلاله مشروعية حكمهم على أنقاض الدولة المرابطية. دون أن نُغيّب أهمية الأبعاد الأمنية والاقتصادية لبلاد العدوة الشمالية.

ولعل بداية التقارب الموحدي مع الأندلسيين في شخص الفقهاء المالكيين، جسده جواز أول وفد أندلسي– كما ذكر ابن عذاري حسب إشارة سابقة - إلى العدوة المغربية، والذي كان على رأسه أحد الفقهاء البارزين، القاضي أبي بكر بن العربي(1075) ومعه جماعة من الشيوخ والفقهاء، الذين قدّموا للخليفة عبد المؤمن«بيعة أهل اشبيلية»(1076). بكل ما يمكن أن تحمله هذه البيعة من رمزية والتي دشنت لمرحلة جديدة من التعاون. إذ شكلت مؤشرا على إمكانية إسهام فقهاء المالكية في المحافظة على تبعية الأندلس للمغرب وفرض الاستقرار. علما أن أمر مثل هذه الوفود إلى العاصمة مراكش تكررت مع كل نصر يحققه الموحدون، كما حصل عام 548هـ/ 1153م مع أبي موسى بن عمران التلمساني قاضي اشبيلية الذي كان «على رأس الوفد الأندلسي الذي جاء مهنئا عبد المؤمن بفتح بجاية»(1077).

إن مثل هذا التوجه العام هو الذي نريد أن ضع من خلاله تقييما لواقع تجربة وحدة الغرب الإسلامي على المستوى سياسي، رغم التغير الذي حدث على مستوى نظام الحكم في مراكش. وذلك من خلال الإجابة على الإشكالية المركزية: هل نحن بصدد تجربة واحدة ترمز للاستمرارية، أم تجربتان ترمزان للقطيعة السياسية. وإذا كانت فرضيتنا في موضوع تجربة توحيد مجال الغرب الإسلامي زمن المرابطين قائمة على أساس مقاربة مجالية في

(1075)- الرعيني الإشبيلي(أبو الحسن)، "برنامج شيوخ الرعيني"، تحقيق ابراهيم شبوح، دمشق 1381هـ/1962م، ص117.
(1076)– ابن عذاري، البيان، (ق.الموحدين) ، ص33.
(1077)– بولطيف، فقهاء المالكية، ص221.

بُعدها السياسي والتي تهمّ تحديد أهم مراحل تحقيق الوحدة السياسية ببلاد الغرب الإسلامي، فإنه بالموازاة مع ذلك لا نصادر دور المذهب المالكي كأحد الثوابت الرئيسة في سياسة الدولة المرابطية بعد مرحلة توحيد العدوتين. إلا أننا نتساءل هنا عن كيفية فهمنا لاستمرار تأثير الفقهاء المالكيين زمن الموحدين، وهم الذين كانوا بمثابة العدو الأول للزعيم الروحي للحركة الموحدية المهدي بن تومرت.

ب- مظاهر الحضور المالكي داخل خطة القضاء الموحدي

يعتبر الوقوف على سياقات الأحداث التاريخية الكبرى للمرحلة التي نتناولها بالدرس والتحليل، من الأهمية التي من خلالها يمكن أن نفهم علاقة تقلد فقهاء مالكيين خطة القضاء زمن الحكم الموحدي. وهنا نطرح سؤال ما حسبناه مسارعة وفد أندلسي من اشبيلية بقيادة فقهاء مالكيين لمبايعة عبد المؤمن خليفة الموحدين، هل يتعلق بدور "تطبيعي" تقف وراءه مصالح شخصية؟. فبغضِّ النظر عن حساسية الموقف في مستهل تثبيت عبد المؤمن نظام حكم جديد على حساب المرابطين، فإن علاقة الفقهاء المالكيين بدولة النظم الموحدية، يفترض أن نخضعها لمسلسل تطور الأحداث، ومحاولة الكشف عن طبيعة تلك العلاقة، هل كانت عابرة هاجس الموحدين من ورائها تثبيت حكمهم بالأندلس، أم إنها أصبحت من السّمات البارزة للعصر الموحدي؟ وللإجابة على مثل هذا السؤال سنحاول الوقوف على هذه العلاقة المفترضة من خلال ما تجود به المصادر وكذا آراء بعض الدارسين، هؤلاء الفقهاء، زمن حكم عبد المؤمن وحكم أبنائه من بعده.

ـــ دشن الخليفة الأول هذه المرحلة المبكرة من الحكم الموحدي باستقطاب عدد من الفقهاء المالكيين إلى خطة القضاء في عواصم الولايات. وهنا نذكر على سبيل المثال لا الحصر، ابن الصقر[1078] وابن رشد وابن زرقون[1079] وعبد المنعم أبا محمد بن

(1078)ـ ابن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة، حققه وعلق عليه إحسان عباس ومحمد بنشريفة وبشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط.1، 2012، مج.1 (القسم الأول)، ص404 [الترجمة 292].ابن فرحون، الديباج، م.س [الترجمة 93]، ص117. (أنظر أيضا ترجمة مفصلة للرجل: بنشريفة، الذيل والتكملة، مج.1/ ق.1، من ص223 إلى ص232).

(1079)ـ «من أهل اشبيلية، وولي قضاء شِلب وسبتة فحُمدت سيرته ونزاهته».ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ص379 – 380

الفرس(ت.567هـ)[1080]. فقد جاء في تعريف صاحب "الديباج المذهب" أن بن الفرس «من أهل اشبيلية، وولي قضاء شِلب وسبتة فحُمدت سيرته ونزاهته»[1081]، وأنه ينتمي لبيت علم وجلالة، وقُدّم إلى قضاء بلنسية فلم تطل مدة ولايته»[1082]. وقد أشار هوبكينز في كتابه "النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى" إلى أن«غير هؤلاء، الجم الغفير»[1083] ممن جسدوا وجها لعلاقة تطورت بشكل كبير في اتجاه تثبيت الفقهاء المالكيين مكانتهم داخل دولة النظم الموحدية. بما يمكن أن نفهم منه أن الموضوع لا يتعلق بمرحلة انتقالية مرتبطة بمصالح معينة، وتجاوز هذا الأمر إلى ما حسبناه وجها من وجوه استمرار التجربة الوحدوية زمن الموحدين.

من المعلوم في هذا الإطار أنه في مستهل حكم الموحدين، تم إسناد خطة القضاء لفئة " طلبة الحضر" الموحدين، قبل مرحلة ما يمكن التعبير عنه بالانفتاح على فقهاء المالكية في عملية استقطاب ستزداد اتساعا زمن خلفاء عبد المؤمن. ولعل من بين ما رصدناه من خلال بعض الإشارات المصدرية، أن مجلس عبد المؤمن ضم فقهاء بارزين من أمثال أبي بكر بن ميمون القرطبي(ت.567هـ/ 1172م)، ومحمد بن الصفار[1084](ت576هـ/ 1180م) وأبي الوليد بن رشد وأبي بكر بن الجد والقاضي أبي موسى عيسى بن عمران التلمساني[1085] الذي شكل أحد أعضاء وفد أندلسي حل بمراكش، والذي أنشد قائلا:

طال انتظار العالمين لبيعة === فقلوبهم كالنار ما لم تُعقد[1086]

(1080)ـ ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، تحقيق إحسان عباس، م.س، مج.5/ ق.1، ص62.[الترجمة 129]./ ابن فرحون(ت586هـ)، الديباج، م.س، ص379(الترجمة 512).الغبريني، عنوان الدراية، م.س، ص86.

(1081)ـ ابن فرحون، الديباج، ص380

(1082)ـ نفس المصدر، ص381.

(1083)ـ يحيلنا هوبكينز على كتاب: أبي الحسن الرعيني الإشبيلي "برنامج شيوخ الرعيني"، تحقيق ابراهيم شبوح، دمشق 1381هـ/1962م. استخلصنا منهم من بدا لنا لهم علاقة بموضوع بحثنا كابن بَقي بن مخْلَد [ابن يزيد الأموي] ص50 (ت.16) وأبي بكر العربي المُعافري: ص117 (ت.46) وأبي الحسن سهل الأزدي: ص59 (ت.20).

(1084)ـ من خلال رصدنا لتقلده خطة القضاء تبين أن الرجل شغل هذا المنصب حوالي ثمانية عشر عاما، الشيء الذي نفهم منه الاستقرار الذي كانت تشهده خطة القضاء والمصداقية التي تمتعت بها.

(1085)ـ ابن عذاري، البيان، (ق.الموحدين)، ص48. سنتطرق لموضوع هذه النخبة العالمة والعلاقة الكبيرة التي جمعتهم بعبد المؤمن وبنيه.

(1086)ـ نفس المصدر والصفحة.

+/ نماذج لفقهاء مالكيين في خطة القضاء زمن الخليفة عبد المؤمن

حتى لا يظل تحليلنا نظريا، اعتمدنا في فرضيتنا على علاقة دور المذهب المالكي في ترسيخ التجربة الوحدوية واستمراريتها زمن الموحدين، من خلال المشاركة الواسعة لمجموعة من الفقهاء المالكيين في خطة القضاء الخليفي، زمن عبد المؤمن وأبنائه.

ـــ من المؤشرات المصدرية المهمة لوجود مثل هذه العلاقة بين فقهاء مالكيين وعبد المؤمن، رسالة وجّهها الخليفة الأول ل**أبي القاسم المعروف بابن الحاج** (ت. 571هـ/ 1175م) «من أهل قرطبة قاضي الجماعة بها وابن قاضيها الشهيد»[1087]، وذلك عن طريق كاتبه أبي جعفر أحمد بن عطية، والتي ملخصها:«من أمير المؤمنين – أيده الله بنصره، وأمدّه بمعونته – إلى الشيخ الفقيه القاضي أبي القاسم بن الحاج – أدام الله كرامته بطاعته وتقواه – سلام عليكم ورحمه الله وبركاته. ... وصلنا أخوكم الشيخ الجليل أبو محمد، وابنكم أبو الحسن وصاحبكم الشيخ الكاتب أبو عبد الله بن زرقون – أكرمهم الله بتقواه – فأدوا من حق هجرتهم البرّة ما قلّدوه ... ولكم عندنا – وفقكم الله وأكرمكم – من حظوظ التقريب والإيثار... فوق ما تأملونه وخير ما تستقبلونه»[1088]. ونستنتج من متن الرسالة سعي عبد المؤمن إلى التقرب من فقهاء المالكية الأندلسيين، لما يمكن أن يستفيده منهم في كسب شريحة كبيرة من المجتمع الأندلسي، من أجل تهدئة الأوضاع خاصة داخل الأندلس المحكومة بدور ملوك نصارى الشمال في التحالف مع بعض الأسر الحاكمة زمن الطوائف، وعلى رأسها بنو مردنيش.

وإذا كانت الرسالة المذكورة لم تَرِد بتاريخ محدد يساعدنا بشكل كبير على فهم السياق الذي جاءت فيه والظروف الحقيقية التي أحاطت بتدوينها، فإن الرسالة السادسة تضمنت تاريخ إرسال الكتاب من حضرة مراكش إلى قرطبة، وذلك في «الثاني من صفر عام أربعة

(1087)ـ ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، (ترجمة: رقم 163)،ص189.

(1088)ـ مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المومنية، أصدرها ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، ج10، رباط الفتح، 1941. ص 3-4. / أنظر أيضا وثائق، المجلد1، مديرية الوثائق المغربية – المغرب، 1976، ص250.

تجدر الإشارة إلى أننا وجدنا موضوع هذه الرسالة (الرسالة الثانية) ومضمونها العام في ص13-17 (الرسالة السادسة)، لكن مع اختلاف بدا لنا غير عادي، إذ في الرسالة رقم 2 يتضمن متن الرسالة:«من أمير المومنين.. إلى الشيخ الفقيه القاضي أبي القاسم محمد بن الحاج...» المصدر نفسه، ص04. بينما في الرسالة رقم 6: «من أمير المومنين.. إلى الشيخ أبي فلان وجماعة المشيخة بقرطبة» المصدر نفسه، ص13.

وأربعين وخمسمائة»[1089]، مما يفهم منه أن الأندلس كانت قد بدأت رحلة خوض التبعية لحضرة مراكش ضمن وضع سياسي جديد ونظام حكم جديد. **فهل سيضمن الموحدون وحدة المجال الأندلسي الذي كان قد تحقق مع المرابطين؟**

يظهر من سعي الوفد القرطبي نحو اشبيلية ، أن الأمر يتعلق بنهج يتعلق بتمتين علاقة الأندلسيين بالموحدين، تتمة لما قام به الوفد الإشبيلي من قبل، والذي كان على رأسه الفقيه القاضي بن العربي المعافري. وقد مثّل تنويه عبد المؤمن بحضور الوفد القرطبي مظهرا من مظاهر نسج خيوط المودة مع النخبة الأندلسية سعيا وراء الاستقرار، قبل بدإ عبد المؤمن رحلة تمهيد البلاد المغاربية وأولها إخضاع مجال بني حماد قبل توحيد إفريقية.فقد قدم الوفد المشار إليه في الرسالة المذكورة بيعة أهل قرطبة لعبد المؤمن، بعد أن «ألقوا بالحضرة عصا تِسيارهم، ونالوا من الزيارة المبرورة والبيعة الكريمة، منتهى طلبهم واختيارهم»[1090]. وهذا الأمر يقوم دليلا على إيمان أهل الأندلس بضرورة التشبث بوحدة صف المسلمين أمام تحديات نصارى الشمال، ونزوعهم إلى استقرار الأوضاع السياسية في الأندلس، وهم الذين يعلمون ويلات الانقسام والتجزئة. وهنا نرجح أن يكون هذا الأمر دافعا لتجاوب الفقيه بن الحاج مع رسالة عبد المؤمن له، وتطبيعه مع الحكم الجديد في إطار الأمر الواقع الذي فرضه الموحدون. رغم أن الفقيه ابن الحاج هذا تخلى في وقت لاحق عن مسؤولية القضاء ليقصد شرق الأندلس حيث ثورة ابن مردنيش. وقد رأى ابن الأبار في تخلي ابن الحاج عن منصب القضاء الموحدي هروبا من ظروف الفتنة[1091]. إلا أن نفس المصدرتحدث عن ارتسام الرجل «في زمام الجند عند الأمير محمد بن سعد»[1092]، قبل أن يلحق بميورقة في سنة سبع وستين وخمسمائة»[1093]، زمن حكم يوسف يعقوب. وهنا

(1089)ـ المصدر نفسه، ص17.
(1090)ـ نفسه، ص16.
(1091)ـ ابن الأبار، المعجم، م.س، ص189.
(1092)ـ المصدر نفسه والصفحة.
(1093)ـ نفسه والصفحة.
بالمناسبة أشار لخضر بولطيف صاحب الأطروحة المعتمدة في بحثنا حول فقهاء المالكية خلال العصر الموحدي، أن الفقيه ابن الحاج عندما حل بميورقة كان «مستظلا بحكم بني غانية» بعد أن «آل شرق الأندلس إلى الموحدين» فقهاء المالكية، م.س، ص182، وأحالنا على صاحب المعجم ص189، الذي لم يذكر سوى التحاق ابن الحاج بميورقة عام 567. فهل هذا يعني أن الرجل أصبح جزءا من معارضة الحكم الموحدي في الأندلس، بعد وفاة عبد المؤمن؟

في الحقيقة يبدأ الغموض يلُفُّ موقف هذا القاضي المالكي. رغم أن صاحب أطروحة " فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي" يؤكد أنه لا يجب الاعتقاد في «أن الفقهاء الذين عملوا تحت حكم ابن مردنيش يكون قد حيل بينهم وبين تبوُّإ أعلى المناصب في مؤسسة القضاء الموحدي»[1094]. إذ يرى أحد الباحثين أن سياسة عبد المؤمن والخلفاء من بعده، كانت تهدف إلى إدماج الفقهاء المالكيين في المشروع الفكري والسياسي للدولة والاستفادة منهم في الوظائف والمهام المختلفة، وبهدف توطيد الشرعية الدينية والسياسية للحكم الجديد»[1095]. وهنا يمكن أن نتحدث عن دور"العقل السياسي" الموحدي النفعي في التعامل مع طموح تجسيد نظام إمارة المؤمنين داخل مجال إمبراطوري من حجم بلاد الغرب الإسلامي بما فيه التوسع شرقا نحو مصر. وهنا يظهر لنا أن الموحدين استوعبوا جيدا الدور المركزي لفئة العالماء والفقهاء المالكيين في لمِّ شتات المجتمع وتوحيد الكلمة، وهم العارفون بخبايا الأوضاع الاجتماعية والسياسية داخل بلاد العدوتين.

وقد ذكر صاحب الذيل والتكملة أن على رأس قائمة القضاة الذين وضع فيهم الخليفة عبد المؤمن الثقة لتقلُّد خطة القضاء الموحدي، القاضي محمد ابن سِماك[1096]، الفقيه العارف بالأحكام والذي استقر بمراكش بعد أن كان قد ولاّه عبد المؤمن قضاء مالقة بعد انتزاعها من بني حسون عام 548هـ/ 1153م[1097]. قبل أن يصبح «أول من ولي القضاء للموحدين بغرناطة»[1098] بعد أن أصبحت تحت حكم الموحدين[1099]أواخر العقد الخامس من القرن السادس الهجري(ق.12م).

(1094)ـ أنظر ابن الأبار، طبعة مدريد، ج1، ص397. نقلا عن أطروحة لخضر بولطيف، فقهاء المالكية، م.س، ص250-251.

(1095)ـ محمد المغراوي، العلماء والصلحاء والسلطة، م.س، ص196.

(1096)ـ هو محمد بن عبد الله بن أحمد بن سماك العاملي ولد بمالقة، وكان حيا إلى حدود عام الأخماس. أنظر ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط.1، 1973، السفر6، القسم1. (الترجمة690)، ص 237 -238.

(1097)ـ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، م.س (السفر6، القسم1). ص238. كان بنو حسون في نزاع مع ابن سماك العاملي، الذين فرّ منهم إلى الموحدين في مراكش، وربما هو نزاع له علاقة بوالده الذي كان قاضيا بغرناطة زمن المرابطين. المصدر نفسه والصفحة. ويبدو أن هذا الموضوع هو الذي كان وراء تقرب الرجل من الموحدين أول حكم عبد المؤمن.

(1098)- النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي، من أهل القرن 8هـ/ 14م)، تاريخ قضاة الأندلس، ص109.ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج6، (الترجمة 690)، ص238.

(1099)ـ لخضر بولطيف، فقهاء المالكية، ص250.

كما أن عليا بن أبي القاسم بن يعيش[1100] (ت.567هـ)، كان«من جملة أعيان بلده وأحد المتقدمين به للرتب العلية، واستُقضي به صدر دولة أبي محمد عبد المؤمن بن علي، فحُمدت سيرته»[1101]. أماأبو بكر بن القاضي أبي الحسن الزهري[1102] الفقيه (ت.567هـ/ 1171م)، فقد اشتغل في خِطّة اشبيلية، وجاء إسناد منصب القضاء إليه في إطار«التعاون بين الموحدين وبيت بني الزهري»[1103]، خاصة وأن الرجل كان قد «خدم بالطب للسيد أبي علي بن عبد المؤمن صاحب اشبيلية»[1104]. أما الفقيه أحمد بن عبد **الرحمن بن محمد بن الصقر الأنصاري الخزرجي**[1105] فقد كان«حافظا للفقه ذاكرا لمسائله عارفا بأصوله، متقدما في علم الكلام»[1106] جسد تنقل هذا الفقيه العالم بين سرقسطة وسبتة وفاس ثم استقراره بمراكش، ما سبق وتحدثنا عنه حول دور الثوابت الوحدوية في جعل المجال الشاسع الذي حكمه المرابطون ثم الموحدون من بعدهم، جعلت منه قطعة جغرافية واحدة ومجالا سياسيا واحدا[1107].«استُقضي بغرناطة فحُمدت سيرته وشُكر عدله واشتهرت نزاهته»[1108]. وبعد أن «صار من أكابر الطلبة الموحدين[1109].«ولاّه عبد المؤمن أحكام مراكش، ثم قضاء مراكش»[1110]. علما أن هذه

(1100)ـ ولد علي بن أبي القاسم بن يعيش «بباجة سنة تسعين وأربعمائة وتوفي باشبيلية ليلة الثلاثاء منتصف ربيع الأول.. سبع وستين وخمسمائة وألف» ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة، تحقيق عباس إحسان، ج5، ص164.

(1101)ـالمرجع نفسه، ص163.

(1102)ـ هو أبو بكر بن الفقيه القاضي أبو الحسن الزهري القرشي قاضي اشبيلية، وُلد ونشأ بهذه الحاضرة الأندلسية. ابن أبي أُصيْبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي(ت.668هـ). عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ضبطه وصححه ووضع فهارسه محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دارالكتب العلمية، بيروت – لبنان (د.ت)، ص494.

(1103)ـ لخضر بولطيف، م.س، ص250.

(1104)ـ ابن أبي أُصيْبعة،عيون الأنباء في طبقات الأطباء، م.س، ص494.

(1105)ـ «يُكنى أبا العباس أصله من الثغر الأعلى من سرقسطة، ثم تحول إلى سبتة ثم إلى فاس وأقام بها، ثم استوطن مراكش»يونس بن عبد الخالق العدلاني،طبقات الأصوليين بعدوتي المغرب والأندلس، تقديم أبي الطيب مولود السريري السوسي، دار الأمان للطباعة والنشر، الرباط. ودار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 2020، ص150.
جعل مؤلف"طبقات الأصوليين بعدوتي المغرب والأندلس" تاريخ وفاة أحمد ابن الصقر الأنصاري الخزرجي، عام 529هـ/ 1134م، وهو ما لا ينسجم مع تقلده لخطط داخل دولة النظم الموحدية. علما أن 529هـ كان لازال خلالها المرابطون هم الحكام الفعليون لبلاد العدوتين.

(1106)ـ ابن فرحون، الديباج، م.س (الترجمة 93)، ص117.

(1107)ـ كنا قد أشرنا في الفصل الأول من الباب الثاني الخاص بالعوامل المساهمة في قيام التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي. أشرنا إلى المجال المغاربي والمجال الأندلسي كانا يشكلان مجالا واحدا في الذهنية العامة ووطنا سياسيا واحدا. كما أن العامل الديني والثقافي كانا يمثلان بوضوح القاسم المشترك بين المكون البشري لبلاد العدوتين.

(1108)ـ ابن فرحون، الديباج، ص117 – 118..

(1109)ـ المغراوي، العلماء والصلحاء والسلطة، م.س، ص206.

الحُظوة التي نالها لدى كإلزامه زمن خليفة عبد المؤمن أبي يعقوب يوسف«خدمة الخزانة العالية وكانت عندهم من الخطط الجليلة»[1111].

لكن ألا يمكن أن يحسب البعض أن هذه النماذج المذكورة من فقهاء المالكية داخل خطة القضاء الخليفية الموحدية هي حالات فردية لا يمكن أن نبني عليها حُكما من حجم حِفاظ فقهاء المالكية على مكانتهم وتأثيرهم في المجتمع بعد أفول تجربة المرابطين؟

+/ نماذج لفقهاء مالكيين في خطة القضاء زمن خلفاء عبد المؤمن

يشير صاحب أطروحة **"فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي"** إلى أن أمر «تقليد فقهاء المالكية خِطّة القضاء لم يقتصر على بدايات العصر الموحدي، بل كان سِمة العصر كله»[1112]. وهذا الأمر يمكن تفسيره بعودة «عدد من فقهاء المالكية إلى الواجهة السياسية»[1113]. وهنا نذكر أحمد ابن الصقر الأنصاري الخزرجي، الذي لم يقتصر دوره على عصر عبد المؤمن، بل تجاوزه إلى عصر الخليفة يوسف يعقوب الذي كان «أكثر تسامحا مع خصوم الموحدين»[1114]، ولعل مثل هذه الأجواء السياسية قد سمحت فيما يبدو للقضاة المالكيين بالاشتغال بحرية، والقبول بالخطط التي يُولّون عليه.

أما بالنسبة ل**محمد بن إبراهيم بن خلف الأنصاري**(511هـ - 590هـ/ 1117م – 1193م) فقد أشار ابن عبد الملك إلى أنه « مالقي بلنسي الأصل»[1115]، يكنى"ابن الفخار" ويلقب ب«الحافظ الإمام.. استدعاه أمير المؤمنين المنصور أبو يوسف إلى حضرة مراكش عام ثمانين وخمسمائة»[1116]. كما أشارت الرواية المصدرية إلى استصحاب أمير المؤمنين له « حين توجه إلى إفريقية سنة [خمس وسبعين] وخمسمائة، مباهيا به ومستكثرا

(1110)ـ حسب فهرس ابن عطية ولد الرجل بألمرية عام 492 وتوفي بمراكش عام 569هـ. ص18 (الترجمة 16).
(1111)- ابن فرحون، م.س ، 118.
(1112)- لخضر بولطيف، فقهاء المالكية، م.س، ص257.
(1113)- المرجع نفسه، ص188.
(1114)- نفسه والصفحة.
(1115)- ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، مج.6، ص87.
(1116)- ابن عسكر(أبو عبد الله)وابن خميس(أبو بكر)،أعلام مالقة، تقديم وتخريج وتعليق عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي ودار الأمان للنشر والتوزيع، ط.1، 1420هـ/ 1999م، ص 111 – 112.[ت. 15]ففي عام 580هـ/ 1184م، تولى يعقوب المنصور الحكم.

بمكانه»[1117]. ولعل في مثل هذه الحظوة لفقيه مالكي من حجم ابن خلف ما يمثل وجها من أوجه استقرار مسار التجربة الوحدوية رغم اختلاف نظام الحكم.

أما **أبو جعفر أحمد بن عتيق بن جرج الذهبي**(554هـ - 601هـ/ 1159م – 1204م) الفيلسوف القرطبي، فقد استدعي إلى مراكش في نكبة ابن رشد قبل أن تنقشع غيوم الأزمة، حسب ما فهمناه من الرواية المصدرية التي أطلعتنا على أن الخليفة المنصور جعل منه ابتداء من عام 595هـ/ 1198م، أحد أعضاء المجلس السلطاني.»الذي يضم كبار العلماء والفقهاء والأدباء من العدوتين»[1118] استوطن أبو جعفر مراكش وتوفي بتلمسان وهو يرافق الناصر في حملته إلى إفريقية، كتعبير عن اكتساب التحركات العسكرية أهدافا سياسية بمشروعية دينية بالنظر إلى انخراط الفقهاء في عملية وحدة الصف «ظل في فتاواه ملتزما بالمذهب المالكي مع إظهار الولاء لسياسة المنصور الدينية»[1119]

أما **محمد بن عبد الله بن أبي زمنين**، الذي«كان محدثا جليلا من بيت أصالة وعلم »[1120]حسب إشارة صاحب أعلام مالقة. هذا الفقيه «ولي قضاء مالقة في سنة 592، وكان في قضائه عدلا مهيبا»[1121]وذلك في عهد الخليفة المنصور سنة 592هـ/1196م[1122]. وتشير الرواية المصدرية إلى أن هذا القاضي العدل المهيب والمكنى بأبي بكر وقد كان «ولي القضا قبل مالقة بجهات شتى من الأندلس، منها بَرْجة»[1123].

واشتهر في زمن حكم الموحدين، **أبو يوسف بن إبراهيم الأغماتي**[1124]وهو «من أهل تلمسان وأصله من أغمات»[1125]، بكونه كان«ذا تصميم في الحق»[1126]. الشيء الذي

(1117)- ابنعبدالملك،الذيل والتكملة، م.س، ص90.
1118)- المغراوي، العلماء والصلحاء والسلطة، ص202-203.
(1119)- المرجع نفسه، ص203.
(1120)- أعلام مالقة، م.س، ص123.
(1121)- النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، 110 - 111.
(1122)- أعلام مالقة، ص123.
(1123)- النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، م.س، ص111.
(1124)- يحيلنا صاحب أطروحة فقهاء المالكية لخضر بولطيف على المراكشي الذي عرف بالرجل كونه شغل منصب قاضي الجماعة أيام يوسف بن عبد المؤمن، المعجب، ص206 – 207.

يفهم منه ترسيخ القضاة المالكيين واقع استقلالية القضاء بهدف صيانة حقوق الرعية وتحقيق الاستقرار حسب رأي الدارس لخضر بولطيف [1127]. وذلك في إطار التجربة الوحدوية التي شهدها الغرب الإسلامي زمن الموحدين. وقد أكدَت في هذا الإطار بعض الرسائل الموحدية على ضرورة ركون الجميع لما تقتضيه خطة القضاء التي بواسطتها تقوم «الأحكام ويتسق بإجرائها على القوانين الدينية لجميع النوازل، النظام»[1128].

ويشير التنبكتي إلى **الفقيه أبي القاسم بن حبيش**(ت584هـ/ 1188م) كونه ولد بألمرية في «رجب سنة أربع وخمسمائة وتوفي سنة أربع وثمانين في صفر»[1129]. وهو الذي لم يحُل عمله في سلك قضاء بني مردنيش من أن يُولى قضاء مرسية إلى وفاته[1130]. وذلك بعد تمكُّن الموحدين من شرق الأندلس. ولعل استقضاء يوسف يعقوب للرجل واستمراره في منصبه زمن حكم يعقوب المنصور، ما يشير إلى أننا أمام خُطة سياسية مُحْكمة لدولة النظم الموحدية، لا تعبر عن موقف مؤقت من استعمال الفقهاء المالكيين داخل خطط الحكم. وهنا نجد تراجم قضاة العصر الموحدي تتحدث عن طول مُدد قضائهم[1131]، كسِمة عامة لذلك العصر، وكأحد علامات ثقة الخلفاء الموحدين بالفقهاء المالكيين، الذين كان قد شنّ عليهم المهدي بن تومرت حربا دعائية كبيرة. فالقاضي أحمد بن مضاء(ت.592هـ/ 1195م) الذي كان«قاضيا ليوسف والمنصور»[1132]، يعتبر«أحد من خُتمت به المائة السادسة من أفراد العلماء وأكابرهم»[1133].وقد استُقضي هذا الفقيه الأندلسي «ببجاية، وقُلِّد بمراكش أيضا قضاء الجماعة، واستقضي بفاس، ثم دخل إلى الأندلس»[1134]حيث «استقر في

(1125)ـ محمد بن زين العابدين رستم، الحافظ الرحالة أبو علي الصدفي الأندلسي وجهوده في خدمة الحديث النبوي وعلومه، جامعة السلطان المولى سليمان بني ملال – المغرب، دار الكتب العلمية (دون تاريخ)، ص113. كان من تلاميذه أبو علي الصدفي. نفس المصدر والصفحة.
(1126)ـ لخضر بولطيف، فقهاء المالكية، م.س، ص245.
(1127)ـ ابن أبي زرع، القرطاس، م.س، 217.
(1128)ـ رسائل موحدية (م.ج)، م.س، ص497.
(1129)ـ التنبكتي(أحمد بابا)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله الهراحة، منشورات دار الكاتب – طرابلس، ط2، 2000م. (ترجمة 278)، ص239. شجرة النور، م.س، ج1، ص278.
(1130)ـ أنظر ابن الأبار (طبعة مدريد) ج1، ص397، نقلا عن أطروحة لخضر بولطيف، م.س، ص251.
(1131)ـ علي أحمد، القضاء في المغرب والأندلس من الفتح وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق – قسم التاريخ، العدد 54/53، 1995، (صص: 145-177)، ص150.
(1132)ـ المرجع نفسه والصفحة.وجاءت إشارة مقتضبة عند ابن أبي زرع تتحدث عن أبي العباس بن مضا القرطبي كأحد قضاة المنصور، القرطاس، ص217.
(1133)ـ ابن فرحون، الديباج، ص116.
(1134)ـ المصدر نفسه، ص117.

اشبيلية يُسمِع الحديث ويُؤخذ عنه ضروب ما كان معه من العلم»[1135]. وقد تحدث أحد الباحثين الغربيين عن القاضي ابن مضاء إلى جانب «أحمد بن يزيد بن بقي بن مَخْلَد وعبد الحق بن عبد الله »[1136] باعتبارهم من بين اثني عشر قاضيا مالكيا من قضاة الجماعة في عهد الموحدين[1137]. ولتأكيد فكرتنا حول أن هؤلاء القضاة لم يتم تعيينهم عن طريق الصدفة، بقدر ما أصبحوا حقيقة خلال العصر الموحدي، استقضاء ابن مضاء زمن الخليفة يوسف يعقوب وابنه المنصور[1138].

وفي إشارة لطول مدة استقضاء الفقهاء المالكيين كعلامة على الرضى عنهم، تحدث صاحب "تاريخ قضاة الأندلس"عن أحمد بن يزيد بن بقي بن مَخْلَد الأموي(ت.625هـ(1227م)[1139]، والمكنى بأبي القاسم[1140]، ك« قاضي الخلافة المنصورية القديم الاختصاص بها»[1141]، حيث تقلد منصب «قاضي القضاة بالمغرب وقاضي قرطبة»[1142]، كما ولاه المنصور الموحدي«قضاء الجماعة بمراكش»[1143]، قبل أن يتقلد «قضاء بلده»[1144]قرطبة. ولم يقتصر تقلده هذا المنصب زمن المنصور بل تجاوز تقليد هذا الفقيه المالكي والعالم الأندلسي، قضاء الجماعة «إلى صدر من خلافة الناصر»[1145]. ومن الإشارات المصدرية المهمة في تجسيد مكانة الرجل عند الموحدين وثقتهم فيه، تكليفه إلى جانب خطة القضاء بخطتي «المظالم والكتابة العليا فحُمدت سيرته «[1146].كما كانت

(1135)- العدلاني، طبقات الأصوليين، م.س، ص207.
(1136)- أبو الحسن (علي بن محمد بن علي الرُّعيني الإشبيلي - 592هـ - 666هـ)، برنامج شيوخ الرعيني، حققه ابراهيم شبوح، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1381هـ/1962م، ص50: ترجمة ابن بقي بن مخلد رقم 20.
(1137)- هوبكينز، النظم، 223.
(1138)- المرجع نفسه والصفحة.
(1139)- النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، م.س، ص117-118.
(1140)- أنظر ترجمة أحمد بن يزيد بن عبد الرحمان بن بقي(ت.625هـ): ابن الأبار، التكملة في كتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، 1415هـ/ 1995م، ج1، (ترجمة 292)، ص102. وأحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، م.س، (ترجمة 39)، ص77.
(1141)- النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص118.
(1142)- المصدر نفسه،ص117.
(1143)- أبو الطيب(تقي الدين. 775 – 832هـ)، في رواة السنن والمسانيد، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (دون تاريخ)، ج.1، ص409.
(1144)- النباهي، م.س، ص117.
(1145)- هوبكينز ج.ف.ب، النظم الإسلامية، ص197.
(1146)- ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، الهراس، دار الفكر للطباعة والشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 1415هـ/ 1995م.ج1، ص102.

له «إمامة في اللغة وعلم العربية»[1147]. وحسب أحد الباحثين الغربيين، فإن هذا المنصب لم يشغله أحد من فقهاء المالكية عهد عبد المؤمن، لكن مع «خلافة يوسف فقد تعاقب عدد غير قليل من المالكية على هذا المنصب»[1148].علما أن الرعيني جاء بإشارة مفادها أن بن مخلد هذا كان «يرغب عن مذهب مالك ويميل إلى الظاهر»[1149].

وتجدر الإشارة إلى أن عهد الخليفة المنصور[1150]تميّز بالحدّ من تسلط الولاة الموحدين، من خلال مراسلتهم بضرورة «الرجوع إلى أحكام القضاة»[1151]. ولعله السياق الذي جاء فيه تقليد المنصور الموحدي «الفقيه **أبي محمد بن الفرس الغرناطي**(ت.597هـ/ 1201م) قضاء بلده»[1152]، وهو الذي تضمن ظهير تعيينه حسب ما ذكر النباهي، قوله: «أقول لك ما قاله موسى – عليه السلام – لأخيه هارون:﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: 142]»[1153]، الشيء الذي يفسر مكانة الرجل عند الخليفة، وذلك لِما أنس فيه من صدع بالحق، و«التسوية في الحكم بين المشروف والشريف والآخذ بالحق من القوي والضعيف»[1154].ويشير الدارس أحمد عزاوي إلى ما يفيد أنه «إلى أوائل عهد المنصور كان المذهب المالكي هو الشائع»[1155]، إذ إن القاضي المالكي **أبو الفضل بن النحوي** المعين في ذي الحجة من عام 579هـ/ 1185م، في خطة القضاء الموحدي كان قد خالف نظراءه من فقهاء المالكية الأندلسيين في قضية إحراق كتاب الغزالي[1156]. وبالرجوع إلى ما افتتحنا به هذا المبحث، يظهر بشكل جلي ما عبرنا عنه من تغليب

(1147)- محمد بن زين العابدين رستم، بيوتات العلم والحديث في الأندلس، دار بن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1، 1430هـ/2009م، (الترجمة 11)، ص32.
(1148)- هوبكينز، النظم الإسلامية، ص197.
(1149)- أبو الحسن الإشبيلي، برنامج شيوخ الرعيني، ص50.
(1150)– أنظر ترجمة يعقوب المنصور: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ، ج7، ص3.
(1151)-ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينه فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط: دار المنصور، 1972، ص217.
(1152)- لخضر بولطيف، فقهاء المالكية، م.س، ص244.: هوأبو محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي الغرناطي الأندلسي المالكي، المعروف بابن الفرس (524هـ-597هـ/ 1201م– 1174م)
(1153)-النباهي تاريخ قضاة الأندلس، م.س، ص110. «هو عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي والمعروف بابن الفرس».محمد العمراني، الموحدون في الأندلس، ص371
(1154)- عزاوي، رسائل موحدية (م.ج)، ص497.
(1155)- المصدر نفسه، ص246. يحيلنا المؤلف في الهامش160 من نفس الصفحة على كتاب التكملة، ج.2، ص921 (ط. القاهرة).
(1156)- الجراري(عباس)، الموحدون ثورة سياسية ومذهبية، المناهل، ع.1، م.س، ص86.

الموحدين واقع التعامل مع فقهاء المالكية[1157]، بشكل نفعي يخدم مصلحة استقرار النظام، وذلك بالنظر لوزنهم داخل مجتمع بلاد الغرب الإسلامي. ويؤكد مثل هذا الأمر أحد الدارسين الذي أشار إلى تعامل الخلفاء الموحدين «اليومي مع فقهاء المالكية الذين كانوا يشكلون الإطار الذي ارتكزت دولتهم عليه بصورة عملية»[1158]. وهي شهادة عن المكانة التي حضي بها عدد مهم من الفقهاء المالكيين في خطة القضاء الموحدي، خاصة زمن يعقوب المنصور، ومظهر من مظاهر الاستقرار السياسي الذي أسهم خلاله القضاء، في استمرار سريان التجربة الوحدوية زمن الموحدين، وحافظ على وحدة بلاد الغرب الإسلامي تحت نظام حكم مركزي في مراكش.

وبالرجوع إلى ما أَثَرْناه في الفصل الأول من الباب الثاني حول موضوع دور الثوابت التي قامت على أساسها التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي، نجد دور الفقهاء والعلماء في الدعوة إلى الجهاد، زمن المنصور والناصر مؤشرا على وحدة الصف «الذي بدا لبعض الوقت ممتنعا»[1159]. وهنا يذكر صاحب أطروحة " فقهاء المالكية " لخضر بولطيف نموذجين من هؤلاء الفقهاء هما **أبو زيد بن الملجوم** (ت.603هـ/ 1207م) و**أبو القاسم بن الملجوم** (605هـ/ 1208م) اللذان شاركا في « غزوة الأرك كمتطوعين في جيش المنصور»[1160]. كما ذكر مشاركة **أبي محمد بن عبد الواحد الغرناطي** و**أبي عبد الله بن صاحب الصلاة المالقي** في غزوة العقاب[1161]. ونختم هذه الشريحة من الفئة العالمة التي تبوأت أعلى الخطط زمن الموحدين بمرحلة حكم الناصر الموحدي، حيث ظهر إسم عبد **الله بن المُناصِف**(ت.620هـ/ 1123م) كوجه ممن انتقيناهم في هذا المقام من الفقهاء القضاة.

(1157)ـ علماء الفروع المجسمين أعداء المهدي بن تومرت.
(1158)ـ زنيبر محمد،"ابن رشد والرشدية في إطارهما التاريخي" ضمن أعمال ندوة " ابن رشد ومدرسته في الغرب الإسلامي"، الرباط، 21 – 23 / 04/ 1978، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1981م، ص50.
(1159)ـ بولطيف، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، ص 228.
(1160)ـ المرجع نفسه والصفحة.
(1161)ـ نفسه والصفحة.

فقد تقلد الرجل خطة القضاء الموحدي زمن حكم الناصر[1162] وألف كتابا في الجهاد سماه "الإنجاد في الجهاد"، أيام كان قاضيا على بلنسية[1163].

ورغم الصراع الظاهر والخفي، والتوجس الذي اكتسى علاقة الموحدين بأهل سبتة بقيادة القاضي عياض[1164]، ثم ما اكتنف محنته ووفاته من غموض، وإمكانية تورط الموحدين في مقتله. رغم ذلك كله فإن استمرار ابنه **محمد بن عياض المكنى أبو عبد الله**[1165] في سلك القضاء أيام الموحدين، ما يؤكد على سياسة التوافق بين الموحدين والمعارضين لهم، خاصة إذا كانوا من حجم فئة الفقهاء القضاة المالكيين. وذلك لما كان لهم من أدوار في ترسيخ العدل داخل أجزاء الإمبراطورية، وضبط المجتمع وتعبئته من أجل الحفاظ على وحدة بلاد الغرب الإسلامي. خاصة أمام واقع التحديات التي كانت تواجهها الدولة المركزية. وإذا كانت حاجة الخلفاء الموحدين إلى تطعيم خطة القضاء بذوي التجربة من فقهاء المالكية، فإن «تقاديم قضاة الموحدين لا تفصح على نحو صريح عن مذهبية القضاء الموحدي »[1166]، وذلك وفق ما استنتجهصاحب أطروحة " فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي" الذي أكد، فيما أمكن استخلاصه من مختلف المصادر التاريخية، أن قضاة الجماعة الذين اتخذهم خلفاء الموحدين، «يربو على العشرين قاضيا من لا يسوغ لنا نفي انتمائه إلى المالكية»[1167].

استنتاج:

من خلال ما جمعناه من معطيات حول علاقة الموحدين بالفقهاء المالكيين، تبين أن الحضور المالكي ضمن خطة القضاء الموحدي كان سمة عصر تجربة الموحدين في حكم بلاد الغرب الإسلامي. فالأمر لم يكن مؤقتا له علاقة بظروف تثبيت أركان الدولة زمن عبد المؤمن، بل ظهر لنا من خلال هذه الفئة المنتقاة من الفقهاء القضاة، أن أمر القبول بهم في

(1162)- ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج8، ص348.
(1163)- بولطيف، فقهاء المالكية، ص227.
(1164)- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مج.4، ط1، 1397هـ / 1977م، من ص222 إلى 230.
(1165)-ابن فرحون، الديباج، (الترجمة 519)،ص383.ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج.8، (ت.133).ص344 – 345.
(1166)-بولطيف، فقهاء المالكية، ص252.
(1167)- المرجع نفسه والصفحة.

خطة القضاء الموحدي لم يكن صُدفة، بقدر ما كان استراتيجية تبناها الحكام الجدد والنخبة العالمة بصفة عامة، وجم من الفقهاء المالكيين، وذلك بهدف خدمة ما رأينا فيه مشروع تجربة سياسية وحدوية مكنت إلى حدّ بعيد من الذود عن الأندلس وبيضة الإسلام فيها لعدة قرون. مما يفيد أننا أمام ما يمكن اعتباره تشبثا من خلفاء بني عبد المؤمن بفقهاء المالكية، كموقف ثابت ومبدئي بالنظر لما فهمه الموحدون من أهمية تقريبهم منهم في استقرار أحوال الدولة والمجتمع. الأمر الذي يمكن أن نفسر من خلاله دور المذهب المالكي مستقبلا كثابت من ثوابت الدولة المغربية في عصورها القادمة وذلك بعد تبنيه من طرف المرينيين كمذهب رسمي للدولة.

إن الخلاصة التي يمكننا الخروج بها من مقاربتنا لموضوع تجليات التجربة الوحدوية على مستوى مجال المغرب الأقصى والأندلس، أن كلا من المرابطين والموحدين استطاعوا تحقيق إنجاز سياسي وحضاري تجسد في تحقيق وحدة سياسية داخل مجال جغرافي تجمعه قواسم دينية وحضارية مشتركة منذ عصور. علما أنه رغم ما نسجله من موقف سلبي حول دور الموحدين في إيقاف تجربة المرابطين "الفتية"، فإن بلاد الغرب الإسلامي حافظت من خلالهم على وحدة المنطقة التي مرّت بمرحلة انتقالية كادت أن تعصف بالتجربة الوحدوية التي وضع حجرها الأساس المرابطون. وهنا يكون المغرب "الأقصى" قد شكل فيما نخال المحور الأساسي في هذه المعادلة السياسية. إذ إن قيادة مُكوّنه البشري (القَبَلي) لهذه التجربة السياسية الوحدوية حوّلت البلد من مفعول به إبان مرحلة التجزئة، إلى فاعل ليس على مستوى محلي وقُطري ضيق، بل وعلى مستوى إقليمي و"دولي" في إطار ما نحسبه إحداثا لنوع من التوازن"الاستراتيجي" داخل المجال الأندلسي وحوض البحر الأبيض المتوسط.

الباب الثالث:

التجربة الوحدوية للمرابطين والموحدين مغاربيا

ارتباطا بالفرضية التي افتتحنا بها هذا الباب والتي تهمُّ سياسة المرابطين والموحدين الخاصة بتوحيد المجال في إطار موضوع التجربة الوحدوية، وبناء على ما هو محسوم تاريخيا من أن الموحدين استطاعوا ضم المجال المغاربي بكامله لحكمهم، يبدو أن الحديث عن توجّهات مرابطية توسعية داخل المجال السياسي لمجال بني حماد، فيه ما ينذر بصدام عسكري حتمي بين المرابطين والموحدين. لكن هذا الحديث وجدناه مُحاطا بكثير من علامات الاستفهام، وذلك بالنظر لتضخيم بعض الدراسات(1168) واقع الصراع والصدام هذا دون إفادتنا بالمادة المصدرية المعتمدة في تجسيد هذا الوضع، باستثناء بعض الإشارات القليلة، والتي لم نطمئن إليها. وهو ما دفعنا إلى التعامل مع الموضوع بحذر شديد.وفي نفس الآن عملنا على اقتحام أبواب هذا الموضوع بهدف إزاحة بعض الضبابية التي تلفُّه في حدود ما يمكن أن نجده من إشارات مصدرية حول الموضوع،بعد أن وضعنا نُصب أعيننا مجموعة من الأسئلة الموجِّهة والتي لها علاقة بموضوع تجليات التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي في بُعدها المجالي المغاربي.

ـــ هل شكّل توحيد المرابطين للمغرب الأقصى، حافزا لهم للتوسع شرقا من أجل تعميم واقع التجربة السياسية الوحدوية داخل المنطقة المغاربية؟

ـــ هل العلاقة التي جمعت المرابطين ببني حماد وبني زيري، فيها ما يوحي بتقارب سياسي مغاربي آنذاك، يصب في موضوع التجليات الوحدوية لبلاد المغارب بصفة خاصة وبلاد الغرب الإسلامي بصفة عامة؟

ـــ وهل ترويج بعض الدراسات لمفهوم الحرب الباردة بين المرابطين وبني حماد فيه ما ينم عن تخوف بني حماد من اكتساح المرابطين لمجالهم السياسيّ؟ أم إن المرابطين في إطار إمارة المسلمين لم يكن توسعهم على حساب بني حماد أولوية لهم كالأندلس؟

ـــ إذا كان الوضع السياسي داخل المغرب "الأوسط" وإفريقية زمن المرابطين يختلف اختلافا كبيرا عما أصبح عليه الحال زمن وصول الموحدين إلى الحكم، فكيف أمكن للحكام الجدد في المغرب الأقصى من توحيد المجال المغاربي بكامله تحت سلطتهم؟

(1168)ـ كعبد الحليم عويس صاحب" دولة بني حماد، صفحة ناصعة في تاريخ الجزائر".

الفصل الأول: علاقة المرابطين بمجال بني حماد وبني زيري(صنهاجة الشمال)

في إطار مقاربتنا لموضوع التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي مقاربة سياسية في بُعدها المجالي، كان أبرز حدث تحقق على يد مرابطي المغرب الأقصى خلال العقد التاسع من القرن الخامس الهجري إعلان وحدة العدوتين وإنهاء مسلسل نظام حكم الطوائف الذي كان يرمز للتقسيم والتجزئة، مما أسهم في وضع حد لاستباحة الممالك النصرانية (نصارى الشمال) عدوة الأندلس. بينما مغاربيا نحن أمام فرضيتين مبنيتين على سؤال مهم يتعلق بالجدوى من وصول المرابطين إلى حدود جزائر بني مزغنة[1169]. هل هو محاولة لخلق جسور علاقة سياسية مع بني حماد مبنية على توحيد جهودهم للتصدي لتشغيب العرب في بلاد المغارب والحدِّ من استباحة نصارى النورمان في صقلية لمجال بني زيري؟ أم هي خطوة أولى لاكتساح مجال الحماديين والزيريين على السواء؟

المبحث الأول: علاقة المرابطين ببني حماد الصنهاجيين (ق.5هـ/ ق.11م)

كان يوسف بن تاشفين قد تشبث حسب ما ذكرته المصادر بلقب أمير المسلمين[1170] إيمانا منه بأهمية وحدة صف المسلمين[1171]، من خلال علاقة الغرب الإسلامي بالشرق الإسلامي، وما لأمر إعلان التبعية للخلافة العباسية من رمزية سياسية. وهو ما جسده من خلال نزوع «هِمّته إلى الدخول في طاعة الخليفة»[1172]في بغداد. وقد رأى صاحب المقدمة في «اتباع لمتونة اللقب بأمير المسلمين أدبا مع رتبة الخلافة»[1173]. علما أن الزمن كان يشير إلى فترة اضمحلال حكم بني العباس، ومنه يمكن أن نستمد البُعد الرمزي في ولاء المرابطين للعباسيين، والمتمثل في إيمان يوسف بن تاشفين بأهمية وحدة صفوف

(1169)- وردت عند البكري تحت إسم " مدينة جزائر بني مزغنّى"المسالك والممالك، ص732. وعند النويري تحت إسم " بني مزغنان"، نهاية الأرب، ص139.

(1170)- توجه أشياخ المرابطين وأعيان الدولة بالقول:«أنت خليفة الله في هذا المغرب، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين، فقال لهم: حاش الله أن نتسمى (وفي نسخة تُسموني) بهذا الاسم، إنما يتسمى به خُلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، لأنهم ملوك الحرمين: مكة، والمدينة، وأنا رجلهم، والقائم بدعوتهم، فقالوا له: لابد من اسم تمتاز به، وبعدما أجاب إلى «أمير المسلمين وناصر الدين» خُطِب له بذلك على المنابر وخوطب به مِن العدوتين» مجهول، الحلل الموشية، م.س، 28. وقد صار هذا اللقب يطلق على خلفه من بعده.

(1171)- ولو في البُعد الرمزي للموضوع، علما أن العباسيين حينها كانوا يعيشون على وقع الضعف السياسي الذي كان ينخر جسم الإمبراطورية العباسية.

(1172)- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، الدار البيضاء، 2005م،ط.1، ج.1، ص386.

(1173)- نفسه، 386 - 387.

المسلمين[1174]. فهل هذا الإيمان هو الذي جعل زعيم المرابطين بمنأى عن اكتساح مجال بني حماد وبني زيري، على غرار ما سيحصل مع الموحدين؟.

يعتبر التطرق لموضوع علاقة المرابطين وبني حماد في إطار نظام حكم"إمارة المسلمين"، أمرا منهجيا ضروريا يمكن من خلاله فهم زاوية الرؤية عند حكام مراكش ــ زمن ما نفترضه تجربة وحدوية زمن المرابطين والموحدين ــ في علاقتهم السياسية بمجال صنهاجة الشمال[1175] بصفة عامة ومجال بني حماد بصفة خاصة. فإمارة المسلمين كإطار مميز لنظام حكم المرابطين، جاءت في سياق ما وسم به مصدر أندلسيضخامة مملكة يوسف بن تاشفين واتساع إيالته[1176]، بعد خطوة توحيد بلاد المغرب الأقصى. هذه الخطوة التي أظهرت المرابطين كحاملين لمشروع سياسي وحدوي على أساس ما حسبه سامي النشار « نزعة الإصلاح المرابطية»[1177].

وقد أكد أحد الباحثين أن أساس تشبث يوسف بن تاشفين بلقب أمير المسلمين وليس المؤمنين ــ بعد حدث الزلاقة 479هـ/1086م ــ يرجع إلى كون المرابطين أهل سُنّة «يستوحون نظرية السلطة السنية كما صاغها الفقهاء الأشاعرة»[1178]. وقد تحدث ابن خلدون عن نزوع هِمّة الرجل إلى الارتباط بالخلافة في بغداد، و «الدخول في طاعة الخليفة تكميلا لمراسم دينه»[1179]، وهو ما يؤكد مبدئيا إيمان المرابطين في شخص يوسف بن تاشفين والفقهاء بضرورة ترسيخ وحدة المسلمين سياسيا ولو على المستوى الرمزي. فقد «كانت مسألة الوحدة في وعي الفقهاء أكثر من كونها ضرورة سياسية، بل ضرورة دينية

(1174)- في رسالة الإمام الطرطوشي ليوسف بن تاشفين تطرقلأمانة الإمامة، وحسب الأمر ابتلاء ثقيلا له. فأيُّ شيوع للزنى وشرب الخمر وانتهاك عرض المسلم والتعامل بالربى وسائر المظالم وانتهاك الحرمات، كل ذلك «فعُهدتها عليك؛ لأنك قادر على تغييرها» ابن الأزرق أبي عبد الله(896هـ)، بدائع السِّلك في طبائع المُلك، تحقيق وتعليق علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط.1، 1429هـ/2008، ج 1، ص82.

(1175)- يبدو أن الملثمين كانوا على علم وإطلاع بما كان يجري في بلاد صنهاجة الشمال، الذي من الممكن أن يكون قد راودهم فيه حلم ضمه، بالنظر لما يشهده من انقسام وتجزئة، بهدف تحقيق طموح توحيد بلاد المغارب قبل أن تدخل معادلة الأندلس على الخط في إطار حركة الاستنجاد بالمرابطين والتي معها ستتحقق شاملة لبلاد المغرب الإسلامي، تحت نظام حكم واحد.

(1176)- مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 29. أنظر خطبة التسمية:ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، صص26–27 -28.

(1177)-المرادي، كتاب السياسة، ص11.

(1178)– بنسباع، السلطة بين التسنن والتشيع، ص5.

(1179)- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق الشدادي، م.س، ص386.

أيضا»[1180]، بكل ما يعنيه ذلك من «درء للفتنة ومنع للفوضى»[1181]. وبهذا هناك من يرى بأن المرابطين هم«من المتغلبين غير المغتصبين الذين استجمعوا الشروط»[1182].

1- علاقة المرابطين ببني حماد قبل معركة الزلاقة (المرحلة الأولى)

أ- سياق خاص:

إن دراسة المرحلة السابقة لحدث الزلاقة عام 479هـ/1086م، يحتاج منّا التسلح بمنهج تاريخي علمي سليم بُغية الوصول إلى نتائج قريبة إلى الاستيعاب وتناسب الوقائع كما حصلت آنذاك بعيدا عن الإسقاطات التي يقوم بها بعض الدارسين، انطلاقا من نزعة قومية أو ميول أيديولوجي.

ولفهم هذا الأمر في سياق الأحداث التي سنتناولها بخصوص علاقة المرابطين ببني حماد، رجعنا إلى مرحلة تَوَلّي الناصر بن علناس الحكم والذي تزامن مع تأسيس المرابطين مدينة مراكش كعاصمة لهم. وقد اعتمدنا في ذلك على صاحب أعمال الأعلام الذي ألمح إلى ما يمكن أن يُفهم منه علاقة مُبكِّرة بين الحماديين والمرابطين، من خلال تحرُّك بُلقين بن محمد الحمادي(1183)«من القلعة لحرب زناتة في صفر سنة أربع وخمسين وأربعمائة.. حتى فاس ففتحها وجاس بلاد المغرب ودوّخها»[1184]. لينتقل بعد ذلك إلى الحديث في نفس هذا السياق عن» ظهور يوسف بن تاشفين ببلاد المصامدة»[1185]وفراره في وجه بُلقين «راجعا إلى الصحراء، خوفا منه»[1186]. لكن برجوعنا إلى رواية أندلسية قريبة

(1180) - الطاهري (عبد الحق)، الدولة الموحدية أسس الشرعية والمشروع السياسي، ص170.
(1181)- بولطيف، فقهاء المالكية، ص356.
(1182)- الطاهري، الدولة الموحدية، م.س، ص 105-106.
(1183)- هو بلقين بن محمد بن حماد بن بلقين، قتل ابن عمه محسن بن القائد بن حماد وقد اعتبره صاحب الذخيرة « أحد جبابرة الإسلام... تجاوز في أمنيته، وقهره لرعيته...غاي من سَلَفَ من جبابرة الأرض» ابن بسام، القسم 1 مج1،ص189. قبل أن يلقى مصرعه على يد الناصر بن علناس الذي ملك القلعة عام 454هـ، وذلك فيما اعتبره صاحب الذخيرة « الغدرة الصلعاء والفتكة الشهيرة الشوهاء « القسم1، مج1، ص188/ أنظر أيضا ترجمته عند الذهبي، أعلام النبلاء 597/18.
(1184)- ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق ذلك من الكلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط.2003،1م - 1424هـ، ج2، ص330. / ابن خلدون، ج6، ص229.
(1185)- المصدر نفسه والصفحة.
(1186)- نفسه والصفحة. ابن خلدون، ج6، ص229.أنظر النص كاملا: سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج3، ص500 (الهامش)

زمنيا من الحدث، نجد ابن بسام الشنتريني يكتفي بالحديث عن بُلقين بن محمد الملك الحمادي وهو يغزو «غزوته المشهورة إلى الغرب من العدوة، بلغ فيها مدينة فاس، فوطِئ الدول ودوّخ السهل والجبل»[1187]. كما أن صاحب البيان أشار إلى دخول «بُلُجّين بن محمد بن حماد جميع الغرب ودوخه بجيوش عظيمة»[1188]. ويبدو أن المقصود هنا بالغرب، المجال الغربي من بلاد المغرب «الأوسط» إلى حدود فاس كحدّ أقصى للتوغل الحمادي في بلاد المغرب «الأقصى»، زمن حكم مغراوة لفاس. وقد التقط بعض الباحثين في تاريخ العلاقة بين الحماديين والمرابطين، رواية ابن خلدون[1189]، ليتحدثوا عن خروج بُلقين بن محمد بن حماد[1190]«سنة 454هـ للقاء يوسف بن تاشفين الذي ظهر بوطن المصامدة، فأجلاه إلى الصحراء وردّد غاراته بالمغرب، واحتمل من أكابر فاس وأشرافها رهائن على الطاعة»[1191]. علما أن سعد زغلول في مؤلفه " تاريخ المغرب العربي (ج3)" فنّذ مثل هذا التحليل المبني على رواية بعيدة زمنيا عن هذا الحدث، ووصفها بأنها رواية ذات طابع قصصي[1192]. كما أن إدريس هادي صاحب " الدولة الصنهاجية " وقف موقف المتريثحين أشار إلى تزامن غزوة بُلقين بن حماد لفاس، مع زعزعة المرابطي يوسف بن تاشفين أركان السلطة الزناتية[1193]. وقد بدا له أن بُلقين لم يلتق بالمرابطين[1194]. ولهذا فإن الإطار التاريخي الصحيح الذي يمكن أن نضع فيه حدث غزو

(1187)- ابن بسام الشنتريني علي (542هـ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.القسم.1/ مج.1، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1417هـ/ 1997م، ص190.

(1188)- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال، دار الثقافة - بيروت، ط.2، 1983، ج.1، ص255. « في سنة 447، تولى بُلُقّين الصِّنهاجي قلعة حماد» نفسه، ص394. و» وفي 450، خرج بُللُقين ومعه الأَثبجَ وعَدِيُّ لحرب زناتة فكسرها» نفسه، والصفحة.

(1189)– ابن خلدون، ج.6، ص229.

(1190)- ابن بسام، القسم1، مج1، م.س، 190.سيلقى حتفه على يد الناصر بن علناس الذي وصفته الرواية المصدرية، بكونه كان « أصغر خلق الله عند بلقين شأنا» ابن بسام، القسم1، مج1، م.س، 190.. علما أن الصراع الحقيقي خلال هذه المرحلة كان حماديا – زيريا - عربيا.

(1191)– الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص234. ذكر ابن عذاري أنه « في سنة 454 غدر الناصر بن عَلَنّاس ببُلقين بن محمد الصنهاجي صاحب القلعة، وكان ذلك أول يوم من رجب، وولي مكانه» البيان، ج.1، ص395.

(1192)- سعد زغلول، م.س، ج3، ص500. نميل إلى التعامل مع رواية ابن الخطيب وابن خلدون بنوع من الحيطة والحذر في الحديث عن دور الحماديين في كبح حركة المرابطين وفرار يوسف بن تاشفين نحو الجنوب. فالرجل لم تصبح له القيادة الحقيقية إلا بعد رجوع أبي بكر بن عمر نهائيا إلى الصحراء. كما أن مسلسل تمهيد المرابطين حواضر المغرب الأقصى إلا مع مطلع العقد السادس من القرن الخامس الهجري (ق.11م)، إذا نحن أخذنا برواية ابن عذاري وصاحب الحلل القريبتان من تقديم الأحداث وفق "كرورنولوجيا" قريبة إلى الاستيعاب.

(1193)- ادريس هادي، الدولة الصنهاجية، ص290.

(1194)- المرجع نفسه والصفحة.

بُلُقين بن حماد المغرب الأقصى يتعلق بالصراع - خلال هذه المرحلة المبكرة - بين ثلاثة أطراف رئيسية متمثلة في الحماديين والزناتيين والعرب.

فهل يمكن الحديث عن نوايا حقيقية للمرابطين في اكتساح مجال بني حماد بعد إخضاع المغرب الأقصى، وذلك بهدف الانتقال بتجربة الوحدة مجاليا من بعدها المحلي الضيق إلى بعد إقليمي تصبح فيه البلاد المغاربية تحت نظام حكم واحد وبعاصمة واحدة؟

أم إن التوجه الإصلاحي لدولة المرابطين في ظل حكم إمارة المسلمين، كان وراء ما يبدو مهادنة للحماديين، سعيا وراء تحقيق وحدة سياسية داخل البلاد المغاربية ولو في البُعد الرمزي؟

ب-حدود علاقة المرابطين ببني حماد زمن الناصر الحمادي

تقوم فرضيتنا في محاولة تحديد نوع العلاقة التي كانت سائدة بين المرابطين وبني حماد، على أساس سياسي، وذلك بالنظر إلى أن البلاد المغاربية من شرقها إلى غربها كانت تتبنى المذهب المالكي السني، منذ تخلى الزيريون وبنو حماد رسميا عن المذهب الشيعي[1195] بعد خروج الفاطميين من المنطقة. في هذا الإطار جاء التركيز على تتبع خيوط هذه العلاقة منذ كان المرابطون يضعون اللبنات الأولى لدولتهم المستقبلية بداية من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (ق.11م)، وذلك بُغية الخروج في آخر المطاف ببعض النتائج التي يمكن أن تساعد على تحديد أهم مسارات تلك العلاقة ومآلاتها على ضوء ما له علاقة بموضوع بحثنا حول واقع التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي.

ورد في بعض المصادر عن الناصر بن علناس أنه «ردّد الغزو إلى المغرب وتوغّل فيهم»[1196]، كما أشارت إلى «شغوفه على ملك بني باديس إخوانهم بالمهدية»[1197]،

(1195) – أنظر ابن عذاري، البيان، ج.1، ص277- 278. أشرنا بتفصيل لهذا الأمر أثناء التطرق للسياق التاريخي الخاص ببلاد صنهاجة الشمال حيث بنو زيري وبنو حماد.

(1196)– ابن خلدون، م.س، ج.6، ص232.

(1197)– المصدر نفسه والصفحة. يشهد أحد الدارسين أنه «لم يُعرف عن بني حماد أنهم تحركوا بدافع النخوة القبلية لحماية أبناء عمومتهم» نفسه، ص129 حسب الباحث نفسه وسيتركونهم « يتعرضون وحدهم للقبائل العربية وللغارات النورمانية «عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1411هـ / 1991م، ص 129 وص138.

مُكرّسا بذلك حكم الطوائف داخل مجال بني زيري.فبالاعتماد على العرب الغزاةببُعد"براغماتي"، ضد بني عمومته[1198]، عمل الناصر الحمادي على إجبار قسممن سكان إفريقية على الدخول في طاعته، كصفاقس وقسطيلية وتونس[1199]. وذلك أواخر العقد السادس من القرن الخامس الهجري. ورغم تحالفات الناصر النفعية مع بعض القبائل العربية[1200]،إلا أنه اضطر إلى العودة عام 461هـ (1069م) «من القيروان إلى قلعته خوفا من جموع العرب»[1201]،الذين ما إن يستشعرون- وفق ما ذكر ابن خلدون - ضعف الدولة نتيجة ضعف عصبيتها، إلا وتصبح نهبا « لهم وطمعة لآكلهم يُردِّدون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم»[1202]. في هذا الإطار أشار أحد الباحثين إلى عدم الاستقرار داخل المجال الحمادي ومقاومة الناصر «الفوضى السائدة داخل مملكته»[1203]، إلى الدرجة التي تخلى فيها «عن القلعة المُعرضة أكثر من اللزوم لهجومات الهلاليين، واستقر ببجاية»[1204]. بينما باحث آخر بدا له أن عصر الناصر بن علناس 454هـ - 481هـ(1062- 1088م)، كان على العكس«فاتحة عهد جديد من الاستقرار النسبي في تاريخ الدولة الحمادية»[1205].

في هذا الإطار العام سنحاول بالاعتماد على بعض الإشارات المصدرية، البحث خلال المرحلة التي سبقت حدث الزلاقة في الأندلس[1206]، عن نوع العلاقة التي جمعت الحماديين بالمرابطين، في إطار مشروعهم السياسي الوحدوي خلال مرحلة توحيد بلاد

(1198)– الزيريون المنشغلون بهجومات النورمان، الذين تطاولوا عليهم منذ هزيمتهم « في موقعة ميسيلمري(miselmeri) شرق مدينة "بلرم" وذلك عام 461هـ/ 1069م». زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، م.س، ج3، ص494.

(1199)– الهادي روجي(إدريس)، الدولة الصنهاجية، ص293.

(1200)– يشير ابن خلدون إلى طبيعة التوحش في العرب ك«أهل انتهاب وعيث» 186 – 187، و كخُلق وجِبِلّة وكطبيعة منافية للعمران ومناقضة له. نفسه.
المقدمة، ص187- ص186.

(1201)– ابن عذاري، البيان، ج.1، ص300.

(1202)– ابن خلدون، م.س، ص187.

(1203)– الهادي، الدولة الصنهاجية، ص294.

(1204)– المرجع نفسه والصفحة.

(1205)– la kalaa des beni Hammad. P.9DE BEYLIE,
نقلا عن عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، م.س، ص124. مما جعلها « تبدو وكأنها جزيرة الأمن والمدنية في بلاد المغرب العربي» عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، م.س، ص 138.

(1206)– اعتمدنا حدث الزلاقة عام 479هـ/ 1086م كنقطة ارتكاز في الربط بين الأحداث التي كانت تجري داخل المجال المغاربي موازاة مع الأحداث داخل الأندلس، وذلك بالنظر إلى علاقة الأندلس كأولوية في تجربة المرابطين السياسية وتأثير ذلك في سياسة المرابطين داخل البلاد المغاربية وبالتحديد اتجاه بني حماد.

المغرب "الأقصى". فقد كان تمهيد «تلمسان عقب شهر صفر(سنة ثمان وستين وأربعمائة)» [1207] مرحلة مؤَسِّسة لتمهيد الأجزاء الشمالية من بلاد المغرب الأوسط حيث يتركز الوجود الزناتي. فقد استطاع يوسف بن تاشفين[1208] تمهيد «وهران وتِنس ومَلَّكَ جبل وانشريس وشلف إلى الجزائر، وانكفّ راجعا وقد محى أثر مغراوة بالمغرب الأوسط»[1209]. فهل هذه الإشارة لابن خلدون حول المجال الذي ملكه المرابطون إلى حدود جزائر بني مَزْغَنّاي[1210]، تؤكد لنا أن الحديث عن التقسيم شبه النمطي:مغرب أقصى (المرابطون) مغرب أوسط (الحماديون) مغرب أدنى أو إفريقية (زيريون)، هو تقسيم غير موضوعي وغير علمي ؟.

نفهم من خلال بعض الإشارات المصدرية،أن المجال الممتد بين وهران والجزائر كانت تملأه القبائل الزناتية التي اضطرت إلى التراجع نحو الصحراء بعد فرض المرابطين سلطانهم على جزء مهم من بلاد المغرب الأوسط.فابن الخطيب وتتمة لما جاء عند ابن خلدون تحدث عن قبائل "بني وماتوا"[1211] و"بني تجين" عن كونهم كانوا يملكون «بلاد وانشريس وشرشال وشلف والجزائر إلى تلمسان»[1212]. مما يعني أن توسُّع الدائرة المجالية للتجربة الوحدوية زمن المرابطين في اتجاه الشرق كان على حساب المجال

(1207)– ابن عذاري، البيان، قسم المرابطين، م.س، ص28. أنظر ترجمة لمدينة تلمسان، البيان المغرب، ج1، ص199-200. يشير محقق البيان المغرب، الجزء الرابع، الهامش 1، ص30، إلى الخرم الكبير في أوراق البيان المغرب بسبب ضياعها وما يمكن أن تختزه من أحداث تساعدنا على وضوح الرؤية الإصلاحية للمرابطين في دخول بلاد المغرب الأوسط ووجودهم وجها لوجه مع بني حماد. أنظر أيضا ابن خلدون، ج.7، ص62.

(1208)– كان « داهية في السياسة ومخلصا في دينه وعبادته، هذا إلى جانب مواهبه الاجتماعية والعمرانية، وبُعد نظره في التخطيط الحربي» نجيب زبيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، تقديم أحمد بن سودة، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت - لبنان، ط.1، 1415هـ/ 1995م، ج.2، ص236.

(1209)– ابن خلدون، ج.7، ص62. القبلي، تحيين تركيب، م.س، ص168.
وفي الحقيقة لم نجد في المصادر أية تفاصيل حول الأدوار التي اضطلع بها المرابطون داخل هذا العمق المغاربي المجاور لبني حماد ولا الكيفية التي مهّدوا بها تلك الحواضر ولا الهدف وراء وصولهم إلى هناك مادام أنهم ليس في نيتهم ضم مجال بني حماد لملكهم. كما في نفس الوقت لم نجد لبني حماد صلة بهذه الحواضر الكبيرة التي توجد في أقصى الشمال الغربي لقلعة بني حماد.

(1210)– مجهول، الاستبصار، ص 132.

(1211)– هذا القبيل ورد عند مُؤلِّفي " دولة بني حماد" و " دولة صنهاجة" تحت إسم "بني وماتوا" بينما ابن خلدون سماهم "بني وماتوأ". ورغم رابط المصاهرة والتحالف الذي كان بين الحماديين وهذا القبيل من زناتة فإنهم مع ذلك « تواطئوا مع المرابطين ضد بني حماد»عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، م.س، ص177.

(1212)– ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي الوسيط، م.س، ج.3، ص167 – 168. تحدث ابن الخطيب عن محمد بن خزر الخزري المغراوي الزناتي، الذي ملك منذ زمن دولة الخلافة في الأندلس «تاهرت ووهران وتلمسان وسائر بلاد زناتة» نفسه، ص153 -154. قبل ان تأتي مرحلة الصراع بين الزناتيين وبني حماد (القائد وبُلُقّين) وإخضاع بعض بطونهم كبني وماتوا أو ومانوا.

الزناتي وبالتحديد على حساب هذا القبيل المدافع «عن بني حماد»[1213]، وليس على حساب الحماديين الذين تَركّز مجالهم السيادي ـ حسب ما استخلصناه من بعض مصادرنا ـ داخل الأجزاء الشرقية لبلاد المغرب "الأوسط" في اتجاه إفريقية. وبذلك يكون المرابطون قد ملكوا«بالمغرب من بلاد العدوة من جزائر بني مزغنة إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى جبل الذهب من بلاد السودان»[1214]، وذلك منذ مطلع العقد السابع من القرن الخامس الهجري (ق.11م). بينما كانت تتهيّأ ظروف جديدة ستجعل من المرابطين أسيادا على عدوة الأندلس بعد حدث الزلاقة عام 479هـ/ 1086م.

فهل مثل هذا التوسع هو الذي أثار شكوك الناصر الحمادي من الزحف المرابطي بقيادة يوسف بن تاشفين«بكل ما تمثله شخصيته من رغبة في التوسع والتوحيد»[1215]. حسب رأي أحدهم؟

وإذا كنا لم نجد في المصادر ما يؤكد مثل هذه الشكوك، فإن صاحب دولة بني حماد تحدث عن سعي الناصر الحمادي إلى الاستعانة «بكل القوى الممكن الاستعانة بها»[1216]، بُغية التصدي لخطر المرابطين، الذين كانوا «يحتلون مكانة العدو الأول»[1217] بالنسبة للحماديين. مما سيدفع حسب الباحث المذكور، يوسف بن تاشفين إلى التراجع أمام تلك التحالفات ــ«عن مطامحه، ويميل إلى السلم»[1218]. علما أن هذا الدارس نفسه سيخرج بخلاصة تكشف وجه التناقض عنده حول علاقة المرابطين بالحماديين، عندما خفف من حدة هذا الصراع، ومال إلى كون المرابطين «لم يروا من مصلحتهم ــ ولا مصلحة دعوتهم ودولتهم الناشئة ــ أن يدخلوا في صراع مع الحماديين»[1219]. كما أشار إلى تواضع

(1213)– الهادي إدريس، الدولة الصنهاجية، ص323.
(1214)– ابن أبي زرع، القرطاس، ص136-137. أنظر ترجمة لمدينتي تِنس وجزائر بني مزغناي عند صاحب كتاب الاستبصار، ص 132 – 133.
(1215)– عويس، دولة بني حماد، ص180. المقصود بشخصيته الواردة عند عويس، يوسف بن تاشفين.
(1216)– عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، م.س، ص 180. يشير هذا الباحث إلى استعمال بني حماد، عرب إفريقية في حروبهم ضد بني عمومتهم من بني زيري وضد زناتة وكذلك ضد المرابطين، نفسه، ص178.
(1217)- المرجع نفسه، ص179.
(1218)– نفسه، ص180.
(1219)– عويس، دولة بني حماد، ص126. ربط صاحب مؤلف "دولة بني حماد" بين قضية السلم والتقارب بين المرابطين وبني حماد، بالمرحلة التي تلت وفاة يوسف بن تاشفين، لكن لم يبرر سبب هذا الأمر في علاقة مع تقلبات الأحداث واختلاف السياقات، وكأننا به يريد التغطية على هذا القائد الصنهاجي الصحراوي المغاربي يوسف بن تاشفين، وإتلاف الملامح البطولية لهذا الرجل بالتركيز على شخصه في بُعد واحد، هو كونه كان غازيا يرافقه

المرابطين والحماديين «على سِلمٍ عُرفي امتد فترة طويلة من حكم الناصر، ولم تكن من استراتيجية أحدهما استفزاز الآخر، في هذه المرحلة على الأقل»[1220].

لعل الخلاصة التي أمكننا الخروج بها من خلال رأي عبد الحليم عويس في موضوع العلاقة التي جمعت المرابطين بالحماديين، هو أن الرجل كان لديه - فيما بدا - ميلا عاطفيا اتجاه بني حماد الذين يمثلون في أطروحته "صفحة رائعة في تاريخ الجزائر". فبالنظر لما أصبح للمرابطين من هالة كبيرة بعد تأمينهم لحدودهم من أي خطر من جهة الشرق، والتفرغ لدورهم الجهادي في الأندلس - خاصة بعد أن حطموا قوة الممالك النصرانية على صخرة الزلاقة -هذه الإنجازات تركت الرجل يتحدث بكل يقين عن«مطامع المرابطين – في غير موقف – نحو الجزائر الحمادية»[1221]. علما أن هذا الكلام فيه نوع من الإسقاط التاريخي أولا، كما أن فيه نوعا من التحامل على المرابطين، الذين لم تتحدث المصادر التي اطّلعنا عليهاعن اقتطاع أجزاء من مملكة بني حماد، أو احتلال لحضرة مُلكهم. كما لم تتحدث عن أية مواجهة عسكرية فاصلة بين الطرفين. هذا الأمر يجعلنا نميل إلى كون عبد الحليم عويس كان متحاملا على المرابطين، لِما ادّعاه بغير بيِّنة عن أطماعهم التي أبانوا عنها في غير موقف. فالمجال الساحلي الذي مهّده المرابطون بين وهران وجزائر بني مَزْغَنّاي، كان مجالا ترتع فيه القبائل الزناتية، حسب ما أكده ابن خلدون. وذلك بما كان لبني وماتوا وبني يلومي « من المُلك والدولة بأعمال المغرب الأوسط»[1222]. هذا المغرب الذي رأى فيه أحدهم أنه كان«عاملا من عوامل أمن الدولة المرابطية»[1223]. وهو ما يتقاطع فيه مع أحد الباحثين الذي ربط بين اكتساح المرابطين لجزء مهم من بلاد المغرب "الأوسط" بعدد من العوامل[1224]، ذكر منها خطر العرب المحتمل– بناء على ما سبق

طموح توحيد مجال شاسع من بلاد المغرب الكبير. وذلك حتى يزيحه حسب ما يبدو عن منافسة من يعتز بهم من بني حماد وبالتحديد " الناصر والمنصور".

(1220)– المرجع نفسه والصفحة.

(1221) – المرجع نفسه، ص180. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، ط.10، 1995، ج4، ص250.

(1222)– ابن خلدون، ج.7، ص74.

(1223)– بونار، تاريخ المغرب العربي، ص198. نقلا عن اعويس، دولة بني حماد، ص180.

(1224)– في هذا الإطار يرى حمدي حسين أنه «من المعروف ان المرابطين بعد أن اقاموا دولتهم في المغرب الأقصى آثروا الانقضاض على المغرب الأوسط للقضاء على بقايا الزناتيين لينصرفوا بعذ ذلك إلى فتح السهول الشمالية باطمئنان»التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، م.س، ص229.

وذكره ابن خلدون عن سلوكهم العدواني - على المغرب ومحاولة إيقاف خطر دولة بني حماد[1225].لنستخلص ما مفاده أن المرابطين بما اتخذوه من احتياطات لحماية ظهرهم، كانوا هم المستهدفين وليس المعتدين.

فمن خلال تفحُّصنا ومقارنتنا لمختلف الإشارات المصدرية القليلة حول موضوع علاقة المرابطين بالحماديين زمن قيام التجربة الوحدوية، تبين لنا أن الأجزاء الشمالية من بلاد المغرب "الأوسط" الغربي التي أصبحت تحت سيادة المرابطين كانت تتمتع حسب رأي أحد الباحثين «باستقلال لا يقل عن استقلال الولايات الأخرى»[1226]. بل نجد أحد الباحثين الغربيين يتحدث عن المرابطين كونهم أصبحوا أسيادا على أجزاء مهمة من بلاد الغرب الإسلامي، بعد أن تمكنوا من تكوين «أول إمبراطورية مغربية امتدت حدودها الشمالية إلى شمال الأندلس، والجنوبية إلى موريطانيا، والشرقية إلى إفريقية»[1227].رغم أن الحديث عن امتداد دولة المرابطين إلى إفريقية أمر مبالغ فيه، إذ اقتصر تدخلهم حسب ما استخلصناه من بعض المصادر على مساعدة بني زيري زمن حكم الحسن بن علي، ضد استفزازات ملك صقلية[1228]،وذلك خلال حكم علي بن يوسف بن تاشفين.

استنتاج: بِغضّ النظر عن واقع العلاقة التي طبعت علاقة المرابطين بالحماديين[1229]، زمن الناصر الحمادي، فإن مسار التجربة الوحدوية على المستوى المجالي – بعد مرحلة توحيد المغرب الأقصى – شهد تطورا مهما بعد استنجاد الأندلسيين بيوسف ابن

(1225)– محمد شقير، تطور الدولة في المغرب، م.س، ص218. يمكن أن يكون هذا الباحث الأجنبي قد بنى رأيه هذا، انطلاقا من حدث هجوم المنصور الحمادي على تلمسان كما سنشير لذلك في الفقرة الموالية - عندما كانت جهود المرابطين مُرَكّزة على تسوية الأوضاع في الأندلس خاصة مرحلة ضمها لحكمهم بعد إسقاطهم لنظام حكم ملوك الطوائف.

(1226)– حسن محمود، قيام دولة المرابطين، م.س، ص354.

(1227) .Guernier ; La berberie-op cit p282 ، نقلا عن محمد شقير، تطور الدولة في المغرب، ص218.

(1228) أنظر المبحث الثاني من الباب الثالث من بحثنا: "تجليات التجربة الوحدوية في علاقة المرابطين ببني زيري"(ق.6هـ/ ق.12م)، صص: 198- 199 - 200.

(1229) – تحدث محمد المنوني بشكل يطغى عليه الطابع العاطفي فيما يبدو لنا، عندما أشار إلى عصر المرابطين والذي كان خلاله المغرب « قد توحّد مع الجزائر وأكثر الأندلس» المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، المحاضرة الثالثة، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1404هـ/ 1983م، ج.1،ص28.

تاشفين[1230]. فهل ستتغير مواقف بني حماد اتجاه المرابطين بعد حدث الزلاقة في الأندلس والمكانة التي أصبحت للدولة المرابطية؟

2- علاقة المرابطين ببني حماد بعد مرحلة الزلاقة (المرحلة الثانية)

أ- سعي يوسف بن تاشفين للتقارب مع المنصور الحمادي

رغم أن كتب الحوليات لا تمدُّنا بالمعلومات الكافية حول علاقة المرابطين ببني حماد، فإننا من خلال ما نلتقطه من إشارات مصدرية من مختلف المصادر المتاحة، حاولنا العمل على إزاحة بعض الضبابية حول هذه العلاقة زمن وصول المنصور بن الناصر إلى الحكم. وسنبدأ هذه المرحلة بإشارة تتحدث عن بعث يوسف بن تاشفين رسالة تعزية للمنصور بن الناصر عام 481هـ/ 1088م والتي كتبها أبو بكربن القصيرة[1231]عن أمير المسلمين، وهي الرسالة التي لم نعثر عليها في المصادر التي اعتمدناها. ومع ذلك فإن مجرد الإشارة إلى وجود مثل هذه الوثيقة الهامة[1232]، فإن موضوعها هو مُؤشِّر دالّ على سعي المرابطين إلى إحداث تقارب بينهم وبين الحماديين الصنهاجيين، وذلك من أجل توحيد صفهم، في البُعد الذي يحقق فيه المرابطون برنامجهم الإصلاحي على أوسع نطاق. خاصة مع تنامي خطر نصارى الشمال في الأندلس ونصارى النورمان في صقلية، وهو ما سيكون من شأنه توسيع التجربة الوحدوية زمن المرابطين في بُعدها السياسي والمجالي على الأقل.

لكن ورود إشارة مصدرية لصاحب المقدمة يتحدث عن ما سيُعكّر صفو العلاقة المفترضة، وذلك بعد حديثه عن اتفاق بين تاشفين بن ينغمر الوالي المرابطي على تلمسان وبني "ومانو" الزناتيين ضد المنصور بن الناصر. بما يفيد تحريض ماخوخ زعيم الزناتيين، الوالي المرابطي على «بلاد صنهاجة، فكان ذلك مما دعا المنصور إلى النهوض

(1230)– أنظرالمبحث الثاني: تجليات التجربة الوحدوية زمنإعادة توحيد الأندلس عصر المرابطين(الفصل الثاني: مراحل قيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين).

(1231)– هو أبو بكر محمد بن سليمان الكَلاعي المعروف بابن القصيرة، كاتب المعتمد بن عباد. ثم كتب ليوسف بن تاشفين أمير المرابطين، رأس اهل البلاغة في وقته، وتوفي سنة 508هـ. ابن خاقان، قلائد العقيان، م.س، الهامش رقم 1، ص305.

(1232)– وجدنا رسالة واحدة للفقيه المالكي المشهور بإسم ذي الوَزارتين، ابن القصيرة، لا تحمل في مضمونها موضوع التعزية، بل تتحدث عن جواب شديد اللهجة من يوسف بن تاشفين للمنصور الحمادي. كما سنقف على ذلك في حينه.

إلى تلمسان... فبعث إليه يوسف بن تاشفين وصالحه»[1233]. وهنا نرى أن رواية ابن خلدون هذه، يعتريها بعض الغموض من زاوية زمن التأريخ لهذا الحدث، حين أخبر بنهوض المنصور «إلى غزو تلمسان سنة ست وسبعين وأربعمائة في نحو عشرين ألف... وعاثت عساكر المنصور في تلمسان»[1234]، علما أن هذا العام كان الناصر بن علناس لا زال هو الحاكم الفعلي لبني حماد، ولم نجد في أغلب المصادر ما يشير إلى مواجهة عسكرية حصلت بين الحماديين والمرابطين قبل حدث الزلاقة عام 479هـ/ 1086م. غير أن وجود وثيقة مصدرية عند ابن بسام وابن خاقان، أكدت على وجود مثل هذا الصراع الخفي بين "الجارين".

ب-رسالة يوسف بن تاشفين الزجرية للمنصور الحمادي (أواخر ق.5هـ/ ق.11م)

فهمنا من مضمون وثيقة مصدرية عبارة عن رسالة جوابية من يوسف بن تاشفين للمنصور بن الناصر الحماديين، إطارها الزمني العقد الأخير من القرن الخامس الهجري(ق.11م)، حصول هجوم لبني حماد على تلمسان، بعد أن جهّز المنصور بن الناصر(1235)وبشكل مفاجئ، جيشا كبيرا عام 496هـ/ 1102م،«اشتمل على اثنتي عشرة محلة في شوال سنة ست وتسعين وأربعمائة، ونازل تلمسان، ثم أقلع عنها صلحا»(1236). وإذا كان ابن الخطيب لم يُفصح لنا، لا عن أسباب هذا الهجوم على تلمسان ولا عن أهدافه، ونتائجه، فإن اطِّلاعنا على الرسالة الكاملة التي بعث بها يوسف بن تاشفين للمنصور الحمادي، التي أوردها كل من ابن بسام وابن خاقان(1237)، أظهرت أن المنصور استغل فرصة انشغال يوسف بن تاشفين وجيوشه بأمور الأندلس، فهاجم تلمسان.

(1233)– ابن خلدون، ج6، ص233. ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي الوسيط، م.س، ص97.

(1234)– المصدر نفسه، ص234. أنظر ترجمة بالفرنسية لمدينة تلمسان:

Alfred Bel , Histoire des Beni Abd E- lwad roi de Tlemcen jusqu'au règne D'Abou H'Ammou moussa II, Abou Zakaria yah'ia Ibn khaldoun, éditée D'après cinq Manuscrits Arabes traduite en Arabe, imprémerie orientale Pierre Fontana, 1994, p : 11- 12 -13.

(1235)–«يُنسب للمنصور أنه هو الذي حضّر مُلك بني حماد وتأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصوروإجراء المياه في الأراضي والبساتين» أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، م.س، ص249.

(1236)– ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ج.3، ص97.

(1237)–ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، 529هـ/ 1134م)، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص309 - 311. ابن بسام، الذخيرة، م.س، ق.2، ج1، من ص 257– 260.

إلا أن ردّ فعل المرابطين لم يكن عسكريا، بقدر ما وظف فيه أمير المسلمين العمل الدبلوماسي، لكن عن طريق رسالة حادّة اللهجة، وتحمل طابعا زجريا. هذه الرسالة التي أفصحت عن علم المرابطين بتحالف المنصور مع العرب قصد الغدر بالمرابطين، بعد أن أخلى«وجهه لأذى المسلمين يُبْدِؤه ويعيده»(1238). وذلك من خلال الاستقواء بمن اعتبرهم يوسف بن تاشفين، «ذؤُبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومُقترب» (1239)، الذين اشترى المنصور الحمادي ذممهم بالمال، وفق ما جاء في الرسالة، معتقدا أنهم «جُنّته من المحاذير وحِماه دون المقادير»(1240).

(1238)– ابن بسام، الذخيرة، م.س، ق.2، ج1،260.

(1239)– المصدر نفسه، ص259.يخبرنا ابن خلدون عن نزول المنصور بن الناصر ب« بجاية سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وأوطنها بعساكر وخاصة بعراعر منازل العرب» تاريخ بن خلدون، ج6، ص232. وهنا نجد صاحب المقدمة يُعدد دور العربالتخريبي في المجال المحيط بقلعة بني حماد، وما كانوا يسومونهم بالقلعة من خطة الخسف وسوء العذاب بوطء ساحتها والعيث في نواحيها» نفس المصدر والصفحة.
ويشير الهادي إدريسإلى نفس هذا العام(483هـ/ 1088م)ما مفاده أن عُتُوُّ العرب فسادا، كان وراء مغادرة المنصور القلعة نحو بجاية. الهادي ادريس روجر، الدولة الحمادية. تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج.1، 1992، ص325 وفي سياق دخول الموحدين حاضرة الحماديين تحدث الميلي مبارك بن محمد عن إيجاد«العرب بُغيتهم في الدولة الصنهاجية الضعيفة» تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج.2، ص322.

(1240)– ابن بسام، الذخيرة، ص259. أنظر تفاصيل أخرى حول مضامين الرسالة في: خريدة القصر وجريدة العصر للمؤلفين كاتب الأصفهاني وعماد الدين محمد بن محمد، الدار التونسية للنشر، قسم شعراء المغرب، 1966 (تاريخ إعداد النسخة الرقمية من الكتاب 12 فبراير 2009)، ص386.



الخريطة رقم (4)

المرجع: شوقي أبوخليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ص78

وقد جعل أحد الباحثين من هذه الرسالة مؤشرا على حرب باردة كانت قائمة بين المرابطين وبني حماد(1241)، منذ فترة حكم الناصر بن علناس الطويلة. ويظهر من سياسة يوسف بن تاشفين العسكرية أنه كان يعمل على الأخذ بمبدأ الحيطة والحذر كما فعل أثناء جوازه الأول نحو الأندلس بوضع يده على الجزيرة الخضراء، وكما فعل في تلمسان ، وهو ما يجسده رأي حسن محمود، إثر هذه الواقعة. فقد شحن يوسف بن تاشفين«المغرب الأوسط والأقصى بالمقاتلة والسلاح، وفَوَّت على بني حماد غرضهم»(1242). ومع ذلك

(1241)– عويس، دولة بني حماد، ص182.
(1242)– حسن محمود، دولة المرابطين، م.س، ص425..

يأبى عبد الحليم عويس إلا تبرئة ساحة الحماديين الذين في نظره «لم يُغلقوا أبواب التفاهم مع المرابطين... الذين تمركزوا في تلمسان، وهي جزء من المغرب الأوسط» (1243)، وفي الآن ذاته تجده مخلصا لمنهجه في تقييم علاقة المرابطين بالحماديين حين يجعل المرابطين هم الطرف المعتدي، لكونهم كانوا «يناوئون الحماديين كلما أتيحت لهم فرصة»(1244). لكن مع أن المرابطين كانوا حريصين على تأمين مجالهم السياسي ضد أي تهديد من الحماديين والعرب، كما فهمنا من الرسالة السالفة الذكر، إلا أنهم لم يلجأوا إلى أي ردّ فعل انتقامي في حق الحماديين، الذين حاولوا فيما يبدو طعنهم في الظهر. ولعل حكمنا هذا يرجع إلى عدم عثورنا في المصادر على حدوثأية مواجهة عسكرية فاصلة بين الطرفين. ولعله أمر كان يتماشى مع خطَّ المرابطين الإصلاحي، باعتبارهم حاملين لمشروع وحدوي ينشد تقوية أواصر علاقات السلم والتعاون داخل البلاد المغاربية. وهو ما جسّدوه سياسيا وعسكريا من خلال مدِّ يد العون للزيريين في إفريقية لمواجهة تهديدات نصارى النورمان(1245)، كما سنقف على ذلك في المبحث الثاني الخاص بالعلاقة بين المرابطين وبني زيري الصنهاجيين.

ت-التقارب بين المرابطين والحماديين زمن علي بن يوسف بن تاشفين

من أجل ترسيخ تجربتهم الوحدوية داخل المجال المغربي، حرص المرابطون على تأمين ظهرهم أولا بعد أن حالوا بين العرب «وبين التدفق إلى المغرب الأوسط، وتهديد المغرب الأقصى»[1246]. وثانيا إيقافهم «بني حماد وحلفائهم عند حدِّهم وردِّ كيدهم»[1247]، هذا الكيد الذي أكدته التفاصيل الواردة في الرسالة السالفة الذكر[1248] التي اعتمدناها كوثيقة أساسية في الكشف عن نوع العلاقة السائدة بين المرابطين وبني حماد زمن حكم المنصور الحمادي. لكن بالتزامن مع الأحداث التي شهدها المغرب الأقصى بعد ظهور المهدي بن

(1243)– عويس، دولة بني حماد، ص182.
(1244)– المرجع نفسه والصفحة.
(1245)– أنظر: ابن الأثير، الكامل، ج.9، ص170.ابن عذاري، البيان، ج4، ص67. التيجاني، الرحلة، ص335 - 338- 339- 340.ابن خلدون، ج6، ص214 - 215 .
(1246)– حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، ص424.
(1247)– المرجع نفسه، ص355.
(1248)– نص الرسالة التي خطّها ابن القصيرة كاتب يوسف بن تاشفين عند ابن بسام، الذخيرة، 257 - 260 و ابن خاقان، قلائد 309 – 311.

تومرت، وتصاعد وتيرة الصراع على الحكم بين المرابطين والموحدين، سيطرأ بعض التّغيُّر في علاقة الحماديين بالمرابطين بما يشبه التقارب والتعاون الذي لم تفصح عنه المصادر إلا في حدود ضيقة. لكن أحد الباحثين ربط أمر هذا التقارب بغياب يوسف بن تاشفين عن الساحة السياسية عام 500هـ/ 1106م.فمن وجهة نظره، بدأ المرابطون بقيادة علي بن يوسف(1249) يحُدُّون من مطامحهم اتجاه بني حماد،مما أسهم في تحسن العلاقة بينهم«إذ لم يعد هناك ما يثير الخلاف، فضلا عن شعورهم المشترك بخطر الانبعاث الموحدي الذي بدأ يظهر مع مطلع العقد الثاني للقرن السادس الهجري»(1250). لكن المصادر التي اطلعنا عليها في الموضوع لم تبُح لنا بوجود علاقة واضحة بين الطرفين، إلا في حدود التقارب المرابطي الحمادي عند اشتداد وطأة جيوش الموحدين، وبداية المعارك الحاسمة بين عبد المؤمن وتاشفين بن علي بين تلمسان ووهران عام 539هـ/ 1146م. فقد نقل صاحب الحلل الموشية عن أبي علي الأشيري خبر وصول «محلة من ملك أفريقية ابن حماد الصنهاجي برسم إمداده وإعانته»(1251)، كما قام الأمير المرابطي بالنفير وكتب« إلى الأقطار يستدعي أهلها، فوصله عسكر سجلماسة، وعسكر الإمداد من بجاية»(1252). وإذا كان هذا النفير في صفوف صنهاجة جاء لكي يعكس «عمق الروابط الوحدوية على الصعيد الرسمي»(1253) حسب رأي أحد الباحثين، فإن الموقف التضامني لحكام صنهاجة الشمال مع تاشفين بن علي، جاء متأخرا ليعكس حسب رأي نفس الباحث هشاشة هذا التعاون «الذي تعرض أحيانا لهزات عنيفة نتيجة تناقض المصالح»(1254). علما أنه لم يكن من مصلحة الحماديين سقوط حكم المرابطين، إذ إن الوقائع أثبت سهولة خضوع المجال الحمادي بعد سيطرة الموحدين على حضرة مراكش. فقد أصبح الدور على بني حماد أمرا حتميا، في ظل نظام حكم جديد قائم على أساس إمارة المؤمنين والتيكان سقفها

(1249)- « كان علي رحمه الله ملكا كبيرا فاضلا معتدلا، عظُم في أيامه الملك واتسق العز...» ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، م.س،ص 253 -254.

(1250)- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، م.س، ص183.

(1251)– مجهول، الحلل الموشية، م.س، ص 130-131. ويبدو أن صاحب الحلل الموشية اختلطت عليه أسماء ملوك صنهاجة، إذ خلال هذه المرحلة الأخيرة لا يوجد ملك بهذا الإسم سواء في المهدية عاصمة بني زيري أو في بجاية عاصمة بني حماد.

(1252)– المصدر نفسه، ص 131. أنظر محمد البركة، المجال واستراتيجية المشروع المرابطي، م.س، ص119.

(1253)– القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، م.س، ص65.

(1254)– المرجع نفسه والصفحة.

السياسي عاليا، ولم تكن تعترف، على غرار ما فعل المرابطون بأية تبعية لخلافة إسلامية أخرى.

الخلاصة:

لم تُسعفنا المصادر(1255) كثيرا في الوقوف على إشارات بارزة تخُصُّ موضوع العلاقة بين المرابطين وبني حماد إلا في حدود ضيقة، إذ لم نتمكن من خلال النبش في هذا الموضوع، من فهم عميق لتلك العلاقة في الإطار الخاص بالتجربة الوحدوية مغاربيا زمن المرابطين. وهذا الغموض زاد من حجمه آراء بعض الدارسين، التي غلب عليها منهج التأويل المبالغ فيه، أو السقوط في فخ الإسقاط التاريخي بانتزاع الأحداث من سياقها التاريخي، وهو ما أشرنا إليه حول توظيف رواية صاحب أعمال الأعلام في مراحل زمنية ليست لها علاقة بما جاء به ابن الخطيب.

فبناء على سياسة المرابطين كأمراء للمسلمين، تبين من مجرى الأحداث تركيزهم على الجهاد في الأندلس كأولوية أثنتهم على التفكير في بسط نفوذهم داخل العمق المغاربي على حساب بني حماد، واكتفوا بتأمين ظهرهم من خلال السيطرة التامة على إقليم تلمسان. وقد ظهر مما استخلصناه من آراء صاحب كتاب "دولة بنو حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري" أن هذا الباحث كان مخلصا لنهجه في ترجيح جانب العداوة القائمة بين المرابطين وبني حماد من جهة، كما أيضا ترجيح كفة الحماديين على مستوى ميزان القوة العسكرية، وذلك من خلال تطبيقه لمنهج التعميم والانتقاء. أكثر من هذا لم يتسلح الرجل طيلة ما تناولناه في هذه الفقرة من الحجج التي أدلى بها حول المرابطين، بمصدر واحد يدعم به مواقفه المتحيزة. علما أن الوقائع على الأرض كانت تؤكد تحكم الملثمين في أجزاء مهمة من المغرب الأوسط إلى حدود جزائر بني مزغنة. علما أن الخطر الحقيقي على الحماديين، جسده على حدّ ما سبق ودعمنا به رأينا من خلال مؤشرات قدمتها رواية ابن

(1255)– حتى لا يفهم من كلامي أنني أبرر عدم عثوري على مؤشرات مصدرية متنوعة تعطي لموضوع بحثي مصداقيته، فأنا هنا أتحدث عن قلة المعلومات تحديدا فيما يتعلق بعلاقة بني حماد بالمرابطين التي لم نستطع العثور ما يشفي غليلنا حول فرضية العلاقة بين دولتين تنتميان لنفس العصبية.

خلدون، تهديد العرب لمجالهم السياسي في كل وقت، إلى الدرجة التي دفعت بالناصر إلى تغيير عاصمة ملكه نحو بجاية.

ولعل غياب علاقة واضحة بين المرابطين وبني حماد، لما يمكن أن يرجع إلى انعدام الثقة بينهما، يفند إلى حد ما أطروحة يوسف أشباخ - بناء على ما نقلناه عن الأستاذ القادري بوتشيش - في تفسيره لسيادة المرابطين على المغرب العربي، والذي أرجعه إلى موقف "قومي" تبناه البربر رغبة في الانعتاق من السيطرة العربية(1256).

المبحث الثاني: تجليات التجربة الوحدوية في علاقة المرابطين ببني زيري(ق.6هـ/ ق.12م)

سبق أن تحدثنا في موضوع توحيد بلاد العدوتين عن إرادة شعبية ورسمية للأندلسيين الذين استنجدوا بالمرابطين، فكانت النتيجة إيقاف المدّ العسكري للممالك المسيحية، التي حاول ملوكها اجتثاث المسلمين من الأندلس. فكان أنْ تَوَسّع مجال التجربة الوحدوية زمن المرابطين، في إطار مشروع وحدوي «كان حاضرا على المستوى الرسمي والشعبي على السواء»(1257)، وذلك في إطار ما يجمع البلاد المغاربية من ثوابت(1258). وإذا كنّا قد حاولنا ملامسة موضوع توسيع المرابطين مجال التجربة السياسية الوحدوية من زاوية رؤيتهم "الاستراتيجية"للمجال جهة الشرق ـــ رغم ضعف المادة المصدرية من حيث تزويدنا بمؤشرات قوية حول تحقق هذا الأمر من عدمه ـــ فإن مجاورتهم للحماديين(1259) لا يعني بالضرورة المساس بسيادة الدولة الحمادية، قبل أن يفرض الموحدون واقعا جديدا داخل بلاد المغارب، بعد إنهائهم حكم المرابطين وضمهم كل المجال المغاربي تحت سلطانهم.

(1256)– القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، ص64.
(1257)– المرجع نفسه، ص65.
(1258)– أنظر موضوع المقومات الخاصة بقيام التجربة الوحدوية : الفصل الأول من الباب الثاني من بحثنا.
(1259)– أنظر الخريطة رقم (4) امتداد مجال حكم المرابطين وتوحيد العدوتين، ص263 من البحث.

1- السياق التاريخي لعلاقة المرابطين ببني زيري زمن علي بن يوسف بن تاشفين

تعتبر تحرشات نصارى النورمان والإمارات الإيطالية، بالسواحل الأفريقية وليدة عقود سابقة على سقوط صقلية أواخر القرن الخامس الهجري (ق.11م)، إذ منذ اتخذ الفاطميون قرار فتح أبواب البلاد المغاربية أمام العرب البدو، وبالتحديد منذ 453هـ/ 1060م، «انتهزت القوى النصرانية فرصة انشغال الزيريين بما دهاهم من غارات العرب الهلاليين، فأخذوا ينتزعون منهم المدينة تلو الأخرى حتى تمت لهم السيطرة نهائيا على صقلية سنة 480هـ[1260]. إذ خلال هذه السنة «وقع ما وقع من نزول أهل بيش وجنوة من النصارى على المهدية فاستولوا عليها وعلى زويلة وسبَوا أهلها وقبلوا من شاؤوا منهم وأحرقوه بالنار»[1261].وفي هذا الإطار يورد صاحب الرحلة أبياتا شعرية لأبي الحسن علي بن محمد بن الحداد، تبرز حميّة النصارى وتراجع قوة تميم بن المعز الذي تفاجأ بالهجوم النورماني:

عشرون ألفا ونصفها ائتلفوا == من كـــل أوْب لبئسما ائتلفـــوا

جاؤوا على غُرّة إلى نفـــر == قد جهلوا في الحروب ما عرفوا[1262]

وكان للعرب البدو أدوار سلبية في العيث داخل المجال الزيري وتعرية ظهر الزيريين، إذ في«سنة ست وسبعين وأربعمائة، جمع مالك بن علوي العرب، وسار إلى المهدية وحاصرها»[1263]، وقد استغل النصارى النورمان الدور الذي كان للعرب في تقويض السيادة الزيرية على إفريقية قبل أن يطردهم تميم الذي خاض عدة حروب من أجل الحفاظ على وحدة المجال الزيري، رغم وجوده بين مطرقة العرب وسندان النورمان وبني حماد

(1260)ــ القادري بوتشيش، قراءة جديدة في التجربة الوحدوية المرابطية، م.س، ص72.بالمناسبة فإن عام 480هـ/ 1087م يرمز إلى السيادة النورمانية على جزيرة صقلية التي لم تعد تشكل عمقا بحريا للزيريين، بل وأصبحت مُنطلقا لسلسلة من الغارات البحرية على المدن الساحلية لأفريقية

(1261)ــ التيجاني، الرحلة، م.س، ص331. ابن خلدون ج6، ص212. أنظر ترجمة لجزيرة صقلية: ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ج3، ص101.

(1262)ــ التيجاني، م.س، ص333. وابن عذاري، ج1 ص 301. (كلا المصدرين يوردان نفس تفاصيل حيثيات وأسباب دخول الروم المهدية واستباحة المدينة.)

(1263)ــ النويري، نهاية الأرب، ج24، ص127. كان ذلك في عام 476هـ (1083م) بعد أن «نزل عليها مالك بن علوي في جموع عظيمة من العرب» ابن عذاري، البيان، ج1، ص300.

الذين لم تتوقف أطماعهم في أفريقية، ودعمهم لبني خراسان[1264] في تونس، الأمر الذي قوّى من أطماع النورمان في السيطرة النهائية على صقلية عام 480هـ/ 1087م والتنكيل بالمسلمين الذين كانوا تابعين للحكم الزيري، قبل أن ينتقل "روجار" إلى مرحلة استباحة المدن الساحلية الأفريقية خاصة المهدية وزويلة، والذي تزامن مع بروز أدوار بطولية للأمير الزيري تميم في استرجاع السيادة على بلاد إفريقية[1265]. في هذا الإطار اخترنا بعض المؤشرات التاريخية من بعض المصادر التي أشارت إلى ما حققه هذا الأمير من استرجاع لعدد من الحواضر الإفريقية سلما وحربا.

ـــــ فابتداء من سنة 480هـ/1086م «نازل تميم أهل جنوة وبيشة في ثلاثمائة مركب، تحمل ثلاثين ألف مقاتل، فحاصروا المهدية ودخلوها، ودخلوا زويلة، فحرقوا الديار وهتكوا الأستار... إلى أن وقع الصلح بينه وبين الروم، على أن يدفع لهم مائة ألف من الذهب»[1266]. وفي سنة 481هـ/1087-1088م «اجتمع الروم في أربعمائة قطعة وأعانهم الفرنج.. . وملكوا مدينة زويلة وهي بقرب المهدية. وكانت عساكر تميم غائبة في قتال الخارجين عليه، فصالح تميم الروم على ثمانين ألف دينار»[1267]. وقد تزامن هذا الحدث مع وفاة الناصر بن علناس وتولية ابنه المنصور حكم بني حماد. «وفي سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، فتح تميم مدينة صفاقس»[1268] قبل أن ينتزع «قابس سنة تسع وثمانين وأربعمائة من يد أخيه عمر بن المعز»[1269]، قبل أن يستكمل تميم تحرير أجزاء من المجال الزيري بفتح «جزيرة جربة وجزيرة قرقنة ومدينة تونس»(1270) وذلك عام 491هـ/ 1097م، وبعد سنتين من ذلك تمكن من صفاقِس سنة 493هـ/ 1099م[1271] ف

(1264)ـ سيطر عبد الحق بن خراسان وابنه عبد العزيز طيلة المرحلة الممتدة بين عامي 455هـ و522هـ،على مدينة تونس، وحكموها في إطار من التبعية لبني حماد تارة، وللنورمان تارة أخرى، في إطار ما اعتبره الباحثون حكم ملوك الطوائف بالبلاد المغاربية" المراكشي، المعجب، ص 297-298. عويس، دولة بني حماد، ص183.

(1265)ـ أنظر دلالات ورمزية رسالة يوسف بن تاشفين لأمير المهدية تميم بن المعز، بمناسبة انتصار المسلمين في معركة الزلاقة؟ نص الرسالة عند عبد الله عنان، من ص446 إلى ص450. (منقولة عن مخطوط رقم 448 بمكتبة الإسكوريال) أنظر في الوثائق والملحقات (رقم:1)، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط.4، 1417هـ/ 1997م.

(1266)ـ ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، م.س،ص79.

(1267)ـ النويري، نهاية الأرب،ج24، ص127.

(1268)ـ المصدر نفسه والصفحة

(1269)ـ ابن خلدون، ج6، ص212.

(1270)ـ المصدر نفسه والصفحة،

(1271)ـ نفسه والصفحة،

«خرج منها حمو بن ومليل هاربا»[1272]. وفي أواخر القرن الخامس الهجري (ق.12م) «وصل الرُّدمانيون (نصارى النورمان) إلى المهدية بأجفان كثيرة حربية»[1273]، فخرج إليهم أسطول المهدية فهزم وقتل كثيرا منهم[1274]. إلا أن حالة الانقسام التي ميّزت الوضع الداخلي للبيت الصنهاجي، كانت أحد أسباب جعل المنطقة المغاربية هدفا سهلا للأعداء وخاصة نصارى النورمان، رغم دور الأمير تميم في الوقوف في وجه العرب الذين لم يكن لهم مشروع سياسي واضح. وقد أقام تميم «بالمهدية إلى أن مات بها سنة إحدى وخمسمائة، فولى ابنه يحيى»[1275]. الذي ابتداء من عهده بدأت تلوح في الأفق علاقة رسمية بين المرابطين والزيريين برزت معالمها في بُعد عسكري جهادي ضد نصارى النورمان (516هـ-517هـ/ 1120-1121م).

فما هي إذن أهم معالم هذه العلاقة التي يمكن أن نحسبها إحدى التجليات الكبرى في موضوع التجربة الوحدوية داخل المجال المغاربي؟

2- الدعم العسكري من علي بن يوسف بن تاشفين لبني زيري

أشار صاحب الرحلة إلى ما حصل في أيام يحيى بن تميم بعد توليه الحكم عام 501هـ/ 1107م، من الأسباب المؤدية إلى تغلب النصارى على المهدية التغلب الثاني الذي أدى إلى انقراض دولة صنهاجة[1276]، علما أن مصدرا آخر شهِد للرجل أنه كان «حاذقا بتدبير دولته، ساهرا في سياسة رعيته»[1277]. وقد أكّد ابن الخطيب أن يحيى الزيري هذا كان ذو «طبع جيد وذهن متوقد»[1278]. كما أشار صاحب البيان إلى أنه خلال حكم يحيى بن تميم، قام «أسطول المهدية بسبي كثير من بلاد الروم في ربيع الآخر»[1279] من عام 507هـ/ 1113م. وقد انصب تركيز الأمير يحيى الذي كان «موقوفَ الفكرة على سياسة رعيته،

(1272)ـــ ابن عذاري، البيان، ج1، ص302. مثل حمو بن ومليل وجها لملوك الطوائف داخل بلاد إفريقية، إلى جانب عبد الحق بن خراسان ورافع بن مكمن الدهماني.
(1273)ـــ المصدر نفسه والصفحة.
(1274)ـــ نفسه، ص303.
(1275)ـــ رحلة التيجاني، م.س، ص333.
(1276)ـــ المصدر نفسه، 334.
(1277)ـــ ابن عذاري، البيان، م.س، ج1، ص304.
(1278)ـــ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق.3، ص80.
(1279)ـــ ابن عذاري، البيان، ج1، 305.

وتدبير دولته»[1280] على استرجاع هيبة الدولة من خلال صرفه الاهتمام إلى الجهاد، و «استكثاره من الأساطيل البحرية «[1281]،إلى الدرجة التي «اتّقته أمم النصرانية بالجزى من وراء البحر من بلاد أفريقية وجنوة وسردينية»[1282]. وبعد وفاة يحيى عام 509هـ/ 1114م وتولي علي بن يحيى مُلك المجال السياسي للمهدية، جهز أسطولا بحريا استعدادا لمواجهة روجار ملك صقلية، بعد أن «استتّبّ له الأمر واستوسق له الملك»[1283]. وحسب ما ورد عند صاحب المقدمة، فإن يحيى قد اضطر إعادة النظر في العلاقة مع الفاطميين في مصر بعد أن «راجع طاعة العبيديين ووصلته المخاطبات والهدايا»[1284] والتي استمرت حتى في عهد ابنه علي.

فهل هذا الوضع سيكون حافزا للمرابطين لتقديم يد العون للزيريين، بعد أن وحّدوا الأندلس بكاملها؟

من خلال الأحداث التي سقناها باعتبارها سياقا تاريخيا للتدخل الفعال للمرابطين لمساعدة أحفاد تميم بن المعز الذي كرس حياته لوقف استباحة النورمان للمجال الزيري، سنقف على بعض المؤشرات المصدرية التي تؤكد استمرار حكم بني زيري، واسترجاعهم جزءا من السيادة داخل إفريقية ودفاعهم المستميت على مدنهم ضد استفزازات النورمان خاصة بعد الدعم الذي قدمه إليهم المرابطون، في إطار مشروعهم الوحدوي داخل البلاد المغاربية.

فقد تحدث صاحب "المؤنس في أخبار إفريقية وتونس" عن علاقة الأمير علي بن يحيى الزيري ــ ولو أن روايته تبدو مرتبكة ــ وذلك بعد أن «كبرت بينه وبين صاحب صقلية الوحشة، فبعث إليه يهدده بغزو المهدية، فهيأ الأمير علي مراكب في البحر... ومشت بينهما مراسلات بالتهديد من الجانبين، وأراد علي أن يستنصر بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، لأن الأمير عليا علِم أنه ليس له طاقة بصاحب صقلية، فأخذ بالحذر منه بقية حياته إلا أنه

(1280)ــ ابن الخطيب، أعمال، ج3، ص80.
(1281)ــ ابن خلدون، ج6، ص213.
(1282)ــ المصدر نفسه والصفحة.
(1283)ــ ابن عذاري، م.س، ص306.
(1284)ــ ابن خلدون، م.س، ص213.

وقع بينهما الصلح في الظاهر دون الباطن»[1285]. وهنا يبدو احتمال خوف صاحب صقلية من وصول الدعم من المرابطين لعلي بن يحيى، فاضطر إلى عقد صلح مع الأمير الزيري. لكن يبدو أن صاحب "المؤنس في أخبار أفريقية وتونس"، في حديثه عن نية أمراء المهدية في شخص علي بن يحيى الاستنجاد بالمرابطين، اختلط عليه الأمر عندما ذكر استنصار الأمير علي بن يحيى ببطل الزلاقة يوسف بن تاشفين، علما أن مرحلة حكم هذا الأمير الزيري كانت متزامنة مع حكم علي بن يوسف بن تاشفين.

فما حقيقة العلاقة التي نسجها بنو زيري مع المرابطين تجسيدا لموضوع الوحدة المغاربية في إطار إمارة المسلمين؟

بعد أن سئِمت الرعية واقع الانقسام الداخلي واستباحة النورمان المجال الأفريقي، ارتفعت الدعوات للجهاد. ولعله السياق الذي جاء فيه دخول المرابطين على خط التصدي للنورمان الذين ظلوا يستبيحون المجال الإفريقي منذ 484هـ/1091م. وقد عبر عن هذه الروح الجديدة في الدعوة إلى الجهاد زمن حكم علي بن يحيى، **محمد بن بشير** من خلال أبيات شعرية تحمل دلالات الصمود، قال فيها :

وأعدَدْت للأعداء كل مُصمصم == يسير إليهم قاصدا وهو أهوجُ

...

رأيت صِلالا أخرجت من جهنم == تحرق أكباد العُداة وتنضـــجُ[1286]

وقبل مواجهة نصارى النورمان، قام علي بن يحيى عام 511هـ/ 1115م، بإعداد «الأساطيل وعمارتها إلى جزيرة جربة فأخذ بمخنق أهلها إلى أن أقرّوا بالطاعة»[1287]، وهو مظهر من مظاهر إيمان الرجل بأهمية وحدة المسلمين أمام الغزو النورماني المتكرر.

(1285)ــ ابن ابي دينار، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط.1، 1286هـ، ص. 89.
يشير ابن عذاري إلى سبب تلك الوحشة من خلال التماس صاحب صقلية تجديد العقود التي كانت له مع الزيريين، ومطالبتهم بأموال عن طريق الابتزاز وبعنف وغلظة.البيان المغرب، ج1، ص308.
(1286)ــ التيجاني، الرحلة، ص334.
(1287)ــ ابن عذاري، البيان، ج4، ص62.

«كما جهّز أسطولا في البحر إلى مدينة قابس فحاصرها»[1288]. وذلك لرفض علي بن يحيى أن يناوبه أحد من أهل إفريقية على إجراء المراكب في البحر بالتجار[1289]. بل واستطاع أن يوقف أطماع صاحب قابس رافع بن مكمن الدهماني في تحالفه مع روجار[1290]. وتشير الرواية المصدرية إلى استحكام الفتنة بين علي الزيري وصاحب صقلية[1291]، إذ هدّده بمكاتبة المرابطين الذين لازال صدى الزلاقة يطرق أسماعهم. ولذلك «كفّ روجار عما كان يعتمده»[1292]، وهي إحدى العلامات المصدرية حول دور ثوابت البلاد المغاربية في الدفع باتجاه تقديم المرابطين الدعم العسكري لبني زيري، والذي تحول حسب ما تحدثت به بعض المصادر إلى أمر واقع، من خلال دعم فعلي من أمير المسلمين علي بن يوسف في مراكش لملوك المهدية ــ زمن انتقال التجربة الوحدوية إلى مستوى توحيد المغرب الأقصى جزء مهم من المجال الجغرافي للغرب الإسلامي ــ وبالتحديد عهد الحسن بن علي الزيري الذي «استتبَّ له الأمر واستوثق له الملك»[1293]، منذ وصوله إلى الحكم عام 515هـ/ 1121م.

كان الحسن بن علي قد هدّد روجار ب «إدخال الملثمين والعرب إلى صقلية»[1294]. وهو ما تحقق بشكل عملي بعد وصول «أسطول علي بن يوسف مع قائده علي بن ميمون إلى بلاد لجار فاستفتح منها حصونا وسبى منها سبايا كثيرة»[1295] وعاث في نواحيها [1296]

(1288)ــ ابن الأثير، الكامل، ج9، ص169.
(1289)ــ المصدر نفسه والصفحة.
(1290)ــ نفسه، ص170. ابن أبي دينار، المؤنس، ص89.
(1291)ــ التيجاني، م.س، ص334.
(1292)ــ ابن الأثير، م.س، ص170.
(1293)ـ ابن عذاري، البيان، ج.1، ص306. «أصدر المكاتبة إلى رُجار عند الوحشة يهدده بالمرابطين ملوك المغرب» ابن خلدون، ج6، ص214. التيجاني، الرحلة، 333
(1294)ــ ابن عذاري، البيان، ج4، ص67.التيجاني، م.س، ص335. Ambrosio (Huici Miranda) (1961 « un fragmento inédito de ibn °idârÎ sobre los Almoravides»; Hespéris Tamuda ; vol 2 ; p:.81.
في أواخر العقد الثاني من القرن السادس الهجري حدث صلح بين الحسن ولجار وهو ما دفع بالعزيز صاحب بجاية إلى مهاجمة المهدية لكن جيوشه عادت خائبة. المؤنس، ص90.
(1295)ــ التجاني، الرحلة، ص335.. في مقارنتنا لإشارة بن عذاري حول الأدوار التي قام بها ابن ميمون قائد الأسطول المرابطي مع ما جاء عند التيجاني صاحب الرحلة، يلاحظ اتفاق حول توسيع المرابطين دائرة التجربة الوحدوية بتقديم المدد لبني زيري الصنهاجيين، مع اختلاف طفيف في بعض التواريخ وكذا أسم القائد العسكري المرابطي، الذي أطلق عليه ابن عذاري إسم «ملك البَرّين.» البيان، ج1، ص308.
(1296)ــ ابن خلدون، ج6، ص214. ويشير صاحب البيان إلى كون ابن ميمون كان قد قدّمه أمير المسلمين علي بن يوسف قائدا على الأسطول البحري منذ عام 510هـ. فكانت له غزوات مشهورة وأمورا مذكورة. أنظر ابن عذاري، البيان، ج4، ص62.

وذلك في عام 516هـ/1120م. وقد رأى أحد الباحثين أنه «من الواضح أن الأسطول المرابطي لا يمكنه أن يشُنّ تلك الغارات على صقلية إلا إذا كان ذلك مقترنا باتفاق مسبق مع الأمير الزيري»[1297]. وإذا كان ابن خلدون قد خص بالذكر افتتاح المرابطين قرية من بلاد صقلية «فسباها وقتل أهلها سنة ست عشر وخمسمائة»[1298] فإن ابن عذاري أشار إلى أن عملية الغزو شملت بالتحديد «مدينة نقوطرة*»[1299].

وفي عام 517هـ/ 1121م يشير صاحب "الرحلة" إلى استعداد الحسن بن علي لأي هجوم انتقامي محتمل للنورمان، وذلك من خلال «استقدام القبائل من العرب وغيرهم للجهاد»[1300]، كثابت من ثوابت وحدة المسلمين، أسهم في وصول الحشود للحسن الزيري «من كل جهة ونزلت العرب بظاهر المهدية»[1301]، التي وصل إليها أسطول روجار«يوم السبت لخمس بقين من جمادى الأولى سنة سبع عشرة وخمسمائة»[1302]. وقد انتهت هذه الحملة العسكرية بالفشل، وعلى إثرها تقدم الأمير الزيري بالتهنئة على دور العرب في الانتصار الكبير على النورمان في جزيرة الأحاسي حيث قصر الديماس، وذلك من خلال رسالة تبرز أهمية الجهاد في مدافعة النصارى وإعداد أسباب النصر. في هذا الإطار قال الحسن بن علي الزيري:« ولم نكن قبل ذاك مهملين لما يقتضيه هذا الحادث من التأهب والاستعداد... فاستظهرنا باستقدام قبائل العرب المطيفة بنا فأقبلوا أفواجا أفواجاوجاؤوا مجيء السيل يعتلج اعتلاجا ويتدفق أمواجا، وكلهم على نيات في الجهاد خالصة، وعزمات غير مترددة في مواقف الموت ولا ناكصة»[1303].

(1297)ــ حمدي (عبد المنعم محمد حسين)، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، مكتبة الإسكندرية، 1997،ص225.

(1298)ــ ابن خلدون، ج6، ص214. سجلنا اختلافا بين المصادر في الإسم الأول للقائد العسكري المرابطي، فبينما **التجاني** تحدث عن علي بن ميمون، فإن **ابن عذاري** سماه عبد الله محمد بن ميمون، أما عند **ابن خلدون** فقد ورد تحت إسم أحمد بن ميمون.

(1299)ــ ابن عذاري، البيان المغرب، ج4 (قسم المرابطين)، ص67. (*) هناك تصويب خاص بإشارة ابن عذاري لمدينة نقوطرة، حيث أشار المحقق إحسان عباس إلى"بقوطرة" نقلا عن المكتبة الصقلية، ص282.

(1300)ــ التيجاني، الرحلة، ص335.

(1301)ــ المصدر نفسه والصفحة.

(1302)ــ نفسه والصفحة.

(1303)ــ نفسه، صص337- 338

ويبدو من السياق الزمني الذي جاءت فيه الرسالة، التي تحدثت عن هزيمة الصقليين، عودة الظهور المرابطي بين السواحل الإفريقية وصقلية[1304]، وهو ما فهمناه من إشارة لصاحب الرحلة حول دعم المرابطين العسكري للزيريين، والذي أصبح أمرا اعتياديا. ذلك أن لُجار «كلما وصل أسطول من المغرب نسبه إلى الحسن»[1305]. علما أن هذه المرحلة تزامنت مع بداية استفحال أمر المهدي ابن تومرت.

ــ وإذا كانت مرحلة حكم الحسن بن علي مليئة بأحداث مهمة لها علاقة بتدشين المرابطين عملية الجهاد في تلك الأصقاع، والتي شكلت في حقيقة الأمر وجها من أوجه تجليات تجربة الوحدة داخل بلاد المغارب زمن المرابطين. إلا إنه للأسف لم تحظ هذه المحطة التاريخية بكثير من اهتمام الباحثين. وهنا نتساءل هل للأمر علاقة بندرة الإشارات المصدرية؟ أم للعجز في الحفر داخل المصادر من أجل العثور على مثل ما حصّلنا عليه من معلومات قيمة تشهد على دور المرابطين في مشروعهم الوحدوي.؟ رغم أننا لاحظنا عدم اهتمام عدد من المصادر بمثل هذه المعلومات القيمة إلا في حدود ضيقة، إلى الدرجة التي اختزل فيها ابن الخطيب مرحلة حكم الأمير الزيري الحسن بن علي الذي توطدت علاقته بالمرابطين زمن علي بن يوسف بن تاشفين، في كون أمير المهدية هذا «لم تطُل مدته حتى تغلب الروم على المهدية، وخرج منها متوجها إلى ابن عمه يحيى[1306] ببجاية، فأنف يحيى أن يقوم له إذا دخل عليه»[1307]. ف«قَصَد المسير إلى عبد المؤمن ببلاد المغرب يستنصر به على الفرنج»[1308]. وهنا يظهر أن حكام بني زيري في بلاد إفريقية كانوا ينظرون إلى مراكش كعمق سياسي لهم منها توصلوا بالدعم العسكري من المرابطين في مواجهة النورمان، ووجدوا عند الموحدين مأواهم بعد سقوط المهدية، التي سيشهد الحسن بن علي الزيري

(1304)ــ أنظر التفاصيل: التجاني، م.س، ص339.

(1305)ــ التيجاني، م.س، ص339. يرى أحد الدارسين أنه « لم تتعرض أية دولة من دول مغرب "العصر الوسيط" لعسف وتجاهل الدراسات الأوربية مثلما تعرضت له دولة المرابطين. بل جرى طمس وإغماط حق هذه الأخيرة في كثير من المنجزات بما في ذلك تجربتها الوحدوية "الأم" على صعيد المغرب العربي». القادري بوتشيش، قراءة جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت، ط1،سبتمبر 1994، ص63.

(1306)ــ تحدث ابن خلدون عن وصول» أسطول يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية لحصار المهدية» ج6، ص215 « فاستمد الحسنُ لُجار، فأمدّه بأسطوله» التيجاني، الرحلة، ص340

(1307)ــ ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ج3، ص83.

(1308)ــ النويري، نهاية الأرب، ص139.

فتحها على يد عبد المؤمن[1309] ليصبح بذلك المغرب الأقصى رمزا لوحدة بلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين.

تبين لنا خلال ما سبق التفصيل فيه حول التوجه الوحدوي للمرابطين داخل بلاد المغرب، أن علاقتهم ببني حماد لم ترْقَ إلى التعاون والتضامن الواجب قيامه من باب عصبية صنهاجة الكبرى، والذي كان من الممكن أن ينهي سياسة العرب المبنية على التحالفات المؤقتة التي كرست واقع الانقسام. وسهلت مهمة النورمان في المنطقة بشكل غير مباشر. علما أن المصادر التي اطّلعنا عليها لم تُحلنا إلى أي مؤشر نضعنا أمام حصول مواجهة عسكرية حاسمة بين الحماديين والمرابطين[1310]. لكن بالمقابل تمكن المرابطون ــ حسب ما أفادتني به بعض مصادرنا الرئيسة ــ من خلق نوع من الوحدة المغاربية على المستوى الرمزي، بعد وصول دعمهم لبني زيري في إفريقية. وهو ما نرى فيه حدّا أدنى من برنامجهم السياسي الوحدوي الذي يهم توسيع التجربة الوحدوية مغاربيا في إطار شعار الإصلاح. فكان رهانهم على وحدة المسلمين، خاصة أمام تصاعد خطر نصارى الشمال على الأندلس وخطر النورمان على إفريقية. وهنا نخلص لنتيجة مفادها أن الشاهد لدينا على عدم تشوُّف المرابطين للمجال الحمادي بفكرة احتلاله والقضاء على مُلك بني حماد. لكن وصول الموحدين إلى الحكم في مراكش، كان إيذانا بخضوع كل المجال المغاربي لحكمهم تحت واقع فرض الموحدين أنفسهم كخلافة إسلامية في بلاد الغرب الإسلامي، لا يعترفون فيه بالخلافة في بغداد أو القاهرة.

(1309)ــالمصدر نفسه والصفحة.

(1310)–كالمعارك المشهورة في تاريخ البلاد المغاربية من مثل معركة "سبيبة" عام 456هـ التي تواجه فيها بنو حماد وبنو زيري، والتي تحالف خلالها الطرفان مع مختلف بطون العرب في إفريقية، وهي المعركة التي خذل فيها العربُ الناصر بن حماد.

الفصل الثاني: تجربة توحيد المجال المغاربي زمن الموحدين

إذا كان المرابطون قد جعلوا من الأندلس أولويتهم الرئيسة في تحقيق تجربة توحيد مجال شاسع على مستوى الغرب الإسلامي كإنجاز غير مسبوق في التاريخ السياسي لحضرة مراكش، فإن الموحدين إلى جانب كسب التحدي الأندلسي، كان لهم تطلع جديد وأولوية ثانية تَهُمّ توسيع مجال التجربة الوحدوية وفق هندسة أفقية تروم توحيد المجال المغاربي بكامله تحت سلطانهم في إطار إمارة المؤمنين[1311]. فكيف تم تمهيد مجال صنهاجة الشمال كله تحت حكم الموحدين كخلفاء للمؤمنين؟

المبحث الأول: سياسة الموحدين في إخضاع مجال بني حماد

يُعدّ واقع انقسام صنهاجة التاريخي المتوارث[1312] أحد العوامل الرئيسة في استباحة **روجار** لسواحل بلاد إفريقية مستفيدا من انشغال المرابطين بثورة المهدي بن تومرت من جهة، واستمرار بني حماد في تكريس عدائهم لبني زيري في المهدية. علما أن المنطقة كانت تمر بأوضاع اقتصادية صعبة. إذ إن «الغلاء المتوالي على إفريقية أضعف أكثر جند الحسن وأهلك خيلهم»[1313].وهنا ينقل لنا صاحب الرحلة عن ابن شداد، قول الحسن بن علي قولته الشهيرة:«سلامة المسلمين من القتل والأسر، خير إليّ من المُلك والقصر»[1314]، فخلت بذلك الطريق أمام نصارى النورمان بداية من عام 543هـ/ 1148م، للسيطرة على عاصمة الزيريين. قبل أن يُجهز الموحدون عام الأخماس على مجال صنهاجة الشمال بكامله، ولتبدأ صفحة جديدة من التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن توسع سلطان الموحدين.

(1311)– إذا كان مصطلحا " إمارة المسلمين" و "إمارة المؤمنين" يرتبطان أساسا بالبيعة التي شكلت على مر التاريخ الإسلامي أهم الركائز التي تنبني عليها شرعية النظام السياسي الذي أبدعه المسلمون، وكانت الخلافة إحدى ثمراته، لكن الاختلاف هو في التوظيف السياسي للمصطلح في إطار بحث كل من المرابطين والموحدين عن إعطاء المشروعية لحكمهما، وفي إطار الأيديولوجيا التي قام عليها هذا الحكم. أنظر عزاوي "رسائل موحدية" في موضوع ظروف بيعة يوسف بن عبد المؤمن الذي تأجلت تسميته بأمير المؤمنين إلى حدود عام 563هـ ، صص: 110 - 111. (الرسالة 17 و18).

(1312)- لاندري على ماذا اعتمد أحد الباحثين بحديثه عن الحماديين «كهمزة وصل ما بين إفريقية والمغرب» سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج3، ص496.

(1313)– التجاني، الرحلة، ص341.

(1314)– المصدر نفسه والصفحة..

1- "استراتيجية" عبد المؤمن في إخضاع مجال بني حماد

بينما كانت بلاد المغرب الأقصى تشهد المراحل النهائية من إحكام الموحدين القبضة على الحكم في مراكش، كان عبد المؤمن الذي «انتحل اللقب بأمير المؤمنين، وجرى عليه من بعده خُلفاء بني عبد المؤمن»[1315]، كان يتطلع لغزو المجال الحمادي الذي كان على مشارف الانهيار في عهد الأمير المذكور يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن الناصر الذي تحدثت المصادر عن كونه كان لاهيا «كلفا بالملهين»(1316)وقد «طالت أيامه مُغلبا للنساء مُولَعا بالصيد على حين انقراض الدولة»(1317). إذ لم يفهم بأن اضمحلال حكم بني أعمامه من بني زيري في أفريقية، وعدم تغيير سياسة أجداده اتجاه المرابطين وهم في أوج قوتهم، كل هذا كان مقدمة فيما يبدو لزوال حكم بني حماد أمام الزحف الموحدي، بعد سقوط مراكش عام 541هـ/ 1146م.

ويشير صاحب المعجب إلى أن عبد المؤمن بعد أن دان له «جميع أقطار المغرب الأقصى، جمع جموعا عظيمة وخرج من مراكش يقصد مملكة يحيى بن عبد العزيز بن المنصور»(1318)، إلا أن التاريخ الذي أورده في الحديث عن حصار بجاية عام 540هـ/ 1145م والتضييق عليها(1319)، لا يتوافق أولا مع حديثه عن خضوع كامل المغرب الأقصى للموحدين، ثم ثانيا حتى بعد سقوط مراكش عام 541هـ/ 1146م في يد عبد المؤمن، كان الموحدون لا زالوا لم يستتبَّ لهم الأمر في المغرب الأقصى بعد الثورات التي قامت في وجههم وأبرزها ثورة «الدّعيُّ الماسي ببلاد السوس»[1320].

(1315)- مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، الدار البيضاء، ط.1، 2005م، ج.1، ص: 386-387. يبدو أن إمارة المؤمنين أصبحت الإطار السياسي العام التي من خلاله يمكن أن نفهم محاولة الموحدين ضم أراضي ملوك بني حماد وبني زيري، وجعلها تابعة لحضرة مراكش تحت نظام حكم واحد.

(1316)– ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ص99.

(1317)– ابن خلدون، ج6، ص235.

(1318)– المراكشي، المعجب، ص272.

يمكن اعتبار تغيير عاصمة ملك بني حماد من القلعة إلى بجاية مؤشرا على بداية تسرب الضعف للدولة، وقد ذكرت الرواية المصدرية أن أحد أسباب هذا التغيير للعاصمة، عيث العرب قرب قلعة بني حماد. ابن عذاري ج.1، ص300. ابن خلدون، ج.1، ص186. وقد اعتبر صاحب المقدمة "التوحش" في العرب «خُلقا وجِبِلّة وكطبيعة منافية للعمران ومناقضة له»مقدمة ابن خلدون، ص187.

(1319)– المراكشي، م.س، ص272..

(1320)– ابن عذاري، البيان،(ق. الموحدين)، ص30.

ونفهم من رواية البيذق أن حدث التوجّهِ نحو بجاية، جاء من جهة بعد أن استقامت لعبد المؤمن «الدنيا بعون الله والحمد لله، وكان ذلك كله في عام ثلاث وأربعين وخمسمائة»[1321]، ثم من جهة أخرى بعد حدث الاعتراف، الذي تميز ببعث عبد المؤمن بجرائد إلى مختلف المناطق من أجل تمييز المعارضين للموحدين[1322]، إذ تم قتلهم بالسيف، وبذلك - حسب البيذق- «هدّأ الله البلاد للموحدين»[1323]. بينما أشار صاحب البيان إلى خروج عبد المؤمن من مراكش في اتجاه بجاية، بعد خضوع المغرب الأقصى وإسكات الأصوات المعارضة، وقد كان ذلك في» أواخر سنة ست الفارطة»(1324).ويقصد بها 546هـ/ 1151م.

أما بالنسبة لخطة الخليفة عبد المؤمن في تمهيد حاضرة بجاية التي تم احتلالها من قِبله عام (547هـ/ 1152م)[1325]، نحسب أن الأمر قد اتخذ طابع التمويه والسرية التامة حسب ما فهمناه من رواية مصدرية[1326]. ذلك أن عبد المؤمن استسرّ ووزرائه[1327] توجُّه الجيوش الموحدية نحو إخضاع مجال بني حماد، «موريا بالجهاد حتى انتهى إلى سبتة «حيث عمل على إيهام «الناس بالتوجه إلى الأندلس»[1328]. مما نفهم منه أن الحملة العسكرية كانت ذات طابع أمني بشكل كبير. ولعل المؤشر الدال على هذه الاستراتيجية، أمر عبدالمؤمن ب«قطع الأسفار من الطرق، ومنع ألا يسافر أحد من سلا إلى مكناسة ولا من مكناسة إلى فاس ولا من تلمسان إلى فاس»[1329]. وهي خطة عسكرية مُحْكمة أسهمت في مفاجئة الموحدين لبني حماد الذين لم يقووا على مواجهة عبد المؤمن.

(1321)ــ البيدق، أخبار المهدي، م.س، ص69.
(1322)ــ التفاصيل عند البيدق، أخبار المهدي، م.س، صص: 70-71-72.
(1323)ــ البيدق، أخبار المهدي، م.س، ص69.
(1324)ــ ابن عذاري، البيان، (قسم الموحدين)، م.س، ص45. ومن أجل التأكد من هذه العبارة، قمنا بمقارنة «الكرونولوجيا» الواردة عند ابن عذاري، فوجدنا حلول الوفد الأندلسي بسلا « سنة ست وأربعين وخمسمائة» البيان، ص44. ومباشرة بعدها ذكر ما أشرنا إليه في المتن.
(1325)ــ الهادي ادريس روجر، الدولة الحمادية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط.1، 1992، ج.1، ص10.
(1326)ــ « أيها الناس: من تكلم منكم بكلمة معناها أين هو المشي هل هو إلى الشرق أو إلى الغرب إ القِبلة، فجزاؤه السيف « ابن عذاري، البيان،(ق. الموحدين)، ص46.
(1327)ــ ابن عذاري، البيان، م.س، ص45.
(1328)ــ بولقطيب، مجال المغرب الأقصى، م.س، ص90.
(1329)ــ البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، ص73.

2- إنهاء الموحدين حكم بني حماد

ابتداء من عام 546هـ/ 1151م، وجد الموحدون الطريق أمامهم مفتوحا للإجهاز على ملك بني حماد في مرحلة شيخوخة الدولة، وهو ما سيمهد لهم الطريق لتعميم تجربة توحيد المجال المغاربي، بعد أن تمكنوا عام 555هـ/ 1160م من تجسيد سيادتهم داخل بلاد إفريقة، وفق هندسة أفقية تجاوزت الحد الذي بلغه المجال المُوَحّد زمن المرابطين. ورغم أن أحد الدارسين نقل عن ابن خلدون أن عبد المؤمن وهو في "الجزائر" زاره «أمير الأثبج أبو الخليل بن كسلان وحباس بن مُسيْفَر أحد أعيان بني جشم، فاستقبلهما استقبالا حسنا وعيّن كل واحد منهما على رأس قبيلته»[1330]، إلا أن هذا الرأي لا يظهر لنا منسجما مع حديث ابن خلدون نفسه عن تآمر عرب إفريقية «من الأثبج وزغبة ورياح وقسرة»[1331] وذلك بهدف ن أجل حماية يحيى بن عبد العزيز. وقد أشار صاحب المقدمة إلى كون الجيش الحمادي قد دخل في مواجهة عسكرية ضد الجيش الموحدي بقيادة عبد الله بن عبد المؤمن،الذي دخل قلعة بني حماد «واستلحم من كان بها»[1332] من جموع صِنهاجة. بينما عبد المؤمن كان قد «دخل "الجزائر" على حين غفلة»[1333]. قبل أن يزحف حوالي عام 547هـ/ 1152م، نحو عاصمة الحماديين التي«لم يَشعُر أهل بجاية إلا وهو في أعمالها»[1334]. فقد نزل عبد المؤمن على عاصمة الحماديين ووحّد أهلها[1335] كمظهر من مظاهر تجربة الوحدة، وذلك بعد أن« ملَكها وملك جميع ممالك بني حماد»[1336]. ولم تطُل المدة حتى فاجأ القدر صاحب بجاية واستلب ملكه(1337). ويبدو أن تمهيد المجال الحمادي سياسيا بأداة عسكرية، كان يسير جنبا إلى جنب مع كسب ثقة السكان. وهو ما استنتجناه من رسالة رسمية موحدية، تحدثت عن اتباع الموحدين سياسة اجتماعية داخل المجال الذي أصبح تابعا لحضرة مراكش، والتي تجسدت في إراحة الناس مما كانوا

(1330)ـ هادي إدريس، الدولة الصنهاجية، م.س، ص428. "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، م.س، ص322.
(1331)ـ ابن خلدون، ج.6، ص316.
(1332)ـ نفس المصدر والصفحة.
(1333)ـ نفسه، ص315.
(1334)ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج.9، ص372.
(1335)ـ البيدق، أخبار المهدي، م.س، ص69.
(1336)ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، م.س، ج.9، ص372.
(1337)– النويري، نهاية الأرب، ج24، ص167.

«يُكَلّفونه من المغارم ويعرفونه من أسباب المظالم»[1338]. كما توحي الرسالة[1339] في نفس الإطار أن عصر يحيى بن عبد العزيز، بالقدر الذي تراجعت فيه قوة الدولة الحمادية، بالقدر الذي أُثقِل فيه كاهل الرعية، فكان بذهاب هذه الدولة على يد الموحدين، تحريرا لهم من «أسباب الظلم بانقطاع أهله»[1340]. والمقصود هنا بنو حماد الذين غالوا في العَمارة واستنزاف ميزانية الدولة[1341]. كما يشير ابن الأثير إلى عدم تعرُّض عبد المؤمن لمال أهل بجاية، لكون «بني حمدون استأمنوا، فوفّى لهم بأمانه»[1342]. ويعود هذا الأمر إلى ما يمكن أن يكون من دور لميمون بن حمدون في تمهيد الطريق للجيش الموحدي. خاصة وأن الرسالة المذكورة كانت تحمل التنويه بالرجل، حيث «كان الحديث عنه خيرا يُذكر، وجنوحا إلى هذا الأمر المبارك يتكتّم ويتستّر»[1343]. وكان يحيى بن عبد العزيز الحمادي قبل هروبه نحو قسطنطينة «مستأمنا لنفسه»(1344)، قد هيّأ جيشا وكلّف ميمون بن حمدون لمواجهة الموحدين. وقد تحدث صاحب الكامل عن «تفرق جميع عسكر يحيى بن العزيز»[1345]، الذي كان قد ركب «البحر في أسطولين كان أعدّهما لذلك»[1346]بعد أن هربوا بَرا وبحرا تسليما منهم بالأمر الواقع ودون مقاومة تُذكر.

لقد عبر عبد المؤمن عن سروره بتَسلُّم بجاية و» جميع بلاد يحيى بن عبد العزيز بغير قتال»[1347]، بعد أن ظهر «الانقياد والإذعان – من حضرة بجاية – حرسها الله... وبسط لهذا الأمر العزيز في أكناف هذه الأنحاء والأذراء بساط غلبته واستيلائه»[1348]. وبهذا

(1338)ـ مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، اعتنى بإصدارها لافي بروفنصال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، رباط الفتح، 1941، ج.10، ص21.
(1339)ـ كُتبت بتاريخ 24 جمادى الأولى 547هـ/ 1152م، رسائل موحدية، نفس المصدر، ص22.
(1340)ـ نفسه، ص22.
(1341)ـ وهنا نستحضر وصية أرسطُطاليس للأسكندر من كون «أي ملك تجاوز في السَّعة ما ليس فيه تقصيروكلّف مملكته ما لا تحتمل فقد هلك نفسه» سِرّ الأسرار- السياسة والفراسة في تدبير الرئاسة، تقديم سامي سلمان الأعور، دار العلوم العربية، بيروت – لبنان، ط.1، 1415هـ/ 1995م، ص72.
(1342)ـ ابن الأثير، الكامل، م.س (ج.9)، ص373.
(1343)ـ بروفنصال. مجموع رسائل موحدية، م.س، ص20.
(1344)–ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ص100. أنظر ايضا صاحب المؤنس في أخبار إفريقية والمغرب، م.س، ص111.
(1345)ـ ابن الأثير، الكامل، ص372.
(1346)ـ ابن خلدون، ج.6، ص315.
(1347)ـ النويري، نهاية الأرب، م.س، ج24، ص 166، أشارت المصادر إلى أنه بعد وفاة العزيز بن المنصور الحمادي» شرعت القلعة في الخراب« ابن الخطيب، تاريخ المغرب العربي، ص100.
(1348)ـ بروفنصال. م.س، ص17– 18.

سيمثل سقوط عاصمة بني حماد في يد الموحدين تجليا من تجليات توسيع مجال التجربة الوحدوية زمن الموحدين. وقبل التفكير في التوغل شرقا نحو مجال بني زيري الذين خضعوا للنورمان وأصبحوا تحت حكمهم منذ 543هـ/ 1148م، بعث عبد المؤمن برسالة جديدة بخط أبي جعفر بن عطية إلى «أهل العدوة والأندلس... فى شرح هذا الفتح بما أبهج القلوب والأسماع وبعث بها إلى سائر الأصقاع» (1349).بما يوحي بأهمية تمهيد حاضرة بجاية عاصمة بني حماد، كما يؤكد الحِسّ السياسي الوحدوي عند الموحدين في تجسيد التجربة الوحدوية وسيادة الخليفة الأول على مجال العدوتين والذي سيزداد اتساعا في إطار إمارة المؤمنين.ويبدو أن عبد المؤمن قد فضل الرجوع في نفس العام الذي مهّد فيه مجال بني حماد بالكامل، إلى مراكش عام 547هـ/ 1152م، بعد أن برزت بعض ملامح بداية نجاح الموحدين في تجربة توحيد المجال المغاربي، وما لقيه عملهم من استحسان الرعية في بلاد المغرب الأقصى حيث «وفد الناس إليه من جميع بلاده مهنئين»(1350).

كان رجوع عبد المؤمن إلى بلاد المغرب الأقصى، بعد أن أتمّ «فتح مملكة بجاية عام 548هـ»(1351)، وعدم التقدم نحو إفريقية، مرتبطا إلى حدّ بعيد بعدم اسقرار الأحوال نهائيا. وستظل بجاية حضرة الحماديين سابقا تحتفظ بأهمية كبيرة أثناء تمهيد الخليفة المجال الإفريقي الذي كان يحكمه بنو زيري الصنهاجيون. فقد جعل منها عبد المؤمن وبعده يوسف يعقوب، قاعدة خلفية يحمي بها ظهر الموحدين. إذ يشير في هذا الصدد أحمد عزاوي في التقديم للرسالة الخامسة والعشرين، إلى أنه بعد انتهاء «عمليات الموحدين من أجل إفريقية سنة 555، ظل المسؤول الرئيسي عن شؤون المنطقة صاحب بجاية أبو محمد عبد الله ابن عبد المؤمن إلى وفاته سنة 560»(1352).وهنا لابد من الإشارة إلى أنبجايةستصبحبعد مرحلة حكم الخليفة الأول عبد المؤمن، معقلا لمعارضة قوية للموحدين(1353). فقد انطلق بنو غانية منها لمُنازعتهم داخل المجال الصنهاجي، بعد أن وجدوا البيئة المناسبة. إذ تحدثت

(1349)ــ ابن عذاري، البيان المغرب، ق(. الموحدين)، ص47.
(1350)ــ المصدر نفسه، ص48..
(1351)ــ عزاوي(أحمد)، رسائل موحدية مجموعة جديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، سلسلة نصوص ووثائق رقم 2، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط.1، 1422هـ/2001م، ج1، ص79.
(1352)ــ نفسه، ص124.
(1353)ــ بروفنصال، م.ر.م، م.س، ص171.

رواية مصدرية عن انضمام«كل مفسد يريد الفتنة والفساد والنهب»[1354]. ولم يقف أمر آبن غانية[1355] عند هذا الحدّ، بل وأصبح يزعج الجهة الشرقية بكاملها خاصة بعد احتلاله لقفصة[1356]، وإخراجه من كان بها من الموحدين. كما خطب للخليفة الناصر لدين الله العباسي[1357]. ولم ولم ينقطع أثر بني غانية،الذين ظلوا يقفون عائقا أمام التجربة الوحدوية زمن الموحدين، إلا خلال حكم الناصر الموحدي.

المبحث الثاني: تمهيد الموحدين مجال بني زيري

1- تجربة توحيد بلاد إفريقية زمن عبد المؤمن

أصبح المجال الحمادي بمثابة قنطرة عبور نحو أفريقية[1358]، التي كانت تتقاسم مجالها السياسي عدة كيانات قبلية من العرب الذين منهم من تحالف مع حكام المهدية، ومنهم من مدّ يده لنصارى النورمان الذين أزاحوأ بني زيري عن المهدية منذ عام 543هـ/1148م. وسنحاول بالاعتماد على المصادر الوقوف على بعض الإشارات التي تهم مدى قدرة الموحدين على فرض النظام داخل المجال الأفريقي وإنهاء واقع الانقسام داخله والعمل على بناء أسس تجربتهم الوحدوية التي تهم توحيد المجال المغاربي بكامله تحت نظام حكم واحد في ظل إمارة المؤمنين.

فإذا كان عام 543هـ/ 1148م، إيذانا «بانقراض دولة بني زيري من إفريقية»[1359]، فالموحدون حينها كانوا لا يزالون منشغلين بمشكل توحيد مجال المغرب الأقصى. لكن بحلول عام 546هـ/1151م وبعد أن تمكن عبد المؤمن من وضع حدٍّ لحكم بني حماد في «بجاية وأنظارها وجميع أقطارها»[1360]، تحدث عرب إفريقية بينهم حول الخطر المحدق بهم جهة الغرب ومن مجاورة الموحدين لهم، والذي لا يعني سوى:«إن جاورنا عبد المؤمن

(1354)ـ النويري، نهاية الإرب، ج24، ص180.
(1355)ـ هو علي بن إسحاق بن محمد بن علي بن غانية اللمتوني صاحب جزيرة ميورقة: أنظر النويري، نهاية الإرب، ج24، ص181.
(1356)ـ ابن خلدون، ج6، ص327. المراكشي، المعجب، ص342.
(1357)ـ النويري، نهاية الإرب، ج24، ص181.
(1358)ـ الاستبصار 111 – 112، المعجب 354 – 355.
(1359)ـ النويري، م.س، ج24، ص138.
(1360)ـ ابن عذاري، البيان المغرب، ص47..

إجلاءهم من أرض المغرب[1361] ، فكان أن اجتمع رأيهم على «إلقاء الجد معه، وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكن»[1362] . وهنا يشير صاحب الكامل في التاريخ إلى أنه لما بلغ عبد المؤمن خبرهم، «جهز من الموحدين ما يزيد على ثلاثين ألف فارس...فانجلت المعركة على انهزام العرب»[1363] عام 551هـ/ 1156م. ولعل هذا الإنتصار على العرب قد أكد لأهالي مدن أفريقية قوة الموحدين، الذين «مضى بعضهم إلى عبد المؤمن»[1364]، و«هو بمراكش يستجيرونه»[1365]. كما استنجد أهالي مدينة زويلة القريبة من المهدية عام 554هـ/1158م[1366] بالموحدين، لما فعله بهم النورمان من «الأفعال الشنيعة من القتل والنهب والتخريب»[1367]. وبعد سقوط المهدية حلّ الحسن بن علي[1368] بمراكش بعد أن استفحل خطر النورمان وعاثوا في المجال الزيري كله.

لهذا ما كان على عبد المؤمن إلا أن «جمع جموعا عظيمة من المصامدة ومن جُند المغرب»[1369]، استعدادا لحملته على إفريقية. تلك الجموع التي شبّهها ابن أبي دينار ب«الأمم التي لا تحصى»[1370]. وقد تركزت خُطّته الحربية حسب ما توحي به الأخبار المتضمنة في بعض المصادر، على عدم التوجه مباشرة نحو عاصمة بني زيري المحتلة من طرف «الروم أصحاب الدوقة»[1371]. فقد نزل عبد المؤمن أولا «على مدينة تونس فافتتحها عَنْوة»[1372]، وقضى على بني خراسان الذين كانوا يمثلون وجها لواقع الانقسام والتجزئة داخل المجال الزيري[1373]. وبعد أن استوفى «العساكر من سائر البلاد برسم

(1361)ــ ابن الأثير، الكامل، ج.9، ص390.
(1362)ــ المصدر نفسه والصفحة.
(1363)ــ نفسه والصفحة.
(1364)ــ نفسه، ص404.
(1365)ــ نفسه، ص 428.
(1366)ــ نفسه، ص426. بينما ابن عذاري فقد جعل من عام 554هـ، بمثابة السنة التي دخل فيها عبد المؤمن « إفريقية المرّة الثانية»، البيان (ق.إلموحدين)، ج1، ص316.
(1367)ــ النويري، م.س، ص171.
(1368)ــ ابن الأثير، م.س، ص426.
(1369)ــ المراكشي، المعجب، 298. حدد المراكشي أواخر 553هـ، السنة التي جهّز عبد المؤمن حركته نحو إفريقية، وهو ما لا يتناقض مع حلول جيوش الموحدين بأرض إفريقية.
(1370)ــ ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية والمغرب، م.س، ص111.
(1371)ــ المراكشي، م.س، ص 298 – 299.
(1372)ــ المصدرنفسه، ص 298.
(1373)ــ كما أن مشهد الانقسام داخل مجال صنهاجة الشمال مثله أيضا كل من بني دهمان في قابس، وبني الورد في قفصة وطبرقة من بني علال... أنظر ابن خلدون، ج.6، ص318. كما أن عبد الله المعروف بابن خراسان، كان

الجهاد»[1374]، توجه الخليفة «لمنازلة مدينة المهدية وتملُّكها»[1375]، عبد المؤمن على فعمل على محاصرة النصارى بداخلها[1376] حصارا شديدا. وقد اتفقت بعض المصادرعلى فتحها «يوم عاشوراء من عام خمسة وخمسين وخمسمائة»[1377]. ويذكر المراكشي أن هذه المدينة تُعدّ «من معاقل المغرب المنيعة»[1378]. وقد شكلت خطوة تحرير عبد المؤمن مدينة المهدية ومحو «آثار الفساد»[1379] داخلها، تجليا لوحدة المجال وضم إفريقية لحضرة مراكش.

وقد جسد فتح المهدية، بعد إزاحة النورمان عنها وطردهم، نصرا كبيرا جسدته «الدعاية» الموحدية من خلال الرسائل التي كانت تبعث ببشائر هذا النصر إلى أنحاء العدوتين. فقد أشار ابن صاحب الصلاة إلى إحدى الرسائل "العزيزية" والتي تتحدث عن أهمية فتح المهدية، الذي أعلن «بقضاء الله تعالى بالبيعة في بلوغ الأوطار وفتح المشارق وإتمام مراد الله في غلبة الكفار والمرتدين الأشقياء الفجار ونيل الغلبة لأولياء الله الموحدين الأبرار»[1380].

بمثابة عامل على المدينة لصاحب صقلية « لوجار بن لوجار المعروف بابن الدوقة الرومي» المراكشي، المعجب، ص298.

(1374)ــ ابن عذاري، البيان، (ق. الموحدين)، ص62.

(1375)ــ ابن الأثير، الكامل، ص 428. أمر عبد المؤمن في حربه على المهدية « بقتال الكفرة ورَماهم بالحجارة نهارا وليلا وأرسل عليهم من سحائب السِّهام وابلا..» ابن عذاري، البيان، (ق. الموحدين)، ص62.

(1376)ــ ابن عذاري، البيان، (قسم الموحدين)، ج1، ص316.

(1377)ــ عبد الملك بن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1987، ص70. تاريخ ابن خلدون، ج6، ص223. بينما ابن عذاري تحدث عن فتح المهدية «شهر محرم»البيان المغرب، ص316.

(1378)ــ المراكشي، المعجب، ص299. في التعريف بالمهدية : أنظر رحلة التجاني، م.س، ص320. لا نتفق مع ما جاء به صاحب الرحلة، حين ربط بين تغلب النصارى على المهدية « التغلب الثاني الذي أدى إلى انقراض دولة صنهاجة» ومرحلة حكم يحيى بن تميم الزيري. إذ أن انقراض حكم بني زيري في المهدية ارتبط باسم الحسن بن علي بن يحيى بن تميم. وغالبية المصادر أجمعت على 543هـ/ 1147م، كتاريخ لاستيلاء نصارى النورمان على المهدية، إلى أن طردهم عبد المؤمن منها عام 555هـ.

(1379)ــ ابن خلدون، ج6، ص226 – 227.

(1380)ــ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص74. فقد تُليت في اشبيلية الرسالة العزيزية على المنابر «وأُسمع بها الحاضر والبادي بجميع هذه البشائر وطارت الركبان بأبياتها العذبة المُبشّرة مطارها على الجهات والعماير» المصدر نفسه والصفحة.

وقد انخرط في الدعاية له أحد شعراء فاس، محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس[1381] الذي قال في بيت شعري:

شُدّت إليك على الرياح سروج === أين الفرار بأهلكم ياجوج[1382]

في هذا الإطار تسجل بعض الرسائل الموحدية الرسمية وجها من تجليات التجربة الوحدوية على المستوى الاجتماعي، وذلك بما شمل أهل إفريقية «من الأمنة والهدون، واسترسل عليهم من الدّعة والسّكون...واشتغالهم بمصالحهم وإقبالهم على مراشدهم..» [1383].

كما وظف الموحدون الانتصار في المهدية، ضمن باب جهاد الكفار، والتي كانت فرصة لاستثارة هِمّة العرب وجلبهم إلى صفهم، كما عبرت على ذلك بعض الأبيات الشعرية:

[وأشرقت الشمس المُنيرة فوقنا === وأصبح وجه الحق غير مُحجّب

وطُهّر هذا الصقع من كل كافر === وعاد به الإسلام بعد تقلُّب

وكُسِرت الصُّلبان في كل بيعة === ونادى منادي الحق في كل مرقب][1384]

لقد تجسدت معالم تجربة توحيد المجال المغاربي تحت حكم الموحدين من خلال إنهاء الوجود النورماني في إفريقية وأفول حكم ملوك الطوائف. فقد التفّ أهالي المدن ونخبها حول الخليفة عبد المؤمن، حيث قدِم على الخليفة وفْد من شرق إفريقية على رأسه «أبو يحيى بن مطروح ووجوه أهل طرابلس فأوسعهم بِرّا وتكرمة»[1385]. وقد كان حلول هذا الوفد مقدمة لتمهيد «بلاد الجريد، وهي توزر وقفصة ونفطة والحامة، فافتتحت كلها، وأخرج الإفرنج منها،...فمحا الله به الكفر من أفريقية، وقطع عنها طمع العدو»[1386]. لقد

(1381)ــ كان عالما وشاعرا ملفقا يتقدم أهل زمانه. ولد سنة 500 وتوفي سنة 570. المن بالإمامة، م.س، الهامش3، ص71. (يحيل المحقق على صاحب التكملة لكتاب الصلة رقم 1055طبع كوديرا).

(1382)ــ ابن صاحب الصلاة،المن بالإمامة، م.س، الهامش.3، ص71.

(1383)ــ عزاوي، رسائل موحدية مجموعة جديدة، ص125.

(1384)ــ ابن عذاري، البيان، ق. الموحدين، ص64. ابن صاحب الصلاة، م.س، ص73.

(1385)ــ تاريخ ابن خلدون، ج6، ص223. يشير ابن خلدون إلى أن طرابلس كانت قد احتُلّت من طرف نصارى النورمان منذ عام 540هـ. نفسه، والصفحة.

(1386)ــ المراكشي، المعجب، ص300.

جسّد عام 555هـ/ 1159م، علامة تاريخية بارزة من حيث لمِّ شتات مجال تحكمه كيانات سياسية صغيرة وتوحيده مع كل الأجزاء التي تم تمهيدها، كسِمة لما اعتبره أحد الدارسين الغربيين[1387]، عصر "الإمبراطورية" المغربية خلال العصر الإسلامي الوسيط، تجلٍّ من تجليات التجربة الوحدوية على المستوى السياسي والمجتمعي، خاصة وأنه خلال هذه المرحلة «لم يبق من العرب خارج الطاعة إلا مسعودا بن زمام وطائفة في أطراف البلاد»[1388].

من علامات التجربة الوحدوية داخل هذا المجال الشاسع على المستوى الاجتماعي، تنقل موجات من العرب تدريجيا نحو الغرب في سياق استدراج عدد «منهم نحو المغرب الأقصى والأندلس»[1389]، والتي كان الهدف وراءها الدفع بهم في هذه المرحلة[1390] إلى تدعيم صفوف الجيوش الموحدية في الأندلس ضمن عمليات الجهاد الذي شكّل المشترك الثابت بين المرابطين والموحدين. وقد كان من نتائج تلك الموجات، اندماج عرب وأمازيغ العدوتين في بوثقة واحدة. ويرى صاحب رسائل موحدية جديدة، يرى أن هدفا آخر كان وراء تهجير القبائل العربية الموالية للموحدين، «وهو التخفيف من ضغط هذه القبائل العربية على ولاية بعيدة كإفريقية»[1391]. وبعد أن تقلد يوسف يعقوب الحكم، مهد الطريق لخلفه من حيث استقطاب القبائل العربية وإدخالها بلاد المغرب الأقصى، حيث ستلعب أدوارا سياسية كبيرة في مستقبل الدولة الموحدية سلبا وإيجابا.

ونلخص في هذا الإطار إلى مشهد أبرز تجليات تجربة الوحدة زمن عبد المؤمن، من خلال ما جاء عند صاحب المعجب الذي أشار إلى أن الخليفة الأول «ملك في حياته من طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة، وأكثر جزيرة الأندلس»[1392] كما

(1387)ــ أمبروسيو هويثي ميراندا صاحب " التاريخ السياسي للأمبراطورية الموحدية" HistoriaPolitica Del Imperio Almohade.

(1388)ــ النويري، نهاية الأرب، (ج.24)، ص185.

(1389)ــ عزاوي، م.س، ج2، ص69.

(1390)ــ في مرحلة أخرى من عصر الخلافة الموحدية توطد نفوذ العرب داخل بلاد المغرب الأقصى وأصبح لهم ثقلهم السياسي في التوازنات الخاصة بوراثة الحكم في ظل الصراع بين الخلفاء المومنيين والأشياخ المصامدة. وقد برز هذا الأمر بوضوع بعد هزيمة الموحدين في العقاب وبداية تسرب الضعف للدولة.

(1391)ــ عزاوي، م.س، ص69..

(1392)ــ المراكشي، المعجب، ص300.

«أطاعه من بالعدوتين من العباد، وضخم مُلكه»[1393]. وهو ما نحسبه تجلٍّ من تجليات التجربة الوحدوية زمن الموحدين على المستويين السياسي والمجتمعي.

2- تجليات التجربة الوحدوية داخل المجال المغاربي زمن خلفاء عبد المؤمن

لا نريد بحديثنا عن التجربة الوحدوية داخل المجال المغاربي زمن خلفاء عبد المؤمن، فصل الأحداث عن بعضها داخل مجال شاسع من حجم بلاد الغرب الإسلامي، بل نحسب استبعاد تداخل أحداث بلاد العدوتين، نوعا من البتر المنهجي في تقديم ما نحن بصدده في تجسيد تجليات التجربة الوحدوية في إطار إمارة المؤمنين. وهنا سنضرب للأمر بأمثلة تدل على هذا التداخل والترابط بين أحداث بلاد العدوتين.

كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن(أبو يعقوب) قد بدأ مرحلة حكمه بمواجهة بعض الثورات والتي كان أبرزها ثورة جبال الريف في بلاد المغرب الأقصى«حيث ثارت قبائل صنهاجة وغمارة بقيادة مرزدغ الغماري»[1394]. وقد أرّخت إحدى الرسائل الموحدية لهذا الحدث من خلال إشارة الخليفة إلى مكاتبتهم رجاءً في هدايتهم[1395]. ولّما لم يستجيبوا للطلب الخليفي كانت لغة السيف هي التي حسمت الموقف لصالح الموحدين. فتم الإعلام بخبر قضاء الخليفة على حركة الثائر مرزدغ في أرجاء الأندلس، وذلك بُغية إشعار معارضي الموحدين في الأندلس، بقدرتهم على ضرب كل الحركات المناوئة لهم، ونخص بالذكر هنا بنو مردنيش. علما أن قوة السلطان هذا أكّده «دخول ابن همشك في الطاعة للموحدين»[1396]، ليمثل هذا الأمر بداية العدّ العكسي لإنهاء مسلسل الخارجين عن طاعة الموحدين داخل بلاد العدوة الشمالية.

وبحلول عام 568هـ/ 1172م سيصل «وفد أهل القيروان وفقهاء تونس وإفريقية إلى مدينة اشبيلية فرحب بهم أمير المؤمنين أبو يعقوب وأنزلهم وأكرمهم حتى

(1393)ــ ابن أبي زرع، القرطاس، ص206.
(1394)ــ أحمد عزاوي، رسائل موحدية (م.ج)، ج.1، ص98. (التفاصيل الرسالة 14 من ص98 إلى ص105).ابن أبي زرع، القرطاس، ص299.
(1395)ــ أحمد عزاوي، م.س. ص100
(1396)ــ المصدر نفسه، ص127. أنظر التفاصيل في الرسالة 26 من ص 127 – 128.

انصرفوا»[1397]، وهو حضور لشرائح من مجتمع الجزء الشرقي لعدوة المغرب، يؤكد ما أشرنا إليه، ويبرز مدى التلاحم المجتمعي وما تحظى به الأندلس من أهمية في قلوب المغاربيين. وهي سِمات بارزة لموضوع تجليات التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن الموحدين. فحضور وفود مغاربية إلى الأندلس، يعبر عن اعتراف بقوة الموحدين، الذين استطاعوا فرض الأمر الواقع على الممالك النصرانية. وهو ما تجسد في رغبة «البرتغال في الهدنة مع الموحدين، كما رغبت فيها قشتالة»[1398] التي كانت مضطرة لطلب وُدّ الموحدين، مخافة اجتياح المسلمين لمجالها.

ولعل هرولة الممالك المسيحية لعقد الهدنة مع الموحدين يشعرنا بما كانت تعانيه تلك الممالك من صراعات وانقسام. الأمر الذي دفع الخليفة الموحدي إلى اعتبار هذا الأمر"فتحا"سياسيا وفرصة لـ «تدعيم الثغور عمرانيا واقتصاديا»[1399]. كما أنه في الآن نفسه فرصة لترتيب الأوضاع في إفريقية، كجزء أساسي من المجال المغاربي، والذي شكّل تحديا كبيرا في وجه الموحدين، وذلك بالنظر لما كان يشهده من تقلبات سياسية قام خلالها العرب وبنو غانية بأدوار رئيسة في زعزعة استقراره.

وخلال العقد السابع من القرن السادس الهجري، سجلت بعض المصادر خروج أبي يعقوب يوسف من مراكش عام 575هـ/ 1168م، وصرفِ نظره صوب إفريقية، بعد أن حسم أمر الأندلس التي حسبناها تركة مرابطية وقاسما مشتركا بين المرابطين والموحدين، إذ ملك هذا الخليفة«الجزيرة بأسرها ودانت له بجُملتها، ولم يخرج عن طاعته شيء منها»[1400].كتعبير فيما يبدو عن أحد تجليات التجربة الوحدوية على الصعيد السياسي المجالي والمجتمعي.

وإذا كان عبد المؤمن قد سعى في تدبيره لموضوع التقليل من "تشغيب" العرب في إفريقية والحد من خطرهم، إلى «إجلاء أعراب إفريقية إلى الأندلس قصد إشراكهم في

(1397)ــ ابن عذاري، البيان المغرب، (ق. الموحدين)، ص124 . كان الخليفة الثاني «عاقلا صالحا مترفِّقا في سفك الدماء حسن السيرة» ابن أبي دينار، المؤنس، م.س، ص113.

(1398)ــ أحمد عزاوي، م.س، ص140. أنظر بعض تفاصيل الهدنة مع قشتالة والبرتغال، في رسائل موحدية (م.ج) ص144.

(1399)ــ نفسه، ص140.

(1400)ــ المراكشي، المعجب، ص324

الجهاد المقدس للتكفير عن ذنوبهم»[1401]، حسب أحد الدارسين. فإن هذه السياسة لم تنجح بصفة نهائية على المدى البعيد. إذ بمجرد وفاة الخليفة عبد المؤمن «ظهر من العرب إفساد ببعض نواحي إفريقية»[1402]، إذ لم يكن لهم أي طموح سياسي، ولم يكن يهُمّهم سوى تحصيل الغنائم، وهذا ما نفهمه من إشارة للمراكشي، بطلبهم «مالا اشتطوا فيه غاية الاشتطاط»[1403]. الأمر الذي استفز الخليفة الموحدي أبا يعقوب يوسف الذي رأى في الاستجابة له، تقويتهم «على ما يريدونه من الفساد»[1404]. مما دفع به إلى جعل تلمسان مركز انطلاق حملة جديدة نحو إفريقية مستهل 576هـ/ 1169م، والتي عبّأ لها «جيوشه بأحسن التعبية في الثاني عشر من شهر صفر برسم الغزو إلى قفصة وبلاد القيروان»[1405].

شبه صاحب البيان المغرب القيروان بالقرية الظالم أهلها، التي «لم تلتفت إلى رشد مرشد ولم تصرف عِنانا إلى طاعة ولم تنته عن عمل باغٍ مفسد اغترارا بِمَنَعَة مكانها وضخامة شأنها وحصانة بنيانها»[1406]. فكان أن تم ضربها بالمنجنيق بعد أن استمات سكانها في الدفاع عنها «إلى أن رغبوا في العفو»[1407]. وتكمن أهمية هذا النصر في بلاد إفريقية من خلال إشارة مصدرية تتحدث عن بعث الخليفة الثاني رسالة إلى «أهل حضرة مراكش وأهل الأندلس»[1408]، تبشر بإخضاع قفصة، بينما يشير صاحب رسائل موحدية (م.ج) بشكل من التخصيص إلى رسالة من الخليفة إلى «الطلبة والموحدين والأشياخ

(1401)ـــ هادي إدريس، الدولة الصنهاجية، م.س، ص463. هو صاحب أطروحة " بلاد البربر الشرقية عهد بني زيري".
(1402)ـــ المراكشي، المعجب ص346.
(1403)ـــ المصدر نفسه والصفحة.
(1404)ـــ نفسه والصفحة.
(1405)ـــ ابن عذاري، ق. الموحدين، م.س، ص.140-141. علما أن المراكشي تحدث عن "حركة علي ابن الرند" في قفصة ووضعُ الخليفةِ حدًا له عام 575هـ. المعجب، ص325. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 154 -155.
(1406)ـ رسائل موحدية (م.ج)، تحقيق عزاوي، (أنظر الرسالة 30)، ص146.
(1407)ـ ابن عذاري، البيان(ق. الموحدين)، ص141.
(1408)ـ المصدر نفسه والصفحة.

والكافة بمدينة اشبيلية»[1409]والتي تحمل «البشائر المتتابعة والمسرات الجامعة... وأن الله هدى بنور هذا الأمر العزيز من كان عنه نفر»[1410] مرفقة بقصيدة مطلعها:

ولما انقضى الفتح الذي كان يرتجى== وأصبح حزب الله أغلب غالب

يا أيها الملك الذي في ظلـــــــــه== أمـــن المروع حـوادث الأيام[1411]



الخريطة رقم (5):

المرجع: شوقي أبوخليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ص79

وقد كان لهذا النوع من الشعر، كآلية إعلامية قوية التأثير، دورا في استبشار «الناس بما يَسّرَ الله لأمير المؤمنين من الفتح»[1412].وقد كان إخضاع الموحدين مدينة قفصة حينئذ، فرصة «لاستمالة العرب والغُزّ»[1413]. ومما سيزيد موقف الموحدين صلابة زمن توسيع تجربة توحيد المجال المغاربي، اجتماع أشياخ العرب وأعيانهم إلى الخليفة، «والمشار إليهم

(1409)ــ أحمد عزاوي، م.س، ص144- 145.
(1410)ــ المصدر نفسه، (أنظر الرسالة 30 من ص144 إلى ص 149)،ص 145.
(1411)ــ المصدر نفسه، صص141-142.
(1412)ــ نفسه، ص142.
(1413)ــ عزاوي، م.س، ص144.

من رؤسائهم ووجوههم وكبرائهم من جميع قبائل رِيَاح وفّقهم الله»[1414]. بما يمثل وجها من الالتفاف المجتمعي حول الموحدين ومحاولة القضاء على مظاهر الانقسام السياسي الداخلي.

وجدنا كذلك داخل متن الرسالة رقم ستة وعشرين ما ينِمّ، خلال تفاوض الخليفة أبي يعقوب يوسف مع هذا القبيل من العرب، جلْب انتباههم إلى حاجة الأندلس لهم، وهو ما أفضت لذلك قلوبهم وخلُصت إليه نفوسهم[1415]. وهو مظهر من مظاهر ترسيخ تجربة وحدة المجال والمجتمع المغاربي والأندلسي من خلال انخراط العنصر البشري لبلاد العدوة بمُكونه البربري والعربي في عملية الدفاع عن الأندلس. وهي محاولة لجعل العرب يتحولون من سياسة العيث دون هدف سياسي واضح، إلى الجهاد كثابت من ثوابت المسلمين وعاملا موحِّدا لهم. علما أن العرب «لا تنقاد لقائد، ولا تلين في يد قاهر ذهابا بنفوسها وطاعة لأنفتها»[1416].

ولعل دعوة العرب للجهاد أعطى نتائجه بعد أن توافدت على يوسف يعقوب «جموع العرب من أفريقية صحبة أبي زكريا صاحب بجاية والسيد أبي عمران صاحب تلمسان، وكان يوم قدومهم عليه يوما مشهودا»[1417]. وقبل وفاة الخليفة الثاني ذكر المراكشي أنه لم يرتفع لملك «من الملوك قبل أبي يعقوب هذا وبعده ما ارتفع إليه من الأموال»[1418] التي لم يقتصر ورودها عليه كخراج من العدوتين، بل وستتعداه حسب ما فهمنا إلى المجال الخارج عن سلطانهم، وذلك من خلال الإشارة التي وردت بخصوص مصالحة ملك صقلية[1419]لأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي «هادَنَهُ على أن يحمل إليه في كل سنة مالا اتفقا عليه»[1420]. وهي من علامات القوة زمن تجربة الوحدة التي أكدت تبعية

(1414)ــ بروفنصال، مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، م.س، ص152. ابن عذاري، البيان المغرب، (ق. الموحدين)، ص141.
(1415)ــ وقد كانت عملية التفاوض تستثير مشاعر وأنفة العرب من خلال تذكيرهم بما كان لسلفهم«من كريم السوابق في أول الإسلام»[1415]. المصدر نفسه والصفحة.
(1416)ــ نفسه والصفحة.
(1417)ــ ابن خلدون، ج.6، ص322.
(1418)ــ المراكشي، المعجب، ص329.
(1419)ــ أنظر أهمية صقلية عند النورمانديين: المعجب، هامش ص325 .
(1420)ــ المراكشي، م.س، ص 325 .

مجال بري ومائي شاسع للموحدين والذي كرّسوا من خلاله سيادتهم في إطار إمارة المؤمنين.

إلا أنه بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عام580هـ/1184م، استغل بنو غانية الفرصة للسيطرة على بجاية[1421]، بعد أن هيّأ لهم التربة من وصفتهم إحدى الرسائل الموحدية بالأوباش «ممّن رقَّ دينه وضعُف إيمانه ويقينه...» [1422]. وتصف الرواية المصدرية قيام«كل مفسد يريد الفتنة والفساد والنهب»[1423] إلى جانب بني غانية، الذين لم يقف أمرهم عند هذا الحدّ، بل وأصبحوا يزعجون الجهة الشرقية بعد أن «قصد علي بن غانية قفصة فملكها»[1424]، وعمل على إخراج «من كان بها من الموحدين»[1425]، وخطب اللمتوني بها للخليفة الناصر لدين الله العباسي»[1426]. قبل أن يلتقي الجيش الموحدي وجيش بني غانية «بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا فانهزم الملثم ومن معه. وأكثَرَ الموحدون القتل فيهم حتى كادوا يفنونهم»[1427]. قبل أن يحسم الخليفة المنصور «أمر قفصة واستقامت له إفريقية»[1428]. إلا أن الأحداث القادمة سواء في عهده أو في عهد الناصر، أكدت أن ذلك الاستقرار كان مؤقتا. فبعد عودة المنصور إلى مراكش عام 584هـ/ 1188م، استمر بنو غانية في فرض واقع جديد في الجهات الشرقية للبلاد المغاربية، بعد أن استفحل أمرهم «بإفريقية وكثرة العيث والفساد فيها»[1429]. غير أن رسالة موحدية أوردها بروفنصال ستحمل ما يبدو بشرى النصر في إفريقية على كل من الميورقيين والأغزاز كمظهر من مظاهر التجربة الوحدوية داخل البلاد المغاربية زمن الموحدين، إذ أظهرت رسالة الخليفة المنصور المتاعب الكبيرة التي خلقها من سمّاهم «الأشقياء الغُزّيّين وإخوانهم في الضلالة

(1421)ـ علما أنه إلى حدود 579هـ/ 1183م، كان يظهر أن علاقة بني غانية (المايورقيين)، كانت علاقة جيدة، إذ كان إسحاق بن محمد بن غانية(أبو إبراهيم) «يراسل الموحدين ويُهاديهم ويهادنهم ويختصّهم من كل ما يُسبى إليه» المراكشي، المعجب، ص195.
(1422)ـ بروفنصال، مجموع رسائل موحدية، ص171.
(1423)ـ النويري، نهاية الإرب، ج24، ص180.
(1424)ـ ابن خلدون، ج6، ص327.
(1425)ـ المراكشي، المعجب، ص342.
(1426)ـ النويري، م.س، ص181.
(1427)ـ المصدر نفسه والصفحة.
(1428)ـ نفسه والصفحة. وكان أهالي قفصة قد نزعوا يدهم من طاعة الموحدين « ودعوا للميورقيين» المراكشي، المعجب،نفسه، ص349.
(1429)ـ ابن خلدون، ج6، ص329..

الميورقيين»[1430]في التأثير سلبا على ما حققه الموحدون من تجميع لمجال منقسم ومُجزّأ وتوحيده في ظل نظام إمارة المسلمين.

ورغم حديث الرسالة عن «خيبة الأشقياء.. الكفرةُ المنخلعون من ثوب الإسلام المتجردون»[1431]،فإن مشكلات إفريقية وترامي أطراف الإمبراطورية الموحدية وتعدّد الأطراف المتنافسة ستظل تفرض على الخلفاء الموحدين تحديات مستمرة، خاصة أمام ما يفرضه عليهم واجب الجهاد في الأندلس، التي ظلت تمثل أولوية ومسؤولية على عاتق خلفاء مراكش عاصمة الغرب الإسلامي، منذ عصر المرابطين. ولعل حجم هذه الأولية برز بشكل واضح يوم اعتزم الخليفة يوسف يعقوب (المنصور) النهوض إلى إفريقية مرة أخرى، إلا أن خطر قشتالة التي كثُر عيث ملكها بالأندلس، بعد أن انتقض ما بينه وبين الخليفة الموحدي من هدنة. فكان الواجب الديني يفرض على الخليفة تجهيز حملة ضده، انتهت بانتصار كبير في معركة الأرك عام 591هـ/1195م[1432]. التي عُدّت حدثا تاريخيا بارزا زمن يعقوب المنصور آثرنا أن نثيره في هذا السياق، من باب دور رمزية إشاعة خبر النصر[1433] داخل عدوة المغرب، وأثره في نفوس السكان، وفي الوقت نفسه إبراز قوة الدولة الموحدية للأعداء.

ـــــ وخلال حكم الناصر الموحدي ظل بنو غانية يشكلون عائقا أمام الاستقرار السياسي ومسار التجربة الوحدوية، بعد أن استولوا هذه المرة على «المهدية سنة تسع وتسعين وخمسمائة»[1434]، وطرابلس وبلاد الجريد ثم تونس، إلى الدرجة التي انتظم له فيها» أعمال أفريقية، وفرّق العمال وخطب للعباسي»[1435]. ف«اتصل بالناصر كثرة الهرج

(1430)ــ بروفنسال، مجموع رسائل موحدية، ص183.
(1431)ــ نفسه والصفحة.
(1432)ــ لاحظنا من خلال تصفّحنا للرسائل الموحدية التي تتطرق لموضوع انتصارات الموحدين سواء على المعارضين أو على الممالك النصرانية، أن معركة الأرك لم يتم الكتابة حولها بالشكل الذي يفرضه المقام. كما أن الرسالة 42 (رسائل موحدية م.ج) تضمنت فقط جواب أهل مراكش للمنصور على رسالته. والتي يبدو موضوعها الإخبار بانتصار الأرك عام 591هـ.
(1433)ـ أنظر تفاصيل حول معركة الأرك: عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القسم.2، عصر الموحدين، م.س، من ص199 إلى ص203.
(1434)ــ ابن خلدون، ج6، ص333.
(1435)ــ المصدر نفسه، 334.

بإفريقية واستيلاء ابن غانية عليها»[1436]، فكان لابد عليه تدارك الموقف،ف» نهض من مراكش سنة إحدى وستمائة»[1437]. وبعد أن وصل بحرا إلى تونس«افتتحها عنوة»[1438]. وتشهد الرواية المصدرية على كون الموحدين لما دخلوا المدينة «قتلوا من كان من أتباع ابن غانية»[1439] الذي لم ينته أمر معارضته لحكم الموحدين، إلا بعد لجوء «سير بن إسحاق بن غانية إلى حضرة مراكش وكان متبرئا من نفاق إخوته»[1440]. كما أن الناصر نهج سياسة جديدة لاستئصال خطر بني غانية، بعد أن رأى «ضرورة اقتلاعهم من جذورهم»[1441] في الجزائر الشرقية (البليار). وهو مؤشر على نهاية حلقة من حلقات المعارضات التي واجهها الموحدون من أجل فرض الاستقرار والنظام، داخل هذا الجزء المغاربي البعيد عن العاصمة مراكش.

فقد«تهذبت في هذه المدة جهات إفريقية وسكن روعها والتأم تشغيبها وصدعها»[1442]. قبل أن يقفل الخليفة الناصر راجعا إلى مراكش التي«دخلها في ربيع سنة أربع وستمائة»[1443]. علما أن الموحدين سيكونون مضطرين إلى تعيين «والي مُفوّض بالمنطقة»[1444]. وهو ما سيمهد لفصل جديد من تاريخ بلاد إفريقية التي ستنفصل نهائيا عن حكم الموحدين بعد تأسيس الدولة الحفصية.كما أنه قبل حوالي سنتين من معركة " العقاب" «وصلت الأنباء إلى الحضرة بتغليب المسلمين على كثير مما في أيدي الروم من معاقل صقلية»[1445].

نستنتج من كل هذه التفاصيل الخاصة بتجربة الموحدين في إخضاع مجال شاسع امتد «من طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة، وأكثر جزيرة

(1436)ــ نفسه، ص333..
(1437)ــ نفسه والصفحة.
(1438)ــ نفسه والصفحة.
(1439)ــ نفسه والصفحة.
(1440)ــ ابن عذاري، البيان، (ق.الموحدين) ص256.
(1441)ــ رسائل موحدية - م.ج- (عزاوي)، ص139.
(1442)ــ ابن عذاري، م.س، ص256.
(1443)ــ ابن خلدون،ج6، ص334.
(1444)ــ عزاوي، رسائل، م.س، ص139..
(1445)ــ نفس المرجع والصفحة.

الأندلس»[1446]، أن الأمر شكل تحديا كبيرا للموحدين من أجل مضبطه والتحكم فيه، مما سيدفع بخلفاء بني عبد المؤمن إلى التنقل باستمرار بين الولايات المغاربية لفرض سيادة الدولة وتثبيت تجربة وحدة المجال، أمام ظهور معارضات وانتفاضات خاصة داخل إفريقية.

كما يبدو أن مسؤولية الموحدين في الحفاظ على ما تحقق من توحيد مجال "جيو- سياسي" من حجم ما أطلق عليه هويثي ميراندا (Miranda Huici Abrosio) إسم "الإمبراطورية" الموحدية[1447]، فرضت عليهم ليس القضاء على الثورات الداخلية التي كانت سِمة العصر الموحدي، بل تعدّته إلى فرض الموحدين الأمر الواقع على ممالك قشتالة والبرتغال وأركون وليون ونِبّارا التي كانت بدورها مضطرة، أمام مشاكلها الداخلية وصراعاتها الخارجية إلى عقد مجموعة معاهدات صلح مع الموحدين. ف«الحرب الأهلية في قشتالة»[1448] حسب أحد الدارسين، لم تهدأ سوى بضعة أعوام إلى درجة أن بعض الأسر الساعية للمُلك من مثل **آل كاسترو** المدعومين من ملك ليون فرديناند، قامت ب« تحريض الموحدين على غزو قشتالة»[1449].

ـــ لعل الخلاصة العامة التي يمكننا الخروج بها في مقاربتنا لموضوع تجليات ومراحل التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين ـــ والتي كنا مضطرين منهجيا لتناولها في بابين: "مجال المغرب الأقصى والأندلس" ثم "المجال المغاربي" ــ هي أن المرابطين استطاعوا تحويل مجال منقسم على نفسه إلى مجال سياسي موحد اتخذ صفة المجال الإمبراطوري في ظل حكم مركزي، قبل أن يطور الموحدون هذا المشروع الوحدوي في إطار إمارة المؤمنين، وعملهم على المحافظة على ما تحقق على يد المرابطين بعد توحيدهم العدوتين، إذ لم يسمحوا بعودة الانقسام والتجزئة الذي ساد خلال العصور السابقة. الأمر الذي يجعلنا نميل إلى أن التجربة هذه كانت تجربة واحدة ترمز للاستمرارية والتطور الإيجابي في مسار الدولة المركزية خلال العصر المغربي الوسيط.

(1446)ــ المراكشي، المعجب، ص300.
(1447)ــ وضعه كعنوان لكتابه المشهور : " التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية".
(1448)ــ أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج.2، م.س، ص25.
(1449)ــ نفس المرجع والصفحة.

ويظهر لنا في هذا السياق أن الأندلس مثلت أولوية رئيسة للمرابطين والموحدين وقاسما مشتركا بينهما، بما لها من قيمة سياسية واقتصادية وحضارية، جعلها تشكل في وقت من الأوقات مصدرا لشرعية الحكام، بعد أن أصبحت تُأخذ البيعة الأولى في حضرة مراكش والبيعة الثانية في اشبيلية.

الفصل الثالث: أوجه التشابه والاختلاف في التجربة السياسية الوحدوية زمن المرابطين والموحدين

نحسب أن رصد أوجه التشابه والاختلاف في التجربة السياسية الوحدوية التي شهدها الغرب الإسلامي زمن حكم المرابطين والموحدين ــ في إطار مقاربة سياسية مجالية ــ هو تقييم لظروف قيام وتطور هذه التجربة الهامة خلال العصر المغربي الوسيط. وكذلك رصد لأهم مقومات وأسس (ثوابت) بنائها، قبل المرور إلى تحديد أهم تجلياتها الرئيسة على المستوى السياسي المجالي، بعد أن أصبحت حضرة مراكش "عاصمة" للغرب الإسلامي، خلال القرون 5 و6 و7هـ/ 11 و 12 و 13م. ولعل الشواهد المادية والحضارية لازالت أكبر شاهد على ما تحقق زمن المرابطين والموحدين سياسيا وحضاريا. وبناء عليه سنقف على أهم أوجه التشابه والاختلاف بين مرحلتي حكم عصبيتين قبليتين من حجم صنهاجة الجنوب ومصامدة جبال دَرَن، وذلك من خلال الزوايا التالية :

المبحث الأول: أوجه التشابه والاختلاف على مستوى السياق التاريخي:

1- سياق المغرب "الأقصى"

ظل المغرب "الأقصى" يعيش على وقع التقسيم والتجزئة لعدة قرون بفعل عوامل داخلية وخارجية، وذلك بعد أفول تجربة الأدارسة في الحكم. وهنا تكمن أهمية هذا المجال الذي شكل مهْد ولادة التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي خلال العصر المغربي الوسيط. فعلى أرضه شقّت التجربة طريقها في صناعة معالم التطور السياسي بالمنطقة، المتمثل في الحكم المركزي الذي أصبحت خلاله مراكش رمزا لعملية تجميع أطراف التراب المغربي، قبل مرحلة توحيد العدوتين وتكريس تبعية الأندلس لمراكش.

فقد تميز العصر الذي سبق وصول المرابطين إلى الحكم بمظاهر متعددة من أوجه الصراع السياسي والتناقضات المجتمعية، وذلك بما جسّدته خريطة المغرب "الأقصى" من مظاهر الانقسام السياسي المتمثل في تعدد الكيانات التي تتوزع المجال[1450]، والذي شبّهه صاحب "البيان المغرب" بالحال الذي كانت عليه بلاد الأندلس[1451]، بعد سقوط الخلافة عام 422هـ/1030م. وقد زاد التدخل الإقليمي الخارجي المتمثل في الصراع السياسي

(1450)ــ أنظر القبلي، تاريخ المغرب تحيين تركيب، م.س، ص 161.
(1451)ــ ابن عذاري (المراكشي)، البيان ـ قسم المرابطينـ ص10.

والاقتصادي بين الفاطميين والأمويين، من حجم التصدع واستفحال ظاهرة نزوح القبائل من مواطنها الأصلية بحثا عن الأمن. وداخل هذا المشهد السياسي المأزوم كانت البلاد تشهد أوضاعا دينية "مترديـة" شبهتها بعض المصادر بالرِّدّة عن الإسلام الصحيح[1452]، وبالإلحاد كما عبر عن ذلك أحد المهتمين بالتاريخ المغربي[1453]. وهذا الوضع يمكن أن نفسر به البرنامج السياسي للمرابطين الذي انتقل من التصدي لظلم زناتة إلى مواجهة بورغواطة البؤرة الرئيسة لما يمكن أن يكون تحريفا للدين.

ـــ بينما السياق الذي برز فيه الموحدون كان خلاله المغرب الأقصى قد حقق وحدته السياسية، وأمّن ظهره في جهة الشرق بجعل تلمسان مركزا حيويا يحرس المجال الشرقي الذي امتد فيه نفوذ المرابطين إلى حدود جزائر بني مزغنة. كما أن مراكش أصبحت منذ النصف الثاني من العقد الثامن(ق.5هـ/11م) حضرة للغرب الإسلامي بعد توحيد العدوتين. وهو ما يجعلنا أمام وضع لا مجال لأوجه تشابه هلى مستوى الظروف السياسية التي برز خلالها كل من حكم المرابطين وحكم الموحدين. غير أن المرابطين خلال هذه المرحلة لم يخل عصرهم من مشاكل والتي مثلت الأرضية التي على أساسها أقام المهدي بن تومرت حركته الدعوية، التي هيأت الظروف المناسبة لهدِّ أركان الدولة المرابطية وإسقاطها.

فعملية إحراق كتاب الغزالي التي كان وراءها نفر من فقهاء الأندلس المالكيين[1454]، كانت قد أثارت سخطا مجتمعيا ليس لدى المصامدة وحدهم بل عمّت معظم الحواضر المغربية التي لم تهتم كثيرا بقرار فقهاء الأندلس. ومن ثَمّ فإن الدعوة التومرتية استُثمرت فيما يبدو في أحداث جزئية زمن سريان تجربة توحيد العدوتين أيام المرابطين، والتي حققوا خلالها انتصارات كبيرة[1455]على الممالك المسيحية حتى بعد سقوط سرقسطة عام 512هـ/ 1118م. كما تمكنوا من تقديم الدعم لبني زيري في إفريقية أمام استباحة نصارى

(1452)ـــ مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، م.س، ص197.
(1453)ـــ الفرد بيل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص174. / النجار عبد المجيد، تجربة الإصلاح في عهد المهدي ابن تومرت، م.س، ص44-45.
(1454)ـــ القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة، ص28.
(1455)ـــ معركة إفراغة مثلا في 23 رمضان من عام 528هـ/1134م، وهي المواجهة العسكرية التي وقع فيها جيش ألفونسو المحارب ملك أراكون بين فكّي كماشة جيوش المرابطين بقيادة يحيى بن غانية وأهل إفراغة. أنظر موقع: قصة الإسلام، إشراف الدكتور راغب السرجاني "معركة إفراغة.. أعظم أيام رمضان في الأندلس"، مقال لشريف عبد العزيز، 2017/03/08.

النورمان للمهدية، وهو ما أشرنا إليه بتفصيل في موضوع تجليات التجربة الوحدوية مغاربيا[1456] من خلال مجموعة من الإشارات المصدرية.

2- السياق الأندلسي:

اتضح لنا من خلال ما درسناه وحلّلناه في متن بحثنا، أن وجه الاختلاف بين الظروف السياسية التي عاشتها الأندلس قبل عملية الاستنجاد بالمرابطين، كانت مختلفة كثيرا عن مثيلتها التي سبقت وصول الموحدين إلى الحكم. فسقوط دولة الخلافة في الأندلس منذ عام 422هـ/ 1030م كان قد خلّف وراءه وضعا سياسيا مُقسّما داخل المجتمع الأندلسي زمن حكم ملوك الطوائف، والمليء بمشاهدَ لا تُعبر سوى على النزاع والصدام الداخلي وعقد تحالفات مع نصارى الشمال[1457].. تلك التحالفات التي كانت تسمح للممالك النصرانية باستباحة أراضي الأندلس، مستغلين في ذلك انتشار العداوة بين مسلمي الأندلس عربا وبربرا[1458]. كما انتشرت روح التّراخي عن الجهاد والميل إلى حياة الترف والمجون. ولعل خير من عبر عن تلك التناقضات انتشار ألوان من الأجناس الأدبية كالشعر والزجل اللذين كشفا عن عورة ملوك الطوائف المسلمين في مدى قابليتهم للتعاون والخضوع للممالك النصرانية[1459] وعلى رأسها مملكة قشتالة بقيادة ألفونسو السادس الذي دشن حكمه باحتلال طليطلة عام 478هـ/ 1085م.

بالمقابل، حين نقارن هذا الوضع في الأندلس مع السياق التاريخي الذي قامت على أساسه الدعوة الموحدية، يبدو وجه الاختلاف واضحا، وذلك لما تميز به وضع الأندلس زمن سريان تجربة زمن خلال العصر المرابطي. إذ أن العدوة الشمالية أصبحت بعيدة عن قبضة نصارى الشمال الذين تلقوا ضربة موجعة منذ معركة الزلاقة عام 479هـ/ 1086م. خاصة عندما أصبحت الأندلس إقليما تابعا لمراكش منذ 484هـ/1091م. غير أن عصر

(1456)ـــ الباب الثالث من البحث. الفصل الثاني، المبحث الثاني (الدعم العسكري من الخليفة علي بن يوسف بن تاشفين لبني زيري).

(1457)ـــ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق سيد كسروي، ج2، ص177. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني: دول الطوائف، ص99.

(1458)ـــ ابن حيان، المقتبس، م.س، ص23. ابن الكردبوس" تاريخ الأندلس، م.س، ص87.

(1459)ـــ ابن بسام، الذخيرة، م.س، 1/2، ص248.المقري التلمساني، النفح الطيب، م.س، ج4، ص352. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص118.

المرابطين تخللته مجموعة من المشاكل لها علاقة باصطدام ذهنية المرابطين المحافظة مع الثقافة الأندلسية التي يغلب عليه «التحرر». كما انتشر نوع من فقدان الثقة لدى فئات من المجتمع الأندلسي بسبب بعض الهزائم العسكرية وضياع سرقسطة عام 512هـ/ 1118م. رغم أن أحد الدارسين الغربيين قلل من الآثار السلبية لسقوط أحد أهم مدن الثغر الشمالي سرقسطة، وذلك بمبرر ما كانت تنعم به الإمبراطورية من حياة آمنة[1460]. إلا أن لجوء بعض الولاة المرابطين إلى بعض أساليب الشطط في السلطة، كان حجة لمثيري الفتن آنذاك في قيام ثورة قرطبة عام 515هـ/1121م[1461]. ويظهر أن مثل هذه الأجواء قد زاد من تأجيجها دور النصارى المعاهدين، الذين بسبب فِتنهم جاز ابن رشد إلى عدوة المغرب للشكوى منهم من تحريضهم لابن رذمير[1462]. وبناء على ذلك يبدو أن مثل هذا الوضع، سمح للمهدي بن تومرت، باستنبات حركة معارضة هيّأ بواسطتها الظروف لنفسه، للقيام على المرابطين. وهو ما يدفعنا إلى مسايرة رأي ليتورنو الذي استنتج أنه بدون تأثير ابن تومرت كان من الممكن أن يستمر الوضع عصر المرابطين مدة أطول[1463].

3- السياق المغاربي[1464]:

ـــــ كان بروز الملثمين على مسرح الأحداث انطلاقا من عمق الجنوب الصحراوي، متزامنا مع انقسام مُبكّر كان قد حصل داخل بيت صنهاجة الشمال بين بني زيري وبني حماد. فتأسيس **حماد**ا دولةً في جهة قسطنطينة[1465]، شكل مظهرا بارزا لهذا الانشطار في حكم صنهاجة الشمال، والذي تَجسد في ظهور «إمارة شرقية وقاعدتها القيروان وإمارة غربية وقاعدتها قلعة بني حماد»[1466]. وهذا ما سهّل مهمة اختراق مجالهم السيادي

(1460)ـ أنظر لوتورنو، حركة الموحدين في المغرب الأقصى، ص46.
(1461)ـ مجهول، الحلل الموشية، ص86.
(1462)ـ المصدر نفسه، ص90 و ص91..
(1463)ـ لوتورنو، م.س، ص46.
(1464)ـ في إطار دراستنا المقارنة لموضوع التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي خلال العصر المغربي الوسيط، نشير ونحن بصدد مقارنة أحداث السياق التاريخي للغرب الإسلامي قبل قيام التجربة الوحدوية وتطورها، إلى أن الحالة السياسية داخل البلاد المغاربية زمن حكم الزيريين والحماديين. كانت مختلفة اختلافا كبيرا زمن المرابطين والموحدين إلى الحكم، الشيء الذي يمكن أن نفسر به اختلاف سياستهما في طريقة وأسلوب التعامل مع كل من المجال الحمادي (في الجزء الشرقي لبلاد المغرب الأوسط) والمجال الزيري (في إفريقية).
(1465)- ابن الكردبوس، الاكتفاء في أخبار الخلفاء، م.س، ج1، ص30.
(1466)- نفس المصدر والصفحة.

والتحكم فيه من طرف العرب[1467] الوافدين من مصر في مرحلة أولى، ثم نصارى النورمان في وقت لاحق[1468]. وقد فسّرت بعض مصادرنا مجاز العرب النيل إلى المغرب، وكان ممنوعا عنها قبل ذلك[1469] بإعلان المعز بن باديس الزيري قطيعته صراحة للعبيديين بعد أن خطب للقائم بأمر الله العباسي ابتداء من عام 433هـ/ 1041م. بل وعمد إلى إزالة أسماء الفاطميين من السكة في سنة إحدى وأربعين [1470]. وهنا جاء ردّ العبيديين قاسيا بعد أن أقسم عبيد الله الفاطمي على رمي الزيريين بجيوش من عرب مصر[1471] الذينأمدّهم بالسلاح. فهُزِم المُعزّ وتراجع إلى المهدية[1472]. وبذلك عاث العرب في إفريقية فسادا وخرّبوا القيروان بعد نهبها[1473]. ومنذ تلك اللحظة سيصبح مجال صنهاجة الشمال مستباحا من طرفهم، حيث سيُكرِّسون كل مظاهر تقسيم المجال الإفريقي بين القبائل العربية. وقد كانت قاصمة الظهر لصف الزيريين والحماديين، سقوطهم في شَرَك حرب سَبيبَةَ عام 457هـ(1064م) [1474] التي زادت من حجم تكريس واقع التقسيم والتجزئة. وهنا نجد صاحب "دولة بني حماد"[1475] يقترب من دائرة الحياد عندما جعل من ظهور هذه الدولة «إبرازا لذلك العصر السياسي من عصور المغرب الإسلامي، الذي قُسم فيه المغرب بين أمراء برابرة متعاصرين مفككين يسعى كل منهم لتوسيع رقعة بلاده»[1476]. علما أن عاصمة بني حماد نفسَها لم تسلم من عُدوان العرب، الأمر الذي دفع

(1467)- «أعراب الصعيد» الدباغ أبو زيد عبد الرحمان، معالم الإيمان، ص204.
(1468)- ابن عذاري،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، م.س، ج1، ص275.
(1469)- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، م.س، ج 3، ص75.
(1470)- ابن خلكان، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، م.س، ج5، ص: 234. لسان الدين الخطيب، أعمال، م.س، ج.3، ص72- ص 73، وابن عذاري، البيان المغرب، ج.1 /273- 274- 275، ج.2، ص 288. ابن أبي دينار، المؤنس،ص81. سعد زغلول عبد المجيد، تاريخ المغرب العربي، " الفاطميون وبني زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين، ج.3، ص 393.
(1471)- المراكشي، المعجب، م.س،ص 166.
(1472)- النويري، نهاية الإرب، م.س، (ج24)، ص120.
(1473)- نفس المصدر والصفحة. حسب رواية النويري يكون حصار العرب للقيروان زمن المُعز، قد امتد لمدة ثلاث سنوات من 446هـ إلى 449هـ (1054م - 1057م) فغادرها إلى المهدية.
(1474)- ابن عذاري، البيان،.س، ج1، ص: 299.النويري، ج24، ص122-123. ابن خلدون، م.س، ج.6، ص212.
(1475)- ك« دولة بربرية قامت في المغرب <<الأوسط>> في مطلع القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي »روجر لوتورنو، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، م.س، ص 18.هنا نشير إلى أن سيادة بني حماد على ما يعتبر مغربا أوسطا هي سيادة نسبية بالمعنى السياسي، نظرا لتقاسم قبائل زناتة أجزاء منه مع الحماديين، قبل مجيء المرابطين الذين سيمتد نفوذهم اتجاه الشرق المغاربي على حساب الزناتيين وليس الحماديين.
(1476)- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، ص128.

بالحماديين إلى اعتماد سياسة التحالفات معهم قصد الحد من شوكتهم، كما سيتم استعمالهم في وقت لاحق في الهجوم على تلمسان زمن حكم المنصور بن الناصر أواخر القرن الخامس الهجري(ق.11م)[1477]، عندما كان المرابطون منهمكون في تثبيت تجربة توحيد بلاد العدوتين ابتداء من عام 484هـ/ 1091م.

ـــ أما سياق الأحداث التي شهدتها البلاد المغاربية (المجال الحمادي والمجال الزيري) لما قبل بروز الموحدين كحركة سياسية "بثوب دعوي"، مطلع القرن السادس الهجري[1478]. فقد تميزت من وجهة نظر أحدهم بنوع من التقارب والسِّلم الذي بقي سِمة بارزة للأمراء المرابطين[1479] بعد غياب يوسف بن تاشفين عن الساحة السياسية عام 500هـ/ 1106م. لكن بناء على ما اطّلعنا عليه في بعض المصادر، لم ترد إشارات واضحةلما يمكن أن نحسبه تطبيعا للعلاقات بين الحماديين والمرابطين خلال هذه المرحلة، إلا بعد أن أصبح الموحدون يفرضون وجودهم على بعض الأجزاء من مجال المغرب الأقصى خلال ثلاثينيات القرن السادس الهجري (ق.12م)، وبالتحديد بعد وفاة أمير المسلمين علي بن يوسف وتولي ابنه تاشفين الحكم. خلالها بدا أن الحماديين أصبحوا يشعرون بخطورة الموقف، خاصة مع ما ميّز حركة الموحدين من "أسلوب دموي"[1480] منذ زمن المهدي بن تومرت.

(1477)- كان ظهور المرابطين على الساحة السياسية المغربية ووصول جيوشهم إلى ما بعد تلمسان، سيُولد فيما نحسب الخوف لدى الناصر من اجتياح مرابطي وشيك، فسارع إلى عقد الصلح مع أبناء عمومته الزيريين. وذلك عام 470هـ/ 1077م. تاريخ ابن خلدون، م.س، ج6، ص 212.

(1478)- كان خلالها المرابطون زمن تولي علي بن يوسف بن تاشفين الحكم، أسيادا على مجال شاسع من بلاد العدوتين، حيث كان يتم الدعاء له يوم الجمعة من أكثر من ألفي منبر. ابن ابي دينار، المؤنس، م.س، ص 105.

(1479)- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، م.س، ص180.

(1480)- ابتداء بسياسة " التمييز "منذ زمن المهدي بن تومرت، الذي حسب رواية البيذق « نادى في الجبل إلى ذلك المكان فحضروا للتمييز ... فكان عدد القتلى سبعين ألفا فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه و أصحابه واستقام أمرة>> أعز ما يطلب، مطبعة الجزائر، 1903، ص22. وقد ذكر البيدق أنه هكذا سمع « جماعة من فضلاء المغاربة يذكرون في التمييز>> نفس المصدر والصفحة.
ولعل هذه الذهنية التي كانت لدى الموحدين هي التي طبعت سلوكهم في سياسة غزو الحواضر المغربية نهاية العقد الثالث وبداية العقد الرابع من القرن السادس الهجري: وهران وتلمسان وفاس ومكناس ومراكش، نموذجا. فقد ذكرت مجموعة من المصادر السياسة "الوحشية" التي استعملها عبد المؤمن اتجاه سكان المدن بعد استسلامهم: أنظرابن عذاري، البيان المغرب – قسم الموحدين – ص22 و ص23. مجهول، الحلل الموشية، ص135. أمبروسيو هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للأمبراطورية الموحدية، ص127.

كما فهم الحماديون فيما نحسب أن قضاء الموحدين على المرابطين، وسيطرتهم على ما كان تحت يدهم، سيكون معناه، التوسع على حساب مجال بني حماد. فكان على عبد العزيز الحمادي آخر ملوك بني حماد الصنهاجيين، في ظل تنامي هذا الخطر الداهم، السعي للتقارب مع المرابطين اتّقاء شر قادم. ومن هنا يمكن أن نفسر مُسارعتهم للاستجابة لنداء تاشفين بطلب الدعم من جميع البلاد للقضاء على حركة عبد المؤمن[1481].

يمكن إذن أن نفهم من سياق أحداث ما قبل ظهور الدعوة التومرتية التي مهدت للإطاحة بالمرابطين، أن الفكرة الإصلاحية التي جسدها المشروع السياسي لدولة المرابطين، امتدت مجاليا نحو شرق بلاد المغارب. فمن خلال ما حصّلناه من بعض المصادر[1482]، شهد هذا المجال[1483] ما يمكن أن نحسبه انبعاثا لحكم بني زيري مطلع القرن السادس الهجري(ق.12م)، وذلك بما أبداه أمراء المهدية من عزْم على الذود عن مجالهم السياسي، وذلك منذ وصول تميم الزيري إلى الحكم، مرورا بيحيى وعلي والحسن الذين عاصروا سريان التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن علي بن يوسف بن تاشفين.

وابتداء من العقد الثاني من القرن السادس الهجري (ق.12م) أشارت بعض مصادرنا [1484] إلى ما نحسبه تجليا سياسيا من تجليات التجربة الوحدوية داخل البلاد المغاربية زمن المرابطين، حين حوّل الزيريون تهديدهم لملك صقلية روجار بمراسلة المرابطين ملوك العدوتين، حوّلوه إلى أمر واقع زمن الحسن بن علي بن يحيى بن تميم. فقد توصل الأمير الزيري بدعم عسكري فعلي من المرابطين الذين هاجم أسطولهم مدنا في صقلية[1485].

(1481)- نقل ابن عذاري عن أبي علي الأشيري والبيدق: « ووصلت إلى تاشفين محلة صنهاجة من بجاية .. . هزمهم الموحدون من باب الصخرتين>> البيان، قسم الموحدين، ص17 و18.

(1482)- ابن عذاري، البيان، (ج4)، ص62.ابن الأثير، الكامل، ج9، ص 169- 170.ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس،، ص89. التجاني، الرحلة، ص334و ص339.

(1483)- رغم معاناة الزيريين من تعدد الأعداء الذين تسببوا في تفتيت مجالهم السياسي الذي كان قد تقلص بفعل الأدوار السلبية للعرب وأطماع بني حماد في إفريقية واستباحة نصارى النورمان للحواضر الساحلية..

(1484)-- ابن خلدون، ج6، ص214.ابن عذاري، ص67./ التيجاني، الرحلة، م.س، ص335. ابن ابي دينار، المؤنس، م.س، ص90.

(1485)ـ هذا الحدث التاريخي الكبير لم توليه الدراسات الحديثة اهتماما كبيرا. علما أن أهميته تصب في موضوع أهمية التاريخ كذاكرة في ربط الحاضر بالماضي، من حيث أن التاريخ المغاربي هو تاريخ ذو جذور عميقة منذ دخول الإسلام إلى المنطقة. فثوابت الدين واللغة والعادات ظلت تفعل فعلها في موضوع الوحدة المغاربية في كل مرة توفرت الإرادة السياسية لدى حكامها عبر كل المراحل التاريخية لبلاد المغرب الكبير. ومن عجيب المنعرجات التاريخية الخطيرة في تاريخ بلاد المغارب تعرضها لهجمة "إمبريالية" غربية، دفعت إلى انفراد المستعمر الفرنسي

ولعل هذا التّجلي الوحدوي داخل البلاد المغاربية زمن المرابطين، له وجه مشابه في تطور التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن التمكين للموحدين، ذلك أن إلحاح النورمان على المهدية الذي لم يتوقف حتى تم الإجهاز عليها عام 543هـ/ 1148م[1486]، صادف تحول وجهة الموحدين نحو العمق المغاربي في إفريقية منذ تمهيدهم لبجاية عاصمة الحماديين منذ 547هـ/ 1152م. فوضعوا حدّا للتواجد النورماني على أرض إفريقية بانتزاع المهدية[1487] كمظهر آخر من مظاهر تجربة توحيد المجال المغاربي، الذي أصبح تابعا لحضرة مراكش منذ زمن عبد المؤمن بن علي.

ولعل الخلاصة العامة التي يمكن الخروج بها من حصيلة مقارنتنا لأوجه التشابه والاختلاف بين الأحداث التاريخية للسياقين التاريخيين اللذين من رحمهما خرجت التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي بين القرن الخامس والسابع الهجريين (ق.11 و 13م) زمن المرابطين والموحدين، هو أن الاختلاف في السياق كان كبيرا بين دور المرابطين في بناء تجربتهم في ظروف سِمتها الرئيسة الانقسام السياسي والمجتمعي الذي تجسد في واقع حكم ملوك الطوائف داخل بلاد العدوتين، وبين بروز الدعوة التومرتية في سياق دولة مرابطية مركزية استطاعت توحيد المغرب الأقصى ثم بلاد الأندلس والتحكم في فوضى زناتة في الجزء الغربي من بلاد المغرب الأوسط، وتنظيمها للتجارة بين حواضر بلاد العدوتين ومع الشرق الإسلامي. وهذا الأمر هو الذي يدفع الباحث لكي يضع الموحدين أمام المساءلة التاريخية العلمية حول دورهم في الحدّ من تجربة سياسية فتية، جعلت إسم مراكش يرتبط بمفهوم الدولة المغربية ككيان سياسي وحضاري منذ غابر الأزمنة وإلى الآن.

بها، لتتشكل داخل هذا المجال المغاربي الشاسع مقاومة شعبية مسلحة وقفت الند للند في وجه المستعمر رغم الفارق الشاسع في الإمكانيات.

(1486)ـ ابن خلدون، ج6، ص 215.

(1487)ـ ابن عذاري، البيان، (قسم الموحدين)، ج1، ص316. عبد الملك بن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص70./ تاريخ ابن خلدون، ج6، ص223

.

المبحث الثاني: أوجه التشابه والاختلاف على مستوى المقومات والتجليات.

1- مقارنة مقومات قيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين:

شكل موضوع المقومات أو الثوابت التي على أساسها قامت التجربة الوحدية زمن المرابطين والموحدين، انطلاقا من بلاد المغرب الأقصى، وجه التشابه الرئيس بين المرابطين والموحدين، باعتبارها قاسما مشتركا وأرضية، تم من خلالها بناء مشروعهم السياسي في الذي تطور ليشمل مجالاواسعا استطاع توحيد ضفتيبلاد الغرب الإسلامي. فتلك المقومات التي شكلت الأسس الثابتة التي على صرحها قام مشروع سياسي من حجم ما تحقق على يد عصبيتي صنهاجة الجنوب ومصامدة جبل درن، كانت ممثَّلة في الدين الإسلامي والعصبية القبلية والثقافة والعلوم والتجارة والعادات والظروف الطبيعية المشتركة. وهذه العوامل مجتمعة لم تكن تعترف بالحدود السياسية بين الكيانات الحاكمة التي كانت تتوزع البلاد المغاربية[1488].

فالدعوة المرابطية ثم الموحدية استمدّت شرعيتها من الدين على أساس الإصلاح ونشر العدل. ولم يكن ليخفى دور الدين في تواري الصراعات القبلية الداخلية لصالح توحيد الكلمة. فبالدين يذهب التنافس ويقل الخلاف ويحسن التعاون والتعاضد ويتسع نطاق الكلمة[1489]. وبالتالي هو محرك أساس لإنجاز الوحدة[1490]. أما العصبية القبلية والنسب فهما بمثابة الخزان البشري في توفير القوة العسكرية لتحقيق السلطان السياسي، الذي بواسطته اشتدت شوكة العصبيتين وخُشِي جانبهما[1491].

أما بالنسبة للقواسم الثقافية المشتركة لمجتمع بلاد المغرب الكبير بصفة خاصة والغرب الإسلامي بصفة عامة، فقد شكل أحد الأركان الرئيسة لوجه التشابه في التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين بما جسده من أدوار في نشاط حركة دينية علمية قادها أعلام بارزون من الفقهاء والعلماء الذين«طوَواْ البلاد والأمصار وجابواْ بقاع الأرض بسحيق

(1488)ـ مجهول، الحلل الموشية. ص12. ابن رشد، فتاوى ابن رشد، ص61. القبلي، مراجعات، ص17-18-19.
(1489)ـ مقدمة ابن خلدون، م.س، ص198. عبد الحق الطاهري، الدولة الموحدية، ص126.
(1490)- عز الدين جسوس، موقف الرعية من السلطة السياسية في المغرب والأندلس على عهد المرابطين – دراسة في علم الاجتماع السياسي، مطابع افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2014.، ص 193.
(1491)ـ مقدمة ابن خلدون، م.س، ج1، ص 159.

الأسفار، ليقينهم الأكيد بأن ذلك من تعظيم شعائر الدين»[1492]. وتتجلى قيمة وأهمية أدوار هذه الفئة العالمة من خلال ما تزخر به كتب التراجم والمناقب[1493]. إذ لم يتوقف تزعمهم لمشهد الحركة العلمية التي كانت تعج بها المدن الإسلامية على طول وعرض المجال الجغرافي والسياسي لبلاد الغرب الإسلامي، التي شكّلت مجالا واحدا في ذهنية ووجدان فئات المجتمع، إلى الدرجة التي لم يكن فيها معنى للحدود السياسية. إذ لم تكن تتأثر العلاقات العلمية ورحلات الحج بالصراع حول الحكم داخل بلاد الغرب الإسلامي، إلا حين تتأزم الأوضاع السياسية في الحدود التي ينعدم فيها الأمن. ويشهد على ذلك ما رصدناه سابقا من أمثلة لثُلة من الفقهاء والعلماء الذين تنقلوا بين مختلف حواضر بلاد العدوتين، إلى الدرجة التي استقروا خلالها معظم مراحل حياتهم خارج مواطنهم الأصلية[1494].

في إطار دراستنا المقارنة الخاصة بموضوع مقومات التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين، شكلت التجارة والطرق الصحراوية ثم البحرية في وقت لاحق، وجها آخر للتشابه بين المرابطين والموحدين في الأساس المادي الذي قامت عليه تجربتهما السياسية في توحيد المجال. فالتجارة والتحكم في طرقها، كان ثابتا من بين ثوابت قيام الدول الوسيطية وسقوطها وقاسما مشتركا بينها، إلى الدرجة التي رأى فيها أحد الباحثين أن الدولة المركزية كانت دولة تجارية تقوم على احتكار الطرق، وبالتالي على التوسع وإزاحة كل منافس[1495]. وهو ما كنا قد أشرنا إليه ونحن بصدد تحديد "استراتيجية" تمهيد دخول المرابطين والموحدين في بداية دولتهم، حواضر المغرب الأقصى. فقد كانت عملية تمهيد المدن تسير جنبا إلى جنبا مع السيطرة على المحاور الطرقية الرئيسة بالمغرب الأقصى[1496]. وهنا لم يكن ليخفى الدور الاقتصادي لمناطق الجنوب والجنوب الشرقي في تاريخ المغرب منذ القديم. لكن مع المرابطين والموحدين ستخضع مجموع المسالك التجارية

(1492)ـ ابن سحنون، فتاوى ابن سحنون، م.س، ص5.
(1493)ـ ابن الأبار، المعجم، ص116-117. ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، ص331. ابن فرحون، الديباج، ص276- 277. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، م.س، ص260. ابن قنفذ، أنس الفقير، 107، ص108. ابن الزيات، التشوف، ص 93 و95 – 96 و106.
(1494)ـ أنظر التفاصيل في الفصل الأول من بحثنا: مقومات قيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين، المبحث الثاني: الحياة الدينية والثقافية والعلمية.
(1495)ـ بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ص70.
(1496)ـ القبلي، الدولة والولاية والمجال، ص77.

التي تربط بين السودان الغربي وبين بلاد المغارب لتنظيم محكم في إطار دول النظم، خاصة الموحدون الذين دفع وضع يدهم على الفضة والنحاس والحديد، بأحد الباحثين إلى التساؤل عن مدى ما شكلته مراقبة المناجم[1497] من حجر أساس في قيام الدول وسقوطها خلال العصر الوسيط[1498].

2- مقارنة تجليات التجربة الوحدوية زمن قوة سلطان المرابطين والموحدين

أ- في مجال المغرب الأقصى:

في إطار مقاربتنا السياسية - المجالية، لموضوع قيام وتطور التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين، عملنا على تحديد أهم المؤشرات والملامح الدالة على الأشواط والمراحل الصعبة التي مرت بها تجربة توحيد العدوتين والتي لا يبدو في إطار التصور التاريخي العلمي، أن عامل الصدفة كان له دور في هذا الموضوع. وقد وقفنا على معظم أوجه التشابه والاختلاف في هذا الموضوع من خلال ثلاث أبعاد مجالية.

ـــ وقد رصدنا من بين أهم مظاهر التشابه بين تجربة المرابطين وتجربة الموحدين في مستهل دعوتهم، الدور الفعال الذي كان لحواضر الجنوب الشرقي المغربي في البروز المرابطي والموحدي والتمكين لحكمهم. وقد ارتأينا التركيز على سجلماسة، هذه الحاضرة التي تميز دورها السياسي في مختلف أطوار قيام وأفول التجارب السياسية التي تعاقبت على أرض المغرب الأقصى حتى قبل تأسيس فاس. كما أصبح لهذه المدينة دورا مركزيا في ربط بلاد السودان بالداخل المغربي بداية من القرن الخامس الهجري (ق.11م). فالمدينة وفّرت القاعدة المادية للمرابطين والموحدين على السواء من حيث تنظيم التجارة الصحراوية والتحكم في طرق القوافل. وفي هذا الإطار لم يكن ليخفى الصلة الوثيقة بين سجلماسة ومدينة فاس التي ستصبح هدفا رئيسا للمرابطين والموحدين في خطتهم السياسية من أجل بسط النفوذ واحتكار مجال المغرب الأقصى كمجال محوري في بناء أركان التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي. وفي إطار تركيز المصادر على العلاقة التجارية القوية

(1497)ـ كونها من وجهة نظر بولقطيب « الأساس المحرك للتجارة القافلية برمتها» بولقطيب الحسين، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ص86.
(1498)ـ المرجع نفسه والصفحة.

بين الحواضر المغاربية طيلة حكم المرابطين والموحدين، تبرز قيمة وأهمية سجلماسة في ربط بلاد السودان حيث الذهب والعبيد[1499]، بفاس وتلمسان وبجاية والقيروان والمهدية وتونس[1500]. فسجلماسة[1501] كانت تتفرع منها الطرق التجارية من الصحراء إلى المغرب ومن المغرب إلى الصحراء[1502]. كما كانت موارد سجلماسة التجارية تحمل إلى الشرق عن طريق موانئ المغرب أو عن الطريق البري المؤدي إلى أفريقية[1503]. ولم يقتصر هذا الدور على المراحل التأسيسية للمرابطين والموحدين بل استمر كثابت من ثوابت قيام الدولة المركزية في بلاد المغرب الإسلامي.

الوجه الثاني للتشابه بين المرابطين والموحدين في تجربة تمهيد حواضر المغرب الأقصى وتوحيده، يمكن أن نرصده من خلال بُعدين اثنين: التحكم أولا في المجال الخصب وطرق التجارة والمناجم المعدنية على المستوى الاقتصادي، ثم التحكم ثانيا في المدن التي تتمتع بموقع "استراتيجي" بما يخدم عملية تأمين ظهر الحكام الجدد وبما يمكن أن تشكل كقاعدة إمداد لعملية "الفتح" من منظور المرابطين والموحدين أو "الغزو" من وجهة نظر سكان الحواضر والمجال التابع لها. وهنا يرى أحد الدارسين أن «الحركة المرابطية اتبعت في خط سيرها نحو الشمال أهم المدن التجارية وهي سجلماسة وتارودانت وأغمات وسهول تامسنا الغنية ثم فاس»[1504].

ولعل ما حسبته خطّا عكسيا اتخذه الموحدون طريقا لهم نحو العاصمة مراكش ــ لأجل إنهاء حكم المرابطين ــ انطلاقا من وهران كان محكوما بنفس هذا البُعد المادي. وهنا لا نتفق مع ما اعتاد بعض الباحثين ترويجه حول تحكّم ثنائية السهل والجبل في الصراع بين المرابطين والموحدين، وأنها أساس استراتيجية" المواجهة العسكرية بينهما. فإذا نحن استثنينا مرحلة تحصّن الموحدين بجبال دَرَن[1505] خلال ثورة ابن تومرت، وتركيز

(1499)ـ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص126، هامش الصفحة.
(1500)ـ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص841.
(1501)ـ الإدريسي، وصف إفريقيا، ص55. مجهول، الاستبصار، ص206.من سجلماسة إلى أزكي 13 مرحلة، ومن هذه الأخيرة إلى نول لمطة 7 مراحل. أنظر الإدريسي، نفسه، ص37.
(1502)ـ عز الدين جسوس، موقف الرعية، ص205.
(1503)ـ عبد المنعم حسنين، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس عصر المرابطين، ص351..
(1504)ـ بوتشيش، قراءة في التجربة الوحدوية المرابطية للغرب الإسلامي، م.س، ص75.
(1505)ـ المراكشي، المعجب، ص259.

المرابطين على استدراجهم نحو السهل، فإن حقيقة الصراع وحسمه تَمَّ داخل مجال المدن المغربية بما تحمله من أبعاد اقتصادية وسياسية.

ـــ أما وجه الاختلاف الرئيس بين المرابطين والموحدين في سياسة تمهيد واحتواء حواضر المغرب الأقصى الرئيسة، فقد تجلى في خُطّة احتلالها وطريقة إخضاع سكانها[1506]. فبينما كان انطلاق المرابطين نحو الداخل المغربي من العاصمة مراكش باتجاه فاس ثم تلمسان قبل إخضاع سبتة وطنجة، بطرق تراوحت بين سياسة اللين والشدة[1507] خاصة في فاس وطنجة. فإن الموحدين على العكس، بدءوا مشروع إسقاط حكم المرابطين بخطة عكسية، حيث انطلقوا من وهران وتلمسان اللتان تم إخضاعهما بطريقة «دموية» كما ذكرت بعض المصادر[1508]. وهو ما يفسر فيما نحسب الرفض الشعبي للموحدين، الذين ووجهوا بمقاومة أهالي المدن لهم. ومن هناك تم التوجه نحو فاس ومكناس ومحاصرتهما[1509]. قبل أن يتم اقتحام مراكش وقتل أفراد البيت المرابطي الحاكم[1510]. ويبدو أن الهاجس الذي تحكم في سياسة اقتحام المرابطين والموحدين الحواضر المغربية كان سياسيا بدرجة أولى، حيث انصب هدفهم على اعتراف حواضر المغرب الأقصى بحكمهم.

إلا أن النتيجة التي يمكننا الخروج بها من دراستنا المقارنة لعملية توحيد المجال المغربي وإخضاعه للسلطة المركزية المرابطية وبعدها السلطة الموحدية، هو أن الأمر اكتسى طابع التدرج في تحقيق الأهداف السياسية الخاصة بتجميع المجال في يد الدولة الحاكمة، عن طريق توظيف مجموعة من المدن المغربية «كقواعد فعلية لإقامة الحكم»[1511].

(1506)ـ استعمالنا لمصطلح " تمهيد " المرابطين والموحدين لمدن المغرب الأقصى، في إطار حملهم لمشروع سياسي يتعلق بتوحيد المجال وجعله تابعا للدولة المركزية بنظمها الجديدة. وإلا فإننا لا نغمض العين عن ضراوة دخول بعض المدن التي لم يكن إخضاعها إلا عن طريق السيف، خاصة زمن الموحدين.

(1507)ـ أشار ابن عذاري إلى هذا الأمر تحت ما أسماه قانون الضغط. البيان المغرب، ج4، ص22.

(1508)ـ المصدر نفسه ص23.مجهول، الحلل الموشية، ص135.

(1509)ـ يبدو أن الصعوبات التي وجدها المرابطون في إخضاع فاس لسلطانهم هو نفسه ما حصل مع الموحدين، لكن وجه الاختلاف يبرز في كون المرابطين كانوا يواجهون في مسارهم واقع انقسام مجال المغرب الأقصى بين عدة كيانات سياسية، كحكام فاس من مغراوة الزناتيون خلفاء حكام بني زيري، الذين استأثروا بحكم المدينة لأهميتها. بينما الموحدون وجدوا أمامهم حكما قائما في ظل حكم مركزي استطاع توحيد بلاد العدوتين ووقف ندا لنصارى الشمال والنورمان.

(1510)ـ ابن ابي زرع، القرطاس، ص138. ابن عذاري، البيان، قسم الموحدين، ص 27

(1511)ـ مجموعة مؤلفين؟؟؟، تحيين وتركيب، م.س، ص167.

ب- في المجال الأندلسي:

نحسب أن وجه التشابه في التوجه نحو الأندلس كأولوية، شكل القاسم المشترك بين المرابطين والموحدين كثابت في سياسة الدولة المغربية خلال العصر المغربي الوسيط. وذلك بالنظر لما ترمز إليه الأندلس في موضوع المشروعية وقوة الدولة المركزية في مراكش. هذا إلى جانب ما أصبح يمثله التواجد على أرض الأندلس من أمانة الذود عنها باعتبارها أرضا للجهاد ورمزا لوحدة مجتمع العدوتين[1512]. لكن يبدو أن مقدمات الدخول للأندلس اختلفت فيها دواعي استصراخ[1513] الأندلسيين بالمغاربة قصد التجند للجهاد[1514] الذي شكل ثابتا[1515] في سياسة الدولة المركزية زمن الحكم المرابطي والموحدي.

- فالبنسبة للمرابطين، أصبحت عملية الاستنجاد[1516] بهم من طرف الأندلسيين، والتي اتسمت بطابعها الشعبي والرسمي[1517]، مسألة وجود وليس حدود. في صراعهم ضد الممالك النصرانية. وقد عبّرت المصادر بكل وضوح عن أن الأندلسيين بمختلف شرائحهم، لما رأوْا أنفسهم بالجزيرة على طرف، وفي سبيل تمامٍ وتَلَفٍ[1518]، تواترت على أمير المسلمين في مراكش «الكتب بالاستصراخ لنصرة المسلمين ونفي العدو عن مخنق بلادهم» [1519]، خاصة بعد سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس عام 478هـ/ 1085م، وتهديده باحتلال الأندلس بكاملها.

(1512)- المصدر نفسه، ص 144.

(1513)- وضفنا مصطلح استصراخ الذي ورد عند صاحب التبيان، والذي يبرر توظيف الباحث محمد المرتضي في إشكالية أطروحته مصطلح " إنقاذ " مقابل مصطلح " استحواذ"

(1514)ـ البدراوي، إحراق كتاب الإحياء، 312-323. نقلا عن محمد المرتضي، الأندلس في سياسة الدولة المرابطية، م.س، ص77.

(1515)- المرتضي، الأندلس في سياسة الدولة المرابطية، م.س، ص44.

(1516)- اعتمدنا في بحثنا مصطلح الاستنجاد الذي يحمل معنى تقديم العون والمساعدة والدعم، ذلك لورود الاستجابة لنداء استنجاد الأندلسيين بهبة المرابطين « لنجدتهم ضد النصارى» المراكشي، المعجب، م.س، ص199.

(1517)- المراكشي،المعجب، م.س، ص199. ابن خلدون، العبر،ج4، ص203.وج6، ص248. ابن ابي زرع، القرطاس، ص 144. ابن بسام، م.س، 256- 255. مجهول، الحلل الموشية، ص33. ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص89- 90. عبد الله بن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله، ص125. الحميري، الروض المعطار، ص288.

(1518)- ابن بسام، الذخيرة، ج2، مج1، ص 254 - 255.

(1519)- عبد الله بن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب"التبيان"، ص144. ابن بسام، الذخيرة،م.س، ص254.

بالمقابل وجه الاختلاف زمن الموحدين في علاقتهم بالأندلس مُستهلّ حكمهم، تمثل في كون تمهيدها جاء في إطار عودة واقع الانقسام الداخلي، بعد الضعف الذي دب في جسم الدولة المرابطية[1520]. وإذا كان تمهيد الموحدين للأندلس في هذه الظروف، له علاقة بفرضية دور ثورة المريدين بزعامة ابن قِسِّي في دعوتهم لدخول الأندلس وحيازة ما كان تحت يد المرابطين. فإن رواية عبد الواحد المراكشي نفت هذا الطرح، عندما اعتبرت زعيم المريدين ابن قسّي منافسا للموحدين على الأندلس في بداية الأمر ومُدّعٍ للولاية. بل وأحد دعاة الفتن والضلالات المستفزون لعقول الجهال [1521]. وفي هذا الإطار ربط المراكشي بين حقيقة دخول الموحدين أرض الأندلس بانتشار دعوة المصامدة بالمغرب الأقصى، وتَشَوَّف أعيان مغرب الأندلس إليهم، فجعلوا يَفِدون في كل يوم عليهم، ويتنافسون في الهجرة إليهم، فدخل في ملكهم كثير من جزيرة الأندلس[1522]. إلا أن رأي المراكشي هذا يدخل فيما نحسبه كلاما عاما. ذلك أن بداية الاعتراف بالموحدين رسميا داخل الأندلس، يمكن أن نستقيه من إشارة مصدرية ذكر فيها ابن عذاري أن أول وفد أندلسي حل بمراكش كان في شهر ذي الحجة من عام إحدى وأربعين وخمسمائة[1523].

وقد تشكل هذا الوفد الأندلسي من النخبة العالمة الذين قدموا لعبد المؤمن «بيعة أهل اشبيلية، مشهودة بخطوطهم، فقبلها منهم واستحسن فِعلهم»[1524]. وهو ما نفهم منه حصول الموحدين على شرعية مبكّرة داخل الأندلس منذ سقوط مراكش بيدهم عام 541هـ/ 1146م. مما أسهم في تمهيد الطريق أمامهم ليس للجواز إلى الأندلس استنجادا بهم، على غرار ما حصل مع المرابطين في بداية أمرهم، ولكن من أجل أن يصبحوا حكاما "شرعيين" وليرثوا تركة المرابطين.

وفي إطار توجه فقهاء الأندلس إلى مراكش لتقديم بيعة أهل اشبيلية للخليفة عبد المؤمن عام 541هـ/ 1146م، يظهر لنا أن هناك نوع من التحامل من بعض المصادر التي تجعل

(1520)- وذلك إثر عملية جواز الجيوش المرابطَة بالأندلس بقيادة تاشفين بن علي نحو العدوة الجنوبية لأجل المواجهة الحاسمة ضد جيوش عبد المؤمن بنواحي وهران.
(1521)- المراكشي، المعجب، ص280 - 281.
(1522)- نفسه، ص281 .
(1523)- ابن عذاري، البيان المغرب (ق.الموحدين)، م.س، ص33.
(1524)- مؤلف اندلسي، الحلل، 148. ابن عذاري، م.س، الصفحة نفسها.

هاجس هؤلاء الفقهاء من وراء هذه البيعة الحفاظ على أموالهم وجاههم، كما تتحدث بذلك بعض المصادر[1525]. فالتجربة القاسية التي مرت بها الأندلس زمن حكم ملوك الطوائف المسلمين، من الممكن أن تجعل من أهداف الوفد الإشبيلي، الحرص على ضمان سلامة وحدة الأندلس من نتائج "فتنة جديدة" قامت معالمها قد بدأت خلال المرحلة الانتقالية. فقد «اضطرمت الأندلس في الحال بالثورة من أقصاها إلى أقصاها ضد المرابطين»[1526]، وهي المرحلة التي حسبَتها بعض الدراسات الحديثة مرحلة حكم طوائف ثانية[1527]. فضمان الوفد الأندلسي استمرار حماية العدوة الشمالية من طرف الحكام الجدد (الموحدون) فيه ضمان لمصالح المجتمع الأندلسي بكل فئاته مع هذه البيعة، التي تعني ضمان الدعم العسكري للدولة المركزية[1528]. خاصة وأن الممالك النصرانية استغلت فرصة ما يمكن أن نحسبه فراغا سياسيا خلال المراحل النهائية من الصراع المرابطي الموحدي، فبدأت تقضم أطرافا من أرض الأندلس.

وبالعودة إلى مرحلة مهمة من مراحل الوجود المرابطي في الأندلس، في إطار دراستنا المقارنة، وهي مرحلة اتخاذ قرار ضم الأندلس، فإن بعض المصادر[1529]، ربطت هذا الأمر بما نفهم منه عدم وجود إرادة سياسية لدى ملوك الطوائف من أجل توحيد صفهم من جهة، وقابليتهم لموالاة الممالك النصرانية من جهة ثانية. ففي علاقة مع هذه النقطة، أكد عبد الله بن بُلقين كشاهد من أهلها وأحد ملوك الطوائف، أن يوسف بن تاشفين بعد جوازه عام 483هـ/ 1090م، كان قد اجتمع بالمعتمد بن عباد «وسأله عمّا لَهِجَ الناس به من مداخلة الرومي، فشهد بذلك»[1530]. وصدرت في هذا الإطار فتوى من فقهاء الأندلس المالكيين منحت شرعية ضم المرابطين البلاد، بعد أن أصبحت طاعة ملوك الطوائف غير جائزة من وجهة نظرهم، لما ارتكبوه من الفجور وانتهاك المحارم وما ضيّعوه من

(1525)- ابن عذاري، م.س، ص34.
(1526)- أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، م.س، ص215.
(1527)- عصمت دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص9. (بالنسبة لمؤلفة الكتاب كانت هذه المرحلة الأكثر غموضا وتعقيدا في تاريخ المرابطين). المرجع نفسه والصفحة.
(1528)- المرجع نفسه، ص69
(1529)- ابن بُلقين، التبيان، ص147.
(1530)- المصدر نفسه والصفحة.

البلاد[1531]. وهو ما دفع يوسف بن تاشفين إلى خلعهم واحدا بعد الآخر. وهنا نصبح أمام حدث بارز يتعلق باكتمال عِقد التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين بإعلان توحيد العدوتين، وإعلان بدء مسلسل سقوط عواصم ملوك الطوائف بيد المرابطين. فدانت بذلك لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين الجزيرة بأجمعها وعُدّ حينها في جملة الملوك[1532]، بما أظهره من نكاية في العدو وحماية للثغور وهو ما أشعر أهل الأندلس حسب ابن الكردبوس بالأمن والطمأنينة وأثلج صدورهم، وأقرّ أعينهم، فزاد حب أهل الأندلس للمرابطين[1533]. وإذا كان يوسف بن تاشفين قد تمكن منذ 494هـ/ 1100م من توحيد الأندلس بكاملها تحت حكمه[1534]، فإن وجه الاختلاف زمن الموحدين يكمن في كون خضوع كامل التراب الأندلسي لسلطان الحكام الجدد لم يتسنّ لهم تحقيق وحدة الأندلس، إلا بعد إسقاط حكم بني مردنيش في الشرق زمن حكم الخليفة الثاني يوسف يعقوب.

وجه آخر للاختلاف بين تجربة المرابطين والموحدين في حكم الأندلس، جسده موضوع الجهاد ضد الممالك المسيحية، من حيث اعتماد الموحدين، أسلوب عقد هُدن مؤقتة مع الممالك المسيحية، والتي كانت تسمح للطرفين بترتيب أوضاعهما الداخلية. لكن في إطار ما نحسبه "دعاية" موحدية، في بعض الرسائل الديوانية الرسمية، نجد "الرسالة 29 من اشبيلية إلى مراكش بشأن توقيع هدنة مع النصارى"[1535]، زمن الخليفة الثاني يوسف يعقوب بن عبد المؤمن، تشير إلى طول مدة مكوث الخليفة الثاني بالأندلس بين سنوات 566هـ و571هـ، كرباط وجهاد لحسم داء الاجتياح النصراني وجمع كلمة الأندلسيين، إلى جانب مواجهة بني مردنيش[1536]. لكن الموضوع الرئيس كان يتعلق بعقد الخليفة هدنة مع البرتغال وقشتالة والذي عدّه الخليفة انتصارا سياسيا كبيرا، بعد أن تسابقت وفود الروم

(1531)- نفسه، ص148.
(1532)- المراكشي، المعجب، ص227.
(1533)- ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص107.
(1534)- دون سرقسطة، التي كانت تدين بالولاء للملثمين في ظل ما يمكن أن نحسبه <<استقلالا ذاتيا>> زمن يوسف بن تاشفين.إلى حين دخول المرابطين إليها زمن حكم علي بن يوسف، وهو ما يبدو لنا خطأ <<استراتيجيا>> ارتكبه المرابطون، غير مستشعرين فيما يبدو لنا القراءة السياسية للموضوع من طرف يوسف بن تاشفين.
(1535)- أحمد عزاوي، رسائل موحدية (م.ج)، ج.1، ص140. أنظر بعض تفاصيل الهدنة مع قشتالة والبرتغال، في رسائل موحدية (م.ج) ص144.
(1536)- نفس المصدر، ص141.

نحو الموحدين متضرّعين، وذلك وفق شروط أعطوها مسلِّمين مستسلمين[1537]. وقد أكدت هذه الرسالة على حجم الصدام بين الممالك النصرانية، والفُرقة والاختلاف في ذات بينهم[1538].

إذا كان وجه الاختلاف بين المرابطين والموحدين واضحا في حيثيات التحاق كل منهما بأرض الأندلس واختلاف سياستهما الداخلية بها، فإن وجه التشابه البارز بينهما تمثل في جعل الأندلس بعيدة المنال عن التبعية للممالك النصرانية لمدة زمنية طويلة. الأمر الذي تحقق معه الأمن النفسي الذي ساد أوساط المجتمع الأندلسي، حسب ما فهمناه من بعض الروايات المصدرية[1539]. وقد ظلت الأندلس تشكل أولوية للدولة المركزية في سياستها الأمنية طيلة عمر التجربة الوحدوية. ولعل الوجه المهم في معادلة دور فقهاء الأندلس في استمرار تجربة الوحدة، جسده تواجد فقهاء مالكيون في قلب القرار السياسي، الذي لم يقتصر على العصر المرابطي، بل تجاوزه إلى عصر الموحدين زمن التمكين. وهو ما خصصنا له مبحثا خاصا من الباب الثاني والذي أبرزنا من خلاله تواجد فقهاء المالكية في أهم خِطط دولة النظم الموحدية، والتي هي خطة القضاء. وهو الأمر الذي سمح لنا، بناء على إشكالية البحث، من الحديث عن استمرارية التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن الموحدين.

ت-في مجال صنهاجة الشمال (بنو حماد وبنو زيري):

ـــــ في إطار مقاربتنا السياسية المجالية لعلاقة الدولة المغربية خلال العصر الوسيط بمجال صنهاجة الشمال، ظهر لنا من خلال تفحّص المصادر التي اهتمت بهذا الموضوع وكذا آراء الدارسين، أن اختلاف سياسة المرابطين والموحدين اتجاه مجال بني حماد وبني زيري، اختلاف بارز تحكم فيه الفارق الزمني بين العصرين بظروفه السياسية المتحولة واختلاف نظام الحكم (إمارة المسلمين وإمارة المؤمنين).

(1537)- نفسه، ص141 -142.
(1538)- نفسه، ص142.
(1539)- ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص107.

فقبيل الزلاقة عام 479هـ/ 1086م، عمل المرابطون بعد توحيدهم لبلاد المغرب الأقصى، على اتخاذ تلمسان مركزا "استراتيجيا" لتأمين ظهرهم، بالنظر إلى التحدي الكبير الذي كان ينتظرهم في قادم الأيام، بعد ارتفاع أصوات الاستنجاد من الأندلس بيوسف بن تاشفين، بعد سقوط طليطلة عام 478هـ(1085م). وهنا ستصبح الأندلس أولوية للمرابطين في برنامجهم السياسي كأرض للجهاد. ولعل أولوية كهذه ستدفع المرابطين إلى تجنب الدخول في مواجهة عسكرية حاسمة ضد بني حماد بدافع ضم المجال المغاربي وتوحيده سياسيا. وهو ما يمكن أن نفسر به توقف توسع المرابطين داخل المغرب "الأوسط" في حدود جزائر بني مزغنة[1540]. ويبدو أن هذا التوسع كان على حساب زناتة التي تراجعت قبائلها نحو الصحراء. إلا أن وجود الملثمين على حدود دولة بني حماد الصنهاجيين يجعلنا أمام علما أن المصادر التي اعتمدناها لم تسعفنا في الحصول على ما يدعم فرضية الصدام العسكري، كما روج لذلك أحد الدارسين، حين تحدث عن استعانة الناصر الحمادي بالعرب وبكل من يمكن الاستعانة به من أجل التصدي للمرابطين[1541]، الذين – حسب نفس الباحث - كانوا بمثابة العدو الأول بالنسبة للحماديين[1542].

أما في مرحلة ما بعد الزلاقة وبعيدا عن جو انعدام الثقة واحتمالية حدوث صدام مسلح بين المرابطين وبني حماد، كان حدث وفاة الناصر عام 481هـ/ 1088م فرصة ليوسف بن تاشفين لتفعيل الجانب «الدبلوماسي» من خلال بعثه برسالة تعزية للمنصور الحمادي، بكل ما تعنيه من خلق جسور التواصل وحسن الجوار والتعاون، في علاقة مع المشروع السياسي الإصلاحي للمرابطين، الذي يهدف إلى تحقيق وحدة المسلمين من أجل التصدي لخطر نصارى الشمال والنورمان. لكن بعد قرار المرابطين توحيد بلاد العدوتين بناء على فتوى فقهاء الأندلس ابتداء من 484هـ/ 1091م وبداية إخضاع عواصم ملوك الطوائف في اتجاه ضم الأندلس لحكم المرابطين. سنجد أنفسنا أمام رسالة ثانية من يوسف بن تاشفين

(1540)- ابن خلدون، ج.7، ص62./ القبلي، تحيين تركيب، م.س، ص168/ ابن أبي زرع، القرطاس، ص136-137. أنظر ترجمة لمدينتي تِنس وجزائر بني مزغناي عند صاحب كتاب الاستبصار، ص 132 – 133

(1541) – عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، م.س، ص 180.

(1542)- نفسه، ص179.

للمنصور، تحمل طبيعة زجرية حسب ما فهمناه من مضمون الرسالة(1543)، بالنظر لما يبدو استغلال الحماديين لفرصة تكريس المرابطين حكمهم في الأندلس، فقاموا بهجوم مع حلفائهم العرب على المجال السيادي للمرابطين، وهذا ما استقينا بعض معانيه من الرسالة المذكورة والتي تحمل بين طياتها لهجة زجرية شديدة اتجاه المنصور الذي اشترى مَن اعتبرهم أمير المسلمين، ذؤبان العرب وصعاليكهم(1544)، الذين اشترى المنصور الحمادي ذممهم بالمال معتقدا أنهم جُنّته من المحاذير وحِماه دون المقادير(1545)، قاموا بهجوم مباغث على مجال المرابطين في الجهة الشرقية. وهنا نفهم من الرسالة المذكورة أن الحماديين كان لهم موقف سلبي من المرابطين وكانوا يسعون إلى إيذائهم(1546). ولهذا يرىأحد الدارسينأن المرابطين زمن يوسف بن تاشفين، تعاملوا بحيطة وحذر مع الجهة الشرقية المجاورة لمجالهم السيادي، وعملوا على إيقاف بني حماد وحلفائهم عند حدِّهم وردِّ كيدهم(1547).

لكن مع التغير الذي طرأ على رأس نظام حكم إمارة المسلمين بداية القرن السادس الهجري (ق.12م)، تحدّث البعض عن تغيّر في موقف الحماديين من المرابطين زمن علي بن يوسف بن تاشفين، والذي يوحي بتحسّن طرأ على علاقتهم بعد مرحلة حكم يوسف بن تاشفين. فحسب عبد الحليم عويس صاحب كتاب " دولة بني حماد " لم يَعُد هناك ما يثير الخلاف بين الحماديين والمرابطين، مع شعورهم المشترك بخطر الانبعاث الموحدي(1548). غير أن هذا التقارب المرابطي الحمادي - إذا كان قد تمّ بالفعل - لم نجد له أثرا في المصادر في حدود ما اطّلعنا عليه، إلا عند اشتداد وطأة جيوش الموحدين على المرابطين بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين عام537هـ/ 1142م، وقبل المعركة الحاسمة ضد جيوش تاشفين بن علي في منطقة تلمسان ووهران. فقد تحدث صاحب الحلل الموشية عن قيام

(1543)– وردت الرسالة المذكورة عند ابن بسام، القسم الثاني، ج1، من ص 257 إلى ص260 وعند ابن خاقان، في القلائد 309 – 311.
(1544)– ابن بسام، الذخيرة السنية، م.س، ق.2، ج1، ص259.
(1545)– نفس المصدر والصفحة.
(1546)– أنظر نص الرسالة كاملة عند ابن بسام، م.س، من ص 257 إلى ص260.
(1547)– حسن محمود، قيام دولة المرابطين، م.س، ص355.
(1548)- عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، م.س، ص183.

الأمير المرابطي بالنفير وكتب إلى الأقطار يستدعي أهلها، فوصله عسكر سجلماسة، وعسكر الإمداد من بجاية»(1549).

ـــــ أما بخصوص كيفية تدبير الموحدين علاقتهم، في إطار إمارة المؤمنين، بمجال صنهاجة الشمال بدءا ببني حماد، سيظهر عكس ما تعامل به المرابطون مع المجال الحمادي، أن نظرة عبد المؤمن للمجال الصنهاجي كانت تراوده فيه طموحات سياسية تتعلق بإخضاعه بالكامل لدولة الخلافة الجديدة. ولهذا اعتمد في تخطيطه لتحقيق هذا الهدف السرية التي أظهرت عدم وجود نية لدى الخليفة الموحدي الأول في ربط علاقة جوار وسلم مع حكام بجاية. فالظروف السياسية الجديدة في البلاد المغاربية، لم يكن فيها وجه للمقارنة بينها وبين الظروف التي تواجد فيها المرابطون على الساحة السياسية المغاربية والتي كان خلالها هاجسهم تجنب الدخول في مواجهات عسكرية ضد أي تحالف بين بني حماد وعرب إفريقية.

فبنو زيري تمت إزاحتهم عن المهدية من طرف نصارى النورمان منذ 543هـ/ 1148م. أما الوضع السياسي داخل المجال الحمادي كان يشهد تراجعا وضعفا، لا وجه فيه للتشابه مع الحيثيات التي تحكّمت في علاقة بني حماد بالمرابطين كأصحاب مشروح إصلاحي. فالموحدون كانت لهم تطلعات لاحتواء بلاد المغارب بكاملها والتحكم في أراضيها التي ستخضع ضمن دولة النظم الموحدية إلى ما عُرف بنظام التكسير(1550). ولعل هذا الهدف الوحدوي الكبير له علاقة بطبيعة نظام الحكم الموحدي الذي قدّم نفسه كخلافة إسلامية لا تعترف فيه بتبعية بلاد المغارب لأية خلافة في الشرق.

بدأ المشروع السياسي للموحدين في عملية إخضاع المجال المغاربي، عن طريق إجهاز عبد المؤمن على بجاية حضرة بني حماد عام 547هـ/ 1150م ــ زمن حكم آخر ملوكها يحيى بن عبد العزيز ــ وذلك بعد أن استقامت للخليفة الأول، حسب تعبير الرواية الموحدية

(1549)– مجهول، الحلل الموشية، م.س، ص 130-131/ أنظر محمد البركة، المجال واستراتيجية المشروع المرابطي، م.س، ص119.

(1550)ــ في عام 554هـ/ 1147م.أمر عبد المؤمن « بتكسير بلاد إفريقية والمغرب... بالفراسخ والأميال طولا وعرضا» ابن أبي زرع، القرطاس، ص 198 -199. وقد كان الهدف من ذلك ضبط وتنظيم عملية الخراج «وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق» نفسه، ص199.

الرسمية، الدنيا بعون الله والحمد لله[1551]. وهنا يكون عبد المؤمن قد استفاد من الضعف الذي أصبح عليه حال دولة بني حماد، بعد أن استنفذ حكامها طاقتهم في تحالفات خاسرة مع العرب داخل المجال الإفريقي على حساب الزيريين أبناء عمومتهم. كما أن عدم وجود تحالف قوي بين المرابطين وبني حماد، جعل الأخيرين هدفا سهلا للموحدين أصحاب العقيدة العسكرية المعتمدة على البطش بالمعارضين والمخالفين. لكن حسب ما ذكرت بعض المصادر فإن بجاية عاصمة الحماديين ستسقط في يد الموحدين دون مقاومة تذكر(1552) وذلك عام 547هـ/ 1150م.

أما بالنسبة لإفريقية وبناء على ما زوّدتنا به بعض مصادرنا الرئيسة(1553)، كنا قد أشرنا إلى ما يفيد سيادة روح التعاون والتضامن المغاربي، وذلك من خلال ما قدمه المرابطون من دعم عسكري لحكام المهدية زمن حكم علي والحسن من بني زيري. فالثوابت المغاربية جعلت من المنطقة مجالا واحدا لا حدود تحكمه. لكن مع ظهور الموحدين أصبحنا أمام مشهد سياسي مغاربي جديد اندثر خلاله حكم بني زيري بعد احتلال المهدية، التي سيعمل الموحدون على تحريرها من يد النورمان وطردهم من كل السواحل الإفريقية[1554] بعد أن تم القضاء على كل الكيانات السياسية الصغيرة التي تتوزع المجال الإفريقي. وبناء عليه سيصبح المجال المغاربي كله في قبضة الموحدين، الذين كان هاجسهم السياسي يرتكز على عدم الاعتراف بأية خلافة أخرى لا في الشرق ولا في الغرب. تحديات التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين.

ـــــ وفي إطار تقييم تجربة توحيد المرابطين الموحدين للغرب الإسلامي، فإن هذه التجربة السياسية في توحيد هذا المجال الشاسع، اصطدمت كغيرها من التجارب السياسية

(1551)ـــ البيدق، أخبار المهدي، م.س، ص69.
(1552)ـــ البيدق، أخبار المهدي، م.س، ص69. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج.9، ص372. النويري (ت 733هـ)، نهاية الأرب، ج24، ص167. .
(1553)ـــ ابن خلدون، ج6، ص214 - 215 / ابن الأثير، الكامل، ج.9، ص170. ابن عذاري، البيان، ج4، ص67. التيجاني، الرحلة، ص335 - 338- 339- 340.
(1554)ـــ ابن الأثير، الكامل، ج.9، ص 428. وقد أشار صاحب البيان إلى أن عبد المؤمن في حربه على المهدية، أمر « بقتال الكفرة ورَماهم بالحجارة نهارا وليلا وأرسل عليهم من سحائب السِّهام وابلا..» ابن عذاري، البيان، (ق. الموحدين)، ص62.

عبر التاريخ بمجموعة من المشاكل والتحديات التي أثرت بشكل من الأشكال في التطور الإيجابي الذي حققته الدولة المركزية في مسارها السياسي والاجتماعي العام.

في هذا الإطار نرى أن الأندلس كأولوية وقاسم مشترك بين المرابطين والموحدين، شكلت عبئا سياسيا وعسكريا، أدى ثمنه المرابطون في مرحلة أولى. فالحفاظ على أمن العدوة الشمالية استنزف قوتهم، وذلك بالنظر إلى ما كان يتطلبه الأمر من يقظة وجاهزية لترتيب الأوضاع الداخلية، وتنظيم الجبهة العسكرية وتحديد أوقات عمليات جهاد الممالك النصرانية في حربهم المستمرة ضد المسلمين، والحدّ من الفتن التي كان يقف وراءها النصارى المُعاهدون. ولعل دليلنا في ذلك أنه كان بإمكان المرابطين إجهاض ثورة المهدي بن تومرت في مهدها[1555]، لولا أنهم واجهوا أنصاره بإمكانيات عسكرية ضعيفة بالنظر لتركز أغلب الجيوش المرابطية بالأندلس.

ـــــ بالمقابل ونحن نتحدث عن حجم التحديات الكبرى التي واجهت السير العادي للتجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي، تبين لنا أن التحدي الكبير الذي واجهه الموحدون تمثل في المجال الإفريقي الذي نحسبه أحد الأسباب الرئيسة في استنزاف قوة الموحدين العسكرية(1556). فإلى جانب ما اشتهر به عصرهم من كثرة الأزمات والكوارث الطبيعية التي أثرت بشكل كبير على ميزانية الدولة، مما سيسهم في استنزاف الرعية بفعل سياسة استفحال المغارم المجحفة[1557]. سيكون الموحدون مضطرين إلى الحد من مشاكل العرب الذين ظهر منهم إفساد ببعض نواحي إفريقية[1558]. لكن ما إن انتهوا من مشاكل العرب حتى وجدوا أنفسهم أمام عدو جديد تمثل في بني غانية(1559)الذين أربكوا الدولة الموحدية طيلة النصف الثاني من القرن السادس الهجري (ق.12م). قبل أن تشكل هزيمة العقاب 609هـ/ 1212م، بداية النهاية بالنسبة لدولة الموحدين.

(1555)ـ نحسب أن انشغال المرابطين بقضايا الأندلس، كان وراء استفحال دعوة المهدي بن تومرت وثورته المسلحة في وجه المرابطين، والتي كانت وراء تقويض مشروعهم السياسي الوحدوي.

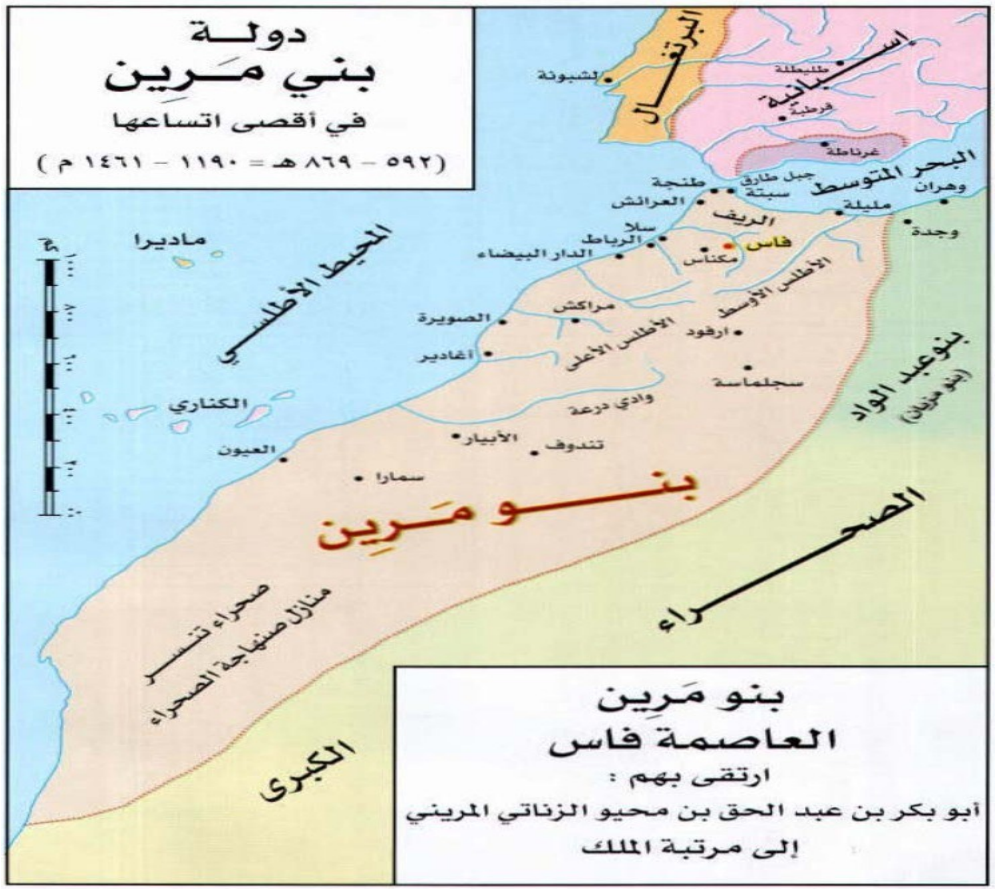
(1556)– مشاكل العرب في إفريقية والتحدي الذي شكله بنو غانية في وجه الخلفاء الموحدين زمن قوة الدولة.

(1557)– الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ص110.

(1558)ـ المراكشي، المعجب ص346.

(1559)– ابن خلدون، ج6، ص327. المراكشي، المعجب، ص342. النويري، نهاية الإرب، ج24، ص181.

وللحد من مشكل بُعد المركز عن أطراف الإمبراطورية الموحدية، انتهى المطاف بالموحدين إلى إسناد حكم إفريقية للحفصيين في إطار ما يمكن أن نسميه «استقلالا ذاتيا»(1560). قبل أن يعلن الحفصيون في وقت سريان الضعف، انفصالهم نهائيا عن الموحدين(1561). ومن ثَمّ سيبدأ تراجع قوة الموحدين وتآكل أطراف الإمبراطورية. خاصة بعد تراكم مجموعة من المشاكل السياسية المتعلقة بالبيت الداخلي والصراع حول الحكم، إلى جانب المشاكل الاقتصادية والأزمات الطبيعية. تلك المشاكل التي أسهمت مجتمعة في أفول نجم الدولة الموحدية ومعها بداية النهاية لتجربة وحدوية استطاع خلالها المرابطون والموحدون تثبيت تواجد المسلمين في الأندلس لعدة قرون رغم التكالب الكبير للممالك المسيحية عليها



الخريطة رقم (6):

المرجع: شوقي أبو خليل، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ص80

(1560)– فقد تقلص مجال الدولة المغربية في بلاد الأندلس وكذا في إفريقية، هذه الأخيرة التي سينفصل فيها حكم الحفصيين عن مراكش. بكل ما يعنيه ذلك من اقتطاع موارد مهمة من المداخيل العامة للدولة الموحدية.

(1561)– بكل ما يعنيه ذلك من اقتطاع موارد مهمة من المداخيل العامة للدولة الموحدية.

ورغم ما أبداه بنو مرين من إرادة سياسية لتثبيت تجربة وحدة العدوتين، إلا أن المتغيرات التي حدثت داخل العدوة الجنوبية وتتابع مسلسل تقلص المجال السياسي للمسلمين في الأندلس الذي اقتصر في آخر المطاف على إمارة بني الأحمر في إقليم غرناطة. كان مؤذنا بأفول تجربة الدولة المركزية في مراكش وفاس في الحفاظ على السيادة الإسلامية داخل العدة الشمالية. لنجد أنفسنا أمام مسلسل جديد من تعدد أنظمة الحكم داخل العدوة الجنوبية، حيث سترجع البلاد المغاربية إلى عقدتها الأولى التي سماها أحد الباحثين عقدة التجزئة[1562]. وقد اعتبر محقق كتاب "تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية"، المرحلة التاريخية التي تلت التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين» أقسى عصر على العالم الإسلامي كله، حيث فقد الاتصال بين أجزائه وصار ملوكه بعضهم لبعض عدو، لا ينظر إلا في التوسع على حساب جيرانه غير شاعر بالأخطار الخارجية التي بدأت تهدد الجميع ولا بالنُّذُر المُؤذنة بالمكاره وسوء العاقبة»[1563]. ويظهر لنا في إطار علاقة ربط الحاضر بالماضي، أن عقدة التجزئة هذه هي التي ستجعل القابلية[1564] لدى المكون البشري لبلاد المغرب "العربي" خلال القرن التاسع عشر الميلادي، لكي تخضع شعوبه للاحتلال الأجنبي بفعل الهجمة "الإمبريالية" والجشع الرأسمالي.

أختم موضوع أوجه التشابه والاختلاف الخاص بالمشاكل والتحديات الكبرى التي واجهت التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي، بفكرة مفادها أنه بالقدر الذي أصبحت فيه الأندلس قدر الدولة المغربية وثابت مشترك بين المرابطين والموحدين، وجزئيا المرينيين، في حمايتها كجزء لا يتجزأ من جسم العدوة الجنوبية، وكمكون حضاري لا زالت آثاره المادية شاهدة عليه لحد الساعة. بالقدر الذي كان المكون البشري الأندلسي في جزء منه، يتعامل وفق ما بدا لنا، مع الدولة المغربية الحامية بنوع من "النفعية"، والاستعلاء الثقافي

(1562)ــ أنظر علي الشامي، الصحراء الغربية، عقدة التجزئة في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر، بيروت - لبنان، 1980. لعل ظهور الدولة الحفصية هو مظهر من مظاهر عودة واقع التجزئة داخل بلاد المغارب ــ رغم القوة التي ظهرت بها في أول عهدها ــ كعقدة رافقت تاريخ دول شمال إفريقيا منذ ذلك التاريخ رغم ما يجمع «شعوبها» من ثوابت الدين واللغة والثقافة والجغرافيا والظروف المناخية.. .

(1563)ــ الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضود، المكتبة العتيقة - تونس، 1966، ط.2، مقدمة المصدر ص: (حرف الجيم).

(1564)ــ كاستجابة واستعداد نفسي للتبعية والانصهار في الآخر: أنظر مقال عمتوت كمال، القابلية للاستعمار وتهديدها للأمن الثقافي من منظور مالك بن نبي، مجلة العلوم القانونية، علمية دولية محكمة، جامعة زيان عاشور بالجلفة ــ الجزائر، ع.4، 2020، صص: 345-358.

والحضاري، مع استعداد نفسي وميل للارتماء في أحضان الممالك النصرانية. وهنا سأجازف ــ حين سأكون بصدد إتمام هذا العمل بعد مرحلة "المناقشة"، في موضوع عوامل أفول تجربة وحدة الغرب الإسلامي ــ حين سأضع فرضية تكون منطلق بحث جديد والتي سيكون منطلقي فيها أن الأندلس، التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من بلاد العدوة الجنوبية زمن المرابطين والموحدين وبشكل جزئي زمن بني مرين، شكلت أحد الأسباب الرئيسة في زوال حكم المرابطين والموحدين بسبب ما شكلته من عبئ على كاهل خلفاء المرابطين والموحدين باعتبارها ساحة حرب استنزاف، طويلة المدى بين المسلمين ونصارى الشمال، من جهة. أما من جهة ثانية فإن هذا الضغط الكبير الذي مارسته الممالك النصرانية على الأندلس لم يكن ليشكل عامل استنزاف للمرابطين والموحدين، لولا دور تفكك المجتمع الأندلسي بسبب الفساد الأخلاقي وقابليته للهزيمة نفسيا.

خلاصة عامة :

يظهر أن اختلاف سياسة المرابطين والموحدين إزاء مجال صنهاجة الشمال لم يعدم وجود أوجه تشابه عديدة بين دور المرابطين والموحدين في تحقيق أول تجربة سياسية وحدوية ببلاد الغرب الإسلامي، الذي يحلو لبعض الدارسين الغربيين إطلاق صفة المجال "الإمبراطوري" عليها. والذي تجسدت داخله سيادة المغاربة لقرون عديدة بكل الأبعاد السياسية والاقتصادية والحضارية، والذي جعل من مراكش حاضرة عالمية ضاهت مكانة بغداد والقاهرة. ولعل النتيجة الرئيسة التي أمكننا الخروج بها من قيام وتطور التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين، يمكن تلخيصها في كون المغرب الأقصى شكّل القاعدة الرئيسة لانطلاق هذه التجربة السياسية خلال العصر الإسلامي الوسيط، والتي أسهمت في جمع شمل مجال الغرب الإسلامي لعدة قرون، بكل ما خلّفته وراءها من إرث حضاري لازالت معالمه المادية شاهدة عليه في جميع أنحاء بلاد العدوتين. ووفق ما حدّدناه في الإشكالية الرئيسة للبحث، يظهر من خلال هذه الدراسة المقارنة أننا أمام وجهين لعملة واحدة في الحكم، والذي ظلت ترمز فيه مراكش لاستمرارية وحدة بلاد الغرب الإسلامي وتطور نظام الدولة المركزية، مع بطبيعة الحال اختلاف امتداد

مجال السيادة وفق ما جسدته الهندسة العمودية لمجال الغرب الإسلامي زمن المرابطين والهندسة الأفقية زمن الموحدين.

خاتمة

حاولنا من خلال هذا البحث دراسة موضوع التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين، في إطار مقاربة سياسية همت اتساع مجال هذه التجربة السياسية على مستوى ما تحقق من وحدة مجالية، وذلك من خلال ثلاثة منطلقات رئيسة ترجمناها في ثلاثة أبواب موزعة على فصول ومباحث.

المنطلق الأول يتعلق بما حسبناه أرضية لولادة التجربة الوحدوية، التي أصبح خلالها المغرب "الأقصى" مركزا لقيامها زمن المرابطين وتطورها زمن الموحدين. هذه الأرضية جسدناها في دور الأدارسة الذين وضعوا الأسس الأولى لما يمكن أن يحسب مشروعا سياسيا وحدويا يهُمّ تجميع أجزاء مهمة من بلاد المغرب "الأقصى" تحت حكمهم. وهو مؤشر بدا لنا دليلا على إمكانية تشكُّل وعي مبكر لدى المكون القبلي المحلي بضرورة توحيد صفهم من خلال الالتفاف حول أفراد من أل البيت. أما المنطلق الثاني في هذه الأرضية فيتمثل في تناولنا لأهم أحداث السياق التاريخي داخل مجال الغرب الإسلامي، وذلك في إطار دراسة مقارنة تحدد أهم معالم الوضع السياسي داخل مجال الغرب الإسلامي قبل بروز المرابطين أولا ومقارنته بالوضع قبل ظهور الموحدين.

بالنسبة للمنطلق الثالث كان هاجسنا فيه متركزا على إبراز علاقة المقومات التي هيأت الأرضية للمرابطين وبعدهم الموحدين لحكم الغرب الإسلامي، بمراحل قيام التجربة الوحدوية وتطورها، من خلال إبراز مختلف تجلياتها السياسية والاجتماعية داخل هذا المجال الذي نعته دارسون ب"الإمبراطوري". ذلك أنه لا يمكن أن يخفى في هذا المقام دور ما نحسبه ثوابتا لمجتمع الغرب الإسلامي، التي ظلت تفعل فعلها في كل الأحداث التي شهدتها أرض بلاد العدوتين، والتي أسهمت كأرضية صلبة في التطور السياسي للمنطقة. وقد كان المغرب الأقصى نقطة ارتكاز لنشأة وتطور هذا المشروع السياسي آنذاك، وهو الذي ظل يعيش مفعولا به من مختلف القوى السياسية المتنافسة، إذ أسهموا في ترسيخ

التجزئة والتقسيم داخله. ليتحول المغرب الأقصى زمن التجربة الوحدوية زمن الحكم المرابطي والموحدي إلى فاعل حقيقي بعد أن تم القضاء على معظم الدويلات والإمارات الصغيرة، ومدافعة نصارى الشمال والنورمان في الأندلس وإفريقية ضمن حركة الجهاد.

ولعل من أهم مظاهر انتقال المنطقة إلى مرحلة خوض تجربتها السياسية الوحدوية، دور المرابطين أولا في عملية تمهيد حواضر المغرب الأقصى الكبيرة، والتي دامت حوالي عقدين من الزمن من بعد تأسيس مراكش عام 454هـ(1061م). إذ تمكن خلالها المرابطون من تدشين واقع سياسي جديد على أنقاض التجزئة السياسية والانقسام المجتمعي وبلوغ بلاد المغرب الأقصى مرحلة النضج السياسي. هذا النضج لن يتوقف عند هذا الحد بل ودخل المرابطون معادلة مجالية جديدة، بعد أن تم الانتقال من مرحلة توحيد بلاد المغرب الأقصى إلى قيادة عملية الجهاد في الأندلس، بعد عجز ملوك الطوائف كبح مسلسل استباحة الممالك النصرانية للمجال الأندلسي. وقد جسدت معركة الزلاقة رمزا في توحيد المغاربة والأندلسيين، قبل أن يتحول الأمر إلى توحيد الغرب الإسلامي سياسيا، بعد فتوى فقهاء المالكية التي طالبت يوسف بن تاشفين بإسقاط نظام حكم ملوك الطوائف.

في هذا الإطار كنا قد طرحنا فرضية تهم مدى مساهمة فقهاء المالكية في تمهيد حواضر المغرب"الأقصى" ثم دورهم في توحيد بلاد العدوتين، والذي سمح لنا بالحديث عن وحدة الغرب الإسلامي. وإذا كنا قد خرجنا بخلاصة حول علاقة المرابطين بالفقهاء المالكيين في التأسيس لسيطرة ملثمي الصحراء على حواضر المغرب "الأقصى"، وهو أن المصادر التي اعتمدناها لم تفدنا كثيرا عن أدوار سياسية واضحة للفقهاء المالكيين المتواجدين بالحواضر المغربية الكبرى خلال مرحلة اقتحامها من خلال المرابطين. لكن بالمقابل عثرنا داخل مصادرنا على مادة خصبة حول الأدوار السياسية الكبرى التي لعبها فقهاء المالكية في الأندلس، انطلاقا من مسلسل الاستنجاد بالمرابطين بعد سقوط طليطلة إلى إصدار فتوى إزاحة ملوك الطوائف عن الحكم، إلى تحكمهم في القرار السياسي داخل الغرب الإسلامي.

بالمقابل تجربة وحدة الغرب الإسلامي زمن الموحدين لم تتأثر كثيرا "بالانقلاب" الذي أحدثه المصامدة على المرابطين، إذ ظل البلد يعيش على وقع وحدته السياسية، رغم ما ميز

المرحلة الانتقالية (ما يطلق عليه عصر ملوك الطوائف الثاني) من اندلاع ثورات بعد سقوط مراكش، أبرزها ثورة الماسي. أما الأندلس فقد أصبحت في حكم إرث تركة المرابطين، خاصة وأن جواز الموحدين إلى العدوة الشمالية اكتسب شرعيته فيما نحسب من وجهين، **الأول** تمثل في مسارعة النخبة العالمة من فقهاء المالكية والأعيان إلى تقديم البيعة لعبد المؤمن في مراكش مباشرة بعد سقوطها في يده. وكنا قد اعتمدنا مبدأ تأويل مضمرات تلك البيعة في بعدها السياسي الأمني، وذلك من خلال محاولة إبراز سعي الفقهاء إلى الحكام الجدد، في اتجاه حماية الأندلس من شر الممالك المسيحية حتى لا تعود البلاد إلى سابق عهدها أيام الطوائف وهو ما يهدد مناصبهم ومصالحهم ووجود المجتمع الأندلسي بكامله. أما **الوجه الثاني** للشرعية فقد تمثل في حملهم راية الجهاد في وجه الممالك المسيحية التي احتلت الكثير من المدن الأندلسية خلال المرحلة الانتقالية، مستغلة الفراغ السياسي الذي أحدثه عبور جيوش المرابطين نحو عدوة المغرب لمواجهة عبد المؤمن في منطقة تلمسان ووهران. قبل أن يحسم الموحدون أمر الأندلس بإسقاط حكم بني مردنيش من جهة، والدخول في مواجهة مباشرة ضد الممالك المسيحية والتي تكللت بالنصر التاريخي يوم الأرك 591هـ(1195م).

وفي إطار المراحل التي عبرتها التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين على المستوى المغاربي، ناقشنا علاقة الدولة المركزية وحاضرتها مراكش خلال العصر المرابطي والعصر الموحدي، بالمجال المغاربي واختلاف زاوية الرؤية السياسية لحكام كلتا العصبيتين، لما للأمر من علاقة بموضوع إمارة المسلمين زمن حكم صنهاجة الجنوب وإمارة المؤمنين زمن حكم مصامدة "الأطلس".

وإذا كان المرابطون قد وصل توسعهم شرقا إلى حدود جزائر بني مزغنة واعتبار تلمسان حاضرة لجهة الشرق، فإن علاقتهم ببني حماد شابها الكثير من الغموض، وذلك بسبب عدم عثورنا داخل المصادر التي اعتمدناها، على علاقة واضحة المعالم (سلما أوحربا) إلا في حدود ضيقة. مما وضعنا أمام صعوبة الحسم في الفرضية التي تساءلنا فيها، أولا عن الأسباب التي وقفت وراء عدم اكتساح المرابطين وهُم في عز قوتهم، مجال بني حماد،

الذين كانوا غارقين في صراع مستديم ضد بني عمومتهم من بني زيري في إفريقية، وكذا مشكل تهديد عرب مصر لبني حماد في القلعة في إطار الأحلاف التي شهدتها هذه المرحلة. وعلى عكس هذا المنطق تساءلنا عن الظروف التي لم تسمح بتكوين حلف صنهاجي شمالي- جنوبي، يمكن أن يوحّد البلاد المغاربية سياسيا ويتصدى بقوة للخطر النورماني شرقا، إلى جانب تقوية الصف لما يخدم تثبيت تجربة توحيد الغرب الإسلامي بعد حدث الزلاقة.

ولعل أهم ما استنتجناه من خلال ما وفرته لنا مصادرنا وتحليلات بعض الدارسين، أن أولوية المرابطين في موضوع التجربة الوحدوية تمثلت في تكريس وجودهم بالأندلس والحرص على حماية ظهرهم شرقا بأن جعلوا من تلمسان قاعدتهم الخلفية لحامية أمن الدولة المرابطية. بينما أولوية بني حماد تمثلت في ترسيخ نفوذهم داخل مجال بني عمومتهم بني زيري، الذين تقلص نفوذهم في إفريقية بسبب متاعبهم مع العرب ونصارى النورمان. وهنا ذكّرت بموقف بعض الباحثين الذين تحدثوا عن "حرب باردة" ظلت قائمة بين المرابطين وبني حماد. لكن مع وصول الموحدين إلى الحكم في مراكش كانت خطتهم المتعلقة بتمهيد مجال بني حماد واضحة بالنظر لنظام حكمهم، الذي قام على أساس خلافة إسلامية لا تعترف بالخلافة العباسية في الشرق الإسلامي، والذي تزامن مع بداية الضعف داخل جسم الدولة الحمادية التي أصبحت هدف الموحدين الأول بعد تثبيت رجلهم في الأندلس.

ومن خلال ما اجتمع لدينا من معطيات خلصنا إلى اعتبار التجربة الوحدوية التي شهدها مجال الغرب الإسلامي على أيدي المرابطين والموحدين هي تجربة واحدة، سواء من خلال ما تحقق على مستوى البُعد الرمزي للدعم الذي تلقاه الزيريون زمن الحسن بن علي من المرابطين، أو على مستوى تمكن الموحدين من استرجاع المهدية من نصارى النورمان وطردهم نهائيا عن شواطئ إفريقية عام الأخماس (555هـ/ 1158م).

أشير في النهاية إلى أن موضوع بحثنا لن يكتمل مشهده السياسي الخاص بمجتمع الغرب الإسلامي ـ والذي سيكون محور دراسة في المستقبل القريب ـ إلا من خلال الوقوف على

بعض الأسباب القوية التي كانت وراء أفول التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين ـــ وليس أفول الدولة المركزية كما يعتقد البعض ـــ تلك الأسباب التي لن ننح فيها المنحى التقليدي الذي يركز على دور عوامل الصراع حول الحكم والثورات الاجتماعية والأزمات الطبيعية ـــ والتي بطبيعة الحال لا ننكرها ـــ بل سنتوجه بتلك الأسباب إلى الدور الخطير للعوامل النفسية والأخلاقية في اختراق مناعة مجتمع الغرب الإسلامي بمعظم فئاته، مع تركيزنا على الأندلس ودورها في التسبب في إضعاف شوكة الحكم المرابطي والموحدي وتسهيل مهمة الممالك النصرانية التي مارست ضغطا كبيرا لتحقيق هدف طرد المسلمين من الأندلس، والتي بسقوطها بدأ مسلسل الضغط "المسيحي" يتوجه نحو السيطرة على مجال انطلاق التجربة الوحدوية كهاجس رافق ملوك أوربا المسيحية إلى أن تم سقوط غرناطة أواخر الق. رن 9هـ5 ق.15م).

وهنا سيبدأ فصل جديد في علاقة الضفة الشمالية للبحر المتوسط بالضفة الجنوبية التي تعرضت خلال القرون الموالية لاحتلال شواطئها ومدنها من طرف الإسبان والبرتغاليين ثم الفرنسيين والإنجليز. ورغم أن الدولة المركزية زمن بني مرين والسعديين ثم العلويين تصدت بقوة للمد المسيحي في إطار حرب تحرير تحت راية الجهاد، إلا أن بلدان الضفة الجنوبية للبحر المتوسط أصبحت خلال القرن التاسع عشر الميلادي مسرحا لتسابق محموم بين الدول الأوربية بعد الثورة الصناعية والثورة الفرنسية على مجال ما بعد البحار، لتجد شعوب المنطقة نفسها أمام هجمة إمبريالية استعمارية، أدخلتها في صراع جديد ضمن علاقات جديدة جعلت الغالب يفرض قوانينه على المغلوب وفق ما تحدث عنه ابن خلدون. ورغم حروب التحرير التي خاضتها المقاومة المسلحة على الصعيد المغاربي والتي انتهت باستقلال بلدانها في أجواء الحرب الباردة بين معسكرين شرقي وغربي، إلا أن الدول الاستعمارية لم تفك الارتباط بهذه المنطقة الحيوية، وذلك من خلال خلق مشكلة الحدود بين الدول المغاربية، والتي أبطأت مسيرة التحرر والوحدة المغاربية، وهو ما يخول لنا كباحثين الحق في النبش عن سنن النزول والهبوط في علاقتنا مع الأوربي بالرجوع إلى إحياء الذاكرة التاريخية للأجيال المقبلة لتحديد العلاقة الجدلية بين الماضي والحاضر، وإذا فهمنا جيدا هذه العلاقة سنكون واعين بحتمية إعادة التفكير في صياغة آليات جديدة لحسم علاقتنا

مع الآخر الذي لا يعترف إلا بالقوي، ولعل أول شروط قوتنا تحقيق حلم وحدة المغرب العربي – الأمازيغي كاتحاد يمكن أن يوفر شروط وضح حد لمسلسل التبعية للدول الاستعمارية بفعل مشكل نفسي خطير يتعلق بموضوع القابلية للاستعمار بتعبير المفكر الجزائري مالك بن نبي.

الملاحق

الملحق الأول:

جدول للحملات العسكرية التي قادها تاشفين بن علي داخل الأندلس في التصدي لانتهاكات ملوك الممالك النصرانية لمجال المسلمين خلال المرحلة الممتدة بين 520هـ/ 1126م و531هـ/ 1137م

الرقم	السنة	الحملة العسكرية	الإشارة المصدرية
1	520هـ/ 1126م	الانتصار في معركة فحص الصباب، وفتح ثلاثين حصنا في غرب الأندلس.	«هزم الأمير تاشفين النصارى بفحص الصباب وقتلهم قتلا ذريعا، وفتح ثلاثين حصنا من حصون بلاد الغرب، وكتب بالفتح إلى أبيه»(1565).
2	524هـ/ 1130م	فتح حصن السكة في أعمال طليطُلة.	«خرج الأمير تاشفين في رمضان عام أربعة وعشرين وخمسمائة بجيش غرناطة ومطوعتها، واتصل به جيش قرطبة إلى حصن السِّكة من عمل طليطُلة ... فافتتحه عنوة وقتل من كان به»(1566).
3	524هـ/ 1130م	صد حملة عسكرية كانت موجهة ضد قرطبة.	«وفي سنة أربع وخمسمائة استصرخ صاحب قرطبة الأمير تاشفين، والعدو مصمم نحوها، فبادر إليها فارتدع العدو عنها ورجع عوده على بدئه»(1567).
4	526هـ/ 1132م	الانتصار في معركة بطليطُلة وبث الرعب في بشنت إشطيبن والوادي الأحمر.	«وفي ربيع الأول من عام ستة وعشرين، تعرف خروج عدو طليطُلة إلى قرطبة؛ فبادر الأمير تاشفين إلى قرطبة ثم نهد (أي برز) إلى العدو في خفّ، وترك السيقة والثقل بأرجوانة. وقد اكتسح العدو بشنت إشطيبن (San Esteban)والوادي الأحمر»(1568).
5	أواخر عام 526هـ/ 1132م	الانتصار في معركة بناحية بطليوس وباجة ويابرة.	«وقد قصد (الأمير تاشفين) ناحية بطليوس وباجة ويابرة في ألف عديدة من أنجاد الرجال، ومشهود الأبطال...، فظفر بما لا يحصيه أحد ولا يقع عليه عدد»(1569).

(1565)- ابن أبي زرع، روض القرطاس، م س، ص: 164.
(1566)- ابن الخطيب، الاحاطة، م س، ج1، ص: 451. وقد أورد ابن عذاري كلاما مضطربا حول هذه الحملة. راجع: ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق إحسان عباس، م س، ج 4، ص: 80 – 81 (الهامش الأول).
(1567)- ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق إحسان عباس، م س، ج 4، ص: 80 – 81.
(1568)- ابن الخطيب، الاحاطة، م س، ج1، ص: 451. ويقول صاحب "البيان المغرب" عن هذه الحملة العسكرية: «وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة اتصل الخبر بالأمير تاشفين بن علي بن يوسف أن العدو خرج من طليطُلة إلى جهة قرطبة فاستمد الامداد، واستعد غاية الاستعداد، وخرج إلى الجهاد فدارت الحرب على الروم وأخذ السيف مأخذه منهم وقبض على قائدهم وعلى عشرين من زعمائهم وامتلأت أيدي المسلمين من أسلحتهم وزيهم ودوابهم». ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق إحسان عباس، م س، ج 4، ص: 85.
(1569)- ابن الخطيب، الاحاطة، م س، ج1، ص: 452.

6	528هـ/ 1133م	قيادة معركة البكار التي انهزم فيها المرابطون بشمال قرطبة.	«وفي هذه السنة وهي سنة ثمان وعشرين أغزى تاشفين الروم وهي غزوة البكار كانت على المسلمين»[1570].
7	528هـ/ 1133م	دخول قنطرة محمود بعد الانتصار على النصارى.	«غزا الأمير تاشفين بن علي قنطرة محمود فدخلها بالسيف»[1571].
8	530هـ/ 1136م	الانتصار على النصارى بفحص عطية.	«هزم الأمير تاشفين جموع الروم بفحص عطية وأفنى منهم خلقا كثيرا»[1572].
9	531هـ/ 1137م	فتح مجموعة من الحصون في الأندلس.	«أغزى تاشفين الروم في ربيع من عام واحد وثلاثين وفتح حصونا للروم»[1573].
10	531هـ/ 1137م	الانتصار في معركة اشكونية ودخول المدينة عنوة.	«وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة جاز الأمير تاشفين من الأندلس إلى العدوة بعد أن غزا مدينة اشكونية وحمل من سبيها إلى العدوة ستة آلاف سبية وفتحها عنوة، فوصل إلى مراكش فتلقاه والده علي أمير المسلمين في زي عظيم وفرح به»[1574].

(1570)- ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق إحسان عباس، م س، ج 4، ص: 90 – 91.
(1571)- ابن أبي زرع، روض القرطاس، م س، ص: 164.
(1572)- روض القرطاس، م س، ص: 164. ويشير ابن القطان إلى هذه المعركة بقوله: «... غزوة تاشفين بن علي بن يوسف لخيل من النصارى، فهزمهم على مقربة من قصر عطية». راجع: نظم الجمان، م س، ص: 251 .
(1573)- ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق إحسان عباس، م س، ج 4، ص: 96.
(1574)- ابن أبي زرع، روض القرطاس، م س، ص: 164. ابن القطان، نظم الجمان، م س، ص: 251 .

الملحق الثاني:

فقهاء وعلماء[1575] ينتمون للغرب الإسلامي

علماء وفقهاء من بلاد العدوتين	مجال تنقلاتهم واستقرارهم ووفاتهم
أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي	الفقيه المالكي الأشعري الأندلسي القيرواني الأصل خلال عصر المرابطين، نزل بأغمات وريكة. (ت489هـ/ 1095م)
أبو محمد عبد العزيز التونسي	استقر بأغمات ومات بها. (ت.486هـ/ 1093م)
ابن النحوي أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف	أصل الرجل من مدينة توزر، دخل سجلماسة وفاس ثم عاد إلى قلعة بني حماد (ت.513هـ/ 1119م):
يوسف بن موسى الكلبي الضرير يكنى أبا الحجاج	أندلسي أصله من سرقسطة وسكن مراكش وبها توفي. (ت.520هـ/ 1126م):
أبو عبد الله الجذامي	(ت.522هـ/ 1128م) من أهل القيروان.
محمد بن عيسى بن القاسم الصدفي أبو عبد الله	من الأندلس من أهل تُطيلة واستوطن مدينة فاس. (ت. 529هـ/ 1134م):
محمد بن داود بن عطية بن سعد الجراوي	يذكر أن أصله من تونس. (ت.541هـ).
ابن العربي المعافري محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد ابن العربي المعافري أبو بكر من إشبيلية.	ولد عام 468هـ/ 1203م، استقر بفاس ودُفن بها عام 543هـ/ 1148م.
محمد بن عمر المالقي	(523- 563هـ/ 1129 – 1167م)، من مدينة مالقة جنوب الأندلس، استوطن مدينة فاس وتوفي

(1575)- تمت الإشارة إلى بعض التفاصيل حول مناقبهم في المبحث الثاني من مقومات التجربة الوحدوية: المقومات الدينية والعلاقات الثقافية والعلمية (الفصل الأول من الباب الثاني). هؤلاء الأعلام هم غيض من فيض لطبقة عريضة من فقهاء وعلماء بلاد العدوتين الذين كانت تضج بهم أرجاء الغرب الإسلامي، وقد اعتمدنا هذه الجداول بشكل مختزل (موطنهم الأصلي والأماكن التي انتهى بهم فيها المطاف وأدوارهم في التعليم والدعوة) للتأكيد على أن مجال الغرب الإسلامي كان يمثل مجالا واحدا لا معنى فيه للحدود السياسية.

	بها.
محمد بن علي بن جعفر بن أحمد القيسي، يُكنى أبا عبد الله، ويُعرف بابن الرمامة	(479هـ -567هـ/ 1086م - 1171م): أصله من قلعة حماد بن حوز بجاية، ولد عام الزلاقة، دخل الأندلس طالبا للعلم، رحل إليه الناس إلى فاس.
ابن الخراط عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد الأزدي أبو محمد الإشبيلي	(510هـ -581هـ/ 1174م -1185م) وُلد بالأندلس وتوفي ببجاية
ميمون بن جبارة بن خلفون الكتامي الفرداوي أبو تميم	دخل الأندلس عالما وولي قضاء بجاية ومات بتلمسان مجتازا عليها إلى مراكش سنة أربع وثمانين وستمائة. (ت. 584هـ/ 1188م)
مصعب ابن أبي بكر محمد بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الخشني الأندلسي	يكنى أبا ذرّ. استقر بفاس إلى أن توفي ضحى يوم الإثنين الحادي عشر لشوال سنة أربع وستمائة (ت.604هـ/ 1207م)
عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن (يكنى أبا محمد)	(ت.612هـ/ 1215م)أصله من أندة بشرق الأندلس ثم تردد على ببلاد العدوة.
أبو القاسم بن الملجوم أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عيسى بن يوسف بن قاسم الملجوم	من فاس ورحل إلى الأندلس للجهاد.زمن الخليفة الناصر الموحدي (ت605هـ/ 1208م)،

الفهارس

فهرس الآيات

(اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاتَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ)[الأعراف142] 218
(فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)[سورة البقرة: 279] 177

فهرس الأشعار

أشكوالغليل بحيث المشرب الخضر 92
أقيموا إلى العلياء هُوج الرواحل 201
جلَوأ صارما وتلَوأ باطلا 189
حثوامطاياكم عن أرض أندلس 82
شُدّت إليك على الرياح سروج 262
طال انتظار العالمين لبيعة 209
عشرون ألفا ونصفها ائتلفوا 243
كأن بلادهم كانت نساءً 176
ماتت قلوب المسلمين برعبهـم 78
وأشرقت الشمس المُنيرة فوقـنا 262
وأعدَدْت للأعداء كل مُصمصم 247
ولما انقضى الفتح الذي كان يرتجى 267

فهرس الأمثال

إذا رأيت لحية جارك تُنتف 82

فهرس الخرائط

الخريطة رقم: (1) حدود بلاد المغرب الأقصى والكيانات المجاورة زمن الأدارسة 45
الخريطة رقم: (2) الكيانات السياسية في الأندلس.....75
الخريطة رقم: (3) مواطن القبائل الصنهاجية 122
الخريطة رقم: (4) امتداد مجال حكم المرابطين وتوحيد العدوتين.....238
الخريطة رقم: (5)امتداد مجال السيادة الموحدية في بلاد الغرب الإسلامي.....267
الخريطة رقم: (6) تقلص مجال سيادة الدولة المغربية داخل بلاد الغرب الإسلامي.....298

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم رواية ورش عن نافع

المصادر المطبوعة

- ابن الأبار(أبو عبد الله محمد بن عبد الله البلنسي، 595هـ/1199م)، الحلة السيراء، ج.2، حققه وعلق على حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف – القاهرة، ط.1، 1963/ ط.2، 1985.
- ـــــــــــ، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري – القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط.1، 1410هـ/ 1989م.
- ـــــــــــ، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، 1415هـ/ 1995م، ج1 و ج4.
- ابن الأثير (عز الدين ابو الحسن الجزري الشيباني)، الكامل في التاريخ، من 389هـ إلى 488هـ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ط.4، 1424هـ/ 2003م، (ج8 و ج.9).
- ابن الأحمر(725هـ/1325م)، بيوتات فاس الكبرى دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.
- الإدريسي (الشريف)، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، اعتنى بتصحيحه ونشره هنري بيريس – كلية الآداب بجامعة الجزائر، الجزائر، 1376هـ/ 1957م.
- ابن الأزرق أبي عبد الله (ت.896هـ)، بدائع السِّلك في طبائع المُلك، تحقيق وتعليق علي سامي النشار، دارالسلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط.1، 1429هـ/2008م.
- الأصفهاني وعماد الدين محمد بن محمد، خريدة القصر وجريدة العصر، الدار التونسية للنشر (قسم شعراء المغرب)، 1966. (تاريخ إعداد النسخة الرقمية من الكتاب 12 فبراير 2009).
- ابن أبي أُصيْبعة (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي(ت.668هـ). عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ضبطه وصححه ووضع فهارسه محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان (د.ت).
- الأنصاري السبتي (محمد بن القاسم)، اختصار الأخبار لما كان بثغر سبتة من سَنِيِّ الآثار، تقديم عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ط.2، 1403هـ/ 1983م.

- ابن بسام الشنتريني (علي - ت.542هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1. 1979/1399م.(الأقسام 1 و2 و3) - 1417هـ/ 1997م. (ق.4).
- ابن بشكوال (أبو القاسم / 494هـ - 578هـ)، كتاب الصلة لابن بشكوال ومعه كتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي (ت.708هـ)، تحقيق شريف أبو العلا العدراوي، كتاب صلة الصلة، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ط.1، مج.1، 1429هـ/ 2008.
- ـــــــــــــ، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، حققه وضبط نصه وعلق عليه، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط.1، 2010.
- البكري (أبو عبيد عبد الله)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والداراسات، بيت الحكمة - دار الغرب الإسلامي، ج.2، 1992.
- ابن بلقين (عبد الله)، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة (469هـ - 483هـ)المسماة بكتاب"التبيان"، نشر وتحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر، 1955م.
- البيذق (أبو بكر بن علي الصنهاجي، من أهل القرن 6هـ/ 12م)، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.
- التنبكتي (أحمد بابا) ت. 963هـ/ 1626م، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله الهراحة، منشورات دار الكاتب – طرابلس، ط2، 2000م.
- ابن تومرت (محمد) مهدي الموحدين، أعز ما يطلب، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، صدر عن وزارة الثقافة، الجزائرعاصمة الثقافة العربية، 2007.
- التيجاني (أبو عبد الله)، رحلة التيجاني، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981.
- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، اعتنى بها وخرج أحاديثها عامر الجزار – أنور الباز، مج20، الفهارس العامة 2، العبيكان، بدون تاريخ.
- الجزنائي (أبو الحسن علي، توفي بعد سنة 766هـ/ 1364م)، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية – الرباط، ط.2، 1411هـ/ 1991م.
- الدباغ (أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري ت.696هـ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق وتعليق محمد ماضود، المكتبة العتيقة بتونس، ج3، 1978م.

- ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن حسن ت.633هـ/ 1235م)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري – حامد بن عبد المجيد – أحمد أحمد بدوي، راجعه طه حسين، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، 1955.
- ابن أبي دينار (الفقيه أبي عبد الله الشيخ محمد بن أبي القاسم الرميني القيرواني)، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، ط.1، 1286هـ.
- ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، ت. 456هـ/ 1064م) مجموعة رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1960، ج3.
- الحميري (أبو عبد الله بن عبد المنعم من أهل القرن 8هـ/ 14م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي مع فهارس شاملة، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط2، 1984.
- ابن حيان (أبو مروان بن خلف القرطبي – ت. 469هـ/ 1077م)، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، حققه وقدم له وعلق عليه محمود علي مكي، منشورات لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1415هـ / 1994.
- ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد الإشبيلي، 529هـ/ 1134م)، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حققه وعلق عليه الدكتور حسين يوسف خريوش، مطبعة المنار، الأردن، ط.1، 1409هـ/ 1989م.
- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ت. 776هـ/ 1375م)، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق ذلك من الكلام، تاريخ المغرب العربي،تحقيق وتعليق الدكتور أحمد مختار العبادي والدكتور محمد إبراهيم الكتاني، نشر وتوزيع دار الكتاب الدار البيضاء، ج.3، 1964.
- ـــــــــــ، أعمال الأعمال، تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت- دار المكشوف، ج.2، ط.2، 1956.
- ـــــــــــ، الإحاطة في أخبار غرناطة، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مج.4، ط1، 1397هـ / 1977م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، ت. 808هـ/ 1406م)، مقدمة ابن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ج1 - ج4- ج6، 1421هـ/ 2000 - 2001
- ابن خلدون (أبو زكريا يحيى)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، طبعة بيير فونطانا الشرقية في الجزائر، مج.1، 1321ه/ 1903م.

- ابن خلكان، (أبو العباس شمس الدين أحمد بم محمد بن أبي بكر. ت. 681هـ/ 1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق عباس إحسان، دار صادر – بيروت، ج5 وج7، 1398هـ/ 1978م.
- رسائل موحدية مجموعة جديدة (تحقيق أحمد عزاوي)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، سلسلة نصوص ووثائق رقم 2، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء ج1 وج2، ط.1، 1422هـ/ 2001م.
- ابن رشد الجد (أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي المالكي، ت. 520هـ/1126م)، فتاوى بن رشد، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1407هـ/ 1987م، السفر1، ط.1.
- الرعيني أبو الحسن (علي بن محمد بن علي الإشبيلي - 592هـ - 666هـ)، برنامج شيوخ الرعيني، حققه ابراهيم شبوح، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، 1381هـ/ 1962م.
- ابن الزبير (أبو جعفر أحمد العاصمي الغرناطي)، صلة الصلة، ضبط نصه وعلق عليه جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1971.
- الزجالي (يحيى عبيد الله بن أحمد القرطبي 694هـ/)، أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتابه "رأي الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام" ، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بنشريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي(بدون تاريخ)، ق.2.
- ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي، ت.741هـ/ 1341م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط، 1972.
- الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضود، المكتبة العتيقة - تونس، 1966، ط.2، مقدمة المصدر ص: (حرف الجيم).
- الزهري (أبو عبيد الله محمد بن أبي بكر، ت. أواسط القرن 6هـ/ 12)، كتاب الجغرافيا وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الظاهر، المركز الإسلامي للطباعة – الجيزة. (د. ت).
- ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، ت. 617ه/ 1220م)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ط.2، 1997م.

- السبتي (محمد بن القاسم الأنصاري)، اختصار الأخبار لما كان بثغر سبتة من سَنِيِّ الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ط.2، 1403هـ/ 1983م.
- ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى الغرناطي، توفي حولي 685هـ/ 1286م)، المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، ط.3، 1980، ج2.
- ابن سهل الأسدي (أبو الأصبغ عيسى الجياني، ت. 486هـ/ 1093م)، ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقِطر من سير الحكام، تحقيق يحيى مراد، دار الحديث- القاهرة، 1428هـ/ 2007م.
- ابن صاحب الصلاة(أبو محمد عبد الملك الباجي 594هـ/1197م)، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق عبد الهادي التازي، تاريخ الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط.1/ 1964 – ط.2/ 1979 – ط.3/ 1987.
- أبو الطيب(تقي الدين. 775 – 832هـ)، في رواة السنن والمسانيد، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (دون تاريخ)، ج.1.
- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال، دار الثقافة - بيروت، ط2، ج.1، 1983.
- ـــــــــــــ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تاريخ إفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري، تحقيق ومراجعة كولان وبروفنسال، دار الثقافة – بيروت، ط.3، ج.3، 1983م.
- ـــــــــــــ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم المرابطين)، تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط.3، ج4، 1983م.
- ـــــــــــــ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين)، تحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتاني- محمد بم تاويت- محمد زنيبر – عبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط.1، 1406هـ/ 1985.
- العزفي (أبو العباس 757هـ - 633هـ)، دعامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب، دون مكان، 1989، مقدمة التحقيق (الحرف. هـ).
- ابن عسكر (أبو عبد الله) و ابن خميس(أبو بكر)، أعلام مالقة، تقديم وتخريج وتعليق عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي ودار الأمان للنشر والتوزيع، ط.1، 1420هـ/ 1999م
- العلائي (صلاح الدين أبو سعيد) ، كتاب المختلطين، تحقيق وتعليق رفعت فوزي عبد المطلب وعلي عبد الباسط مزيد، مكتبة الخانجي، القاهرة (بدون تاريخ).

- عياض (القاضي بن موسى اليحصبي السبتي، ت. 544هـ/ 1149م)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد أحمد أعراب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط،1403هـ/ 1983، ج8.
- ابن عياض عياض (أبو عبد الله محمد بن القاضي، ت575هـ/ 1170م)، التعريف بالقاضي عياض، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب، يناير 2009.
- ابن غازي (محمد بن أحمد العثماني المكناسي ت.919هـ)، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط.2، 1408هـ/ 1988م
- الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله ت.704هـ/ 1304م) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، حققه وعلق علق عليه عادل النويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.2، 1979م.
- أبو الفدا (المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي. ت. 732هـ/ 1331م)، المختصر في أخبار البشر، تقديم الحسين مؤنس، تحقيق محمد زينهم عزب – يخيى حسين – محمد فخري الوصيف، دار المعارف – القاهرة، ط.1، ج2، (د.ت).
- ابن فرحون(أبو إسحاق ابراهيم بن علي المالكي ت.799هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دراسة وتحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،ط.1، 1417هـ/ 1996م.
- ابن القاضي (أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي، ت.1025هـ/ 1616م)، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة – الرباط، 1973م / 1393هـ.
- ابن قنفذ (أبو العباس أحمد القسنطيني ت.810هـ/ 1407م)، أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال – الرباط، 1407هـ - 1408هـ.
- ابن الكردبوس (عبد الملك بن محمد التوزري. من أهل القرن 6هـ/ ق.12م) الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق صالح بن عبد الله الغامدي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط.1، ج.1، 1429هـ/ 2008م.
- ـــــــــــــ،" تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط: نصان جديدان"، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، عدد 13، 1966-1965.

- مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المومنية، (اعتنى بإصدارها ليفي بروفنصال)، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، ج10، رباط الفتح، 1941.
- المرادي (أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي، ت. 489هـ/ 1096م)، كتاب السياسة أو "الإشارة في تدبير الإمارة"، تحقيق سامي النشار، دار السلام – مصر، ط.1، 1430هـ/ 2009م.
- المراكشي (محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي، ت.647هـ/ 1249م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1963م.
- المقدسي (أبو عبد الله بن محمد بن أحمد البشاري ت.380هـ/990م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط.3، 1411هـ/ 1991م.
- المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، ت.1040هـ/ 1630م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ط.1، ج4، 1968.
- ابن عبد الملك (أبي عبد الله الأنصاري الأوسي المراكشي. 634هـ - 703هـ)، الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط.1، 1973، مج.5 و6 / ق.1. (مج.5 بدون طبعة وبدون تاريخ).
- ـــــــــــ، الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة، حققه وعلق عليه إحسان عباس ومحمد بنشريفة وبشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط.1، 2012، مج.1(القسم الأول).
- ـــــــــــ، الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت – لبنان (بدون تاريخ)، مج.1/ ق.1.
- ـــــــــــ، الذيل والتكملة لكتابي الوصول والصلة، تحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984، مج.8/ ق.1
- مؤلف مجهول، من أهل القرن 6هـ/ 12م، الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.
- مؤلف مجهول (ألفه سنة 712هـ/ 1312م)، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط.1، 2005.

- مؤلف أندلسي من أهل القرن 8هـ/ 14م، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1. 1399هـ/ 1979م.
- الماوردي(أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب ت.450هـ)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، جامعة الكويت، قسم العلوم السياسية، ط.1، دار ابن قتيبة، الكويت، 1409هـ/1989م.
- الناصري (خالد)، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب – الدار البيضاء، 1954م، ج2، ص108.
- النباهي (أبو الحسن المالقي الأندلسي، من أهل القرن 8هـ/ 14م)، تاريخ قضاة الأندلس، (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.5، 1403هـ/ 1983م.
- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت. 733هـ/ 1333م)، نهاية الإرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، (بدون تاريخ)، ج24.
- الوزان (الحسن المعروف بليون الإفريقي، ت. حوالي 957هـ/ 1549م)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ق.1، ط.2، 1983.
- الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى التلمساني، ت.914هـ/ 1508م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، 1401هـ/1981م، ج.1 و ج.12.
- الوهراني(محرز)، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش، مراجعة الدكتور عبد العزيز الأهواني، كولونيا – ألمانيا، منشورات الجمل، ط.1، 1998م.

المراجع العربية

- أحمد محمود (حسن)، قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة في تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي - القاهرة، ط.1، 1954.
- أرسطاليس، سِرّ الأسرار –السياسة والفراسة في تدبير الرئاسة، تقديم سامي سلمان الأعور، دار العلوم العربية، بيروت – لبنان، ط.1، 1415هـ، 1995م.

- أرسلان(شكيب)، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ج1. ومؤسسة هنداوي، 2011، ج2.
- أشباخ (يوسف)، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط.2، 1417هـ/ 1996م.
- أعراب (سعيد)، مع القاضي أبي بكر بن العربي، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1407هـ/ 1987م.
- ألفرد (بيل)، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، مكتبة المهتدين الإسلامية، ط: 1969- 1981-1987، ص174.
- أكنوش (عبد اللطيف)، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، إفريقيا الشرق – الدار البيضاء، 1987م.
- أمبروسيو (هويثي ميراندا) " التاريخ السياسي للأمبراطورية الموحدية" (HistoriaPolitica Del ImperioAlmohade)، تعريب عبد الواحد اكمير، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.1، 2004.
- أومليل (علي)، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ط.1، أيار/ مايو 1996.
- إحسان (عباس)، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، دار الشرق، عمان، 1997.
- الإدريسي (عبد الله حمادي)، قاعدة المغرب الأقصى قبل فاس. سجلماسة ووريثتها تافيلالت تاريخا وأمجادا وجهادا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1991.
- إسماعيل (محمود)، الأدارسة (172هـ - 375هـ) حقائق جديدة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط.1، 1411هـ/ 1991م.
- ـــــــــ، فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية (سياسة المرابطين الفكرية بين التأييد والتنديد، مكتبة مدبولي القاهرة – ط1،1988م.
- بالنثيا (آنخل جنتالث)، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، تقديم سليمان العطار، المركز القومي للترجمة.

- بنسباع (مصطفى)، السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، مطابع الشويخ – تطوان، ط1، 1999.
- بولقطيب(الحسين)، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002.
- بولطيف (محمد لخضر)، فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي، 510 هـ – 668 / 1116 م – 1269م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط.1، 1429هـ / 2009 م. القاهرة، رسالة دكتوراه - دار الغرب الإسلامي، ط.1، 1403هـ/ 1983م.
- التازي (عبد الهادي)، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، دار نشر المعرفة، مج.1،.2001.
- توينبي (أرنولد) نظرية التحدي والاستجابة (الحضارة الإسلامية أنموذجا)، منشورات الهئية العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة – دمشق، 2010.
- الجراري (عباس)، دروس حسنية (وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ: قدمته الإذاعة والتلفزة مساء الأحد 28 رمضان 1395هـ الموافق 5 أكتوبر 1975م)، جمع وتقديم حميدة الصائغ الجراري، مكتبة دار السلام للطباعة والتوزيع، منشورات النادي الجراري (64) - الرباط، ط.1، ربيع الثاني 1436هـ/ فبراير 2015م.
- ـــــــــــــ، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ج.1، منشورات مكتبة المعارف، الرباط، 1978، ط.2.
- ـــــــــــــ، الموحدون ثورة سياسية ومذهبية، المناهل، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط – المغرب، ع.1، السنة الأولى، 1394هـ/1974م.
- جسوس (عز الدين)، موقف الرعية من السلطة السياسية في المغرب والأندلس على عهد المرابطين – دراسة في علم الاجتماع السياسي، مطابع افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014.
- الجنحاني (لحبيب)، المجتمع العربي الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مجلة عالم المعرفة، مطابع السياسة – الكويت، ع.319، شتنبر 2005 / رجب 1426.
- الحجي (عبد الرحمان علي)، التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة 92هـ - 897هـ (711م – 1492م)، دار القلم، دمشق – بيروت، 1983.
- حركات (إبراهيم) "المغرب عبر التاريخ"، من عصر ما قبل التاريخ حتى نهاية دولة الموحدين، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1420هـ/ 2000م، ج1.

- حمدي (عبد المنعم محمد حسين)، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، 1997م.
- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980.
- حماه الله ولد السالم، تاريخ بلاد شنكيطى (موريتانيا) من العصور القديمة إلى حرب شرْبُبّه الكبرى بين أولاد الناصر ودولة إبدّوكل اللمتونية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1971.
- دندش عصمت (عبد اللطيف)، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين– عصر الطوائف الثاني (510- 546هـ/ 1116- 1151م)، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 1، 1988.
- دوزي (رينهارت)، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ط 1، 2012.
- رستم (محمد بن زين العابدين)، بيوتات العلم والحديث في الأندلس، دار بن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1430هـ/ 2009م.
- ـــــــــــ، الحافظ الرحالة أبو علي الصدفي الأندلسي وجهوده في خدمة الحديث النبوي وعلومه، جامعة السلطان المولى سليمان بني ملال – المغرب، دار الكتب العلمية. (دون تاريخ)
- زنيبر (محمد)، المغرب في العصر الوسيط، الدولة – المدينة – الاقتصاد، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة – البيضاء، ط1، 1999/1420.
- ـــــــــــ، "ابن رشد والرشدية في إطارهما التاريخي" ضمن أعمال ندوة " ابن رشد ومدرسته في الغرب الإسلامي"، الرباط، 21 – 23 / 04/ 1978، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1981م.
- سعد زغلول (عبد المجيد)، تاريخ المغرب العربي، " الفاطميون وبني زيري الصنهاجيون إلى قيام المرابطين"، مطبعة أطلس بالإسكندرية – الناشر المعارف، القاهرة، ج.3، 1990.
- ـــــــــــ"تاريخ دول الأغالبة والرستميين وبني مذرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين"، منشأة المعارف بالإسكندرية، ج2 (بدون تاريخ النشر: ورد في مقدمة الكتاب تاريخ 08- 03- 1973- الكويت)
- السيد عبد العزيز (سالم)، تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، القسم 2، ط 2، 1966.

- شقير(محمد)، تطور الدولة في المغرب، إشكالية التكون والتمركز والهيمنة من القرن 3 ق.م إلى القرن العشرين، ط،2، إفريقيا الشرق – المغرب، 2006.
- الشامي(علي)، الصحراء الغربية، عقدة التجزئة في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر، بيروت لبنان، 1980م.
- شوقي(أبو خليل)، أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، دمشق – سورية، طبعة محدثة مزيدة، 2005.
- ابن عبود (امحمد)، التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف، (414هـ/1023- 484هـ/1091م،مطابع شويخ ديسبريس»، تطوان، 1983م.
- العروي (عبد الله)، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1996، ج1 وج.2.
- عمارة (محمد)، الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، دار الرشاد – القاهرة، ط.2، 1417هـ/ 1997م.
- عابد الجابري(محمد)، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، دار النشر المغربية، ط.4، الدار البيضاء، 1984.
- العمراني (محمد)، الموحدون في الأندلس: الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع من 541هـ/ 1147م إلى 609هـ/ 1212م، مساهمة في استحضار الذاكرة التاريخية المشتركة المغربية الإيبيرية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، ط1، ج1، 2020.
- عنان (عبد الله)، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط.4، 1417هـ/ 1997م.
- ـــــــــــــ، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثالث: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الأول والثاني : عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية / عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط.2 – 1411هـ/ 1990.
- الطاهري (عبد الحق)، الدولة الموحدية أسس الشرعية والمشروع السياسي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2015.
- الطيبي (توفيق)، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، مكتبة المهتدين، 1984.

- عويس (عبد الحليم)، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، عبد الحليم عويس دار الوفاء للطباعة – دار الصحوة للنشر والتوزيع – القاهرة / ط.2، 1411هـ/ 1991م.
- الغزي (محمد صدقي بن أحمد بن محمد آل بورنو أبو الحارث)، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط.4، 1416هـ/ 1996، ج1.
- القبلي (محمد)، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، سلسلة المعرفة التاريخية، ط.1، 1997م.
- ـــــــــــــــ، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 1987.
- ـــــــــــــــ، المغرب والأندلس والمجال المتوسطي مقدمات أولية وملاحظات، سلسلة الدروس الافتتاحية (الدرس الرابع)، مطبعة ناضاف - أكادير، السنة الجامعية 1992 – 1993.
- القادري بوتشيش (إبراهيم)، تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط.1، أيلول(سبتمبر) 1994.
- ـــــــــــــــ، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط.1، مارس2002.
- القاسمي العلوي (هاشم)، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العشر الميلادي، مطبعة فضالة – المحمدية، 1415هـ/1995م،ج2.
- الكتاني (عبد الرحمان)، "الجانب السياسي في حياة الإمام مالك رضي الله عنه" ص60. (ضمن أعمال ندوة الإمام مالك: دورة الإمام مالك، فاس: من 25 إلى 28 -4-1980)، ج2.
- الكتاني(الشيخ محمد عبد الحي)، شرح الشمائل المحمدية للإمام الترميذي المسمى منية السائل خلاصة الشمائل، اعتنى به ابراهيم بوسبيع، ضبط نصه وعلق عليه عبد الحكيم واحسين، دار الكتب العلمية، 1302– 1382هـ/ 1885 – 1962م.
- كاربخال (مارمول)، إفريقيا، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، تعريب محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، ط. المعارف الجديدة، الرباط، 1404هـ/ 1984، ج.1
- كنون (عبد الله)، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، رتب تراجمه إلى طبقات الدكتور محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، دار ابن حزم، ط1، 1430ه/ 2010م، ج3.

- كيلاني (كامل)، الوعظ القصصي والوعظ الكاذب ومقالات أخرى، مؤسسة هنداوي، القاهرة، 2011.
- لوتورنو(لوجر)، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تعريب الدكتور أمين الطيبي، نشر وتوزيع – المدارس- الدار البيضاء، 1419هـ/1998م، ط.2 (منقحة).
- المساتي (عادل)، سوسيولوجية الدولة بالمغرب، إسهام جاك بيرك، سلسلة المعرفة الاجتماعية السياسية، مطبعة النجاح الجديدة، ط. 2010.
- محمود إسماعيل، الأدارسة (172هـ - 375هـ) حقائق جديدة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط.1، 1411هـ/1991م.
- مجموعة مؤلفين، معلمة تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر – مطابع سلا، 1989/1410.
- مخلوف (محمد بن محمد)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج حواشيه وعلق عليهعبد المجيد خيالي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط.1، 1424هـ/ 2002م.
- ابن منصور(عبد الوهاب)، قبائل المغرب، المطبعة الملكية – الرباط، 1388هـ/ 1968م، ج.1.
- المنوني (محمد)، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، المحاضرة الثالثة، مؤسسة بَنْشَرَة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1404هـ/ 1983م، ج.1.
- مؤنس (حسين)، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، القاهرة، 1413هـ/ 1992م، (ط.5، 1421هـ/ 2000م)
- الميلي (مبارك بن محمد)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج.2، 1989.
- موسى (عز الدين)، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991.
- ـــــــ النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط 1، 1403هـ/ 1983م.
- النجار(عبد المجيد)، تجربة الإصلاح في عهد المهدي ابن تومرت الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري، المعهد العلمي للفكر الإسلامي هيرندن- فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط.2، منقحة ومزيدة 1415هـ/ 1995.

- النادي (محمد فتحي)، الدولة المدنية والدولة الدينية وصراع الهويات، تقديم سيف الدين عبد الفتاح، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، 01 يناير 2000.
- الهادي روجر(إدريس)، الدولة الحمادية. تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج.1، 1992.
- هوبكينز، (ج.ف.ب)، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، نقله عن الأنجليزية الدكتور أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، مكتبة المهتدين، ليبيا – تونس، 1980.

المراجع الأجنبية(مؤلفات)

- Ambrosio(Huici Miranda) (1961):«un fragmento inédito de ibn °idârÎ sobre los Almoravides», Hespéris Tamuda, vol 2, éditions téchniques nords – africaines 22, rue du béarn, Rabat .
- Abitbol(Michel) (2009), Histoire du Maroc,collection tempus ,editions Perrin, France .
- ALTAMIRA (Rafael) : (1925): history of spain From The Beginings To Present Day; The Macmillan company; New York; U.S.A.
- Alfred Bel , Histoire des Beni Abd E- lwad roi de Tlemcen jusqu'au règne D'Abou H'Ammou moussa II, Abou Zakaria yah'ia Ibn khaldoun, éditée D'après cinq Manuscrits Arabes traduite en Arabe, imprémerie orientale Pierre Fontana, 1994.
- DOZY(Reinhart Pieter Anne) (1860):LECID,d'après denouveaux documents, nouvelle édition, Leyde.
- D.FRANCISCO CODERA de la R.A. de la historia catedratico de lengua Arabe en la Universidad Central SARAGOSA TIP. DE COMAS ; PILAR ;1.
- E. Levi Provincal (E .Lev) (1928) , Documents inédits d'histoire almohade,fragments manuscrits du "Legajo"1919,du fond arabe del'Escorial, publiés et traduitavec une introduction et des notes librairie oriontaliste Paul Geuthner,13 rue Jacob,Paris 1928
- Goldziher(ignaz)(1903.), ibn toumert et la theologie de l' islam dans le nord de L'Afrique au xi siecle, Alger: imprimente oriontale Pierre Fontana.
- LAGARDÈRE (Vincent), Les Almoravides. Le djihâd andalou (1106-1143), Paris, L'Harmattan, 1998 (1999).
- Lucas villegas cas villegas Aristiz abal BA (Hons) , Norman and Anglo-Norman Participation in the Iberian Reconquista c.1018- c.1248; MA , Thesis submitted to the university of Nottingham for the degree of Doctor of Philosophy. June, 2007.
- Terrasse (Henri)(.1950) ; Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat français, t. I. Un vol. in-8° de vin et 401 pages. Casablanca, Éditions atlantides.

الرسائل والأطاريح الجامعية

- بولقطيب(الحسين)، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ (رسالة مرقونة)، القسم1، 1998- 1999.
- التجكاني (محمد الحبيب)، مسائل أبي الوليد بن رشد(الجد)، تحقيق عن ست نسخ خطية مع دراسة عن المؤلف والكتاب، دار الجيل – بيروت ودار الآفاق الجديدة – المغرب، تطوان، 1414هـ/ 1993م، ط2، (رسالة دبلوم الدراسات العليا في الشريعة الإسلامية، 1398ه/ 1978م).
- رستم (محمد بن زين العابدين)، الحافظ الرحالة أبو علي الصدفي الأندلسي وجهوده في خدمة الحديث النبوي وعلومه، جامعة السلطان المولى سليمان بني ملال – المغرب، دار الكتب العلمية.
- فتحة(محمد)، النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 إلى 9هـ/ 12 -15م)، جامعة الحسن الثاني عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الدار البيضاء، سلسلة الأطروحات والرسائل، 1999.
- لحمنات (عبد الجليل)، التصوف المغربي في القرن السادس الهجري "مقدمة لدراسة تاريخ التصوف بالمغرب" رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 1989-1990.
- النجار(عبد المجيد)، المهدي بن تومرت أبو عبد الله محمد بن عبد الله المغربي السوسي المتوفى 524هـ - 1129م، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، جامعة الأزهر، إشراف جابر عصفور، سلسلة ميراث الترجمة، إشراف مصطفى لبيب، العدد 1770، 2011.
- المرتضي (محمد)، الأندلس في سياسة الدولة المرابطية بين الإنقاذ والاستحواذ، أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله - كلية الأداب والعلوم الإنسانية سايس- فاس، 2019.
- المغراوي(محمد)، العلماء والصلحاء والسلطة، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2001 – 2002 (مرقونة).

مـقـالات باللغة العربية

- أبرزاق (البشير)، "دور الصحراء في العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي خلال العهد المرابطي"، مجلة كان التاريخية، العدد الثالث والثلاثون،، صص 48 –53، سبتمبر 2016.

- البركة (محمد)، المجال واستراتيجية المشروع المرابطي: تلمسان ونهاية الدولة، عصور الجديدة – العدد 2، من ص 111 إلى ص 123(عدد خاص بتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية) 2011م/1432هـ.
- بنحمادة (سعيد)، المجتمع والسلطة في المغرب والأندلس من خلال كتب الأمثال والأزجال، مجلة كان التاريخية، العدد 43، من ص 84 إلى ص101، مارس 2019.
- الجراري (عباس)، الموحدون ثورة سياسية ومذهبية، المناهل، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط – المغرب، ع.1، السنة الأولى، من ص 84 إلى ص 121)، 1394ه/ 1974م.
- حروز(عبد الغني)، الحضور الأشعري زمن دولة المرابطين (448هـ - 541ه/ 1056م 1147م) قراءة في المواقف والتطور، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، الجزائر، مجلد 17، العدد الأول، صص 65-81، 2020.
- الحضري، (محمد)، تطور السِّكَّة والمسكوكات بفاس حتى عهد بني مرين، كلية الأداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر – أكادير، مجلة دراسات وأبحاث أثرية مغربية، دار أبو رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2020، ع. 12.
- السعيدي (عبد الرزاق)، المحاولات السياسية الكبرى وبناء المجال المغاربي خلال الفترة الوسيطية ملامح الصراع، مجلة كان التاريخية، العدد 43، من ص 28 إلى ص35، مارس 2019.
- علي (أحمد)، القضاء في المغرب والأندلس من الفتح وحتى نهاية القرن التاسع الهجري، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق – قسم التاريخ، ع. 54/53، 1995، صص: 145-177.
- عمتوت (كمال)، القابلية للاستعمار وتهديدها للأمن الثقافي من منظور مالك بن نبي، مجلة العلوم القانونية، علمية دولية محكمة، جامعة زيان عاشور بالجلفة – الجزائر، ع.4، 2020، صص: 345-358.
- مجموعة مؤلفين، تاريخ المغرب تحيين تركيب (القبلي مشرفا)، منشورات المعهد المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011.

المقالات الأجنبية

- LAGARDÈRE (Vincent), (1988) : «Evolution de la notion du jihad à l'époqueAlmoravid(1039–1147)»,in:Cahiersdecivilisation médiévale,

41e année, n°161, pp : 3 -16

- BENABOUD (M'hammed),(1980-1981): «Assabiyya and social relations inAl-Andalus during the period of the Taifa states ,(11century A.D./5thA.H)» **,Hespéris–Tamuda**, vol.×I× ,Rabat , pp : 5 – 46
- BENABOUD (M'hammed) (Spring-Summer 1991); SOCIO-POLITICAL ROLE OF ANDALUSIAN 'ULAMĀ' DURING THE FIFTH/ELEVENTH CENTURY, Islamic Studies; Vol. 30, N° 1/2, Special Issue on Muslim Heritage in Spain, pp. 179-211 (33 pages)
- BURESI(Pascal)(2010),Les Almoravides (16 000 signes), Directeur de recherche (CNRS-CIHAM-UMR 5648,études (EHESS) FP7-ERC StG, Paris, pp:1-6.
- CONARD (Philippe) (Aout -2002) ,l'Espagne sous la domination Almoravid et Almohade ; clio voyages culturelle, copy right clio, pp:1 à 6.
- DOZY(Reinhart Pieter Anne) (1881), Recherches sur l'histoire et lalittérature de l'Espagne pendant le Moyen Age, 3e éd., tome I, Paris-Leyde, pp. 350-361, (d'après un texte arabe reconstitué à partir d'Ibn al-Khatib et du Hulal al-Mawshiya, qui figure dans l'appendice XXVIII, à la fin du même ouvrage)

الموسوعات

- دائرة المعارف الإسلامية، نقلها إلى اللغة العربية محمد ثابت الفندي، أحمد الشناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، مكتبة محمد حسن هيكل، 1352هـ/ 1923م، ط.3، ج.1.

- نجيب زبيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، تقديم أحمد بن سودة، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت - لبنان، ط.1، 1415هـ/ 1995م، ج.2.

فهرس المحتويات

إهـــــداء 2
كلمة شكر وتقدير 3
لائحة المختصرات 4
مقدمـــــــة 5
فصل تمهيدي: إرهاصـــــــات توحيـــد المجـال في المغـرب "الأقصى" زمـن الأدارســة.....24
المبحث الأول: السياق السياسي لظهور الدولة الإدريسية وبناء مفهوم التوحيد.....28
1- ظروف نشأة المشروع السياسي للأدارسة 28
2- بناء مفهوم التوحيد من خلال التفاف القبائل حول الأدارسة.....37
المبحث الثاني: توحيد المجال بالمغرب "الأقصى" زمن إدريس الأول والثاني.....39
1- ظروف تأسيس مدينة فاس.....39
2- بعض مظاهر توحيد المجال ووضع الأسس الأولى للدولة المركزية.....43

الباب الأول:

السياق التاريخي للتجربة الوحدوية بالغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين 53
الفصل الأول: سياق بلاد المغرب "الأقصى" 56
المبحث الأول: الأوضاع بالمغرب"الأقصى" قبل قيام دولة المرابطين.....57
1- مظاهر الصراع القبلي.....57
2- بعض ملامح الوضعية الدينية المتردية 60
المبحث الثاني: الظروف التي ولدت فيها الدعوة الموحدية.....63
1- علاقة المرابطين بالمصامدة منذ قيام دعوة عبد الله بن ياسين 64
2- الظروف المواكبة لظهور الدعوة التومرتية 66
الفصل الثاني: السياق التاريخي للتجربة الوحدوية في الأندلس 73
المبحث الأول: السياق التاريخي الأندلسي قبل الجواز الأول للمرابطين 74
1- مظاهر الضعف والانقسام الداخلي خلال حكم ملوك الطوائف 74
2- موقف ملوك الطوائف بعد سقوط طليطلة عام 478هـ(1085م) 78
المبحث الثاني: السياق التاريخي لدخول الموحدين بلاد الأندلس.....84
1- تناقضات الوضع الداخلي في الأندلس أيام المرابطين.....84
2- ضجة حرق إحياء علوم الدين في الأندلس 87
3- وضع الجبهة العسكرية في الأندلس بعد سقوط سرقسطة.....89
الفصل الثالث: السياق المغاربي (مجال بني زيري وبني حماد).....94
المبحث الأول: الوضع السياسي داخل مجال صنهاجة الشمال قبل قيام دولة المرابطين.....95
1- وضع صنهاجة الشمال قبل منتصف القرن 5هـ(ق.11م) 95
2- الوضع السياسي في إفريقية والمغرب"الأوسط" خلال النصف الثاني من ق.5هـ(ق.11م) .97
المبحث الثاني: الوضع السياسي في إفريقية والمغرب"الأوسط" خلال النصف الأول من القرن6هـ(ق.12م).....107

1- بنو زيري في إفريقية 107
2- بنو حماد في المغرب الأوسط 109

الباب الثاني:

مقومات التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين ومراحلها 113
الفصل الأول: مقومات التجربة الوحدوية.....115
المبحث الأول: أسس بناء الوحدة المجتمعية ومظاهر وحدة المجال 116
1- العصبية القبلية عامل مؤسس للوحدة المجتمعية 116
2- دورالمقوم الديني والعلاقات الثقافية والعلمية في ترسيخ الوحدة المجتمعية 124
3- مظاهر وحدة المجال 132
المبحث الثاني: دور التجارة الصحراوية في دعم نشأة التجربة الوحدوية وتطورها.....136
1- السيطرة على الطرق التجارية الصحراوية.....136
2- الدور التأسيسي لسجلماسة وأغمات في توحيد المغرب"الأقصى" 140
الفصل الثاني: مراحل التجربة الوحدوية زمن المرابطين 145
المبحث الأول: مرحلة التأسيس لتجربة توحيد المغرب "الأقصى" زمن المرابطين 146
1- ظروف نشأة التجربة الوحدوية انطلاقا من الجنوب المغربي.....146
2- خطة المرابطين في تمهيد حواضر المغرب "الأقصى".....153
المبحث الثاني: تجليات التجربة الوحدوية في الأندلس عصر المرابطين 166
1- استنجاد الأندلس بالمرابطين مظهر من مظاهر الوحدة 166
2- تدشين المرابطين تجربة توحيد الغرب الإسلامي.....173
3- اكتمال عقد توحيد المرابطين الغرب الإسلامي أواخر القرن الخامس الهجري(ق.11م)....179
الفصل الثالث: مراحل التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن الموحدين 183
المبحث الأول: إخضاع الموحدين حواضر المغرب الأقصى بين 539هـ و541هـ (1144م – 1146م) 185
1- المرحلة الأولى في خُطّة الموحدين لإسقاط حكم المرابطين.....185
2- المرحلة الثانية من حصار الموحدين حواضر المغرب الأقصى الداخلية 189
المبحث الثاني: التجربة الوحدوية للغرب الإسلامي زمن الموحدين 195
1- ظروف إخضاع الموحدين للأندلس.....196
2- دور الحضور المالكي داخل خِطّة القضاء الموحدي في ترسيخ التجربة الوحدوية.....204

الباب الثالث:

التجربة الوحدوية للمرابطين والموحدين مغاربيا 222
الفصل الأول: علاقة المرابطين بمجال بني حماد وبني زيري(صنهاجة الشمال).....224
المبحث الأول: علاقة المرابطين ببني حماد الصنهاجيين (ق.5هـ/ ق.11م).....225
1- علاقة المرابطين ببني حماد قبل معركة الزلاقة (المرحلة الأولى).....227
2- علاقة المرابطين ببني حماد بعد مرحلة الزلاقة (المرحلة الثانية).....235
المبحث الثاني: تجليات التجربة الوحدوية في علاقة المرابطين ببني زيري(ق.6هـ/ ق.12م).242
1- السياق التاريخي لعلاقة المرابطين ببني زيري زمن علي بن يوسف بن تاشفين 243

2- الدعم العسكري من علي بن يوسف بن تاشفين لبني زيري 245
الفصل الثاني: تجربة توحيد المجال المغاربي زمن الموحدين 252
المبحث الأول: سياسة الموحدين في إخضاع مجال بني حماد 253
1- "استراتيجية" عبد المؤمن في إخضاع مجال بني حماد 254
2- إنهاء الموحدين حكم بني حماد 256
المبحث الثاني: تمهيد الموحدين مجال بني زيري 259
1- تجربة توحيد بلاد إفريقية زمن عبد المؤمن 259
2- تجليات التجربة الوحدوية داخل المجال المغاربي زمن خلفاء عبد المؤمن 264
الفصل الثالث: أوجه التشابه والاختلاف في التجربة السياسية الوحدوية زمن المرابطين والموحدين 274
المبحث الأول: أوجه التشابه والاختلاف على مستوى السياق التاريخي.....275
1- سياق المغرب "الأقصى".....275
2- السياق الأندلسي: 277
3- السياق المغاربي 278
المبحث الثاني: أوجه التشابه والاختلاف على مستوى المقومات والتجليات.....283
1- مقارنة مقومات قيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين 283
2- مقارنة تجليات التجربة الوحدوية زمن قوة سلطان المرابطين والموحدين 285
خاتمة.....301
الملاحق.....307
الملحق الأول 308
الملحق الثاني.....310
الفهارس 312
فهرس الآيات.....313
فهرس الأشعار 314
فهرس الأمثال 315
فهرس الخرائط.....316
قائمة المصادر والمراجع 317
المصادر المطبوعة 317
المراجع العربية 324
المراجع الأجنبية (مؤلفات) 331
الرسائل والأطاريح الجامعية 332
مـقـالات باللغة العربية 332
المقالات الأجنبية 333
الموسوعات 334
فهرس المحتويات 335

ملخص أطروحة

"التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين – دراسة مقارنة"

أهمية الموضوع :

بدا لنا كطالب باحث أهمية اقتحام موضوع التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين – دراسة مقارنة، أمرا منسجما مع طموح راودنا لدخول معترك ما حسبناه موضوعا بكرا، له علاقة بالذاكرة التاريخية "للمغاربيين"، والتي تحتفظ بما دشنه المرابطون والموحدون من وحدة سياسية غطت مجالا كبيرا همّ بلاد المغارب والأندلس (العدوتين) والتي دفعت مجموعة من الدارسين إلى الحديث عن عصر الإمبراطورية المغربية خلال العصر الإسلامي الوسيط.

فاختيارنا لهذا الموضوع في إطار دراسة مقارنة تهم ولادة مشروع سياسي وحدوي، لم يكن صدفة بل اكتسى أهميته من "الدينامية" التي شهدها حقل التاريخ في المغرب على يد مجموعة من المثقفين والأكاديميين من أمثال محمد القبلي الذي دعا إلى ضرورة أن يتوجه البحث نحو استجلاء كل «العلاقات المتشابكة الدائرية التي حددت كثيرا من معالم الواقع التاريخي والمسار الحضاري لمجتمعنا»[1]. علما أن مؤلفي تركيب وتحيين خصصوا مبحثا يهم مقاربة بعض خصوصيات التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين. ومما زاد من منسوب أهمية الموضوع بالنسبة لنا، القراءة التي قدمها الأستاذ القادري بوتشيش حول المرابطين باعتبارهم أصحاب التجربة «الوحدوية "الأم" على صعيد المغرب العربي»[2]. وهو الذي رأى أن مشروع دولة المرابطين الخاص بتوحيد المغرب الإسلامي، «كاد أن يُهمَل بالمرّة، مع أنه شكل حجر الزاوية في برنامجها السياسي»[3]. كما أن توجه اهتمام دراسات أجنبية إلى الحديث عن زمن الإمبراطوريات المغربية خلال العصر المغربي الوسيط، قوى من طموحنا لولوج هذا الموضوع. فهذه المعطيات كانت بمثابة الأرضية التي

([1])- القبلي محمد، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، سلسلة المعرفة التاريخية، ط.1، 1997م، ص20.

([2])- القادري بوتشيش إبراهيم، تاريخ الغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط.1، أيلول(سبتمبر) 1994، ص63.

([3])- القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، م.س، ص63 – 64.

على أساسها متحنا من مختلف المصادر المغربية والأندلسية والمشرقية باعتبارها المعين الذي لا ينضب، من حيث توفير المادة التاريخية التي لها علاقة بموضوع بحثنا، ورسمها إيانا خريطة طريق نكتشف من خلالها الصريح والضمني حول حدث سياسي بارز من حجم توحيد بلاد الغرب الإسلامي.

فموضوع التجربة الوحدوية زمن المرابطين والموحدين يندرج ضمن المواضيع التاريخية التي تهتم بالتاريخ السياسي من زاوية البحث التاريخي بمفهومه المعاصر، أي دراسة المجال السياسي ليس بوصفه أحداثا متعاقبة لا يجمعها خيط ناظم وإنما من زاوية دراسة الظاهرة السياسية في منطلقاتها وأسسها ومقوماتها. وهي في هذا المجال التجربة الوحدوية بوصفها آلية لفهم علاقة السياسي بالاجتماعي والمجالي والثقافي، أي أن التجربة هي نتاج لمقومات وأسس صاغتها وأخرجتها إلى الوجود كمستوى أول. أما المستوى الثاني فهو الذي نروم من خلاله إلى دراسة مستويات هذه التجربة مجاليا من خلال المقارنة بين التجربتين المرابطية والموحدية. والمقارنة هنا لا تعني إلا رصد أوجه الاستمرارية التاريخية بين التجربتين أم القطيعة وهو ما له علاقة بالإشكالية الرئيسة التي حدّدناها لبحثنا. لذا نفترض أن موضوعنا إنما هو في الأساس تطوير الإرهاصات والمقدمات التي أرستها دراسات سابقة وأشارت إليها الإسطوغرافيا الوسيطية بشكل صريح أو ضمني. ولعل الرؤية الخلدونية في مفهوم العصبية هي أحد مظاهرها الأساس.

إشكالية البحث:

تركز اهتمامي طيلة تفاعلي مع موضوع البحث خلال المراحل الأولى من جمع المادة المصدرية، والانفتاح على مختلف الدراسات الحديثة التي لها نفس الاهتمام بهذا الموضوع من قريب أو بعيد، تركز على صياغة إشكالية رئيسة لموضوع البحث المتعلق بتجربة وحدة الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين. وبناء عليه جاءت صياغة الإشكالية الرئيسة لموضوع البحث، التي هي بمثابة البوصلة في تحديد منهجية بناء الأطروحة، جاءت على الشكل الآتي :

هل نحن أمام تجربتين مختلفتين شكلاً ومضمونا بالنظر لاختلاف نظام الحكم المرابطي والحكم الموحدي؟ وبالتالي نكون أمام نوع من القطيعة بين عصرين. **أم هي تجربة واحدة تجسد واقع استمرارية مشروع الوحدة زمن المرابطين والموحدين؟** ومن تم نكون أمام طفرة سياسية كبيرة في تاريخ المغرب الوسيط، بما يرمز إليه من استمرارية وتطور إيجابي في بناء كيان الدولة المركزية الموحدة وحاضرتها مراكش؟ قبل أن نجد أنفسنا أمام عملية انحسار بدأت إرهاصاتها مع هزيمة العقاب عام 609هـ/1212م، وتجلت معالمها البارزة زمن بني مرين، لتتحول بعد ذلك بوصلة الدولة بالمغرب الأقصى، نحو البحث عن علاقات جديدة في اتجاه الصحراء الكبرى كعمق سياسي و<<استراتيجي>> وحضاري.

وقد رمنا وراء وضع هذه الإشكالية محاولة رصد طبيعة تجربة وحدة الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين، ضمن واقع الصيرورة التاريخية للدولة المركزية في بلاد المغرب الإسلامي، وذلك بغية تقييم موضوعي لدرجة التطور الإيجابي أو القطيعة في مسلسل التجربة. وقد تفرعت عن إشكاليتنا الرئيسة إشكاليات فرعية نلخصها في التالي:

- هل التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين هي وليدة تدبير وتخطيط لإيجاد بديل سياسي انطلاقا من أرض النشأة ثم الانتشار والتوسع إقليميا وجهويا ثم قاريا بعد العبور نحو العدوة الشمالية؟

- هل بروز حكم عصبيتين قبليتين من حجم صنهاجة الجنوب ومصامدة جبال <<الأطلس الكبير>> وتوسيع تجربة حكمهما داخل بلاد العدوتين، أملته تحركات عشوائية لا معنى فيه للحدود وبالتالي نحن أمام نظرية الصدفة في ولادة تجربة وحدة الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين؟

- أم أنه لا مجال للحديث عن الصدفة كما تجسده النظرية التاريخية المثالية، في موضوع اتخذت قراراته بوعي كبير بعد أن أملته تطلعات المرابطين والموحدين لتحقيق وحدة سياسية ومذهبية تجعل التراب المغاربي منيعا عن كل غزو خارجي؟

- هل توحيد المجال زمن المرابطين والموحدين تمّ في إطار هاجس سياسي تحت شعار الإصلاح والتغيير، والذي يهدف إخراج المنطقة من وضع الانقسام الداخلي الذي جعلها

عرضة لتحكم العنصر الخارجي؟ أم أن عملية التوسع والتمدد في هذا المجال الإمبراطوري أملته دوافع مذهبية وأخرى اقتصادية كانت محكومة بهاجس التحكم في تجارة الصحراء والقيام بدور الوسيط التجاري مع أوربا المسيحية؟

منهج الدراسة:

إذا كانت الدراسة المقارنة التي اعتمدناها إطارا عاما لموضوع التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين تجد ترجمتها في الهيكل العام للموضوع المتضمن في فهرس المحتويات، فإننا حاولنا مقاربة التجربة في بُعدها السياسي المجالي بمنظار آليات البحث التاريخي العلمي المتعددة والمتنوعة. ابتداء بالمنهج الوصفي الذي يهتم بوصف أحداث الظاهرة التاريخية في أبعادها المختلفة مما يسمح بوضع الأطر المحددة للمشكلة البحثية. كما اعتمدت المنهج الاستقرائي الذي يقوم على التحليل والتركيب والتمييز بين الثابت والمتحول، وبين الظرفي والبنيوي. وإذا كانت المصادر بمختلف أصنافها هي السبيل لإعطاء البحث صفته العلمية، فإننا تعاملنا مع الإشارات المصدرية بمنهج الحذر والحيطة والتمحيص، من خلال إخضاع الوثيقة التاريخية المصدرية للقراءة العقلانية لأخذ المفيد منها، وترجيح ما هو أقرب إلى الحقيقة التاريخية في بعدها النسبي، مع مراعاة معيار معاصرة المصدر للأحداث من عدمه. هذا إلى جانب إخضاع الإشارات المصدرية حول نفس الحدث لمنهج المقارنة قصد اكتشاف نوع الإجماع حوله من عدمه. وهنا نذكر أننا اعتمدنا بشكل رئيس على كتب التاريخ العام وكتب الجغرافيا وكتب التراجم والمناقب والمصادر التاريخية الأدبية، لما تختزنه من مادة تاريخية تساعد على توسيع دائرة الفهم للحدث وتوثيقه وإعطائه مصداقية. وإذا كانت قيمة أي بحث رهينة بتعدد آليات ومناهج البحث فقد اعتمدنا بشكل ضمني نظريات التفسير التاريخي للأحداث بشكل توفيقي دون السقوط في فخ ربط موضوع قيام وتطور تجربة وحدة الغرب الإسلامي في سياقاتها وتجلياتها، باعتماد العامل الواحد كما تجسد أحد أوجهه مدرسة التفسير المادي للتاريخ. وفي الوقت نفسه أخضعنا موضوع توحيد مجال إمبراطوري من حجم بلاد الغرب الإسلامي لواقع المرحلية والتدرج عكس النظرية المثالية للتاريخ التي تربط أحداث التاريخ بعامل

الصدفة. علما أننا ارتأينا أن نخصص الفصل الأخير من الباب الثالث لإبراز مختلف أوجه التشابه والاختلاف في هذه التجربة الوحدوية، كما سنوضح ذلك في خطتنا البحثية.

ـــ وفي عملية تقييمنا للمادة المصدرية التي اعتمدت عليها في بحثي، لا أحسب أنني أحطت بكل القضايا التي كنت أُمنّي النفس بها، بالرغم مما وفرته لي تلك المصادر من غزارة معرفية. لكن وجدت على أن غالبية المصادر المعتمدة بالقدر الذي تغرق فيه في الجزئيات إلى درجة الإطناب والمبالغة، بالقدر الذي كانت قاصرة على أن تُمدني بكل المعطيات التي يمكن توظيفها كحجج للدفاع عن فكرتي في كل ما يتعلق بموضوع تجليات التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين، وذلك في علاقة مع إشكالية البحث المتعلقة بنوعية هذه التجربة السياسية الوحدوية زمن المرابطين والموحدين، هل هي تجربة واحدة أم تجربتان؟ فمثلا مصادر التاريخ العام لم تبح بنصوص أو إشارات متنوعة تهم بعض أسباب عدم رغبة بني حماد في خلق جسور بين صنهاجة الشمال وصنهاجة الجنوب، كما لم تقدم لنا دور النخبة العالمة المغاربية في محاولة خلق جسور التواصل بين الحماديين والمرابطين. كما وجدنا أن بعضها الآخر لا يلامس بشكل مباشر قضية المقارنة التي أسسنا عليها إشكالية أطروحتنا، وهنا أضرب للموضوع بمثال كتب المناقب التراجم التي لم تساير في كثير من الأحيان رغبتنا في الحصول على المعلومات تدعم رأينا في قضية دور النخبة العالمة في تكريس التجربة الوحدوية. إذ أن أغلب التراجم لا تقدم لنا البعد السياسي في سيرة رجالات النخبة، وأخص هنا بالتحديد المبحث الذي خصصته لاستمرار عدد مهم من فقهاء المالكية في الاشتغال بخطة القضاء زمن دولة النظم الموحدية، إذ لا نجد ما يشير بشكل مباشر إلى أن المترجم له فقيها وقاضيا مالكيا المنخرط في سلك القضاء الموحدي، قام بأدوار ذات طبيعة سياسية لها علاقة بتثبيت الأوضاع وتهدئة الرعية على طول وعرض بلاد المغارب والأندلس. فكان أن اعتمدنا على منهج التأويل في تقريب هذا البعد بشكل نسبي من خلال الإشارات المصدرية التي حصلنا عليها من مصدر واحد أو عدة مصادر حول الشخص المترجم له.

ـــ كما تبين لنا في عملية التقييم هذه أن تاريخ الأندلس قد نال حظا وافرا من الاهتمام بجميع المراحل التاريخية للعدوة الشمالية، مقابل تاريخ البلاد المغاربية الذي ظل يلف

الغموض جوانب كثيرة منه بفعل البياض الذي يكتنف مجموعة من المحطات التاريخية الهامة كالجزء الذي حاولت فيه من خلال موضوع تجربة المرابطين في توسيع مجال الوحدة السياسية للبلاد المغاربية، رصد جوانب من علاقة المرابطين ببني حماد أصحاب القلعة وبجاية، في البعد الذي يعطينا أرضية تاريخية نعتمد عليها في موضوع يظل حلم الأجيال التاريخية والمتعلق باتحاد المغرب العربي الذي ولد ميتا والذي لازال حلما قائما. ولا ننسى أنه في ظل ضياع كم هائل من المصادر خاصة التي تهم فترة حكم المرابطين مقارنة مع الموحدين، إلى جانب التحامل الكبير على تاريخ ملثمي الصحراء من القدماء والمحدثين يجعلنا أمام ردود فعلية معينة يطبعها الصواب تارة وافتقاد الدليل مرات أخرى.

خطة البحث:

ارتأينا على المستوى المنهجي ألا ننطلق في موضوع تحديد المعالم والتجليات الخاصة بالتجربة الوحدوية من فراغ، إذ تبين أن التقديم لخصوصيات التجربة المرابطية والتجربة الموحدية على مستوى توحيد بلاد العدوتين، يمكن أن نؤسس له بما جاء به الأستاذ القبلي في مقدمة كتابه "الدولة والولاية والمجال" حين قال: « ومعلوم أن العودة بعيدا إلى الوراء، بالنسبة إلينا نوع من أنواع التجذير العلمي – الحضاري فيما أتصور، والمعوّل عليه أن تسهم المحاولة رغم محدوديتها على التقريب بين الماضيّيْن القريب والبعيد»[4]. فكان أن حاولنا التأسيس لتجربة وحدة الغرب الإسلامي بما حسبناه إرهاصات للتجربة زمن الأدارسة من جهة، كما جعلنا من السياق التاريخي الذي حددناه في ثلاث أبعاد مجالية مغربي ومغاربي وأندلسي، ركيزة معرفية أسسنا عليها خروج التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي للوجود، حتى نعطي لهذا الحدث السياسي الكبير قيمته الحقيقية.

ففكرة توحيد المجال والقضاء تدريجيا على مظاهر التجزئة بدأ مسلسله ولو في حدود ضيقة مع ما قام به الأدارسة الذين التف حولهم مكون قبلي متنوع كما استقينا ذلك من مصادرنا، التي وضعتنا أمام مؤشرين مهمين نحسبهما اللبنة الأولى لقيام دولة النظم المركزية في بلاد المغرب <<الأقصى>> منطلق ما حسبناه إرهاصات أولى لقيام وتطور

(4)- القبلي محمد، الدولة والولاية والمجال، م.س، ص8.

التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين. المؤشر الأول تجسد حدّدناه في أهمية دور انتماء إدريس الأول لآل البيت في تشبث جزء مهم من المكون القبلي المغربي بالأدارسة والقبول بهم كحكام عليهم. أما المؤشر الثاني فيتمثل في دور عصبية أوربة في صلابة عود الأدارسة وتحقيق مشروع الدولة. وهنا نجد ما يمكن اعتباره إجماعا من بعض الدراسات التي اعتمدناها في بحثنا على دور دولة الأدارسة في تشكُّل المعالم الأولى لشخصية المغرب <<الأقصى>> خلال العصر الإسلامي الوسيط، والذي برز فيه دور فاس على المستوى السياسي والعلمي والاقتصادي والحضاري. قبل أن تأخذ مراكش بعد حوالي ثلاثة قرون من حضرة الأدارسة مشعل القرار في بلاد الغرب الإسلامي إلى حدود أفول نجم دولة الموحدين. لتعود بعدها فاس مرة أخرى إلى واجهة الأحداث زمن بني مرين. وهو ما يؤكد مسلسل التطور السياسي لبلاد المغرب الأقصى الذي تراكمت داخله عدد من التجارب السياسية التي أسهمت في إكساب بلاد المغرب عبر تاريخه الطويل نوعا من الاستمرارية والتطور.

بعد هذا المفصل المهم من بحثنا الذي أسسنا به لمقاربتنا، أخذنا على عاتقنا محاولة ربط قيام التجربة الوحدوية زمن المرابطين وتطورها زمن الموحدين، بالسياق التاريخي الذي وُلدت في إطاره وقامت على أنقاضه. فالمجال المغاربي والأندلسي شهد لعهود طويلة تقلبات سياسية متعددة غلب عليها طابع الانقسام السياسي والصراع المجتمعي، مما سهل على القوى الخارجية توظيف هذا المجال "الاستراتيجي" توظيفا سياسيا بأطماع اقتصادية وتوجهات مذهبية كما حصل مع الأمويين والفاطميين. علما أن الممالك النصرانية (نصارى الشمال والنورمان) التي كانت غارقة في وحل حروبها الداخلية، وجدت في سقوط دولة الخلافة في الأندلس وخروج الفاطميين من إفريقية فرصة لاستباحة أرض المسلمين شمالا وشرقا.

ويعود اهتمامنا بموضوع السياق التاريخي وما شهده مجال المغرب <<الأقصى>> والأندلس ومجال صنهاجة الشمال(بنو زيري وبنو حماد) إلى محاولة فهم أهمية التحول الكبير الذي شهده هذا المجال الشاسع زمن المرابطين، الذين دشنوا تجربة سياسية وحدوية خلال العصر الإسلامي المغربي الوسيط، قبل أن يأتي الدور على الموحدين في تَحَمُّل

مسؤولية إرث سياسي وحضاري تركه المرابطون كأرضية صُلبة لتكريس واقع الوحدة السياسية بعيدا عن تفتيت المجال، والذي جعل من حضرة مراكش رمزا لقوة سلطان الإسلام. لكن إذا كنا نسمح لأنفسنا بالحديث عن التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي بما تحقق عمليا على الأرض كما سنحدد ذلك في عدد من المظاهر والتجليات ضمن مقاربتنا السياسية المجالية، فإن هذه التجربة لا يمكن أن تكون قد قامت من فراغ. وهنا كنا ملزمين بالإشارة إلى ما حسبناه عوامل مشتركة أسست لقيام حكمهم بين المرابطين وتحقيق مشروع سياسي من حجم توحيد بلاد الغرب الإسلامي تحت نفوذ سلطة مركزية واحدة، وذلك وفق خطط واستراتيجيات سياسية وعسكرية مختلفة يطبعها التدرج.

أما أهم مظاهر التجربة الوحدوية فقد تجسدت في توحيد المرابطين لبلاد المغرب الأقصى والأندلس، مع التوسع شرقا إلى حدود جزائر بني مزغنة على حساب قبائل زناتة. ولم نستطع فهم علاقة المرابطين بالحماديين نظرا للندرة المصدرية، بينما ثبت أن المرابطين قدموا الدعم العسكري لبني زيري في إفريقية، كمظهر بارز لامتداد التجربة الوحدوية شرقا. أما الموحدون فقد حافظا على وحدة المغرب الأقصى والأندلس بعد انقلابهم على المرابطين، رغم الثورات التي انفجرت في وجههم، وكان أهم إنجاز لهم توحيد بلاد المغرب والأوسط وإفريقية بعد طرد نصارى النورمان نهائيا عن بلاد المسلمين، قبل أن تبدأ عملية الانحسار بعد هزيمة العقاب. وقد ديّلنا موضوع البحث قبل وضع خاتمة له، بتحديد أهم أوجه التشابه والاختلاف بين المرابطين والموحدين في تجربة توحيد بلاد الغرب الإسلامي.

خلاصات ونتائج

** لا يمكن أن نفهم جيدا قيمة ما قام به المرابطون والموحدون سياسيا وحضاريا، بدون التطرق لموضوع السياق التاريخي الذي رصدنا من خلاله الأوضاع السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في بلاد المغارب والأندلس سواء قبل مجيء المرابطين، أو قبل إزاحة الموحدين للمرابطين عن الحكم. وإلا سنكون أمام فجوة معرفية تجعل مقاربتنا مبتورة، وحجم ما تحقق هو من محض الصدفة.

** ضبط "كرونولوجيا" الأحداث والعمل على استقراء أحداث المادة المصدرية خاصة المعاصرة للأحداث أظهر لنا أن المرابطين في مرحلة أولى لم يأتوا غزاة للأندلس بل منقذون لها. وفي مرحلة ثانية وحّدوا بلاد العدوتين بإرادة النخبة العالمة، هذه الوحدة التي ظلت إرثا سياسيا وحضاريا حافظ عليه الموحدون كقاسم مشترك بينهم وبين المرابطين، بعد أن شكلت الأندلس ثابتا في سياستهم.

** كجواب على الفرضية التي وضعناها بخصوص دور فقهاء المالكية في المشهد السياسي، تبين لنا أن فقهاء المالكية الأندلسيون على وجه الخصوص أصبحوا ثابتا في المعادلة السياسية لبلاد الغرب الإسلامي سواء زمن حكم المرابطين أو زمن حكم الموحدين. إذ بعد أن كانوا جزءا من قرار طلب دعم المرابطين للأندلسيين، أصبحوا أصحاب القرار الأول في دعوة يوسف بن تاشفين إلى إسقاط حكم الطوائف وضم الأندلس لحاضرة مراكش. بينما زمن الموحدين تبين أن هؤلاء الفقهاء لم يفقدوا مكانتهم رغم أفول نجم المرابطين، من خلال تسجيل حضور وازن داخل خطط دولة النظم الموحدية. وقد ركزنا في هذا الصدد على اشتغالهم بخطة القضاء زمن الموحدين، وأثبتنا أن أمر استعانة الموحدين بهم رغم الاختلاف<< الأيديولوجي>> بين الطرفين لم يكن ظرفيا رغم طبيعته <<البرغماتية>> للطرفين. ولعل هذا الأمر دفعنا إلى الخروج باستنتاج مفاده استمرار سريان التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي بما للفقهاء من وزن في اجتماع كلمة الرعية في بلاد العدوتين، ومن قدرة على تعبئة المجتمع للجهاد. وهنا وجدنا جزءا من الجواب على إشكالية الأطروحة من أن التجربة الوحدوية لبلاد الغرب الإسلامي زمن المرابطين والموحدين هي تجربة واحدة بنموذجين في الحكم.

** يعتبر دعم المرابطين لبني زيري مؤشرا قويا على امتداد تجربة الوحدة شرقا إلى حدود إفريقية .

** يبدو أن الأندلس قد شكلت مجال استنزاف لطاقة الدولة المركزية زمن التجربة الوحدوية لما يمكن أن ندرجه كأحد الأسباب الرئيسة لأفول حكم المرابطين والموحدين في بلاد الغرب الإسلامي.

**اتساع المجال المرابطي التابع لإقليم تلمسان إلى حدود جزائر بني مزغنة كجزء من بلاد المغرب الأوسط تبين أنه لم يكن مجالا حماديا، بل كان مجالا زناتيا حصل فيه نوع من التعايش مع المرابطين.